الأشكال التعبيرية
في رسائل الجاحظ الأدبيّة

بقلم : صالح بن رمضان

يُعدّ الجاحظ أحد مُؤَسّسي فنّ الرسائل الأدبيّة . فقد استقرّت في تآليفه أصول هذا الفن ، واتّضحت خصائصه ، فصار أبرز أشكال التعبير الكتابي في الأدب العربي القديم . وقد عالج في رسائله أغراضا أدبيّة ألفناها في الشعر كالمدح ، والهجاء ، والرّثاء ، وشكوى الزمن والمفاخرات (1) .

غير أنّ الذي ينظرُ في هذه الآثار يُلَاحظ أنّها تتضمّن مادةً أدبيّة غزيرة ، لم يُنشِئْها الجاحظ ، بل استَقاها من القرآن الكريم ، ومن أشكال تعبيرية قد استقرت في الأدب العربي كالشعر ، والخبر والمَثَل والحكمة والقول المأثور ، والوصيّة ، والدعاء .

وقد اعتنى الدارسون بالمادّة المنقولة في أدب الجاحظ بوجه عامّ . ولكنّهم درسوها من الوجهة الفكريّة ، فحدّدوا من خلالها معالمَ ثقافته الموسوعيّة ، واستخلصوا منها مفهومَ الأدب ومادتَه كما عرَفها القرن الثالث .

---

(1) انظر : Ch. Pellat: La prose arabe à Bagdad, in Arabica. volume spécial à l'occasion du 1200e anniversaire de la fondation de Bagdad, 1962.

ولئن كان هذا المنحى مفيدا في دراسة كتب الجاحظ الضّخمة كالحيوان والبيان والتبين ، فقد بدأ لنا أنّ المادّة المنقولة في رسائله الأدبيّة تقتضي منحى في الدراسة يختلف عن المنحى الأوّل . إنّ المادّة الأدبيّة التي يُدرجها الجاحظ في رسائله لا ترد في سياق الاستطراد وجمع المعارف المتنوّعة ، ولا تهدف إلى الإمتاع والافادة ، ولا إلى الاحتجاج والاستدلال بل تنصهر في نسيج النّص النثري ، وتمكّن الكاتب من صوغ الأغراض الأدبيّة ، فهي ليست وجهًا من وجوه ثقافته الموسوعيّة فحسب ، بل تمثّل كذلك طريقةً فنيةً انتهجها في كتابة رسائله .

ونرمي ، من خلال هذا البحث إلى تحديد وجوه التداخل بين الأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ ، كما نهدف إلى إبراز دور المادّة الأدبيّة المنقولة في صوغ الأغراض التي تتضمّنها هذه الرسائل . ونحاول أخيرًا أنْ نكشف عن النسيج الفنّي الذي تكوّنه هذه الأشكال التعبيرية مجتمعةً ، وأنْ نقفَ على خصائصه البيانية .

ولئن كان الالمام بوجوه التداخل بين الأشكال التعبيرية في رسائل الجاحظ أمرًا عسيرًا ، فإنّه يُمكننا أنْ ندرس منها نموذجين بارِزَيْن هما :

1) التداخل الثنائي : ونعني به التأليف بين نصّين اثنيْن أحدهما يُنشِئه الكاتب ، والآخر يستعيره من شكل تعبيريّ مناسب للسياق الأدبي ، مُعتمِدًا في ذلك التّضمين أو الاقتباس أو توليد المعاني .

2) التداخل المعقّد : ويتمثّل في التأليف بين نصوص عديدةٍ ، تنتمي إلى أشكال تعبيرية مختلفة ، وإنشاءِ نصّ جديد يكون نتاجَ هذه النصوص كلّها .

I ـ التداخل الثنائي :

1) إدراج النّص القرآني في الرسائل .

أ - الاقتباس :

لقد أثّر النّص القرآني في لغة الأدب ، ومعانيه منذ العصر الإسلامي الأول . ويظهر أثره في كافّة الفنون الأدبيّة ، وخاصّة الشعرَ والخطابة (2) . والقرآن الكريم أهمّ مصادر البيان في اللغة العربية ، استمدّ منه الشعراء والكتّاب والخطباء العبارات الفنيةَ التي يحتاجون إليها في صياغة الأغراض الأدبيّة ، والصورَ البليغة التي تفوق طاقاتهم الإبداعية .

بل إنّ الأمثال القرآنية قد جرت على الألسنة ، وأثّرت في أساليب الكلام بوجه عامّ . ويُستخدم النّص القرآني في الأدب بطريقة أُطْلِقَ عليها مصطلحُ « الاقتباس » . وقد ضُبطت قواعدُ هذا الفنّ وشروطُه . فألّف أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) ، مثلا ، كتابًا سمّاه : الاقتباس من القرآن الكريم (3) . وعقد أبو عبد الله محمّد بن بَهادر الزركشي (ت 794 هـ) في كتابه : « البرهان في علوم القرآن » فصلاً كاملاً ذكر فيه قواعدَ الاقتباس وشروطه (4) .

والذي يدرس هذين الكتابين وغيرهما ممّا لم نذكر ، يتبيّن أنّ للشاهد القرآني في النّص الأدبي وظائفَ عديدةً ، لعلّ أهمّها على الإطلاق الوظيفة البيانيّة . فهو يُستعار لتصوير المعنى بأبلغ عبارة ، ويُمِدّ المتكلِّمَ ، أشاعرا كان أم كاتبا ، بالصورة الأدبيّة الملائمة للغرض .

(2) راجع في هذا الموضوع مثلا : ابتسام مرهون الصفّار أثر القرآن في الأدب العربي ، ط 1 ، بغداد 1974 .
(3) حقّقت هذا الكتاب ابتسام مرهون الصفّار ، بغداد 1975 .
(4) حقّق هذا الكتاب محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، مصر 1957 . وعنوان الفصل : في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب استعمال بعض آيات القرآن . ج 1 ، ص ص 481 - 495 .

وللشاهد القرآني وظائف أخرى تختلف بأختلاف مقاصد النصوص الأدبيّة وأغراضها . فهو يستخدم للإقناع والإفحام ، والتبكيت ، والترغيب والترهيب الخ . . . . (5) .

وإذا بحثنا عن صدى هذه الطريقة الفنيّة في الكتابة النثريّة فإنّنا نجد عند كتّاب الرسائل ، منذ بداية القرن الثاني ، ميلاً إلى الاقتبَاس من القرآن الكريم ، في صياغة الأغراض الأدبيّة (6) . وقد سار الجاحظ في هذا الاتجاه الفنّي ، فاستخدم النّص القرآني للتعبير عن المعاني الأدبيّة ورَسْمِ الصور الفنية . وحوّلَ المادّة القرآنية في رسائله إلى مادّة أدبيّة تُثري الأغراض التي تقوم على الوصف .

إنّ القرآن الكريم يتضمّن صورا فنيّة كثيرةً جاءت في سياق الوصف . ومن هذه الصور ما ورد في أسلوب تشبيه تمثيلي ، نعت به اللّه تعالى بعض الأشخاص أو الأقوام والطوائف ، وصوّر به أخلاقهم ، وأفعالهم ، وسلوكهم ، وأقوالهم (7) . وقد استغلّ الجاحظ هذه الصور الأدبيّة في سياق الوصف كذلك . فقال في هجاء الكتّاب وذمّهم : « ولقد رأيت عبدَ اللّه ابن المقفّع هذا في غزارة علمه ، وكثرة روايته ، كما قال اللّه عزّ ذكره :

---

(5) المصدر نفسه ، ص 488 .

(6) انظر مثلا : ابن المقفع ، رسالة الصحابة ضمن جمهرة رسائل العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، ط 1 ، مصر 1937 ، ج 3 ، ص 25 ، وأحمد بن يوسف ، رسالة الشكر كتبها الى المأمون عن الحسن بن سهل ، المصدر نفسه 3/411 ـ 424 ، وابراهيم بن المهدي رسالة الى اسحاق الموصلي في هدية بعث بها اليه ، المصدر نفسه 1014 .

(7) انظر مثلا : البقرة /17 وابراهيم /18 ، والكهف /32 ـ 43 والعنكبوت /41 ، وراجع ما قاله الزركشي في البرهان ، ص 489 ، الطبعة المذكورة أعلاه .

« كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » ، قد أوهنه عِلمُه ، وأذهله حِمْلُه ، وأَعْمَتْه حكمتُه وحيّرته بصيرتُه » (8) .

واقتبس كذلك من القرآن بعض العبارات البليغة ، فقال في هجاء أحمد ابن عبد الوهاب ، وذلك في رسالته الموسومة بالتربيع والتدوير : « وإنّك لقليلُ الشَّيْبِ ، قليلُ البَوْل . وإنّك لَتَجِدُ مقالاً ، وإنّك لَتعِد خِصَالا . فَقُلْ معروفًا فإنّا من أَعوانِك ، وآقتصِدْ فإنّا من أَنصارِك ، وهاتِ فإنّك لو أسرفتَ لقلنا قد آقتصدْتَ ، ولو جُرْتَ لقلنا قد آهتديت . ولكنّك تجيء بشيء تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا » (9) .

إنّ الاقتباس من القرآن يَرِدُ مباشرةً بعد استخدام أسلوب السخرية ، فيُثري مادّة الهجاء بنعوت تتضمّنها الآيةُ المذكورةُ ، ويُرمَى بها المهجوُّ مباشرةً ، وبأخرى يُشير إليها الكاتبُ ، ونجدها في السياق القرآني الذي أُخِذَت منه الآيةُ كقوله تعالى : « وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » (10) . ويتبيَّنُ لنا في خاتمة المطاف ، أنّ تداخلَ النصوص في الرسالة يُمكّننا من قراءة نصّين اثنينْ : أحدهما مُصرَّح به ، والآخر مُشار إليه في غضون السياق .

ونجد في رسائل الجاحظ الأدبيّة ضربًا آخرَ من ضروب الاقتباس لعلّه أبعدُ مدى ممّا سبق ذكره . وهو وجهٌ من وجوه التداخل بين النّص القرآني وأسلوب الكاتب ، نستشفّه من لغة الرسائل وأساليبها . فالكاتب لا يضمّن النّص القرآني ، ولا يورده في سياق التمثيل ، ولا يستعيره للوصف ، بل

---

(8) ذمّ أخلاق الكتاب ، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق السلام هارون ، ط القاهرة 1384 ـ 1965 ، ج 2 ، ص 195 ، والعبارة من الجمعة /5 . والآية هي : مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(9) رسالةة التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلّا ، دمشق 1955 ، ص 25 ، والعبارة من مريم /90 .

(10) مريم /86 .

يستند إليه أثناء الكتابة فيستقي منه بعض المفردات والصيغ والمعاني دون أنْ يصرّح بذلك . يقول في مقدّمة رسالة القيان على لسان المُقَيّنينَ ، وهم قوم يُتاجرون بالقيان ويدْعُون إلى التمتّع بهنّ ، ويعتبر ونهنّ نعمةً من نعم اللّه : « فإنّه لا يشكر النعمة من لم يعرِفْها ، ويعرفْ قدرها ، ولا يُزاد فيها من لم يشكرْها ، ولا بقاءَ لها على من أساء حملها (. . . . .) والفلكُ وجميعُ ما تحويه أقطارُ الأرض ، وكلُّ ما تُقِلُّه أكنافُها للإنسان خَوَلٌ ومتاعٌ إلى حين ، إلاّ أنّ أقربَ ما سُخّر له من روحه وألْطَفَهُ عند نفسه « الأنثى » ، فإنّها خُلِقَتْ له ليسكُنَ إليها ، وجُعِلتْ بينه وبينها مودّةٌ ورحمةٌ » (11) .

وفي القرآن الكريم آياتٌ عديدةٌ وردت فيها هذه المعاني بصيغ مختلفة وفي سياقات متنوعة نذكر منها مثلا قوله تعالى : « إنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إلاّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » (12) وقوله : « وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » (13) .

وقوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ فَأَخْرَجَهُمَا ، مِمَّا كَانَا فيه ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » (14) وقوله : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَودَّةً وَرَحْمَةً ، إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (15) .

(11) رسالة القيان ، مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة المذكورة أعلاه ، 142/2 ـ 146 .
(12) القمر / 34 ، 35 .
(13) إبراهيم / 7 .
(14) البقرة / 36 .
(15) الروم 21 .

ونستنتجُ من هذا التداخل بين النّص القرآني وكلامِ الكاتب في صلب الرسالة ، أنّ الاقتباس يمرّ بمرحلتَيْن اثنتيْن : مرحلة تقبّلٍ يتمثّل فيها الجاحظ المادّة القرآنية تمثُّلاً جيّدا ، ومرحلة إبداع تعينه فيها هذه المادّة على إحكامِ أسلوبه في الكتابة .

ب) توليد المعاني من النّص القرآني :

لا نعني بتوليد المعاني ، في هذا السياق ، الاجتهادَ الفقهي أو الجدلَ الكلاميّ ، بل نعني به أساسًا توليدَ المعاني الأدبيّة من المادّة القرآنية التي تقوم على الوصف . فالجاحظ يتناول النّص القرآني ، ويُنشىء حوله نصًّا جديدا ، عمادُه في ذلك خيالُه الأدبي ليس إلاّ . وهو لم يبلغ ، لا محالة ، ما بلغه المعرّي في رسالة الغفران ، ولكنّه سبقه في استخدام المادّة القرآنية استخدامًا أدبيًا . وجاء المعرّي بعده فاتّخذ من القرآن اطارا لتصوير رحلة ابن القارح إلى الجنة . ونراه يسلك هذه الطريقة في رسالة فخر السودان على البيضان ، وهي رسالة تنتمي إلى أدب المفاخرات ، كتبها الجاحظ في تفضيل السودان ، وتطرّق فيها إلى مدح اللون الأسود . وقد انطلق من صورة الجنّة كما وصفها القرآن الكريم واستخلص منها وجهًا من وجوه الجمال الذي يمتاز به اللّون الأسود فقال : « وقالوا : وأحسنُ الخضرة ما ضارع السّواد ، قال اللّه جلّ وعلا : وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ثمّ قال لمّا وَصَفَهُما وشَوّق إليهما : « مُدْ هَامَّتَانِ قال ابن عبّاس : خضراوان من الرّي سوداوان » (16) .

لقد استند الجاحظ في صياغة المعنى المدحي إلى تحليل لغوي معجمي فرصد نقطة الالتقاء بين اللونين : الأخضر والأسود من خلال المادّة القرآنية ،

(16) رسالة فخر السودان على البيضان ، ضمن مجموع عبد السلام هارون ، الطبعة المذكورة ، 1/204 ، والآيتان من الرحمان/62 ، 64 .

واستخلص منها أنّ الترغيب في الجنة يقوم على صورة مادّتها السواد . فالشاهد القرآني يخدم المفاخرة من جوانب متعدّدة . فهو يُجزج المعنى المدحي في أبلغ الصور وأكملها ، ويُقنع السامع أو القارىء بفضل هذا اللون على سائر الألوان ، ويُعطي السوّاد أبعادًا جمالية تتجاوز الجمال الدنيوي المحسوس إلى مراتب الجمال الخالد أي جمال الجنّة .

واتّخذ الطريقة نفسها في رسائل عديدة . . . فوصف ، في رِسالة التربيع والتدوير أحمد بن عبد الوهاب ، ونسب إليه تفضيل العَرض على الطّول فقال « وقلتَ لو لا فضيلة العرض على الطّول لما وصف اللّه الجنّة بالعرض دون الطّول حيث يقول ـ جلّ ثناؤه : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (17) . وهكذا يتبين لنا أنّ إدراج النّص القرآني في سياق الوصف الأدبي طريقة من طرق التداخل بين النصوص اعتمدها الجاحظ ليحقق وظيفة بيانية ، وليكسب الكتابة قدرةً على التأثير في القارىء قويةً ، وليخرج المعاني الأدبيّة في صور تخدم الغايات الفنية في الرسائل .

2) التداخل بين الشعر والنثر :

إن تضمين الشعر طريقة مألوفة في الكتابة النثرية بوجه عامّ . وقد اعتبره القدامى والمحدثون سمة أسلوبية جيّدة ، بها تكتمل بلاغة الكاتب (17 مكرر) وقد لاحظنا أنّ للنّص الشعري في رسائل الجاحظ وظيفةً فنيةً .

---

(17) التربيع والتدوير ، المطبعة المذكورة أعلاه ، ص 18 .

(17 مكرر) انظر مثلا : ابن المدبّر ، الرسالة العذراء ، ضمن جمهرة رسائل العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، الطبعة المذكورة اعلاه ، ج 4 ، ص 201 ، وابن قتيبة أدب الكاتب ، وانظر من المحدثين مثلا : عبد المنعم خفاجي ، أبو عثمان الجاحظ ، ط 1 ، بيروت 1973 ، ص 193 ، وأحمد جمال العمري ، أبو بكر الصولي ، ط مصر 1973 ، ص 209 ، ومصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، بيروت 1974 ، ص 598 .

وبدأ لنا أنّ الكاتب يستخدمه في بناء الرسالة ليضاعف به جمالية الأغراض الأدبيّة . ويتمّ إدراج النّص الشعري بطرق متعدّدة نذكر منها :

أ) تركيب الصورة الأدبيّة :

تتألف الصورة في رسائل الجاحظ من طرف نثري ينشئه الكاتب ويمثّل أحد ركنَيْها ، وطرف شعري يُضمّنه تضمينا ويمثّل ركنها الثاني .

فقد مدح رجلا في رسالة يستنجز فيها وعدًا فوصفه بقوله :

« كان أبو الفضل ـ أعزّه اللّه تعالى ـ على ما قد بَلَغَكَ من التبرّع بالوعد ، وسرعة الإنجاز ، وتمامِ الضّمانِ ، وعلى اللّه تمامُ النعمة والعافية ، وكان أيّده اللّه تعالى في حاجتي كما وصف زيد الخيل نفسه حين يقول : (من الطويل)

وَمَوْعِدَتِي حَقٌّ كَأَنْ قَدْ فَعَلْتُهَا مَتَى مَا أَعِدْ شَيْئًا فَإِنِّي لَغَارِمُ » (18)

وكتب يهجو أحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير :

« فأنت ياعمّ حين تصلح ما أفسد الدّهر ، وتسترجع ما أخذت منك الأيّامُ لكما قال الشاعر : من الطويل) :

عَجُوزٌ تُرَجِّي أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً وَقَدْ لَحِبَ الجَنْسَان وَأَحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ
تَدُسُّ إِلَى العَطَّارِ مِيرَةَ أَهْلِهَا وَهَلْ يُصْلِحُ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ » (19)

(18) رسالة في استنجاز وعد ، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ، نشر محمّد الساسي ، مصر 1324 .
(19) رسالة التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلاّ ، الطبعة المذكورة ، ص 23 ، ولم نعثر على قائل البيتَيْن .

إنّ هذا النحو في التأليف يجعل القطعةَ الشعريّةَ جزءًا عضويا في بناء الرسالة ، لا يمكن الاستغناءُ عنه أو إبداله بشاهد آخر ، إلّا إذا كان يتضمّن الصورة نفسها . وإذا كانت وظيفةُ النّص الشعري في الرسائل السياسية أو الكلامية الاستدلال والاحتجاج ، فإنّها في الرسائل الأدبيّة فنيّة إنشائية بالدرجة الأولى . ولعلّ الرسالة التي كتبها الجاحظ في رثاء أحد إخوانه (20)أبينُ شاهد على التّداخل بين النثر والشعر في بناء الصورة الأدبيّة . فقد أشار الدكتور طه الحاجري ، في مقدمة تحقيقه لهذه الرسالة ، إلى تركيب العبارة الفنية عند الجاحظ فقال : « هذه الرسالة التي يراها القارىء بَعْدُ ، مظهرٌ جليّ من مظاهر التطوّر الذي أتيح للنثر العربي ، وتمّ تمامُه على يد الجاحظ في القرن الثالث للهجرة ، إذ اقتحم على الشعر أبوابَهُ ، وشاركه في ميادينه ، وجعل يُنافسه عليه منافسةً قويةً رائعةً (. . . . .) وبذلك كان الجاحظ يُمثّل تطوّر العقل العربي ، حين لم تعد تكفيه وتُقنع رغباتِه تلك المعاني المقصورةُ . وتلك الصورُ المركّزةُ ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزةُ ، فاستطاع أنْ يستجيب لهذا الاتجاه ، ويعبّر عنه ، حين أمكنه أن يُقيم ذلك النحو من العبارة الفنيّة المتوسطة بين الشعر والنثر» (21) .

وتتضمّن هذه الرسالة معاني الرثاء التالية : وصْف أثر المصاب في نفس الكاتب ـ وصْف مرض الصديق واحتضاره ـ وصف لوعة الفراق ـ تصوير الميّت أثناء تجهيزه ـ تصوير حالة أبويه وحريمه ـ تصوير الميّت محمولا على نعشه ـ وَصْف صبر الكاتب وتجلّده أمام الشامتين ـ عودة إلى وصف لوعة الفراق .

---

(20) رسالة رثاء وتأبين ، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، بيروت 1983 ، وقد كتبها الجاحظ في رثاء شخص اسمه أبو حَرْب الصَّفّار البصري .

(21) المصدر نفسه ، ص 17 ، 18 .

(22) جاء في اللسان : عَبَطَ الذبيعة ، يَعْبِطُها عَبْطًا واعْتَبَطَهَا اعتِبَاطًا نَحَرَها من غير داءٍ ولا كسرٍ وهي سمينة فتيةٌ . ويُقال أَعْبَطَهُ الموتُ واعتبَطَهُ .

وهي تتألّف من عدّة فقرات ، تضمّ كلّ فقرة منها قطعة نثرية ، وأخرى شعرية ، يجمع بينهما أسلوب التشبيه . يقول :

(. . . . .) مُعتَبَطًا (22) ما أغضّ وأطرى ، وأي فتى رَحَلَ عنّا كما قال الهذلي : (من الطويل) :

فِرَاقٌ كَقَيْصِ السِّنّ فَالصَّبْرُ إنَّهُ لِكُلِّ أُنَاسٍ عَثْرَةٌ وَجُبُورُ » (23)

والذي يدرس بناء الرسالة يلاحظ أنّها أتت في شكل خبرٍ تكاملت أركانُه ، فتوفّرت فيه الجوانبُ القصصيّةُ ، من سردٍ للأحداث ، وقصّ لخبرِ الموت ، ومراسم المأتم ، وتوفّرت فيه كذلك الجوانبُ الوصفيّةُ والمشاهدُ التصويريةُ . وقد استقاها الكاتب من شعر الرثاء .

ونسوق قطعةً من هذه الرسالة يبرز فيها هذا التكامل بين الشعر والنثر في صوغ غرض الرثاء . فقد انتقل الجاحظ إلى وصف مراسم الجنازة فقال : « ثمّ دخلنا لنغسله ، وهو شِلْوٌ على سريره ، طَريحٌ على مغتسله ، لَقِيٌّ على وجهه ، تُقلّبه الرجالُ بأكفّها ظهرًا لبطن كما قال يزيد بن خذّاق (من البسيط) :

وَرَجَّلُونِي وَمَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقِ
وَرَفَّعُونِي وَقَالُوا أَيُّمَا رَجُلٍ وَأَدْرَجُونِي كَأَنِّي طَيُّ مِخْرَاقِ »(24)

(23) المصدر نفسه ، ص 22 ، والبيت لأبي دؤيب الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ، القاهرة 1965 ، ص 138 .

(24) المصدر نفسه ، ص 22 ، وانظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمّد شاكر ، القاهرة 1364 ، ج 1 ، ص 346 . وفيه رواية أخرى للبيت الأوّل وهي :

قَدْ رَجَّلُونِي وَمَا بِالشَّعْرِ مِنْ شَعَثٍ وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقِ

ثم تخلص إلى الحديث عن أهل الميّت فوصفهم بقوله :

« ولو رأيتَ حرمه اللائي كان يسترهُنَّ ، من جارية نفيسة ، وأَمَةٍ محبوسةٍ وحرمة مقصورة ، قد هَتَكْنَ أَسْتَارَهُنَّ ، وَبَدَتْ خَدَمُهنّ ، كَقَوْمٍ حلَّ بهم السباءُ ، وكُتِبَ عليهم الجلاءُ ، كما قال الرّبيع بن زياد (من الكامل) :

قَدْ كُنَّ خَبَّأْنَ الوُجُوهَ تَسَتُّرًا   فَالآنَ حِينَ بَرَزْنَ لِلنُّظَّارِ » (25)

ويواصل سرد الأحداث ووصف المأتم حتّى يقف على موكب الصلاة والدّفن فيقول : « ثم وُضع سريره بفناء مسجد الوصي ، فصلّى عليه جعفر ابن القاسم ومَنْ حَضَرَه من النساك والعُبّاد والأشراف ، يحفزهم عِلَلٌ غيرُ واحدة ، أصغرها الرحمة له . ثم انْطُلِق بِنَعْشِهِ إلى حُفرته ، خوّارَ العود ، قليلَ الامتناع ، كما قال مالك بن الريْب (من الطويل) :

خُذَانِي فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا   فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْم صَعْبًا قِيَادِيَا

ثم نُضِدَ عليه اللّبنُ، وسُدّت خلاله،   وأُهيلَ على جوانبه الترابُ. . . » (26)

لقد استخدم الجاحظ المراوحةَ بين النثر والشعر في كتابة رسائل التعزية والرثاء ، فأدخل بها نَفَسًا أدبيًا على الرثاء في النثر العربي لا نجده عند المترسلين الذين سبقوه (27) . وقد تبينّ أنّه يُدرجُ النّص الشعري الذي يقتضيه السياقُ النثريُّ اقتضاءً . وهذه الطريقة في تركيب النصوص والتأليف بينها تدلّ على

(25) المصدر نفسه ، ص 23 ، وانظر : الأصفهاني ، الأغاني ، ط بيروت 1959 ، ج 17 ، ص 130 . ويكتمل معنى هذا البيت بالبيت الذي يليه وهو :

يَخْمُشْنَ حُرَّاتِ الوُجُوهِ عَلَى أمْرِيءِ   سَهْلِ الخَلِيقَةِ طَيِّبِ الأَخْبَارِ

(26) المصدر نفسه ص 24 ، وانظر في تحقيق البيت : أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، تحقيق محمّد علي البجاوي ، ط 1 القاهرة 1967 ، ج 2 ، ص 763 .

(27) قارن مثلاً بين هذه الرسالة ورسائل ابن المقفع في التعزية والرثاء ، ضمن جمهرة رسائل العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ج 3 ، ص 57 ، 58 ، ورسائل أحمد بن يوسف ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 498 ، 499 .

تمكّنه من رصيد الصور الشعرية التي تتضمّنها المادة المنقولة ، وتُبرزُ قدرَته على استحْضَارها في الإبّان .

ب) توليد المعاني من المادّة الشعرية .

لئن ألفنا الحديث عن توليد المعاني في الشعر فحسب ، فقد وجدنا في رسائل الجاحظ الأدبيّة مادّة نثرية هامّة ولّدها الكاتب من الشعر فاعتبرنا التوليدَ وجهًا من وجوه التداخل بين النثر والشعر .

غير أنّ دراسة هذه الطريقة الفنيّة في الكتابة تبد وعسيرة ، لأنّ الكاتب يُدرج النص الشعري في سياق الاستشهاد ، أو يأتي به لتدعيم المعني الأدبي الذي يصوغه في القسم النثري ، فيوهمنا بأنّ هذا المعنى يُمكن أن يقومَ بذاته في النثر إذا حذَفْنا النص الشعري .

ونسوق شاهدا على هذا التوليد ما ورد في رسالة فخر السود ان على البيضان فقد صاغ الكاتب بعض المعاني التي جاءت في مدح اللّون الأسود بالاعتماد على النصوص الشعريّة ، فعمد ، مثلا ، إلى بَيْتَين أحدهما في وصف المرأة والآخر في وصف ظلال الشّجر ، وجمع بينهما ، وولّد منهما معنى مدحيا أضفاه على اللّون الأسود ، وقد سلك طريقة في الكتابة النثرية تعرف بحلّ المنظوم فقال : « وأطيبُ ما في المرأة وأشهاه للتقبيل شفتاها ، وأحسن ما تكونان إذا ضارعتا السوّاد ، قال ذو الرمة (من البسيط) :

« لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ   وفي اللِّثَاتِ وفي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

وأطيب الظلّ وأبرده ما كان أسود ، وقال حُميد بن ثور (من الطويل) :

ظَلَلْنَا إلى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رِكَابُنَا   إِلَى مُسْتَكِفَّاتٍ لَهُنَّ غُرُوبُ

إِلَى شَجَـرٍ أُلْمَى الـظِّلاَلِ كَـأَنَّـهُ رَوَاهِبُ أَحْرَمْنَ الشَّرَابَ عُذُوبُ » (28)

وولّد كذلك من شعر أبي دهبل الجمحي (29) ، معنى مدحيا أخر هو الصلابة والشدة ، ونعت به اللّون الأسود فقال :

« وأصلب الأحجار سودُها ، وقال أبو دهبل الجُمحي يمدح الأزرق المخزوسي ، وهو عبد اللّه بن عبد شمس بن المغيرة (من البسيط) :

فَإِنَّ شُكْرَكَ عِنْدِي لاَ آنْفِصَاءَ لَـهُ مَا دَامَ بِالجَزْعِ مِنْ لُبْنَانَ جُلْمُودُ

أَنْتَ الْمُمَـدَّحُ والْمُغْـلَى بِـهِ ثَمَنًـاإِذْ لاَ يُعَاقِبُ صَخْرُ الجندل السُّودُ » (30)

فالذي يتأمّل هذه المعاني المدحية يدرك أنّ الكاتب قد انطلق من المادة الشعرية ، فهي رصيده الثقافي في لحظة الكتابة ، يلاحظ وأنّه ولّد منها المعاني التي صاغها في القسم النثري . فالشعر يبدو ، في سياق الكتابة وترتيب الكلام لاحقا ، وهو ، في الحقيقة ، سابق ، حاضرٌ في ذهن الكاتب قبل الكتابة ، بل إنّه هو الذي أوحى إليه بالمعاني المدحية .

ونجد في رسائل الجاحظ الأدبية وجها آخر من وجوه التوليد ، يتمثل في صياغة المعاني المتداولة في الشعر صياغةً نثريةً . والكاتب لا يضمّن المادّة الشعرية بل يختلس منها المعاني اختلاسا لطيفا . ولعلّ أوضح الأمثلة دلالة على ما نقول مشهدٌ ورد في رسالة القيان ، وصف فيه الجاحظ سلوكَ القينة ، وصوّر به مراودَتها للربيط (31) . فقد استمد مادة الوصفَ من شعر الغزل ، وما يتضمّنه من الصور الأدبية ، ورسم جلّ المعاني الغزلية التي

(28) رسالة فخر السودان على البيضان ، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة المذكورة ، ج 1 ، ص 205 ، 206 .

(29) هو وهب بن زمعة الجمحي ، أحد شعراء القرن الأوّل ، قال الشعر في آخر خلافة علي بن أبي طالب ، ومدح معاوية بن أبي سفيان وعبد اللّه بن الزبير، أنظر أخباره في الأغاني ، ط دار الثقافة ، بيروت 1956 ، ج 7 ، ص 112 .

(30) رسالة فخر السودان على البيصان ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ج 1 ، ص 207 .

(31) جاء في اللسان : ربط الشيء يربِطُه ويربُطُه ربطًا فهو مربوط رُبط ، شدَّه ، والرِّباط ماربط به ، والرّباط الفؤاد كأنّ الجسم ربط به ويستعمل الجاحظ ثلاث صيغ هي : الربيط والمربوط والمتربّط بمعنى عاشق القيان والمتردّد على دورهنّ .

شاعت في مجالس الغناء . والذي يدرس شعر الغزل يجد مثلا ، أنّ معنى الكتابة بالدموع والريق من المعاني لمتداولة في هذا الشعر وقد صاغ الجاحظ هذا المعنى في رسالة القبنة الى ربيطها فقال : « ثم كاتبته تشكو إليه هواة ، وتُقسم له أنّها مدّت الدواة بدمعتها ، وبلّت السحاة بريقها ، وأنه شجبها وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها » (32) .

ونستشف من خلال تصوير الجاحظ لسلوك القينة أجواءَ المحبّين ودقائقَ العلاقات الغزلية بينهم ، وهي صور شاعت في شعر الغزل الحضري على وجه الخصوص . يقول : « وسقَتْه (يعني الربيط) أنصافَ أقدَاحِها ، وجمّشَتْه بعضوض تفاحها ، وتحية من ريحانها ، وزوّدته عند الانصراف خصلةً من شعرها ، وقطعةً من مِرطها » (33) .

وأخذ الجاحظ من شعر الغزل صورة المرأة الساحرة . وهي صورة تفنّن الشعراء الذين سبقوا ، في الزمن ، عصر تأليف الرسالة ، في إخراجها والتغنّي بها (34) . وقد وصف القيان وشبههنّ بالسحرة فقال : « وليس يُحسن هاروتُ وماروتُ ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون الاّ دون ما يُحسنه القيان » (35) .

وقمنا بمقارنة بين وصف القينة كما جاء في رسالة القيان ، وصورتها في الاشعار التي قيلت في عصر الجاحظ ، فكشفنا عن تشابه كبير بين ما ورد في

---

(32) رسالة القيان ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ج 1 ، ص 172 .

(33) القيان ، ص 173 .

(34) انظر مثلا قول عمر بن أبي ربيعة :

حَدَّثُونَا أَنَّهَا لِي نَفَثَتْ عُقَدًا يَا حَبَّذَا تِلْكَ العُقَدْ

(الرمل)

الديوان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 2 ، القاهرة 1965 ، ص 322 ، وانظر كذلك قول بشار بن برد : (مجزوء الكامل) وَكَأَنَّ تَحْتَ لَسَانِهَا هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا الديوان ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، ط مصر 1950 ، ج 4 ، ص 88 .

(35) القيان ، ص 175 .

هذا النّص النثري ، وما قاله بعض الشعراء في وصف القيان ، تشابهٍ شمل المادّة الأدبية والصياغة الفنّية ، وحملنا على تقرير هذا التداخل بين الأشكال التعبيريّة في رسلئل الجاحظ الأدبيّة . فقد وصف الكاتب صناعة القينة بقوله : « إنّ القينة لا تكاد تخالِص في عشقها ، ولا تنصحُ في ودّها ، لأنّها مكتسِبةٌ ومجبولةٌ على نصب الحِبالة والشرك للمتربّطين لِيَقْتَحِموا في أنشوطتها . وأكثرُ أمرِها قلّةُ المُناصحَةِ ، واستعمالُ الغدر والحيلة في استنطاق ما يَحْويه المَرْبُوطُ ، والانتقال عنه . وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثةٌ أو أربعةٌ ، على أنّهم يتحَامَوْن من الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحدٍ بِعَيْنٍ ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك . . . » (36) .

وقد وردت الصورةُ نفسهُا في رسالة شعريّة بعثت بها فَضْلُ الشاعرةُ (36 مكرر) إلى سعيد بن حُمَيْد (37) ، وكانت تحبّه ، فبَلَغها أنّه عشق جاريةً من القيان . وهذه القطعة الشعرية هي : (من المنسرح) :

« يَـاحَسَنَ الـوَجْـهِ سَيِّـءَ الأدَبِ ... شِبْـتَ وَأَنْـتَ الـغُـلَامُ في الأَدَبِ
وَيْحَـكَ إنْ القِيَـانَ كَـالشَّـرَكِ ال ... مَنْصُـوبِ بَيْنَ الغُـرُورِ وَالكَـذِبِ
لَا يَـتَـصَـدَّيـنَ لِـلْـفَـقِـيرِ وَلَا ... يَـتْبَـعْـنَ إلَّا مَـوَاضِـعَ الـذَّهَـبِ
بَيْنَـا تَشَكَّى إلَيْـكَ إذْ خَـرَجَتْ ... مِنْ لَحَـظَاتِ الشَّكْـوَى إلَى الـطَّلَبِ
تَـلْحَظُ هَـذَا وَذَا وَذَاكَ وَذَا ... لَحْظَ مُحِبٍّ بِعَـيْنِ مُكْتَسِبِ » (38)

---

(36) القيان ، ص 173 .

(36 مكرر) هي جارية من مولّدات البصرة ، نشأت في بيت رجل من عبد القيس ، وباعها بعد أن أدّبها فاشتُرِيَتْ وأُهدِيَت الى المتوكّل . راجع أخبارها في الأغاني ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ج 19 ، ص ص 257 ـ 271 .

(37) أبو عثمان سعيد بن حُمَيد ، شاعر مترسّل ، أصله من النهروان ، وُلد ببغداد وقلّده المستعين ديوان رسائله ، مات سنة 250 هـ ، راجع أخباره في الأغاني الطبعة نفسها ، ج 18 ، ص 90 .

(38) ابن المعتزّ ، طبقات الشعراء ، أخبار فضل الشاعرة ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ، ط 4 ، القاهرة د ـ ت ، ص 427 .

إنّ ظاهرةَ توليد المعاني من الشّعر لا تَنْفِي أنْ يكون الجاحظ قد استوحى مادّة الرسالة من واقِعه الحضاري ، إذ لا نشكّ في أنّه كان ملمًّا بهذا الواقع وأنّه سجّل لنا ما علينه في أوساط التّقْيين . وهو لم يَصِفْ عالَمَ القيان باعتماد ثقافته الشعرية فحسب ، بلْ استقى مادَّة الوصف من ملاحظاته الاجتماعية ، وأثراها بمعاني شعر الغزل ، وصاغها في لغته وصورِهِ وأساليبه .

وقد ألمّ الجاحظ بشعر الغزل فأدرج منه مقطوعات عديدةً في الرسالة نفسِها ، وأضفى بها ، على وصف القيان ، صبغةَ الواقعية .

ج) النّص الشعري وواقعيّة الوصف :

لقد عمد الجاحظ في مواطنَ عديدةٍ من الرسالة ، إلى إدراج النّص الشّعري لِيَلِجَ بالقارىء عالَمَ القيان ، ويُقرّبه من النّموذج الاجتماعي الموصوف فنراه يصوّر القينةَ في قطعة نثريّة ، ثم يُنطِقُها بالأشعار التي تتناسب والموقف الغزلي . يقول في وصف القينة تُوقِعُ بالمربوط :

« وَأَهْدَتْ إليه في النَيْرُوزِ تِكّةً وسُكّرًا ، وفي المهرجان خاتما وتفّاحةً ، ونَقَشَتْ على خاتمها اسمَه ، وأبْدَت عند العثرة اسمه ، وغَنّته إذا رأته (من الكامل) :

نَـظَرُ الْمُحِبِّ إِلَى الْمُحِبِّ نَعِـيـمُ   وَصُـدُودُهُ خَـطَرٌ عَلَيْـهِ عَـظِيمُ .

وتُنشد عند موافاة اسمِه بيت المجنون (من الطويل) :

وَأَهْوَى مِنَ الأَسْمَاءِ مَاوَافَقَ اسْمَهَا   وَأَشْبَهَـهُ أَوْ كَـانَ مِنْـهُ مُـدَانِيَـا .

وعند الدّعاء به قوله (من الطويل) :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بالخَيْفِ مِنْ مِنًى   فَهَيَّـجَ أَحْـزَانَ الفُؤَادِ وَمَـايَـدْرِي
دَعَـا بِـاسْمِ لَيْـلَى غَيْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا   أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي » (39)

---

(39) رسالة القيان ، ص 174 .

فالشّعر عنصرٌ فنيّ تكتمل به صورةُ القينة في الرسالة ، فهي المرأة المثقفة ، التى تعرف الشعر ، وتحسنُ التمثّل به وتختار منه ما يُناسب العواطف والمواقف ، لأنه بضاعَتُها ، وصناعتُها التي بها تكون .

ونحن نلاحظ في خاتمة القسم الأوّل من هذا البحث أنّ إدراجَ الشّعر في سياق الكتابة النثرية أسلوبٌ تُمليه طبيعةُ الأغراض الأدبية التي كتب فيها الجاحظ . فالشعر في هذه الكتابة ليس من قبيل التّزيين والتمثيل ، بل يقتضيه البناء الفنيّ الذي رسمه الكاتب في رسائله .

3) الأمثال والعبارات الجاهزة في الرسائل .

المثل شكلٌ من الأشكال التعبيرية ، يرد في تركيب جاهز ، ويُمكّن المتكلّم من التعبير عن معنى واحدٍ بعبارة بليغة تناسب المقام . ويرتبط المثل ، عادة ، بسياق معلوم ، ويُستخدَم في كلّ سياق شبيه به .

وقد بدا لنا أنّ وظيفة العبارة المَثلية تطوّرت في رسائل الجاحظ . وأصبح هذا الشكلُ التعبيري نواةً ينسج حولها الكاتب نصًّا أدبيًا ، ويستمدّ منها معاني أدبيّة جديدة . فهو يحوّل العبارة من سياقها المألوف المتداول ، إلى سياق غريبٍ عن مستعمليها ، ولكنه يخدم الغرضَ الأدبي في الرسالة . فالعبارة « لا ترى ذلك حتّى يشيب الغرابُ (40) » تستعمل عادة للتعبير عن استحالة وقوع الشيء . ولكنّنا نرى الجاحظ ينطلق من هذا المعنى ويولّد منه معنى جديدا وهو رسوخ اللّون الأسود وثباتُه ، ويُدرج هذه العبارة المثلية في سياق مدح السودان ولونهم فيقول :

« وقالوا : وليس لونٌ أرسخ في جوهره ، وأثبت في جنسه ، من سوادٍ .

(40) انظر : الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب ، ط 1 ، حيد آباد ، 1962 ، ج 2 ، ص 59 .

وقد جرى المثلُ في تبعيد الشيء ؛ لا ترى ذلك حتّى يبيض القارُ ، وحتى يشيبُ الغراب » (41) .

وتّتصل بهذه العبارات المثلية مادّةٌ أدبيّة أخرى ، يختَصِرُهَا المتكلّمُ عادةً ، في عبارات وجيزة ، فتجري مجرى الأمثال ، وهي تشير إلى قصّة أو خبر أو يوم من أيّام العرب في الجاهلية . وقد استخدم الجاحظ هذه المادّة في رسم بعض الصور ، وصيّرها أدواتٍ فنيةً تُثْرِي بناءَ الرسالة ، وتُعتَمَدُ في صياغة المعاني الأدبيّة . فمن ذلك قوله في رسالة الجدّ والهزل نحا طبًا محمّد ابن عبد الملك الزيات : « وقد كنّا نعجب من حرب البسوس في ضرْعِ نابٍ ، وحربِ بعاث في مخرَفِ تمر ، ومن حربِ غطفان في سَبْقِ دابّة فجِئْتَنَا أنت بنوع من العجب أبطلَ كلَّ عَجَبٍ ، وآنَسَنَا بِكُلِّ غريب ، وَحَسَّنَ عندنا كلَّ قبيح ، وقَرَّبَ عندنا كلَّ بعيد » (42) .

إنْ حَشْدَ هذه العبارات التي تُحلينا على مادّة أدبية غزيرة طريقةٌ فنّية في الصياغة النّثرية تُساعد الكاتب على إخراج المعنى الموصوف ، وهو التعجّب من سلوك المخاطَب ، في صورة تقوم على المبالغة والتهويل . فالعبارة المثلية تعوّض أساليب البيان القائمةَ على التشبيه والاستعارة ونحوهما ، وتُغني الكاتبَ عنها ، إذ تُحقّق الغايةَ الفنيّة المطلوبةَ وهي إثارةُ تعجب القارىء من سلوك الشخص الموصوف ، وذلك بتهويل الوصف والإغراق فيه .

ويستخدم الجاحظ الحكم والأمثال في بناء هيكل الرسالة القصيرة ، فيورد في مستهلّها قولاً مأثورًا موجزا ، ويولّد منه عناصر الرسالة كلّها . فنراه يستهلّ رسالةً في آستنجازِ وَعْدٍ بقوله :

« بسم اللّه الرحمان الرحيم : قد شاع الخبر وسار المَثَلُ بقولهم : اطلُبوا

---

(41) رسالة فخر السودان ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 206 .

(42) رسالة الجدّ والهزل ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 84 .

الحاجات من حسان الوجوه » (43) . ثم يعمد إلى هذا المدخل فيولّد منه جملةً من المعاني المدحيّة فيقول : « فإنْ كان الوجهُ إنّما وقع على الوجه الذي فيه النّاظر والسامع والشامُّ والذّائق ، إذا كان حسنًا جميلاً وعتيقًا بهيًّا ، **فوجهك الذي** لا يحيد عن أحدٍ كمالُه ، ولا يخفى جمالُه وإنْ كان ذكرُ الوجه إنّما يقع على حسن الطّلب ، وجمالُه على جهة الرغبة ، وأنّ ذلك على طريق المَثَل ، وعلى سبيل اللّفظ المشتقّ من اللّفظ ، والفرع المأخوذ من الأصل ، **فوجهُ الطلب إليك** أفضلُ الوجوه ، وأسناها ، وأرضاها » (44) .

لقد ذكر الكاتب الحكمةَ ، ثم استقصى جميع المعاني التي تتضمّنها مُسْتخدِما في ذلك أسلوبًا سمّاه البلاغيون تقسيما (45) . وبذلك تُصبح الأمثال والحكم أدواتٍ فنيةً يستوحي منها الكاتب بناءَ النّص النثري ويسخّر طاقاتها البلاغية لخدمة الغرض الأدبي .

II ـ التداخل المعقّد :

إنّ التأليف بين نصوص عديدة ، تنتمي إلى أشكال تعبيرية مختلفة نحو في الكتابة وسم قسمًا كبيرًا من رسائل الجاحظ الأدبيّة .

فالرسالة تتحوّل أحيانا إلى مجموعة نصوص يُدرجها الكاتب في سياق واحد ، أو تتضمّن عدّة عبارات تمكّننا أثناء قراءتها من استحضار مادّة أدبية تكوّن مصادرَ الكاتب الثقافيةَ .

(43) رسالة في استنجاز وَعْدٍ ، ضمن مجموع رسائل الجاحظ ، نشر محمّد الساسي ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 173 .

(44) المصدر نفسه ، ص 173 ، 174 .

(45) انظر مثلا : ابن رشيق ، العمدة ، باب التقسيم ، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد ط 5 ، القاهرة 1981 ، ج 2 ، ص 20 ، وخاصة الفقرات المتعلقة بالتقسيم في المنثور .

ولئن كانت وجوه التداخل عديدةً ، متشعّبةً ، تتطلّب دراسة مطوّلة فإنه ، بمقدورنا ، في حدود هذا البحث ، أنْ نترسم خصائصها العامّة ، وأثرها في تكوين النّص الأدبي عند الجاحظ .

إنّ الذي يدرس بناء النّص الأدبي في رسائل الجاحظ يتبينّ أنّ الكاتب لم يوردِ المادّة المنقولة جزافًا ، وأنّه لم ينتهج في كتابته أسلوب الاستطراد وتداعي الأفكار ، بل عمِل على التأليف بين عناصر هذه المادّة تأليفا يَفي بحاجة الغرض الأدبي . فآنصهرت كلّها في أسلوبه ، وأُفْرغت فيه إفراغًا واحدًا وأثمرت في كلّ رسالة نصّا أدبيا جديدًا متماسكا مبنى ومعنى . فالكاتب يستعين بالأشكال التعبيرية على اختلافها ، وينتقي منها ما يخدم غرض الرسالة ومعانيها بصورة مباشرة ، ويصيّر **المادّة المنقولة أداة فنية من أدوات الكتابة** . وهو ينتقل من شكل إلى آخر انتقالاً مُحكما هادفا ، يقتضيه كذلك تطوّر الغرض واتساع معانيه .

وتقتضي دراسة هذا التداخل أنْ نكشف عن العلاقة بين النّص المأخوذ والسياق الجديد الذي يدرج فيه وأنْ نفسّر طرق التحويل التي تمّت بها إعادة كتابة المادّة الأدبية المنقولة . فالنصوص التي يُدرجها الجاحظ في رسائله سبق أنْ عبّرت في سبياقات أخرى عن مجموعة من المعاني . والكاتب يستعيرها في رسائله ليعبّر بها عن المعاني نفسها أو ليطوّرها حتى تعبّر عن جملة من المعاني الجديدة .

ويمكن أنْ نصنّف التداخل المعقّد في رسائل الجاحظ إلى نوعين .
أمّا النوع الأوّل فإنه يقوم على إدراج مجموعة من النصوص ، ينسبها الكاتب إلى أصحابها ، ويصرّح بأنه أخذها من محفوظِه . وهو لا يتصرّف في صياغتها ، بل ينقلها نقلا كاملا لفظًا ومعنى .

وتتجلى هذه الطريقة الفنّية في رسالة مناقب الترك وعامّة جند الخلافة . فقد ألّفها الجاحظ في مدح جنس الأتراك ، والإشادة بخصاله وفصائله (46) . ويحتوي غرض المدح فيها على معانٍ عديدة أهمّها معنى البأس والشدّة والقدرة الحربية . وقد وجد الكاتب في الأمثال والشعر صورا أدبية تخدم الغرض فساقها في تصوير شجاعة الأتراك يقول : « وفي المأثور من الخبر : « تاركوا التّركَ ما تاركوكم » وهذه وصية لجميع العرب ، فإنّ الرأي متاركتُنا ومسالمتُنا . وما ظنّكم بقوم لم يعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمّوا الترك . هذا بعد أنْ غلب على جميع الأرض غلبةً وقسرا ، وعنوةً وقهرًا . وقال عمر ابن الخطّاب رضي اللّه عنه : « هذا عدوّ شديدٌ طَلَبُه قليل سَلبهُ ، فنهى كما ترى عن التعرّض لهم بأحسن كناية .

والعرب إذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا : « مَاهُمْ إلَّا التُّرْكُ وَالدَّيْلَمْ » ، وقال علمَّس بن عقيل بن علفة (الطويل) :

تَبَدَّلْتُ مِنْهُ بَعْدَ مَا شَابَ مَفْرِقِي عَدَاوَةَ تُرْكِيّ وَبُغْضَ أَبِي حِسْلِ » (47)

لقد اختار الجاحظ عدّة أشكال تعبيرية لتصوير معنى واحد ، فذكر وصيّة ، ومثلا وشعرًا . فهو يدرج الوصية لأنها تقوم على الترهيب من بأس الأتراك ، وتُعلي من شأنهم بالتحذير من جانبهم . ويستخدم المثلَ في مدح الأتراك وتصوير بأسهم لأنّه شكلٌ تعبيري يغزو نفوس السامعين والقرّاء ، ويُوهم بأنّه يتضمّن حقيقةً مطلقةً . فهو عبارة جاهزة تنتشر في الناس ، فترسخ في الأذهان ، وتجري مجرى الحقيقة . ويوهمنا الجاحظ ، من خلال

---

(46) تقع هذه الرسالة في جزئين ، أحدهما في مدح الأتراك ، والآخر في مدح عامة جند الخلافة . وقد أهداها الجاحظ الى الفتح بن خاقان وزير المتوكل .

(47) المصدر نفسه ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1965 ، ج 1 ، ص 76 .

العبارة : « ما هم إلاّ الترك والدّيلم » بأنّ التجربة الجماعية هي التي أفرزت هذا المعنى المدحي ، وصيّرته أمرًا شائعا مشهورا ، وأنّ العرب أقرّته وصارت تضرب به المثَلَ في مُحاوراتها .

ويزيد الشاهدُ الشعريُّ الإيحاءَ بصدق المعنى المدحي قوّةً ، إذ نستنتج منه أنّ عداوة التركيّ قد شاعت كذلك ، فانتقلت إلى التعبير الأدبي واستعارها الشعراءُ لتصوير المعاني الأدبية .

ويُمكن أَنْ نذكر شواهدَ عديدةً وردت في رسالة التربيع والتدوير ، فقد برز في هذا النّص الأدبي سعيُ الجاحظ إلى تصوير المهجوّ تصويرًا دقيقا ، ورَسْمِ المعاني الهجائية بصورة مستفيضة ، وذلك باستخدام موادُ أدبية مستقاة من أشكال تعبيرية متنوّعة .

غير أنّنا نقتصر في عملنا هذا على ذكر فقرة وردت في مستهلّ الرسالة ، وخصّصها الكاتب لوصف أحد المعاني الهجائية التي نعت بها أحمد ابن عبد الوهاب وهو المِراءُ . فقد قال متحدّثا عن المهجوّ : « كأنّه لم يسمع بقولهم : « من جادل قاتل » ، ولم يسمع بقول النبي صلّى الله عليه وسلّم في السّائب بن صَيْفِي « هذا شريكي الذي لا يُشاري ولا يماري » ، ولا بقول عثمان « إذا كان لك صديق فلا تُمارِه ولا تُشارِه » ، ولا بقول ابن أبي ليلى : « لا أماري أخي فإمّا أنْ أُكَذّبه وإمّا أنّ أُغْضِبَه » ، ولا بقول ابن عمر : « لا يصيب الرجل حقيقةَ الايمان حتى يترك المراء ، وهو مُحِقّ » . وكأنّه لم يسمع بقول الشاعر (من الطويل) :

خِـلافًـا عَلَيْنَـا مِنْ فَيَالَـةِ رَأْيِـهِ   كَمَا قِيلَ قَبْلَ اليَوْم خَالِفْ فَتُذْكَرَا

ولم يسمع بقول الآخر (من المتقارب) :

لِنَـا صَاحِبٌ مُـولَـعٌ بِـالخِـلافِ   كَـثِـيرُ المِـرَاءِ قَلِيـلُ الـصَّـوَابِ
أَلَـجُّ لَجَـاجًـا مِـنَ الخُنْـفُسَـاءِ   وَأَزْهَى إِذَا مَـا مَشَى مِنْ غُـرَابِ

قال رجل لزهير البابي : « أين نبت المراء ؟ قال : « عند أصحاب الأهواء » وقال بعض المذكورين : « اللّهم إنّا نعوذ بك من المراء وقلّةِ خيره ،وسوء أَثَرِه على أهله ، فإنّه يهلك المروءةَ ، ويُذهب المحبّةَ ، ويُفسد الصداقةَ ، ويُورث القسوةَ ، ويُضرّي على القِحَة ، حتى يصير الموجزُ خَطِلاً ، والحليمُ نزِقًا ، والمتوقّي خبوطًا ، والصدوقُ كذوبًا » ثم يقول :

« وَالمراء من أسباب الغضب . وأقرب مايكون الرجلُ من غضب اللّه إذا غَضبَ ، كما أنّه أقرب ما يكون من رحمة اللّه إذا سجد لقول اللّه ـ عزّ وجلّ : « وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب » . وقال لقمان لابنه : « إيّاك والمراء فإنّه لا تُعْقَل حكمتُه ولا تُؤْمَنُ لَعْجَتُه » . وقال آخر « المراء غَضْبَةٌ والصَّمْتُ حِكْمَةٌ » . (48)

لقد حرصنا على إيراد هذه الفقرة ، رغم طولها ، لأنها تقوم على تداخلٍ ثريّ بين الأشكال التعبيرية ، وهو محور دراستنا في هذا السياق . ولأنّ دراسة هذا التداخل لا تتمّ إلا إذا نظرنا في الفقرة كلّها .

إنّ ظاهرَ هذا النّص الهجائي يوهمنا بأنّ دورَ الجاحظ لا يعدو الجمعَ والنقلَ ، وبأنّ نصيبَه من الإيداع في هذا الهجاء ضئيلٌ . غير أنّ دراسةَ موقع النّص في الرسالة وبنائه الداخلي تكشف لنا عن رؤية فنّية اعتمدها الكاتب في صوغ غرض الهجاء ، رؤيةٍ بها تُصبح المادّةُ المنقولةُ أبلغَ طريقة للتعبير عن غاية الرسالة .

لقد أقبل الجاحظ على الكتابة في هذا الغرض وقد أَعَدَّ له ما استطاع من المعارف الأدبيّة ، فجمع ما قيل فيه شعرًا ونثرا منذ العصر الجاهلي . و ذكر من الأعلام من نطق بِحِكَمٍ لا تُرَدّ كالرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولقمان

---

(48) رسالة التربيع والتدوير ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 7 ، 8 .

الحكيم . ومن شأن هذا الاستعداد المعرفي أنْ يحقّق غاية أساسية سعى إليها الكاتب ، وذكرها في مقدّمة الرسالة بقوله متحدّثا عن أحمد بن عبد الهاب ، « فلمّا طال آصطبارنا عليه حتّى بلغ المجهود منّا ، وكدنا نعتاد مذهَبه ، ونألف سبيلَه رأيتُ أنْ أكشف قناعَه ، وأبدِيَ صفحتَه للحاضر والبادي ، وسكّان كلّ ثغر وكلّ مصر ، بأنْ أسألَه عن مائة مسألة ، أهزأ فيها ، وأُعرّف التاس **مقدارَ جهله** » (49) إنّ تضمين هذه المادّة الأدبيّة الغزيرة يستجيب أساسًا لغاية عامّة ، وجّهت أسلوب الرسالة ، وحَددّتْ مضامينَها ، وهي ترهيبُ المرسل إليه ، وإفحامُه بوابل من المعارف المتنوّعة . ولا يخفى أنّ عَرْضَ هذه المعارف المنقولة ، بغضّ النظر عن محتواها الهجائي ، هو ذاته طريقةٌ في الهجاء يمكن أنْ نَنْعتَها « بالتبْكِيت » .

ولعلّ طريقة إدراج النصوص والربط بينها توضّح لنا هذه الغاية . فقد انتقل الكاتب من المقدّمة إلى عرض فنون القول في المراء بواسطة العبارة « كأنّه لم يسمع » . ثم وصلَ الشواهدَ بعضها ببعض مستخدما العبارة نفسها . فهو يضع المهجوّ موضعَ الجاهل بكلام العرب وحكمتهم وأدبهم ، وينتصب لتعليمه أصول هذا الأدب وتلك الحكمة .

والذي يحلّل بناءالفقرة الداخلي يجد أنّ الموادّ التي ألّف الجاحظ بينها تُمثّل جلَّ أشكال التعبير في الأدب العربي : المثل ـ الحديث النبوي ـ الأقوال المأثورة ـ الشعر ـ الدعاء ـ الوصية ـ الحكمة . وهي تشترك كلّها في ثلب المراء وذمّه . ولئن اختلفت هذه الشواهدُ في طرق التعبير والصياغة ، فإنّها تُعطينا ، مجتمعةً ، صورةً للمراءِ مكتملةً . فالجمع بين نصوص أدبيّة مختلفةٍ ساعد المؤلّف على إخراج الهجاء إخراجًا مُكتملاً .

---

(49) المصدر نفسه ، ص 6 .

وقد مكّنه تنوّعُ هذه النصوص من الاشارة إلى مجموعة من المعاني الهجائية لم ينعت بها أحمد بن عبد الوهاب مباشرةً ، ولكنّه لّمح إليهَا باستخدام هذه الأشكال التعبرية . فقد تفرّعت عن المِراء مثالبُ عديدةٌ وعيوبٌ جمّةٌ كالقسوة ، والخَطَل ، والقِحة ، والغضب ، والنّزق ، بل إنّ هذا الخَلق أصبح أخا للكفر ، لا يستقيم معه الإيمان . وبذلك نلاحظ أنّ صورة المهجوّ تتّضح ملامحُها بقدر ما تتضاعف الشواهدُ الأدبيّة وتتنوّع مصادرُها .

واستطاع الجاحظ أنْ يرسم بهذه المادّة المعنى الهجائي في أساليب متنوّعة . فوردت النّصوص متكاملةً في أساليبها ، وأُخرج المعنى بطرقٍ متعدّدة . فقد جاء ذمّ المزاء بطريقة غير مباشرة في الحديث النبوي ، وذلك في مدح السائب بن صَيْفي بأنّه لا يُشاري ولا يُماري ، وصِيغَ في أسلوب إنشائي من خلال نَهْي عثمان عن مراء الأصدقاء ، وفي أسلوب حوارٍ ككلام زهير البابي وصَوَّرَهُ الشعرُ في أسلوب كاريكلتوري ساخر ، وجاء في أسلوب التحذير في وصيّة لقمان .

ونتبيّن من دراسة هذه الفقرة أنّ المادّة المنقولة ليست عنصرا طارئا على الرسالة ، بل تكوّن مادَّتها الأولى ، وتطبع بناءها العامّ وصياغَتها الفنّية . ونحن نجد في كتب الأدب والنقول مادّة غزيرةً شبيهةً بها غير أنّها ترد ، في هذه المصنّفات ، في سياق الجمع والتاريخ .

ولئن اعتمد أصحاب هذه النقول الأدبية ، في اختيار هذه المادّة ، مقاييسَ فنّيةً وذوقيةً ، فإنّهم لم يخرجوا بها من النقل والتصنيف إلى الخلق والإبداع على غرار ما فعل الجاحظ . فالنّصوص الأدبية في رسائل الجاحظ تُمثّل أدواتٍ تعبيريةً يعتمدها الكاتب في التأليف ، ويستخدمها استخداما فنياً ، فيذهب بها في اتجاه الخلق والإبداع مذاهبَ شتّى .

ويتأكّد هذا النحوُ في الكتابة من خلال رسالة الجدّ والهزل إذ يقول الجاحظ مخاطبًا محمّد بن عبد الملك الزّيات : « وقد قال الأوّل : عليك بالأناة فإنّك على إيقاع ما أنت مُوقعُه أقدرُ منك على ردّ ما قد أَوْقَعْتَه . وقد أخطأ من قال (من البسيط) :

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنّي بعض حاجته   وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعجِلِ الزَّلَلُ

بل لو قال : والمُتأنّي بِدَرْك حاجاته أحقّ ، وَالمُسْتَعْجِلُ بِفَوْتِ حاجاته أَخْلَق لكان قد وَفى المعنى حقّه ، وأعطى اللّفظَ حظّه . وإنْ كان القول الأوّل موزونًا ، والثاني منثورًا . وينبغي أنْ يكونَ الذي غَلَّطَهُ قولهم : رُبَّ عجلةٍ تهب رَيْثًا فجعل الكلام الذي خرج جوابًا عند ما يَعرِضُ من السّبب كالكلام الذي خَرَج ارتجالا ، وجعله صاحبُه مَثلاَ عامًّا » (50) .

لقد طلب الجاحظ من المخاطَب أنْ يتحلّى بالأناة ، وألّا يبادر بالعقوبة والجفوة . ثم عزّز خطابه بفقرة وصف فيها فضل الأناة والريث ، فانطلق من مادتين أدبيّتين : إحداهما قول مأثور ، والأخرى بيت شعر ، ووصف من خلالهما هذا السلوك .

غير أنّه لم يكتفِ بذلك ، بل عمد إلى تدقيق المعنى ، بحلّ البيت وإضافة عبارات بدت له أبلغ وأدقّ . ثم برّر قصور الشاعر عن صياغة المعنى صياغة دقيقة ، باعتماد طريقة المقارنة بين الأشكال التعبيرية ، وبتحليل الخصائص الفنّيةِ التي يتميّز بها كلّ شكل . وكشف أخيرا عن العلاقة بين الشعر والمثل السائر مبيّنا اختلافهما في التعبير عن المعنى الواحد .

وتختلف طرق تضمين النصوص في رسائل الجاحظ من رسالة إلى أخرى فهو ينوّع أساليب الأخذ وطرق الاقتباس ، فيسْتغلّ نفس النّص بطريقتين

(50) رسالة الجدّ والهزل ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 85 .

مختلفتين كأَنْ يضمّنه في هذه الرسالة وينسبه إلى صاحبه ، ثم يعيد صياغته في رسالة أخرى دون أنْ يذكر مصدره .

ونسوق شاهدًا على هذه الطريقة قطعتين اثنتين وردت الأولى في رسالة « مدح النبيذ وصفة أصحابه » وقد بعث بها إلى الحسن بن وهب (51) يعاتبه فيها على ذمّ النبيذ . ووردت الثانية في رسالة التربيع والتدوير .

لقد صوّر الجاحظ في الرسالتين تقلّب الدّهر وتبدّل الأحوال . وبيّن كيف تنقلب القيم فيصبح الصلاح غريبا والفساد مألوفًا لا ينكره الناس . فاستخدم في الرسالة الأولى مجموعة من الاقوال البليغة والقطع الشعرية في وصف المعنى فقال : « وقد كان يقال : لا يزال الناس بخيرٍ ما تعجّبوا من العَجَب . قال الشاعر (الطويل) :

وهُلْكالفتى أَنْ لا يراح إلى الندى   وأنْ لا يرى شيئا عجيبا فيعجبا

قال أبو بكر بن عبد اللّه المزيني : « كنّا نعجب من دهر لا يتعجّب أهلهُ من العجب فقد صرنا في دهر لا يستحسن أهله الحسنَ . ومن لم يستحسن الحسنَ لم يستقبح القبيحَ » وقال بعضهم : « العجب ترك التعجّب » (52) .

وقد صوّر المعنى نفسه في رسالة التربيع والتدوير ، ولكنّه اختصره ونسبه إلى نفسه : « كنت أتعجّب من كلّ فعل خارج من العادة فلمّا خرجت الأفعالُ بأسرها من العادة ، صارت بأسرها عجبا ، فبدخول كلّها في باب التعجّب خرجت بأجمعها من باب العجب » (53) .

---

(51) الحسن بن وهب بن سعيد ، شاعر كاتب ، كتب لمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكّل . ولي ديوان الرسائل . وكان جدّه سعيد في خدمة آل برمك . وآلُ وهب من واسط ، كانوا نصارى ثم أسلموا ، وخدموا الدواوين . توفي الحسن سنة 272 هـ .

(52) رسالة في مدح النبيذ وصفة شاربه ، ضمن رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1979 ، ج 3 ، ص 115 ، 116 .

(53) التربيع والتدوير ، الطبعة المذكورة أعلاه ، ص 104 .

إنّ الذي يقارن بين الرسالتين يلاحظ أنّ نصوصًا عديدة تتخلّل كلام الجاحظ ، وأنّ هذا الكاتب يتكلّم بأصوات عديدة في نصّ واحدٍ : صوت الشاعر وصوت الحكيم ، وصوت المتمثّل بالأقوال البليغة ، طورًا بالتصريح ، وطورا بالتضمين . وأنه يتدبّر ما قاله الأوّلون ، ويتصفّح نتاج عقولهم ، فيعيد كتابته بأسلوبه ، ويقدّم لنا خلاصة مطالعاته ، وعصارة فهمه للآداب التي حفظها . ولعلّه أنجز في رسائله الأدبية ما ساقه في رسالة المعاش والمعاد بطريقة نظرية إذ يقول : « ورأيت كثيرا من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين في الآداب عهودًا قاربوا فيها الحق وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاّ أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعًا لم يبيّنوا عللها ، وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها ، وأمورًا محمودة ، لم يدلّوا على أصولها . فإنْ كان ما فعلوا من ذلك روايات روَوها عن أسلافهم ووراثات ورثوها عن أكابرهم فقد قاموا بأداء الأمانة ، **ولم يبلغوا فضيلة الاستنباط** » (54) .

إنّ طريقة الجاحظ في الاستشهاد بالنصوص الأدبية المحفوظة تمثّل وجها من وجوه الاستنباط ، واتجاها جديدا في قراءة المادّة المنقولة . وقد أفضت هذه الطريقة إلى جمع شتات المقول الشفوي في شكل تعبيري مكتوب تميّز به النثر الفني في القرن الثالث للهجرة من خلال تآليف الجاحظ وابن قتيبة والصولي وغيرهم .

وأما النوع الثاني من التداخل فإنه يقوم على اختزال النّص المأخوذ في عبارة موجزة . فالكاتب لا يدرج النّص إدراجًا صريحا بل يشير إليه إشارةً ، وذلك باختيار عبارة مثلية تحيلنا على قصّة أو خبر ، أو بإدراج عبارة شعرية ترجعنا إلى سياق غير مذكور .

---

(54) رسالة المعاش والمعاد ، مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، مصر 1983 ، ص 127 .

وَقراءة النّص المكتوب تستوجب استحضار مجموعة من النصوص المعروفة ، لذلك فإنّ المخاطَب الذي يجهل مصادرَ الكاتب الثقافيةَ يستحيل عليه فهمُ مقاصد النّص ، ويعسر عليه تكوينُ دلالته والنفاذ إلى معانيه .

يقول في رسالة الجدّ والهزل واصفا مكيدةً دبّرها له محمد بن عبد الملك الزيات : « ولو دبّرها لُقَيْم بن لقمان على لقمان بن عاد ، ولو أذاعها قيس ابن زهير على حِصن بن حُذيفة ، ولو توجّهت لكهّان بني أسد على دهاة قريش ، لقد كان ذلك من تدبيرهم نادرًا بديعًا ، ولكان في مكايدهم شاذًّا غريبا ، وإنّها لترتفع عن قصير في كيْدِ الزبّاء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . . . » (55) .

إنّ النّص الأدبي المأخوذ يُختزل في عبارة واحدة ، ويتنزّل في نصّ الجاحظ منزلة الكلمة في الجملة أو العنصر الفنيّ في الصورة . وهو ، على اختزاله ، يُثري النّص الجديدَ ، ويجعله متعدّدَ الأبعاد ، غزيرَ المعاني . فتشبيهُ مكيدة المخاطب بكيد « قصير » يُحيلنا على قصّة طويلة تتعدّد فيها وجوه الكيد وتظهر من خلالها صورة قصير ذلك الرجل الذي استطاع ، بدهائه وحكمته ، أنْ يوقع بالزباء ويفتك بها انتقاما لسّيده جذيمة الذي قتلته تلك الملكة . وهكذا فإنّ الذي يقرأ النّص يستحضر القصّة التي تختفي وراءه ، ويُقيم تناظرا بين صورة المخاطب ، وصورة قصير في قصّته مع الزباء .

ويتّضح لنا في خاتمة هذا البحث أنّ الأشكال التعبيرية في الأدب العربي القديم قد أثّرت إلى حدّ بعيد في تكوين رسائل الجاحظ الأدبية شكلا ومضمونا . وقد تبيّن أنّ الجاحظ يصوغ الغرض الأدبي الواحد بالاعتماد على أشكال تعبيرية متعدّدة . وهو ، في رسائله ، ينوّع طرق إدراج النصوص فتارة

(55) رسالة الجد والهزل ، المصدر المذكور أعلاه ، ص 96 .

يضمّن نصوصًا معروفة أو قطعا من نصوص ، وتارة يُشير إلى مادّة أدبية بعينها دون أَنْ يذكرها .

ولئن احتلفت هذه الأشكال وتنوّعت فإنّها تخدم الرسائل بما توفّره من تكامل في المعاني الأدبية والخصائص الأسلوبية .

ويمكن أنْ نقول إنّ هذا الاختيار المتكامل يلخّص ، في الحقيقة ، تجربة اللغة العربة في التعبير عن معنى أدبي بعينه كمعنى المراء في رسالة التربيع والتدوير .

ولا يخفى أنّ دراسة الأغراض الأدبية في ضوء الأشكال المعبّرة عنها عملٌ جليل الفائدة ، لامن الوجهة الأدبية فحسب ، بل كذلك من الوجهة الاجتماعية والحضارية بصورة عامة . وهو عمل يقتضي منّا أنْ ننظر في علاقة الفنون الأدبية بعضها ببعض ، نشأة وتطوّرا ، وأنْ نراعي الصلة العميقة بين تطوّر هذه الأشكال ، وتطوّر المحيط الحضاري الذي أفرزها .

وقد استطاع الجاحظ في رسائله أنْ يذهب شوطا كبيرا في هذا العمل ، وكان واعيا بخصائص هذه الفنون الأدبية كلّها . فألّف بينها تأليفا ينمّ عن وعي حضاري حادّ ، وتأصّل ثقافي عميق ، وصهرها في سياق أدبي واحدٍ . فوجدنا في رسائله كتابة نثرية قديمةً جديدةً : تستمدّ ملامحها العامّة من الفنون الأدبية الموروثة ، ولكنّها تستوعب طاقاتها الفنية ، وخصائصها البيانية ، وتولّد منها مجتمعةً نمطا من الكتابة تميّز به النثر الفني في القرن الثالث للهجرة .

صالح بن رمضان

مساهمة في اصلاح
نطق العربية لغير الناطقين بها من الفرنسيين

بقلم : عز الدين المجدوب

يلاحظ المدرّس لاية لغة أجنبيّة أن صوتيات اللغة المدرّسة تمثّل أول صعوبة يواجهها الطالب . وكثيرا ما تتحوّل هذه الصعوبة الى عقبة حقيقية تنعكس على جميع مستويات اللغة وتكسر قدرة الطالب على الفهم والافهام .

وتزداد هذه الصعوبة تعقّدا كلّما تباعدت القرابة بين اللغة الامّ واللغة الاجنبيّة مثلما هو الحال بين الفرنسية والعربية .

لذلك يمثّل تعليم أصوات العربية وتدريب طالبيها على النطق السليم ألحّ مهمّة يضطلع بها المدرّس .

ونحن نرى أن النجاح في هذه المهمة يقتضي الالمام بأهم نقط الاتفاق والاختلاف بين صوتيات اللغة الامّ وصوتيات اللغة الاجنبية . ذلك أنّه أصبح من المسلّم به اليوم أن الطفل وان كان قادرا على تعلّم لغة أيّة مجموعة ينشأ فيها بسرعة فائقة . الا أنه ينغلق تدريجيا على كل اللغات الاخرى كلما تقدّمت به

السن . لانه يكتسب حسب تعبير تروبا تسكوى « غربالا فونولوجيا » (1) يجعله يدرك الاصوات التي لا مقابل لها في نظام لُغَتِهِ الام .

لذلك تراه ينزع الى تقريب الاصوات التي يسمعها في لغة أجنبيّة من الاصوات الموجودة في لغته الامّ رغم ما بينها من اختلاف كبير وهو يصنع ذلك على مستوى : السماع والنطق .

فهذه العادات الصوتية التي اكتسبها تصيبه بضرب من الصّمم (2) ازاء الاصوات الغريبة عنه وبالتالي تحول دونه ودون نطقها نطقا سليما .

لذلك نرى أن المقارنة بين الاصوات العربية والاصوات الفرنسية أمر ضروري ومفيد . ولو لم يكن في ذلك الا توقع الاخطاء وفهم أسبابها لقد كان ذلك ممّا يحتاج اليه . لكنا نعتقد أنّ ذلك ييسّر البحث عن حلول عمليّة لاصلاح الاخطاء وتجاوزها .

(1) عن Raymond Renard : Introduction à la méthode verbotonale

وانظر كذلك :

troubetzkoy : Principes de phonologie « Le système phonologique d'une langue est semblable à un crible à travers lequel passe tout ce qui est dit… L'homme s'approprie le système de sa langue maternelle. Mais s'il entend parler une autre langue, il emploie involontairement pour l'analyse de ce qu'il entend le crible phonologique de sa langue maternelle qui lui est familier » (pp. 54-56).

انظر كذلك ص 105 من :

Roman Jakobson : in Essais de linguistique générale traduit de l'Anglais et préface par Nicolas Ruwet — Edition Minuit.
in. 1. 4 Message et code.

(2) عن Raymond Renard في introduction à la méthode verbo-tonale أن أول من قال بالصمم الفونولوجي هو Evni Polivanov.

Cf. la perception des sons d'une langue étrangère, in le cercle de Prague, Change 3, Seuil 1969 p. 111-114 et « Travaux du Cercle lingustique de Prague 4, 1931)

تبرز المقارنة بين أصوات العربية وأصوات الفرنسية فروقا هامّة بين النظامين على المستويات التالية :

1 ـ على مستوى الحروف (3) .

2 ـ على مستوى الحركات .

3 ـ على مستوى المقاطع .

4 ـ على مستوى النبرة .

5 ـ على مستوى الظواهر التعاملية (لن نفرد للظواهر التعاملية عنصرا خاصا بها وذلك لوضوح العرض) .

I ـ مستوى الحروف :

يشترك النظامان في كثير من الحروف مثل الباء والميم والفاء الخ . . . وهذه الحروف المشتركة مكتسبات ايجابية باعتبارها تسهّل الانتقال من نظام اللغة الامّ الى نظام اللغة الاجنبيّة . ولكن اللغتين تختلفان من جهة ثانية في حروف تنفرد الفرنسية ببعضها وتنفرد العربية ببعضها الآخر .

ومن البديهي أنّ الذي يهمّنا في هذا المقام هي الاصوات التي تنفرد بها العربية أي تلك الاصوات التي لا مقابل لها في الفرنسية ويسمّيها بعضهم الخانات الشاغرة (4) فهذه الخانات الشاغرة هي التي ينبغي نظريّا أن تستقطب

(3) نستعمل حرف مقابل المصطلح الفرنسي consonne

(4) هي ترجمة لـ cases vides « وهي فكرة أساسية جاءت بها اللسانيات الحديثة وهي أن في كل لغة مواقع شاغرة أو محلات شاغرة cases vides بالنسبة الى سائر اللغات الأخرى والعكس بالعكس » عن مقال للاستاذ صالح القرمادي بعنوان دراسة في الحقلين الدلالين لكلمتي عين العربية و œil الفرنسية « ص 109 ـ من نشرية من نشريات مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس : اللسانيات في خدمة اللغة العربية ـ سلسلة اللسانيات عدد 5 سنة 1983 .

أخطاء الطلبة وهي بصورة أخرى مجموعة العوائق التي يواجهها طالب العربية في مستوى السماع والنطق . ولذلك ينبغي أن نوليها كل عنايتنا .

وهذه الحروف هي التالية : ط

ث ـ ذ ـ ظ أو ض (5)

ص

ق

خ

ح - ع

أ ـ هـ

وهي لا تقل عن أحد عشر صوتا . ولا يخلو حالها من ثلاث :

1 ـ أمّا أن تكون لها مخارج مفقودة في الفرنسية :

ـ مخرج ما بين الاسنان : ثـ ـ ذ

ـ أدنى الحلق : ح ـ ع

أقصى الحلق : أ ـ هـ (6)

2 ـ وأما أن يكون المخرج موجودا والسمة المميّزة مفقودة في النظام الفرنسي : مثل سمة التفخيم في الصاد والطاء .

3 ـ وأما أن تجمع هذه الحروف بالنسبة الى الطالب الفرنسي غرابة المخرج وغرابة السمة المميّزة مثل الظاء والقاف .

(5) استوت الظاء والضاد في النطق التونسي للعربية لذلك فنحن نعدهما حرفا واحدا ونلاحظ أننا نعتمد النطق التونسي منطلقا عند المقارنة بين النظام الفونولوجي للعربية والنظام الفونولوجي للفرنسية .

(6) انظر ص 42 من التصريف العربي من خلال علم الاصوات الحديث ـ الطيب البكوش .

الا أن الخانات الشاغرة لا تمثّل أوجه الاختلاف الوحيدة بين اللغات فاللغات قد تشترك في حروف أو في صفات ولكنها تختلف في توظيفها .

فالفرنسية والعربية تشتركان في حرفين هما الراء والغين (7) .

ولكنّ هذين الصوتين لا تجمعهما فيما بينهما علاقة واحدة ولا يؤدّيان في النظامين الوظيفة نفسها .

ذلك أن الراء والغين في الفرنسية انجازان مختلفان لصوتم واحد لا يؤدي تعويض أحدهما بالاخر الى تغيير في المعنى بينما يمثلان في العربية صوتين مختلفين يفضي تعويض أحدهما بالآخر الى تغيير في المعنى .

ويكاد يكون شأن الراء والغين في تباين توظيفهما شأن صفة التضعيف بين اللغتين .

فالعربية والفرنسية تشتركان أيضا في صفة التضعيف ولكنهما تتباينان تباينا شديدا في كيفية استغلاله . لان التضعيف موجود في الفرنسية باعتباره ظاهرة تعاملية (مثال : cette table) ولا يلعب في الغالب دورا فونولوجيا الا في حالات نادرة للتمييز بين زمنين في بعض الافعال .

«l'imparfait et le futur simple : je mourais / je mourrai»

أما في العربية فان صفة التضعيف تلعب دورا فونولوجيا واضحا للتمييز بين الوحدات اللغوية كما تلعب دورا أساسيا على المستوى الصرفي اذ هي اسلوب هام من أساليب الاشتقاق . ولذلك يمكن أن نتوقع أخطاء في النطق أو السماع في مستوى التضعيف .

(7) ان أخذنا بعين الاعتبار النطق المصري أمكننا أن نضيف صوتين آخرين تشترك فيهما العربية والفرنسية وتختلفان في توظيفهما هما الجيم التونسية والجيم المصرية التي تنطق ق . فهما في العربية انجازان مختلفان لصوتم واحد لا يؤدي تعويض أحدهما بالاخر الى تغيير المعنى بينما هما في الفرنسية صوتمان متباينان .

إنّ ما قلناهالى حدّ الآن لا يحيط بكل الفروق في مستوى الحروف بين العربية والفرنسية . وسبب ذلك أن اللغات لا تتباين لما يوجد بينها من خانات شاغرة ، ولا تتباين بما يكون بينها من اختلاف في توظيف بعض الاصوات أو الصفات المشتركة وكيفية استغلالها فحسب .

انها تختلف كذلك في كيفية نضد أصواتها في وحدات متعاقبة متناغمة بأيسر مجهود . وبصورة اخرى فان اللغات تختلف فيما بينها بنوعية الظواهر التعاملية التي تطرأ على صواتمها في تعاقبها . (8) تشترك الفرنسية والعربية في بعض الظواهر التعاملية مثل تقريب النون من الميم عندما تكون النون قبل الباء . لكن العربية تنفرد بظاهرة تعاملية هامّة ومتواترة بكثرة هي ادغام لام التعريف فيما يسميه النحاة العرب الحروف«الشمسية » لا نجد لها نظيرا في الفرنسية لذلك لن نستغرب اغفال الطالب الفرنسي لعملية الادغام هذه لان تقاليده الصوتية لا توحي له بضرورة ذلك .

هذا أهمّ ما نقوله حول ما يوجد بين العربية والفرنسية من فروق على مستوى الحروف . بقي أن ننظر في هذه الفروق على مستوى الحركات .

II ـ الحركات

ان أهم ما نلاحظه على مستوى الحركات أن الفرنسية تتضمن الحركات العربية الاساسية الثلاث ولذلك فالاغلب على الظن أن الطالب الفرنسيّ لن

---

(8) انظر R. Jakobson, les lois phoniques du langage enfantin et leur place dans la phonologie générale, (communication présentée au 5ème congrès international à Bruxelles (Sept 1939) N. S. Troubetzkoy — Principes de phonologie Paris Klincksieck, 1964 p.p. 368-369.

« Les sons ne sont jamais isolés. Ils sont les éléments d'une chaine. Chaque langue possède sa propre combinatoire : l'anglais et le français possédent en commun les phonéme /5/ /S/ /Z/ /Z/ /t/ /d/ /r/ mais normalement on ne trouve pas /Sr/ dans un mot anglais. De même, dans les mots français, on ne trouve pas les groupes /t/ ou /dz/. La plupart des langues parlées en Côte d'Ivoire connaissent les consonnes /p/ et /l/ mais jamais en combinaison /pl/ ».

عَنْ : Raymond Renard : introduction à la méthode verbo-tonale

يجد صعوبة في النطق بالنسبة الى هذه الحركات عكس الطالب العربي الذي يلاقي صعوبات جمة في تعلم نظام الحركات الفرنسية .

لكن الحركات العربية تمتاز عن الحركات الفرنسية بصفة المدّ وهو نوع من التضعيف . وهذه الصفة تلعب دورا فونولوجيا هامّاً في التمييز بين الوحدات اللغوية كما أنها وسيلة هامّة من وسائل الاشتقاق .

وليس ذلك شأن الفرنسية ذلك أن مدّ الحركات ان وجد لا يلعب أي دور فونولوجي . لذلك فان الحركات الطويلة هي مصدر الاخطاء عند الطالب الفرنسي .

أما بالنسبة الى الظواهر التعاملية فأهم ما نشير اليه هو تنافر اجتماع الكسرة والضمة وقبح تعاقبهما في العربية وهو ثقل تخفف منه العربية بتقريب ينشأ حسب السياق اما تَتَالِي كسرتين أو تعاقب فتحة وضمّة . مثل بِهُ ← بِهِ وَلَهِ ← لَهُ (9) .

III ـ المقاطع :

تختلف العربية والفرنسية كذلك في نوعية المقاطع المسموح بها وخصائصها . والذي يهمنا من ذلك أن المقطع في العربية لا يبدأ بأكثر من حرف ولا تسمح العربية بتتالي حرفين في بداية مقطع واحد . وهو معنى قولهم ان العربية لا تبدأ بساكن بخلاف الفرنسية .

لذلك تلجأ العربية عند التقاء الساكنين أي عند تعاقب حرفين ساكنين الى اضافة حركة الى أولهما تكون كسرة أو فتحة حتى تتجنب ظهور مقاطع غريبة

---

(9) انظر ص 69 من كتاب التصريف العربي من خلال علم الاصوات .

عن نظامها سواء داخل الكلمة الواحدة كما هو الشأن في الصيغ المزيدة (10) أو عند تعاقب الكلمات العربية داخل سلسلة الكلام وتلك ظاهرة الوصل .

ويمكن أن نتوقع اهمال الطلبة الفرنسيين للوصل خاصة وأن لغتهم تتضمن هذه المقاطع التي يلتقي فيها ساكنان وتحرص العربية على تفاديها .

IV - النبرة :

للنبرة دور هام في تحديد ملامح الكلمة وتوضيح معالمها وذلك بما تدخله على المقاطع المكونة لها من اختلاف وتباين يمنع تعاقبها تعاقبا رتيبا لا يعين على تفكيك سلسلة الكلام وتعيين الوحدات الكبرى المكونة لها (11) .

ولئن اختلف موقع النبرة في الكلمة من لغة الى أخرى واختلفت كذلك وظائفها وتعددت فالذي لا شك فيه أن تغيير موقعها ان لم يؤد دائما الى تغيير في المعنى مثلما هو الشأن في الانقليزية مثلا (12) فانه يشوه الكلمة ويمنع السامع من التعرف على الكلمة المقصودة .

بل ان سماع هذه الكلمة يتعذّر حتى اذا تم نطق كل صوتم من صواتمها نطقا مثاليا (13) .

---

(10) انظر ص 76 من المصدر أ نفسه .

(11) انظر ص 86 وما بعدها من A. Martinet. Elements de Linguistique Génerale Edition A. Colin.

(12) انظر ص 87 من المصدر نفسه الامثلة التالية an in crease/ to in crease وكذلك a permit/ to permit وكذلك an import/ to import في ص 186 من B. Malemberg. Les Domaines de la phonétique P.U.F.

(13) انظر ص 88 من A. Martinet : E lements de linguistique Générale « C'est ce qu'on résume en constatant qu'un mot mal accentué n'est pas compris, même si les phonémes qui le composent sont prononcés à la perfection ».

ولذلك وجبت المقارنة بين موقع النبرة في العربية والفرنسية . بالنسبة الى الفرنسية نلاحظ « أن النبرة تقع دائما عكس ما يتم في اغلب اللغات على المقطع الاخير من الكلمة » (14) وبذلك تكون وظيفة النبرة في الفرنسية التنبيه الى نهاية الكلمة في السلسلة المنطوقة .

أما العربية فان النبرة فيها لا تقع على المقطع الاخير من الكلمات الا في حالة واحدة يمكن أن نغفلها لقلة تواترها . (15) وهي تقع حسب ما انتهى اليه الاستاذ الطيب البكوش على المقطع الثالث ابتداء من آخر الكلمة أو على الذي سبقه اذا كان طويلا (16) .

وذلك يعني ان النبرة بصفة عامة تكون اما في أول الكلمة العربية اذا كانت ثلاثية ومتكونة من مقاطع قصيرة وأما أن تكون في وسط الكلمة في المقطع الموالي لاخر الكلمة أو الذي يليه . وفي كل الحالات فان البون يظل شاسعا بين موقع النّبرة في الفرنسية والعربية وبالتالي فان الاختلاف كبير بين ملامح الكلمة الفرنسية والكلمة العربية .

ولذلك يمكن أن نتوقع من الطلبة اخطاء كثيرة على مستوى النبرة من شأنها أن تشوّه بنية الكلمة العربية على ألسنتهم .

---

(14) انظر ص 64 من PM LEON : introduction à la phonétique corrective éd. Hachette/Larousse.

(15) انظر ص 79 من كتاب التصريف العربي من خلال علم الاصوات الاستاذ الطيب البكوش : عند الوقف « فان المقطع الطويل جدا يحمل النبرة ولو كان آخرا مسلمون » ؛

(16) في الاصل : تقع النبرة على المقطع الثالث ابتداء من الاخر أو على الذي يليه اذا كان طويلا . وقد بدأ لنا من الضروري تعويض كلمة يليه بسبقه بما أن انطلاق العدّ يكون من آخر الكلمة . لأنّ ذلك اقرب الى ما يقصد المؤلف .

مدوّنة الاخطاء

لقد أبرزنا من خلال هذه المقارنة أهم الفروق بين النظام الصوتي للفرنسية والنظام الصوتي للعربية . وقلنا ان هذه الفروق هي التي ينبغي أن تستقطب نظريا اخطاء الطلبة .

فهل يدعم الواقع اللغوي والمباشرة اليومية للطلبة هذه التوقعات النظرية . وبصورة أخرى هل يدعم الاستقراء ما يفيده الاستنباط النظري ؟

للاجابة عن ذلك قمنا بتكوين مدونة مصغرة لاخطاء الطلبة المبتدئين وقد تم تكوين هذه المدونة بطريقتين :

1 ـ انطلقنا من تسجيل في المخبر لدرس من دروس السنة الاولى من أستاذية العربية بمركز اللغات الاجنبية التطبيقية بجامعة كلارمون الثانية وهم طلبة فرنسيون مبتدئون بأتم معنى الكلمة .

واحتفظنا بأشرطة الطلبة ثم استمعنا اليها وسجلنا أخطاء هم بكل تأنّ .

2 ـ أثرينا مدونتنا ببعض الاخطاء التي لاحظناها أثناء التدريس .

وان أوّل ما نلاحظه بعد تأمل هذه المدونة أن اخطاء الطلبة اخطاء مقيّدة لا مطلقة وأنها تتفق اتفاقا كاملا مع التوقعات التي تنبيء بها المقارنة بين النظام الصوتي للعربية والفرنسية ولذلك فاننا سنعرضها متبعين التخطيط نفسه الذي اعتمدناه آنفا عند المقارنة بين نظامي اللغتين .

ـ الحروف :

لقد سبق أن استخلصنا من المقارنة أن الاحد عشر صوتما التي تمثل الخانات الشاغرة تتوزع الى ثلاث أصناف :

1 ـ اما أن لها مخارج منعدمة في الفرنسية .

2 ـ وأمّا ان لها سمات مميّزة منعدمة في الفرنسية .

3 ـ وأمّا أن لها في الآن نفسه سمات ومخارج مفقودة في الفرنسية .

1 . بالنسبة الى الصواتم التي لها مخرج مفقود في الفرنسية نلاحظ أن الطالب يميل في الغالب الى تقريبها الى أقرب مخرج من مخارج الحروف المألوفة عنده في لغته الامّ .

فالحروف التي يكون نطقها من بين الاسنان تتحوّل الى حروف أسنانية أو شفوية أسنانية من ذلك .

أن الثاء تنطق فاءا :

مثال : ثانيا ← فانِيا

أو تنطق سينا :

ثمّ ← سمّ

أكثر ← أكسر

أما الذال فتنطق تارة دالا وتارة زايا .

مثال : أستاذ ← أستاد

بينما تتحول القاف الاقصى حنكية او اللهوية الى كاف أدنى حنكية .

مثال : منزلكم كالقصر ← منزلكم كالكسر .

قهوة ← كهوة

وشبيه بذلك شأن الخاء التي تتحوّل الى غين

أما الحروف التي لا يمكن تقريب مخارجها من مخارج مألوفة في الفرنسيّة (هي خاصة الحروف الحلقية (ح/ع/هـ/أ) فان الطلبة ينزعون الى خلط بعضها ببعض فتشتبه على الطلبة هذه الصواتم الجديدة ونجد خلطا بين :

العين والخاء مثال : أسعار ← أسخار

وبين العين والهاء مثال : المعلّم ← المهلّم

وبين العين والهمزة مثال : عليّ ← أليّ

كما أن كل حرف من هذه الحروف يختلط مع الحروف التي اختلطت معها العين من ذلك :

المحامي ← المهامي
← المؤامي
← المخامي
أن ← عن
الحرفاء ← الهرفاء

2 ـ أما بالنسبة الى الحروف التي لا تتميز عن نظيراتها الفرنسية الا بسمة مميّزة واحدة (التفخيم او الهمس) فان الطلبة الفرنسيين ينزعون الى تقريبها من مقابلها الفرنسي لذلك تراهم ينطقون :

الطاء تاء : الطبيب ← التبيب
والصاد سينا : مضمون الوصول ← مضمون الوسول
في فرصة اخرى ← في فرسة أخرى
والخاء غينا : صباح الخير ← صباح الغير

3 ـ أما الحروف التي اجتمع فيها على الطالب مخرج جديد وسمة مميزة جديدة شأن الظاء أو القاف فان الطالب الفرنسي لا يخلو خطؤه من ثلاث :

أ ـ اما أن يفشل في نطْق المخرج والسمة المميزة معا .
فتستحيل الظاء على لسانه دالا : خضر ← خدر
أو زايا : خضر ← خزر

ب ـ وأمّا أن ينجح في تحقيق احدى خصائص الحرف الجديدة عليه فينجح مثلا في نطق المخرج ولا يفوق في نطق التفخيم .

مثال : أنتظر ← أنتذر

ج ـ وأما أن ينجح في نطق سمة التفخيم ولا يوفق في نطق المخرج فنجد .

أنتظر ← انتدر (مع دال مفخمة)

أو أنتظر ← أنتزر مع زاى مفخمة

أما الاصوات التي تتّفق العربية والفرنسية فيهما وتختلفان في توظيفهما شأن الرّاء والغين فان الخطأ الشائع يتمثل في اسقاط العلاقة التي تربط الصوتين في اللغة الامّ على نظام اللغة الاجنبية ولذلك ينزع الطلبة الفرنسيون الى معاملة الغين والراء باعتبارهما انجازين مختلفين لصوتم واحد. فينطقون غينا. ولا يميزون بين الكلمات التي لا يفرّق بينهما الا حرف الراء أو الغين . وينعكس ذلك على الرسم .

بقيت الصفات التي تتفق فيها العربية والفرنسية وتختلفان في توظيفها ونعنى بذلك صفة التضعيف . فان الطلبة لا يدركون قيمة التضعيف في العربية وكأن ضربا من الصمم يمنعهم من سماعها ويميلون الى اهماله في النطق . وينعكس ذلك على الرسم .

وفيما يخصّ الظواهر التعاملية فأهم ما نشير اليه اغفال إدغام لام التعريف في الحروف الشمسية ولذلك نجد الطلبة الفرنسيين يقولون :

أَلْدار عوض الدّار

وأَلْطبيب عوض الطبيبُ

II. الحركات :

أهمّ أخطاء المبتدئين الفرنسيين في هذا المجال تتمثل في اهمال الحركات الطويلة في النطق وعدم ادراكها عند السماع واغفالها تبعا لذلك في الرسم . وهم في ذلك يتعاملون معها بالغربال الفونولوجي الذي اكتسبوه مع الفرنسية

لغتهم الام . لذلك نراهم لا يميزون على مستوى السماع والنطق بين الكلمات التي لا تختلف فيما بينها الا بحركة طويلة . مثل كتب وكاتب .

وهم كذلك لا يستثقلون تعاقب حركات متنافرة وخطؤهم المميّز في ذلك هو نطقهم :

لَهُ ← لِهُ

وَ بِهِ ← بِهُ

III . المقاطع :

يمثل اغفال الوصل أهمّ خطا نسجله في هذا المستوى وهو ناشيء عن تباين خصائص المقاطع في العربية والفرنسية .

IV . النبرة :

ان اختلاف موضع النبرة بين الفرنسية والعربية ينعكس انعكاسا خطيرا على نطق المبتدئين الفرنسيين . ذلك أنهم يسقطون تقاليدهم الصوتية في هذا المستوى على اللغة المتعلمة وتراهم يشوهون ملامح الكلمة العربية لانهم يوقعون النبرة على آخر مقطع من مقاطعها .

ويبدو لَنَا هو المسؤول الأول عن اهمال الحركات الطويلة والتضعيف لان النبر كثيرا ما يقع في العربية على المقاطع التي فيها حرف مدّ أو القسم الاول من حرف مضاعف .

بعد أن قارنا نظام الاصوات في العربية والفرنسية وأبرزنا ما بينهما من نقاط الاتفاق وخاصة ما بينهما من نقاط اختلاف . وبعد أن فحصنا أخطاء الطلبة ورأينا ارتباطها المتين بالفروق الملاحظة بين الفرنسية اللغة الام والعربية اللغة

الاجنبية يبدو لنا أنه يمكننا أن نقبل على التفكير في الاساليب الكفيلة بمعالجة هذه الاخطاء وتجاوزها .

ونود أن نشير بادىء ذى بدء الى أن ما قمنا به الى حدّ الان يمثل خطوة هامة في هذا الاتجاه ذلك أننا قد حددنا تحديدا دقيقا مختلف الصعوبات التي يلاقيها المبتدىء الفرنسي عند تعلم لغة الضاد .

ونود أن نشير ثانيا الى أن المجال لا يتسع للدخول في جزئيات التمارين التي ينبغي تقديمها للطلبة وتمرينهم عليها .

وانما نحدّد بعض المبادىء العامة التي تكون منطلقا لمدرّس العربية بصفتها لغة أجنبية حتى يبوب الصعوبات ويضبط جدْولة لها .

ويبدو لنا أنه يمكننا أن نعتمد المبادىء التالية عند ضبط التمارين الخاصة بالنطق .

أولا : ان اصلاح خطا من أخطاء الطلبة لا يعني اضافة صوت منعزل الى مكتسبات الطالب ولا يعني اصلاح نطق صوت منعزل حرفا كان أو حركة وانما يعني اكساب الطالب نظاما فونولوجيا جديدا .

أ ـ لذلك وجب التحلي بالصبر أمام سقوط الطلبة في أخطاء كنا نظن أننا تجاوزناها . فان هذه الاخطاء لن يقع تجاوزها بصفة نهائية الا عندما يتقن الطالب نظام الاصوات العربية .

ب ـ بما أن الامر يتعلق بحذق نظام فونولوجي لا بتعلم أصوات منعزلة فان تجربتنا المتواضعة أفادتنا أنه من الضروري العناية بموقع النبرة وبالظواهر التعاملية في العربية عنايتنا بنطق بقية الاصوات العربية . بل نقول ينبغي البداية بها وايلاؤها المرتبة الاولى في سلّم أولويات اصلاح النطق .

ثانيا : ينبغي ان ننطلق في اصلاح نطق المبتدىء الفرنسي مما هو موجود في نظام لغته الام وأن نبني تمارين اصلاح نطقه على هذا الاساس ومثال ذلك أن نبدأ :

- بالتضعيف في الحروف .
- أو بالمدّ في الحركات .
- أو أن ننطلق من مقابلة الجهر والهمس الموجودة في الفرنسية لتقديم الخاء باعتبارها تقابل صوتا مجهورا في لغته الام هو الغين .

ونوالي ترتيب صعوبات نطق العربية عند الفرنسيين حسب المبدأ المذكور .

ثالثا : ان صعوبات طالبي العربية من الفرنسيين ليست صعوبات في النطق فحسب بل هي كذلك صعوبات في السّمع . لذلك

أ ـ وجب أن نضبط تمارين نطالب فيها المبتدئين الفرنسيين بالتمييز بين الاصوات الجديدة عليهم . ونلحّ على أن عجز الطالب عن ادراك الاصوات العربية أخطر من عجزه عن نطقها .

ب ـ وينبغي كذلك أن نقدم الحروف الصعبة في أنسب جوار صوتي يساعد على سماعها ونطقها . مثال ذلك : تقديم العين بين حرفين مجهورين نحو بعد أو تقديم الحاء بين حرفين مهموسين نحو : تحت وتغيير النغمة (le ton) حسب نوعية كل حرف .

عزّ الدين المجدوب

المكانُ ودلالاتُه في رواية
« اللّجنة » لصنع اللّه ابراهيم

بقلم : عبد الصمد زايد

يعدّ صنع اللّه ابراهيم من أبرز الكتّاب الرّوائيين المصريين المعاصرين . وقد ولد في القاهرة سنة 1937 . ودرس القانون ثم الإخراج السّينمائي . وعمل في الصحافة وقد ساقته مشاركته في الحركات السياسيّة المعارضة في عهد جمال عبد النّاصر الى السّجن من سنة 1958 الى سنة 1964 . وأغلب انتاجه الرّوائيّ متأثّر باختياراته السياسيّة ونزعته الى الخروج عن مألوف الكتابة الرّوائية التقليديّة وشجاعته في تناول الموضوعات الدّقيقة كالسياسة والدّين والجنس . ومن أهمّ رواياته « تلك الرّائحة » وقد ظهرت سنة 1966 . وهي باكورة أعماله . وقد صُودِرَت ، و « نجمة أغسطس » التي نشرت سنة 1974 ، و « بيروت ، بيروت » التي ظهرت سنة 1984 . أما روايته « اللّجنة » (1) . فقد صدرت سنة 1981 . وهي من أدعى أعماله للاهتمام

---

(1) للمؤلف روايات أخرى منها « يوم عادت الملكة القديمة » (1980) - « عندما جلست العنكبوت تنتظر » (1980) - « الحياة والموت في بحر مُلون » (1983) .

لغرابة موضوعها . وتتلخّص أحداثها في مثول الرّاوي أمام اللّجنة لما يشبه الامتحان . الاّ أنّه امتحان غامض غريب طُلِب فيه منه ان يقدّم ترجمته الذّاتيّة في كلّ تفاصيلها ثم اضطرّته اللّجنة بكل وقاحة الى التَعَرِّي أمامها ففعل . ثم دعَتْه الى ان يحدّثها عن أبرز ظاهرة تميّز العصور الحديثة فحدّثها عن الكوكاكولا . ثم أوكلت اليه مهمّة اعداد بحث عن « ألمع شخصية عربيّة » فاختار بعد تردّد طويل شخصيةً تُسَمَّى « الدّكتور » وهي شخصية سياسيّة اقتصاديّة اشتهرت بالانتهازيّة والقدرة على الوصول الى مواقع النفوذ لتسخيرها لمصلحتها الذّاتيّة . وما كاد الرّاوي يتقدّم في دراسته هذه حتّى غُلِقَّت في وجهه كلّ مصادر المعرفة . فتدبّر أمره بطرق ملتوية وواصل بحثه . فتدخّلت اللّجنة بتهديد السّلاح لحمله على العدول عن هذا البحث . وأقامت رقيبا لها عليه في منزله ذاته . فقتله الرّاوي . فحكمت عليه اللّجنة بأن « يأكل نفسه » . فانقطع عن العالم وانزوى في منزله ينفّذ على نفسه هذا الحكم .

و « اللّجنة » مدينةبقيمتها لجملة من الميزات . من أهمّها طرافةُ بسطها للقضية السياسيّة العربيّة في كل جرأة ، وجِدّةُ طريقة معالجتها لهذه القضيّة . وقد سلكت في بسط القضيّة مسلكا مزدوجا يؤلّف بين الواقعيّة والرّمزيّة . واختارت لعلاجها سبيلَ المزج بين الهزل والجدّ . ولفَّتْ كلَّ ذلك في نفَس من السّخرية عنيف حادّ . فكانت الرّواية ، نتيجة لذلك ، جادَّة الى أقصى حدود الجدّ ، هازلة الى أقصى حدود الهزل . وقد حَمَل المكانُ أعباءَ هذا الازدواج . واضطلع الى حدّ كبير بمهمّة التّعبير عنه وتجسيمه . لذلك رأينا فيه منفذا ممكنا الى أسرار هذه الرواية ، ومنطَلَقا لقراءتها . منه نرصدُها . ومنه نحاول فهمَها وتحليلها . ولنا في بلوغ هذا المسعى مستويات من التّفكير ، يقضي أوَّلُها بوجوب الكشف عن بنية المكان في هذا الأثر وكيفيّة تعامل أجزائه فيما بينها . ويحتّم الثاني دراسةَ هيئة المكان من خلال مختلف الصُّور التي ظهر فيها . أمّا

الثالث فمهمّتُه استغلال طبيعة هذه الصّور للجواز الى مدلولاتها . والأفضل تناول هذه المستويات متفرّقة ومتجمّعة معا . فمن مراحل التحليل مراحلُ تستندُ الى هذا المستوى أو ذاك ، ومراحل تدعو الى الجمع بينها كلّها أو في جزء منها .

والمكان في « اللّجنة » يتركّب من ثلاث رُقَع أو ثلاثة مواقع : هي مقرّ اللّجنة . وتنتصب فيه اللّجنة في شكل جماعة منظّمة . والشارعُ وفيه يضطرب الناس فيما يضطربون فيه عادة من شؤون ومشاغل ومآرب . والمنزلُ وفيه يسكن الرّاوي أو البطل ليمارس الجانب الذّاتيّ من شخصيته . وليست الرواية غير قصّة هذه الأماكن الثلاثة وقصّة البطل في تعامله معها وانتقاله بينها . أو هي قصّة الفرد في مواجهته للجماعة المنظّمة الممتلكة للقرار أو المساهمة في الإيحاء به والدّفع إليه على الأقلّ ، ومواجهتِه للجماهير المكونة للمجتمع عامّة . وعلى هذه الجماهير وبها يقع تنفيذ القرار . تلك هي الخطوط الكبرى لبنْية المكان في « اللّجنة » ومن الضّروريّ في مرحلة أولى تتبُّعُها خطّا خطّا أو موقعا موقعا . فعليها ستنْبني بقيّة أطوار البحث .

I - مركّبات المكان في « اللّجنة »

يتكوّن المكان في « اللّجنة » من ثلاث مساحات أساسيّة . هي مقرّ اللّجنة والشارع والمنزل . وقد قدّمَتها الرّواية على النّحو التّالي :

1 - مقرّ « اللّجنة »

لا تحدّد الرّوايةُ لمقرّ اللّجنة حيّزا معيّنا مضبوطا . اذ لم تذكر لا الشارع الذي يُوجَد فيه . ولا العددَ . ولا الحيّ أو النّاحيةَ . ولم تصف المبنى الحاوي لمكاتبها . واكتفت بالإشارة الى غرفة ودهليز . الاّ أنّها إشارة سريعة متعجّلة . من ذلك مثلا ما التفَّ به الدّهليز من إبهام . فقد قالت عنه الرّواية : « كان

الدّهليز خاليا يأتيه الضوءُ من نافذة كبيرة بالجدار المقابل تطلّ فيما يبدو على فناء مهجور» (2) . وقال عنه البطل : « مضيتُ في دهاليز خالية ووَقْعُ اقدامي يتردّد خلفي الى ان غادرتُ المبنى » (3) . والجملتان تلحان إلحاحا بيّنا على كون الدّهليز خاليا من كلّ مظاهر الحياة . فلا موظّفين يتحرّكون فيه . ولا أصوات تعمّره . وكأنّه لا سمة له غير الفراغ . وكذلك كان حظّ هذا الدّهليز أو هذه الدّهاليز من النّور . إذ لم تُصِب منه الاّ القليل . وقد أفصح الرّاوي نفسه عن ذلك حين قال متحدثا عن خادم اللّجنة : « تركني وحيدا في الممرّ الكابي الضّوء » (4) .

وممّا يهمّنا في هذا الدّهليز التّنكيرُ الغالب عليه . فقد استوى دهليزا لا لون له . ولا معمار يميّزه . ولا حركة تخصّه . ولا وظيفة بادية تبرّر وجودَه . انّه مكان لا هويّة له ، ولا اسم ، ولا أثر فيه لأيّ حضور بشريّ . ومن شأن الأمكنة ان تنقلب الى خلاء مُوحِش بارد كلّما أعوزَتْها حيويّةُ الحضور البشريّ وانعدمت منها بصماتُ الانسان . لكلّ ذلك بدا الدّهليز وكأنّه يُضمر شرّا ، ويتحفّز الى الإيذاء . وارتسم عليه ملمح عدائيّ . وهو بانطوائِه على نفسه ، خارج بقيّة رُقَع المدينة الآهلة الأنيسة واندساسِه في درجة من الإضاءة هي أقرب الى الظّلمة ، لا يمكن ان يَسلم من الشُكُوك وسَيِّىءِ الظّنون . والحقّ أنّ المؤلّف هو الذي قدّر له هذا القَدَرَ . فكذلك فقط يسنح لهذا الدّهليز ان يكون جزءا من الرّمز الأساسيّ في هذه الرّواية . وهو اللّجنة . بل ما الدّهليز من بعض الوجوه غير إسقاط لمحتوى اللّجنة الرّمزيّ على المكان . ولكنّه لا يضطلع وحده بهذه المهمّة . فله في الغرفة التي تفتح عليه والتي تجتمع فيها اللّجنة سَنَدٌ يكمّله ويجلُوه .

---

(2) المصدر . دار الكلمة للنشر . ط 2 ـ 1983 . بيروت . ص 122 .
(3) المصدر السابق ص 126 .
(4) الصنمدر ص 126 .

وأوّل ما يشدّ الانتباه في أمر الغرفة شبهُها بالدّهليز من حيث الغموض والإبهام . حتى انّ الرّواية لم تُشر اليها الاّ عرضا أثناء الحديث عن اللّجنة . من ذلك مثلا قول الرّاوي متحدثا عن أعضاء اللّجنة : « وجدت أعضاءها (. . .) يجلسون خلف الطّاولة التي وُضعت بعرض القاعة » (5) . وقوله حينها هم بالدّخول : « وضعتُ يدي على المِقبض الأبيض المصنوع من الخزف » (6) . وليس أكثر عُريا ولا أدعى الى الرّيبة من هذه الغرفة التي لا تعمّرها الاّ طاولة . لذلك بدت أقربَ الى السّجن . والأمكنة العارية تدفع ، كالسّجون ، الى الارتداد على النّفس . وتحكم على أصحابها بالوحشة . وتضعهم موضع الحرج والضّيق بدليل التّفاعل القائم بين الإنسان والمكان . وبمقتضاه يتسرّب الى الإنسان بعضٌ ممّا في المكان من خصائص . والمكان بدوره آخذ ممّا في أصحابه من خصائص وسمات . فَهُم الصّانعون له . وهو أيضا صانعٌ لهم . لذلك اقترنت قيمة المكان بمحتوياته .

وبوحي من هذا المنطِق وجب النظر في بقيّة محتويات الغرفة . ومنها اللّجنة نفسها . واللّجنة جماعة منظّمة . فعدد أعضائها « كثير حقا » (7) و « كان يتوسّطهم عجوز متهالك ذو عوينات طبيّة سميكة » (8) . وهو ليس الوحيد الذي يحمل عوينات . بل إنّ « أغلبهم يضع عوينات سوداء كبيرة على وجهه » (9) . وقد حرصت « اللّجنة » على ان يبقى وجودُ افراد هذه الجماعة نكرة . فلم تذكر الملامح البارزة أو السّمات أو الهيئات . ولم تصف الحركات . ولم تخصَّ هذا الوجهَ أو ذاك بميزة تميّزه وتفصح عنه . واكتفت

(5) المصدر ص 101 .
(6) المصدر ص 8 .
(7) المصدر ص 11 .
(8) المصدر ص 11 .
(9) المصدر ص 11 .

بالوصف الخارجيّ السّريع مثل الطول أو القصر أو الهرم . والـمرجَّح أنّ هذا الإبهام مقصود . فالرواية امتنعت عمدا عن أيّة محاولة لاستبطان الشخصيات وتحليلها والسّعي الى فهمها . واختارت الوقوف على سطحها . فبدت اللّجنة منغلقة على نفسها منطوية على السرّ لا تكشفه ، حريصة على ان لا يهتك أستارها أيّ مُجْتَرِىءٍ أو مُغامر . ولئن اختار أعضاؤها النظارات السوداء الكبيرة فلكي يتحصّنوا بها ويضربوها جدارا يموت عنده نظر الفضوليين . وتبقى عيونهم من ورائه عذراء لا يغتصبها الغرباء . فالعيون معابر الى الشخصيّة . ولا يسعها امام المُلاحِظ الدّقيق العنيد غير ان تستسلم وتكشف عن حقيقة أو جزء من حقيقة أصحابها . وقد احتاطت اللّجنة لمثل هذا الـمآل . فعطَّلت نظر الآخرين لتختصّ هي من دونهم بالنّظر وتحتكره . لأنّها تعرف انّ النّظر هو الذي « يصفّي ويسيطر ويضمن البُعد اللاّزم . فهو موقف . وهو حكم » (10) . لذلك ما كانت لأفراد اللّجنة وجوه . إنّما الوجوه عندهم أقنعة تموت فيها هويّتهم وبشريّتهم وتتأكّد حقيقتهم كممثّلين لأدوار معيّنة .

ذلك هو مقرّ اللّجنة . عالجناه في مستوى طبيعته ومستوى محتواه . فظهر أَنْ لا حيّزَ له في الفضاء يَنْشَدّ إليه ويتحدّد به . ولا عنوان يجد فيه جذورَه وسبيله الى الانغراس في أرض الحياة . فهو أقرب الى اللاّ ـ مكان . أو هو ان شئتَ كلّ مكان . والمكان إنْ لم نعرف له حدودا ينتهي عندها وميزات تتجسّم فيها خصائصه وملامحُه يصبح نَفْيا لنفسه . إذ من أهمّ خصائص المكان « أن يكون ما لا يمكن لبقيّة الأمكنة ان تكونه » (11) . ثمّ انّ مقرّ اللّجنة ، الى ذلك ، يبدو منعزلا . لا يتنزّل ضمن محيط معيّن . وكأنّه لا يرتبط ببقيّة أجزاء

(10) ج . مَاتُوري : l'espace humain ط 2 Nizet باريس 1976 ص 216 .
(11) ج . بُولِي : l'espace proustien ص 49 . ط 2 . gallinart باريس 1982 .

المدينة . فلا طُرُق تؤدّي اليه . وهو نفسه لا يؤدّي الى أيّ مكان . وعلى حدّ قول بُولي Poulet ملخّصا أحد آراء بُرُست Proust ليس أخطر ولا أغرب من هذه الأمكنة « التي يموت على بابها الطّريق . فاذا هي عاجزة عن الإيصال الى أيّ مكان آخر . واذا وجودها قائم على نفْي بقيّة الأمكنة أو تعطيل الجواز إليها » (12) وبناء اعلى ذلك تصبح اللّجنة غير معروفة تقريبا . لأنّ من لا نعرف له مكانا لا نعرف من هو وما يقصد وما يبغي . « فالمكان هو الذي يحدّد صورة أصحابه ويمنحنا العماد اللاّزم الذي يقتطعون بمقتضاه مستقرا لهم بأذهاننا » (13) . ولا شكّ في انّ صورة المكان على نحو ما وردت في « اللّجنة » هي الصّانعة للأبعاد الرّمزيّة لهذه الجماعة . بحيث يجوز اعتبارها الجماعةَ السياسيّة التي قد تكون « النظام السياسيّ » وقد تكون بعض القوى الرسميّة أو شبه الرسميّة المساندة للنظام لكونه ضامنا لمصالحها . والرّواية نفسها قد أفصحت بدون التباس وفي مناسبات كثيرة عن المحتوى السياسيّ للّجنة . وتبعا لذلك يصبح مقرّها رمزا للمكان السياسيّ بصفة عامّة . اذ فيه تجتمع هذه اللّجنة كقوّة منظّمة . وفيه تمارس محتواها . وفيه أيضا تتّخذ القرارات النّاتجة عن هذا المحتوى . وكونُ المقر لا وظيفة له خارج هذا النشاط هو المبرّر للاسم الذي أطلقناه عليه ، وهو المكان السياسيّ . وقبالة اللّجنة يقف الشارع . فهو الذي تصبّ فيه قرارات المقرّ . وتقع عليه ارادة اللّجنة لتشمله بمختلف ضروب التغيُّر والتحوُّل . وتنحت له ما شاءت من الهيئات والمضامين ممّا سنحاول بيانه مباشرة .

---

(12) المرجع السابق ص 22 .

(13) G. Poulet l'espace proustien ط 2 . Gallimard ص 49 باريس 1982 .

2 ـ الشـارع

الشارع ، كمقر اللّجنة وككلّ مكان ، هو مساحة ماديّة معيّنة ووظيفة أو جملة من الوظائف في آن واحد . والرّواية قد عرضت منه لهذين المظهرين . فقدّمته من حيث هو حيّز ماديّ تقديما قاسيا . فاذا هو مسرح للكلاب . يقول الرّاوي : « **كنت اعرف أغلب هذه الكلاب وأرى أجسادها الهزيلة بالنّهار في** شوارع الحيّ وعند أقمام الزّبالة . كانت جَبَانَة لا تملك القوة على ايذاء أحد . وكل ما تملكه هو عقيرتها التي ترفعها بدون مناسبة وخاصة بعد ان يهجع الناس . ويبدو وأنّ النّباح قد آذى مسامع أحد الشخصيات اللاّمعة من سكّان الحيّ . فاستأجر من يتصيّدها . واصبح النباح يختلط في أغلب اللّيالي بطلقات الرّصاص » (14) . والصّورة بليغة الدّلالة على اختلال الأمن وتفشيّ أسباب المرض وانعدام الرّاحة وشعور الناس بالعجز الاّ من كان منهم ذاجاه وسلطان فحمايته لنفسه ممكنة . ولكنّها حماية لا تقضي على الدّاء بقدر ما تخلق الى جانبه داءا آخر تزداد به البلبلة وتحتدّ . ثم انّ الصّورة الى ذلك تفضَح في المكان وجوهَ شين أخرى لا تقلّ قبحا عمّا سبق . ومنها خضوع الشارع لسلطان الأقوياءِ الذين يعاملونه على أنّه ملك لَهُم لا للهيئة الاجتماعيّة ككلّ . ومنها أيضا غياب السلطة السياسيّة التي أوكلت اليها مهمّة تعهّدِ الشارع وحفظ أمنه وسلامته . وفي نفس هذا السّياق تقريبا تتنزّل ظاهرة الأوساخ . وقد أَلَحَّت عليها الرّاوية . فاذا البطل يقول : « اتّخذت طريقي الى منزلي وأنا أتلمّس الخطى بصعوبة بين أكوام السّلع (. . .) والأتربة والحفر والقاذورات التي لا يجد أحد الدّافع لإزالتها أو حتى الشكوى من وجودها » (15) الى هذه الحالة

(14) المصدر ص 81 .
(15) المصدر ص 140 .

كان مآل الشارع . وهو مآل حزين حقا . تزداد فيه كمية القبح وتكبر معه جراحُ الشارع لتصنع منه كائنا مريضا . فهو مُغبرّ ، مُنهَك تثقله الأتربةُ . ويلطخ وجهَه ركامُ الأوساخ . وتشوّه جسمَه الحفرُ وتمسخه . ولئن لم يغر عليه أحد فلموت روح الاجتماع في أهله وغلبةِ شعورهم كأفراد منعزلين على شعورهم كأعضاء من جسم واحد هو المجتمع . وهم ، بسلوكهم هذا ، إنّما يقتلون في الشارع المساحةَ الاجتماعيّة . وكأنّهم لا يدركون انّ هذه المساحة هي الموطن الطّبيعيّ لممارسة أنفسهم ككائنات اجتماعيّة . وفي قَتْلها تضييقُ لفُرَصِهم في تعاطي الوظيفة الاجتماعيّة عامّة .

والأدهى من ذلك انّ تقلّص هذه المساحة الحيويّة ما ينفكّ يزداد ويتضاعف بفعل ما تكدّس عليها من سلع ومعروضات . ففي الشارع كان البطل يتلمّس الخطى « بصعوبة بين أكوام السّلع المستوردة » (16) . ودكّان بائع المشروبات لن يلبث « أن يمتلىء بالسّجاير والحلويات الأجنبيّة ثمّ السّلع المستوردة الأخرى من شرائط وعلب وأجهزة » (17) . وان كانت « ماهية البشر تتطابق مع ما ينتجون من أشياء ومع كيفيّة إنتاجهم لهذه الأشياء » (18) . فقد اتَضَحَ انّ الشارع في « اللّجنة » لا يحمل أيّ شيء من أهله ولا يعكس صورتهم . انّه يَنْبَتُّ شيئا فشيئا وينفصل عن جذوره . ويكفُّ عن التعبير عنهم والاستجابة لإرادتهم . ويفقد أصالته ليكون شارعا لقيطا تتلقّفه الأيادي والإراداتُ الأجنبيّة لتصنع منه ما تشاء . ولا يخفى ما في ذلك من تعطيل لظاهرة الوعي بدليل انّ مُنجَزَاتنا ومصنوعاتنا هي السّبيل الى تَمثُّل أنفسنا من خلال ما نرصده فيها من شخصيّتنا . والشارع الذي تصوّره

(16) المصدر ص 140 .
(17) المصدر ص 127 .
(18) H. Lefebvre من كتابه Du rural à l'urbain ص 289 ط . Anthropas باريس 1981 .

« اللّجنة » يُمعِن في الابتعاد عن أهله والتّمنُّع على إدراكهم بسبب ما يحويه من مستحدَثات ليست من صنعهم وليست في مستوى فهمهم . فهم يعيشون عالة عليه وعلى أنفسهم . وقد ضيّقوا من رحابته بمسخهم لهيئته بأنفسهم كما سبق أن أشرنا الى ذلك . وها هم يتركونه يزداد ضيقا واختناقا بمحتوياته بانسحابهم منه لفائدة الغرباء والأجانب .

وليس الشارع سلعا فقط . بل الشارع كذلك جملة ما يحوي من بشر . وقد عرضت الرواية لهم في مواطن كثيرة . من ذلك مثلا قول البطل : « مضيتُ أنقل البصر بين الوجوه الشّاحبة المنهكَة متوقّفا عند كهل غارق في تأمّلات غير سارّة انعكست على ملامحه ، وجارٍ له يدخّن بعصبيّة (. . .) وشابّ مكويّ شعر الرّأس تدلّت من عُنقه سلسلة ذهبيّة (. . .) وسيّدة بنظارة واسعة الإطار بنفسجيّة اللّون مثل فستانها تحيط معصمَها بساعة على شكل سفينةِ فضاء » (19) . وكلّ هذه الوجوه على ما يبدو يسحقها عبءُ الحياة . فلم تعُد تقوى على البِشْر والطمأنينة وراحة البال . فهي عليلة كالشارع سقيمة قانطة كلّ القنوط . والغريب في أمر هذه الكائنات إمعانُ بعضها من حيث اللّباس في التّشبّه بالغرب . فهذا الشّابّ شعره مكويّ . وهذه السيّدة نظاراتها واسعة الإطار كتلك التي تُلوّح بها الموضةُ الغربيّة . وساعتُها تحكي سفينةً فضائيّة . وليس أغرب من هذه السّاعة المصمَّمَة بوحي من علوم الفضاء لدى من لم يحذق بَعْدُ فنَّ التّعامل مع الأرض . والى جانب هذه الكائنات تقوم كائنات أخرى تُمعن في القِدَم وتتمثّل في « راكبتين متجاورتين تَسَرْبَلَتا - بُغية الانسحاب التّام من عالمنا التّعس - بثياب فضفاضة داكنة اللّون غطّت جسديهما من الرّأس الى القَدَم فيما عدا ثقبين في موضع العينين . فبَدَتَا أقرب الى بُومَتين أو اثنتين من الكائنات الفضائيّة المُرعبة »

(19) المصدر ص 131 .

(20) . لقد استحال الزيُّ إذن الى عامل آخر للإغترات والبلبلة والمفارقة . وبدت المساحةُ الاجتماعيّة نتيجة لذلك خليطا غريبا من كائنات غريبة لم يَعُد لها ما يشدّها الى بعضها بعض ليصنع منها وحدة الهيئة الاجتماعيّة . ووجودها في نفس المساحة أصبح ، بسبب إمعانها في الاختلاف ، صُدفةً حزينة مضحكة .

هذا هو واقع الشّارع . الاّ انّه لا بدّ من أن نراعي كذلك ما في الشارع من خيال بدليل « انّ كلّ مدينة أو كلّ مجموعة بشريّة لا بُدّ لها من بُعدٍ أو مدى خياليّ يجد فيه الصّراع الدّائم بين الرّغبة والامتلاك أو بين الرّغبة والإشباع سبيلَه الى الحلّ . وهو حلّ يقع على مستوى الحُلْم » (21) وكذلك فعلا كانت الرّقعة الاجتماعيّة في « اللّجنة » . ومن الشّواهد على ذلك قول الرّواية متحدّثة عن راكبي الحافلة : « إنّهم مشغولون [عن الحافلة] بأشياء أخرى . اذ كانوا يتطلّعون ساهمين الى الإعلانات التي زيَّنت الشّوارع عن آخر المبتكرات العالميّة في كلّ ميدان والى السيّارات الخاصّة من أحدث الطّرز » (22) . ولا شكّ في أنّهم كانوا يُمنُّون أنفسهم بإمكانيّة اقتنائها والتَّنَعُّمِ بها . وهم لا يدركون أنّ أحلامهم هذه غير طبيعيّة لأنّها ليست على مَقَاسِهم . وليست امتدادا فعليّا ممكنا لواقعهم . إنّما هي أحلام الآخرين يغتصبونها . فلا يَزْدَادُونَ بذلك الاّ بُعدا عن أنفسهم وغفلةً عن واقعهم . ولا شكّ في انّ هذه المُلْصَقات هي التي توحي لهم بنوع أحلامهم . فلا تحلّ هذه المُلصَقَةُ أو تلك حتى يحلّ معها حُلم جديد . فهُمْ اذن لأشبهُ ما يكون بكلْبِ بَافْلُوفْ Pavlov. وليس أعجز من أن لا يقوى المرء حتّى على صُنع أحلامه بنفسه .

---

(20) المصدر ص 132 .

(21) H. Lefebvre من كتابه Du rural à l'urbain ص 223 ط . Anthropos باريس 1981 .

(22) المصدر ص 131 .

وخلاصة القول في أمر الشّارع أنّه أفلس فقد داهمتْه الكروبُ من الدّاخل والخارج معا فشحبت هيئته . وغاضت نضارتُه . واعتلّ جسمُه كلّه . وحطّ عليه القبح . وقد ألَحّت الرّواية على غياب كلّ ما من شأنه أن يُبقي له على بقيّة من إنسانيّة وعافية كالمعالم الحضاريّة ونافورات المياه والتّماثيل والحدائق العموميّة وغيرها . فمِثْلُ هذه المعالم هي التي تُكَسّر رتابةَ المَعيش اليوميّ وضيقَ الآنيِّ الرّاهن بالبُعْدِ التّاريخيّ التّأمُّليّ أو الفنيّ الجماليّ وهي التي تستحضر المجموعةُ البشريّة بواسطتها ، في صلب الحاضر ، تاريخَها وشخصيّتها ليتواصل تمثُّلُها لنفسها وادراكُها لوحدتها وطرافتها . أمّا المساحة الاجتماعيّة في « اللّجنة » فلا حظّ لها من كلّ ذلك . فهي لا ذاكرة لها ولا شخصيّة . ولا شكّ في انّ وطأة الحاضر الكالح الثّقيل لم تُبْق فيها على غير الحاضر . ويكفينا ذلك دليلا على خطورة الأزمة التي يعيشها الشّارع . والشارع من المَحامل الرئيسيّة للحياة الاجتماعيّة ومن أهمّ المترجمين عنها . وانهياره في « اللّجنة » ليس بالتّالي غير نعي للحياة الاجتماعيّة لذلك لا يَبْقَى الاّ المكان الذّاتيّ الشخصيّ . ويجسّمه المنزل .

3 ـ المنزل أو الفضاء الذاتيّ :

لم تبخَل الرّواية بالتّفاصيل الثريّة المتعلّقة بالمنزل لكونه يُعَدُّ ، بعد مقرّ اللّجنة ، المسرح الثاني لأهمّ الأحداث . وممّا ذكره البطل من هذه التفاصيل قوله : « ذكرت اني أقطن الطّابق السّابع وأشرتُ الى انّ المنزل بلا مِصعد . فرغم انّ القانون يحتّم على مالك المنزل الذي يزيد عدد طوابقه عن خمسة ان يزوّده بمصعد فانّ مالك منزلي تمكّن من التحايل على القانون بسهولة شديدة اذ بنى الطّابقين الأخيرين الى الدّاخل قليلا . وعندما لم يعد من السّهل رؤيتهما من الطّريق اطمأنّ القانون وسكت رغم ما تقدّمنا به نحن السكّان من شكاوي

عديدة الى الجهات المختصّة (23) ». ومن البيّن في هذه التفاصيل انّ المنزل لا توجد من ورائه هيئة اجتماعيّة تحميه قوانينُها وتتكفّل برعايته . فالقانون المزعوم سقيم شكليّ . تموت الشّكاوي عنده . ويَنْبَني الحقُّ فيه على الخدعة والحيلة وقوّة المِلكيّة . فهو أشبه ما يكون بقانون الغاب . والمنزل في مثل هذه الحال كمنازل المجتمعات البدائيّة فريسة لغريزة الاستغلال والابتزاز وصَلف القوّة . لذلك كان رديئا يسلم صاحبه يوميّا الى الثعب والإرهاق . بل أنّ موادّ البناء نفسها قد شملها الغشّ حتّى انّ البطل كان يسمع من بعيد حديثَ الصّاعدين الى منزله « بسبب دقّة الجدران النّاشئة عن (. . .) محاولات المالك للتّحايل على قواعد البناء المحدّدة في القانون » (24) . ومتى دَقَّت الجدرانُ ضعفت حرمةُ المنزل وعسر الانفصال الفعليّ عن العالم الخارجيّ . ومن وظائف المنزل ان يحصلَ به الاستقلال وتتيسَّرَ مُفاتحةُ النّفس وممارستُها في كلّ حريّة بعيدا عن أعين الآخرين وآذانهم . ولا مفرَّ من آذان الآخرين مع حيطان دقيقة كهذه .

ولكنّ البطل لم يَسلم رغم ذلك من داء الانشداد الى المنزل . وكيف له ان لا يَنْشَدَّ وهو فيه أسير عاداته . والعادات في المساكن هي التي تصنع وتيرة الحياة ، وتُوجد فيها الفواصل والمقاطع اللاّزمةَ وتصنع العلاقة مع الأشياء وتُمتّنها لتجعل منها كائنات اليفه . لأنّها تحمل بفعل احتكاكنا اليوميّ بها جزءا منّا . لذلك كان المنزل ولا يزال الرّمز للفضاء الشخصيّ المعيش .

و « اللّجنة » تغري باعتبار المنزل منزلا عاديا . والحقّ انْ لا . فالرواية لم تعالجه على أنّه كذلك . فَلَمْ تنزّله في رقعة معيّنة . ولم تعرض لمحلّه من المدينة بذكر الشارع أو الحيّ مثلا . فرفَضتْ عليه كلّ هويّة أو شخصيّة لينقلب الى

(23) المصدر ص 60 .
(24) المصدر ص 60 .
(*) كذا وردت في الرّواية .

مجرّد عيّنة ممكنة من سائر منازل المدينة . أي إنّه ليس منزلا بعينه . إنّما هو المنزل عامّة . أو هو المساحة الذاتية الشخصيّة التي يتعاطى فيها الفردُ بُعدَه الشخصيَّ . ومن الواضح انّ هذا الفَضاء قد أصابه تقريبا ما أصاب الفضاء الاجتماعيّ من أدواء . فهو مثله رديء . لا حظّ له من رعاية الهيئة الاجتماعيّة وإنّه لآخِذٌ هو الآخر في التقلُّص والانكماش . وحتى ان حاول الرّاوي أن يخلق لنفسه حياة شخصيّة خَاصّة أو شبه حياة فاضطرارا . لأنّه هو كلّ ما يملك من حيّز لمباشرة ذاته وتعاطيها .

تلك هي أهمّ مركّبات الفضاء الروائيّ في « اللّجنة » . ومن غاياتنا في بسطها على نحو ما تقدَم تحديد أهمّ المساحات في هذه الرّواية والإحاطة بصورها وخصائصها . وهي مرحلة ضروريّة اعتبرناها قراءة أولى رأينا فيها قاعدة لا بدّ منها حتّى تنهض عليها بقيّة البحث . وقد تَحيَنّا فيها الفُرَص كلّما أمكن لفتح المنافذ الى دلالات المكان . ولا بدّ من ان نخلص الآن الى صميم هذه الدّلالات . وهي أساسا دلالات سياسيّة .

II ـ الدّلالات السياسيّة للمكان :

لا يعمل المكان السياسيّ بمعزل عن المساحة السياسيّة العالميّة فَلَه فيها أحلاف . وله معها ارتباطات . وهو منها يستمدّ جزءا من سلطانه ونفوذه . وصلتُه هذه بالقوى العالميّة تُمثّل عنصرا لا بدّ من ان تقف عنده حتّى اذا ما تمّ لنا ذلك تجاوزناه الى بيان أثر المكان السياسيّ في الفضاء الاجتماعيّ وأثره بعد ذلك في المساحة الفرديّة الذّاتية .

1 ـ أثر القوى العالميّة في المكان السياسيّ :

من أهمّ الشواهد المُظهِرة لصلة المكان السياسيّ في « اللّجنة » بالرّقعة السياسيّة الاقتصاديّة العالميّة وصفُ الرّواية لقاعة اللّجنة يوم قَتل البطلُ أحدَ

أعضائها . يومذاك كانت « اكاليل الزّهور المصفوفة على جانبي القاعة تحيط بكلّ منها بطاقةٌ عريضة باسم مُرسلها » (25) . وكان البطل يطالع في فضول أسماء المُعَزّين و « في مقدّمتها الرّئيس الأمريكي كارتر (. . .) ونائبه (. . .) ومستشاره للأمن القوميّ (. . .) وكيسنجر (. . .) ورئيس الكوكاكولا ومديرو البنوك العالميّة (. . .) ورؤساء فرنسا وألمانيا الغربيّة وأنجلترا وإيطاليا والنّمسا (. . .) ورئيس الوزراء الاسرائيليّ (. . .) ورؤساء الحكومات العسكريّة في تشلّي وتركيا وباكستان (. . .) وأَفراد أسرة شاه إيران وعملاء الشركات الأجنبيّة » (26) . كلّ هذه الشخصيات العالميّة كانت حاضرة في القاعة من خلال إكليل أرْسَلَتْه . وليس أدلّ من ذلك على صلة المساحة السياسيّة في « اللّجنة » بالقوى العالميّة . فالحيّز السياسيّ المعنيّ في الرواية يتّسع لفعل هذه القوى . بل ويرحّب به ويدعوه الى ان يكون . ومن المفيد أَنْ نلاحظ انّ أغلب القوى المذكورة تنتمي إلى الرّأسمالية الغربيّة أو الى الأنظمة العسكريّة ذات الطّابع الاستبداديّ . انَ الفضاء السياسيّ الوطنيّ اذن ليس مجال الارادة الوطنيّة وحدها . بل هو فضاء مُعقّد تَداخِلَه قوى الاستغلال والانخذال والتّراجع . وما ارتَضاها أصحابُه شريكةً لهم فيه الاّ لحاجتهم اليها واستِمْدَادِهم لقوّتهم منها . وقد أفلَحت الرواية كلّ الإفلاح في أداء هذه المعاني الثريّة بتركيز الصّورة على هذه القاعة التي تزدحم فيها الأكاليل وتتكدّس الى حدّ الانفجار . فيبطل بذلك وجودُها كمكانٍ ماديّ فعليّ . وتنفضح حقيقتُها كرمز لفُسَيْفُسائيّةِ الساحة السياسيّة العربيّة . وقد أصبحت موطنا لكل المستغلّين وكلّ المتآمرين . والباحث في « اللّجنة » لن يُعدَم الدّليلَ على صحّة

(25) المصدر ص 101 .
(26) المصدر 102 .

هذه الاستنتاجات . فالأدلّة كثيرة جدّا . والرّواية تنزع فيها أحيانا الى الجهر . ولكنّ طبيعة هذا البحث لا تسمح باكثر ممّا قدّمنا .

2 ـ أثر السياسة في الفضاء الاجتماعيّ

بانت فيما تقدّم بعض ملامح الفضاء الاجتماعيِّ . ولكنّ المَلْمَحَ الرّئيسيّ لم يَنْجلِ بعدُ . ونعني به ظاهرةَ الاستهلاك . وقد تعدّدت الاشاراتُ الى تراكم السّلع والى العاملين على استيرادها . فاذا « الدّكتور » ، وأمثالُه حسب الرواية كثيرون ، من أنشطهم وأقْدَرهم على توقُّع الحاجاتِ قبل ظهورها أو على صُنْعِهَا صنعا بخلق الأزمات المفتَعلة . و « الدّكتور » من حلفاء اللّجنة أو هو من بعض قوى اللّجنة العاملة في الخفاء . ومن ثمّة يظهر انّ المساحة السياسيّة هي التي تغذّي ظاهرةَ الاستهلاك وتدفع بها الى حدّ النّهم والجنون . وحسبنا شاهدا على ذلك قولُ الرّاوي : « جعلت أنقل البصَربين النّاس التي زحمت الطّرقات مُقبلةً في حماس على الشّراء » (27) . وما كانت نوعيّةُ الشّراء أو جودةُ البضاعة لتهمّهم . من ذلك مثلا موقفهم من بائع المشروبات في حرّ الصّيف . فقد « كانت الثلاّجة مليئة بالزّجاجات السّابحة في الماء . وبدا البائعُ في حال من النّشوة وهو يلتقط الواحدة منها بحركة خاطفة ويرفعها نحو الأيدي الممدودة اليه » (28) . ولكنّ الرّاوي مدّ يده يتلمّسُها فاكتشف أنّ « أغلبها دافىء وانّ المياه تخلو من كلّ أثر للثّلج » (29) . وتفسير ذلك انّ داء الاستهلاك قد استشرى واستَفْحل حتى قضى في الأشياء على

(27) المصدر ص 140 .
(28) المصدر ص 126 .
(29) المصدر ص 127 .

قيمتها الاستعماليّة (30) ليستعيض عنها بالقيمة الاستبداليّة (31) . فماتت الأشياء . والأشياء مستندات للوعي . فهي السّبيل الى ادراك العالم الخارجيّ وتمثُّله . ومتى تحوّلت الى أشباح من أشياء تعطّل الوعيُ . واختلّ ادراكُنا للموجود الخارجيّ وبالتّالي لأنفسنا . وممّا يدعّم هذا الرّأيَ أنّ القيمةَ الاستعماليّة تستجيب للحاجات الفعليّة الطّبيعيّة . أمّا القيمة الاستبداليّة أو التَبادُليّة فمُعتمِدَة على الحاجات الوهميّة التي يصنعها أربابُ المال والصّناعة . والجرْيُ وراء الاستهلاك جَرْيٌ وراء هذه الحاجات الزّائفة التي ما تنفكّ تتزايد وتتنوّع الى حدّ استحالة إشباعها . وقد لخّص لوفافر Lefebvre هذا الوضع فقال : « يستقرّ الشّيء في الشّارع في عارضات المتاجر مَلِكا أو جِنيّا . ويُحوّل النّاظرين إليه من عابديه وعُشّاقه الى أشباح من أشياء » (32) . وسبب ذلك حسب رأيه « نّ القيمة الاستبداليّة وتعميم السّلع بفضل التّصنيع يُهدّدان بالقضاء على المدينة » (33) . وبالتّالي بالقضاء على الانسان نفسه .

ويستقرّ الى جانب هذا الدّاء داء آخر هو داء الاستغلال . وهو ينْخُرُ المساحةَ الاجتماعيّة في كلّ مستوياتها . وهو كداء الاستهلاك يُحظى بمساندة الفضاء السياسيّ ويعبّر عن بعض اتّجاهاته . ومنها الاتّجاه الغربيّ الامريكيّ . وهو يظهر في حافلات النّقل الجديدة « أوتوبيس كارتر » التي وَفَدت « تعبيرا عن الصّداقة [الامريكيّة] » (34) . والنّاس قد « اعتبروها أُولى بشائر الرّخاء الموعود . وبدوا مستعدّين للتّغاضي عن الضجّة التي تُحدثها (. . .) وعن ارتفاع أجرها [خمسة أضعاف الأجر العادي] (. . .) وعن دخان العادم

---

(30) Valeur d'usage

(31) Valeur d'échange

(32) H. Lefebre من كتابه Du rural à l'urbin ص 100 . ط Anthropos باريس 1981 .

(33) H. Lefebre من كتابه Le droit à la ville ص 5 . ط Anthropos باريس 1973 .

(34) المصدر ص 128 .

المنبعث منها بكثافة على أساس انّ تَلَوُّثَ البيئة هو من مشاغل الدّول المتقدّمة وحدها ، وعن انعدام المساند والعلاّقات ممّا يؤدّي الى تأرجح الواقفين وتراصّهم » (35) . وتتلخّص صلة الرّاكب بهذه الحافلة في تعاسة الخدمة وشطط الأجر . وهي صلة تُمعن في اللاّمعقول . ولكنّ المنطق السياسيّ يرفعها الى مستوى المعقول بل ويجعل منها رمزا « للرّخاء الموعود » وكأنّه غير منتبه إلى انطوائها على استغلال مضاعف : رداءتها فقد « كانت مصنوعة من أردىء المواد وأرخصها » (36) . وارتفاع ثمنها . والمواطن ضحيّةٌ لأنواع أخرى من الاستغلال كتلك التي عاشها البطل في عيادة الطبيب حين انكسرت يده . والغريب في كلّ ذلك لا مبالاة النّاس . فقد ركبوا الحافلة غير مكترثين . ولم يحرّكوا ساكنا حين احتجّ الرّاوي على الطّبيب . وهم « جميعا مستذَلّون مُهانون يتمتّعون بقدرة فائقة على التحمُّل » (37) . ذلك هو النصّ الاجتماعيّ ظرفا ومظروفا . ضاق منه الظّرف وتعفّن الى حدّ الاختناق . وأوشك المظروف على الموت . اذ تنازل فيه الانسان عن مصيره . وانسَحَبَ الى نفسه ليصبح مجرَّد شيء تُمَثِّل به الارادةُ السياسيّة ما شاءت من الأدوار . وان كانت المدينةُ ، كلُّ مدينة « إسقاطا لمجتمع ما على مكان ما » (38) جاز اعتبارُ فساد المكان في « اللّجنة » إعلانا عن فساد المجتمع بل وعن احتضاره .

ويتجلّى هذا الاحتضار بكيفيّة أدقّ على الصّعيد الأخلاقيّ . ومن الشواهد على ذلك ما لاحظه الرّاوي في الحافلة من ملاصقهِ أحد « الصّعاليك » لامرأةٍ من الخلف الى حدّ البذاءة والدّناءة حتّى اضطرَّها الى

(35) المصدر ص 128 .
(36) المصدر ص 129 .
(37) المصدر ص 132 .
(38) H. Lefebvre من كتابه Le droit à la ville ص 64 . ط Anthropos باريس 1973 .

الاحتجاج . فكان أنْ قَلَبَ التّهمةَ عليها وصفَعَها بشدّة فـ « انكفأت المرأة فوق الجالس بجوارها وهي تضع يدها على خدّها وانفجرت باكية . ولم يحرّك أحد من الركّاب ساكنا » (39) وقد علّق الرّاوي على ظاهرة الملاصقة حين قال : « ووجهة نظري انّ هذا السّلوك (. . .) ليس الاّ بديلا عربيّا نابعا من واقعنا وشخصيّتنا المستقلّة للرّقص الغربيّ حيث يمارس الناس الأمر ذاته متواجهين . لكنّ البديل القوميّ يؤدّي وظائف متنوّعة أكثر من مجرّد تفريغ الرّغبات المكبوتة » (40) . والحقّ أنّه يفضح حقيقتَنا ككائنات مكبوتة ويُنَحيّ عن وجوهنا قناعَ الاستقامة والعافية النّفسيَة . ويضعنا وجها لوجه مع صَغَارتنا وحقارتنا ونحن نبحث عن مهارب من عقدنا في الطُّرق الملتوية الشاذّة . ونحرص على نقاوة المظهر والشّكل . والعفَنُ بداخلنا . ونشتري زيف الطّرافة والخصوصيّة بالمرض والشذوذ . والفضاءُ الاجتماعيّ العامّ هو الذي اختِير مسرحا لكلّ ذلك . فلم يعُد مجالَ حياة وتفتيقٍ للكفاءات وتجسمٍ لها وتحابُب بين النّاس . بل أصبح مجال المرض ومُطَّرحَ العُقد ومسرح الخسَّة والدّناءة واستباحة الحرمات عنوة أو اختلاسا . والرّباطُ الأخلاقيّ من أهمّ الضّوابط الاجتماعيّة . والمكان الاجتماعيّ هو قبل كلّ شيء جملة من الضّوابط التي تُقَنِّنُ الحضورَ فيه والتّعامل معه . وتضمن للأفراد التّعايشَ والمساهمة في إنشائه وتجميله . وتَعَدِّي هذه الضّوابط إفسادٌ له وبالتّالي للحياة الاجتماعيّة وتقهقرٌ من التمدُّن الى البِدائيّة والوحشيّة . لذلك لم تفهم الجماعةُ معنى تدخّل الرّاوي في حادثه الملاصقة لمناصرة المرأة المظلومة المُهانة . ولم تحْتَجّ على « الصّعلوك » لصفعه له هو أيضا . فقد « أبدى البعض اهتماما مفاجئا بشيء ما في الطّريق واستدار آخرون بحيث أعطوني ظهورهم » (41) . وتفسير ذلك انّ المجتمع لم

(39) المصدر ص 134 .

(40) المصدر ص 132 .

(41) المصدر ص 135 .

يعد يدرك نفسه على أنّه جماعة مؤتلفة تشترك في نفس القِيم ونفس المصير . إنّما هو في عُرف نفسه شتات من أفراد منعزلين . قد أصابهم تبلُّد عامٌّ . ومات فيهم الحسُّ الاجتماعيّ . والمُرجَّح انْ « النّظام » هو الذي عزّز هذا الشّذوذَ لكي لا يُواجه جماعةً مؤتلفة بل أفرادا عُزّلا . الى هذا المصير الحزين انتهت المساحة الاجتماعيّة . ولم يبق بالتّالي الاّ الحيّز الأخير الحيّز الفرديّ الذّاتيّ . وهو أيضا ليس منعدم الصّلة بالفضاء السياسيّ .

3 ـ أثر المساحة السياسيّة في الفضاء الذّاتيّ :

كان الصّراع بين البطل واللّجنة أو بين الفرد والنّظام السياسيّ ، في أوّل الرّواية ، في مقرّ اللّجنة . ثم انتقل الى الشارع . فعمدت الى سَدِّ مصادر المعرفة ومنافذ البحث . فامتنعت مكتباتُ الصحف بإيعازٍ منها عن مساعدة البطل . بل وطَمستْ ما تعرفه من أخبار ووقائع عمدا . فتَجاوز البطلُ هذه العراقيلَ . فصعَّدت اللّجنة مكافحتها له . فتصدّت له في عقر داره . ونصَّبت بالرّغم منه رقيبا لها عليه في منزله ذاته . لأنّها لا تريده أن يفهم . وتأبى على بحثه ان يتواصل حتّى لا تنكشف أسرار « الدّكتور » أي أسرار السياسة . ولا تظهر الحقيقة . والرّقيبُ الذي عيَّنته مستعدٌّ لكلّ الاحتمالات . فقد كان يحمل مسَدّسا . ومعنى ذلك أنْ لا حدَّ للفضاء السياسيّ . فحُرمة المنازل مُباحة عنده . يدوسها متى شاء . واستعمال القوّة والتّهديدِ مُباح عنده . وقد نزع عنه كلَّ بقيّة من حياء أو من أخلاق . فهو يأتي ما يأتيه في منتهى الوقاحة والشّراسة دافعا بالفرد الى أقصى درجات الاحتمال والانفعال . والمرجّح أنَّ ذلك هو الذي حمل الرّاوي على القتل دفاعا عن نفسه .

وما كان البطل في كلّ ذلك موتورا في حقّه في المعرفة فقط . بل هو موتور كذلك في كرامته . وليس أدعى الى الانفعال والثّورة من هذا الحصار

الذي يُضرب عليه في عقر داره . فأينما ولّى وجدَ الرّقيبَ . والمنزلُ هو الملاذ الأخير للفرد . وفيه يتوفّر الحدّ الأدنى من الحريّة ، حريّة ان نُمارس فَرْدِيَّتَنا ونتعرى أمام أنفسنا ونفرغ لحقيقتنا في قُبحها وجمالها معا . وبإمكان الانسان ان يَسْتَغني وَلَوْ إلى حين عن الفضاء الاجتماعيّ . أمّا الفضاء الذّاتيّ فالحياة مستحيلة بدونه . لذلك رفعتْه المجتمعاتُ منذ فجر التّاريخ الى مقام المقدّسات . وقد دفع المؤلّف بالاستفزاز الى حدود اللاّمعقول عمدا . فجعل المراقبةَ تتمّ حتّى في المرحاض . يقول الرّاوي : « أنزلت بنطلوني . واستويت فوق الحلقة البلاستيكية لمقعد الحمّام . ووقف هو [يعني الرّقيب] في فرجة الباب يتأمّلني » (42) ويقول شارحا نتائج ذلك : « فلم أجد مَذَاقا للشاي أو السّيجارة (. . .) والأهمّ من ذلك كلّه أنّ أمعائي لم تتحرّك » (43) . وكأنّ النّظام البيولوجيّ نفسه قد تعطّل بفعل شدّة الانفعال . ومن الطّبيعيّ ان يختنق الانسان ويعْتلَّ حينما تُحصَى عليه حتّى أنفاسه ويُقاسمه الغرباء عنوة فراشّه نفسه مستقرَّ عَوْراته ومكانَ نومه . والنّومُ أكبر حاجة بيولوجيّة .

شيء واحد لم يَطُله نفوذُ اللّجنة . هو محيط المنزل . والمحيط جزء من المنزل . ولا شكّ في انّ هذه الحقيقة النفسيّة هي التي جعلت الرّاوي يقول بعد أن نام الى جانب عضو اللّجنة : « تبيَّنْتُ حشرجةَ المواسير وصياحَ جاري في أطفاله وصريرَ إناء معدنيّ يوضَع تحت الحنفيّة في المسكن الذي تحتي ونباحَ الكلاب في شوارع الحيّ . والغريب انّ هذه الأصوات التي طالما أثارت حنقي وحرمَتْني من النّوم غدَت اللّيلةَ مصدرَ طمأنينة . وخفَّفت من توتُّر أعصابي » (44). وإن غدَتْ كذلك فلأنّها تُمثّل آخر مَا بقي من الفضاء الذّاتيّ الحيويّ .

(42) المصدر ص 86 .
(43) المصدر ص 86 .
(44) المصدر ص 81 .

فهي الخيطُ الأخير الذي يربطه بالمنزل بعد أن بعثرت اللّجنة كلّ الخيوط . وتفسير ذلك أنّ الشّعور بالخطر يُكثّف إحساسَنا بالمكان . وبه تُصبح كلُّ مركّبات المكان من ألوان وروائح وهيئات وأصوات وظلال هامّة لدينا . ومن وجوه المأساة في « اللّجنة » أن يُمنَع على البطل حقُّه الطّبيعيّ في فضاء فرديّ حيويّ أو أن يُسحَبَ هذا الفضاءُ سَحبا من تحت قدميه . فيبقى مُعلّقا في بقيّة باقية من الأصوات الأليفة . واللّجنة تقصد ذلك قصدا . أفليست هي ألقي اقتحمت على البطل فضاء أوثَق وأقْدس عنده من المنزل . ونعني به جسمه . أفَلَيْس الجسم هو المكان الأوّل الذي نُوجَد فيه وهو الدّائم والأخير . وقد سبق للّجنة ان داخلَته فيه يوم مَثَلَ أمامها . وطابت منه ان يتعرّى . ففعل . يقول : « طَلب مني [أحد أعضاء اللّجنة] أن استدير . وأعطيتُه ظهري . ثمّ أمرني أن أنْحنيَ . وشعرت بيده على إلْيتي العارية . وأَمَرني أن أسعل . وعندئذ شعرت بإصبعه داخل جسدي » (45) . وَمَنْ داخَلَه الغرباءُ في جسمه واحتُلَّ فضاؤه الذّاتيّ وقُتل فضاؤه الاجتماعيّ لا يبقى له غير الانسحاب من الحياة . ولا بدّ من أن نلاحظ أنّ الفضاء السياسيّ هو الذي تحمِّله الرّوايةُ مسؤوليّةَ قتل المكان البشريّ بكلّ أنواعه . وممّا يدعّم ذلك النّهايةُ التي آلت إليها. وهي مليئة بالدّلالات السياسيّة وقد لا يظهر البُعد الفعليّ لهذه الرّواية إن لم نعمد الى استقراء هذه النهاية والوقوف على ما ترشد اليه من غايات .

4 ـ الحلّ المقترح :

في الحلّ المقترح مرحلتان : مرحلةُ الحكم ونوعِه . ومرحلة مكان تنفيذ الحكم . وقد حاكمت اللّجنةُ البطل لقتله أحد أعضائها . وهو الرّقيب الذي

(45) المصدر ص 18 .

أقام معه في المنزل . ونطقت بالحكم . فاقتضتْه أن « يأكُلَ نفسَه » . واللّجنة لم تُعيّن مكانَ تنفيذ الحكم . ولكنّ مسار الرّاوية لم يترك للبطل من حيّز ينفّذ فيه على نفسه العقاب غير المنزل . وغرابة الحكم وغرابة مكان تنفيذه تدعوان الى أن نَسأَلهما ما يعنيانه من دلالات .

من أُولى هذه الدّلالات أنّ الانزواء في المنزل كان نتيجة حتميّة للمسار الروائيّ وما يحرّكه من منطق . وتفسيرُ ذلك تجمُّعُ المكان في قطبين أساسيين : المساحة السياسيّة أرض القوّة المنظَّمة الممتلكة للقرار والمساحة الذّاتية الشخصيّة موطن الفرد الضّعيف الأعزل المطالَب بتنفيذ القرار . وتنفيذُ القرار أو الوقوعُ لنتائجه إنّما يتمّ في الفضاء الاجتماعيّ . وهو فضاء وسيط . وهو الذي يتّسع لكلّ الصّراعات ليتشكّل وفقا لطبيعتها ونتائجها . وقد احتدّ الصّراع في هذه الرّواية لأنّ البطل رَفَضَ تغيير موضوع بحثه المُحْرِج للقطب السياسيّ ، وتمّت الجولات الأولى من هذا الصّراع في الفضاء الاجتماعيّ حيث عمدت اللّجنة الى تعطيل كلّ أسباب تواصُل البحث ونجاحه . ولكنّ البطل لم يستسلم إذ فكّ الحصار المضروبَ عليه . ونَفَذَ بطرق ملتوية الى ما يريد معرفته . وعندئذ اضطرّت اللّجنةُ الى تهديده ثمّ الى حصاره بتطويقه في منزله ذاته ومنْعه من الحركة . وبذلك انتقل الصّراع الى صلب المنزل . وأصبح مواجهة سافرة . وغدا المنزلُ نفسه ساحةً خاضعة للقوّة السياسيّة . فاجتاحه أفرادُها واحتلّوه . وهكذا يسقط آخر موقع في الأيدي المناوئة . ويضيق من حول البطل الخناقُ . فيَقْتُل دفاعا عن نفسه الاّ أنه قَتْلُ العاجزِ اليائس . وما كانت طعنتُه للرّقيب غير طعنة طائشة لم تمنع حلولَ الهزيمة والاستسلام .

ذلك هو دور الفضاء الذّاتيّ حتى صدور الحكم . أمّا بعد صدور الحكم فقد أُسندت له وظيفة أخرى كشف عنها البطل حين قال : « اشتريت طعاما يكفي لعدّة أيّام . وقلت للبوّاب أن يُبلّغ كلَّ من يسأل عنّي أنّي سافرتُ »

(46) . فهو اذن يُرغَم على الانسحاب ويُوصِد من دونه الأبواب لينقطع عن الحياة ويعتزلَ النّاسَ . ومعنى ذلك انّ المنزل قد كفَّ عن كونه مكان الحياة الفرديّة الآمنة المطمئنّة . وأصبح سجنا ليس له أن يغادره . فَلْيَبْقَ اذن في هذا السّجن مَنْفِيًّا مغتربا في نفسه مسافرا كما قال للبوّاب .

والحقّ أنَّ المنقَلَب الذي انقلب اليه المكانُ على نحو ما تقدّم هو الذي يفسّر غرابةَ الحكم وخطورتَه . وليس أشقى من أن يأكل الإنسان نفسَه عجزا مقيتا وفقرا مُدقعا ويأسا قاتلا وحاضرا ساحقا كالحا يغتال المستقبلَ وينفيه . وفي مثل هذه الحال تحلُّ ساعاتُ الحساب العسيرة . فاذا الرّاوي يعترف بمرارة بتورُّطه في « محاولة متهوّرة » . ويقول إنّها « كانت حتميّة لتحدّي لجذَتكم في وقت ومكان غير مناسبين . لكن ما يخفّف من أسفي هو ثقتي بما سيحدث مهما طال الوقت . فهو منطق التّاريخ وسُنّه الحياة » (47) . وليس من اليسير أن نُقِرّ ما ذهب اليه من أمل إلاّ أَنْ نعتبر أنّه دواء نفسيّ يقتضيه اليأسُ وداءُ الحاضر . وتجتمع الى الحساب الذّكرى . وفراغُ الحاضر يُحتّمها ليجد فيها امتلاءً وهميّا وعمارة . وفعلا ولّى البطل الى الماضي يجترّ أحداث الأمس . ويتسرَّى بها . يقول : « تصفّحت أوراقي القديمة (. . .) وقضيت أوقاتا ممتعة (. . .) في مراجعة ما حقَّقتُه من إنجازات » (48) . ويضيف : « قضيت يوما كاملا أقلّب في مجموعة من الصّور لأشخاص عبروا طريق حياتي ونساء ارتبطتّ بهنّ » (49) . ولم يسعه أخيرا غير الخَدَر يتعاطاه على جناح النَشوة في اكناف الموسيقى علَّه يُقلِع به ويسافر إلى عوالم الحلم والخيال فيُعلن : « مضيت أنصت للموسيقى التي تردّدت نغما تهافي جَنبات الحجرة . وبقيت في مكاني مطمئنّا

(46) المصدر ص 140 .
(47) المصدر ص 143 .
(48) المصدر ص 140 .
(49) المصدر ص 141 .

منتشيا حتّى انبلج الفجر . عندئذ رفعتُ ذراعي المصابة الى فَمِي . وبدأت آكل نفسي » . وعلى هذه الجملة المُثقَلَة بالدّلالات والمعاني والرّموز تنتهي الرّواية لتخلفَ في الرّأس طعمَ الدّوار والغثيان .

عالجنا حتّى الآن المكان في مستوى السياسة والاجتماع والأخلاق . فبانت مساهماتُه في إنشاء المحتوى المعْرِفيّ المذهبيّ في هذا الأثر . وبان أنّه اضطلع بدور أساسيّ في صياغة هذا المحتوى وتجسيمه والتّعبير عنه . وبان كذلك بفضل طريقة معالجة المكان الإتجاهُ العامّ الذي تنهجه الرّواية . الاّ أنّ هذا الاتّجاه ما زال دون الدقّة المطلوبة . والبحثُ فيه مرحلةٌ لا غنى لهذه الدّراسة عنها . فمن خلاله يمكنها ان تنفذ الى بعض الدّلالات الأدبيّة لهذه الرّواية لربطها بالظّاهرة الرّوائيّة عامّة .

III دور المكان في تحديد نوع الرواية (50)

من الخصائص النّاتِئة للمكان في « اللّجنة » الفقرُ والتّنكيرُ . فمقرّ اللّجنة كما سبق ان بَيّنَّا لا ميزة تميّزه . فهو عار عُريا مُحرجا . وهو لا يفعل بثراء محتوياته وحرارة تفاصيله أو برودتها بقدر ما يفعل بحضوره العاري هذا . وكذلك كان الشارع تقريبا . لم تُشِرْ فيه الرّواية الي الألوان أو الرّوائح أو الأصوات أو الهيئات . بل اقتصرت على ذكر ما يحويه من أشياء دون أن تُفصّل هذه الأشياءَ أو تُعرِّفها . وقد خضع المنزل لنفس هذا الفقر . فلم تَقف على مواطن القبح أو الجمال فيه أو ما يُوحي به من أحاسيس . وقد يُعزى سلوكُ المؤلّف في تصويره للمكان على هذا النّحو الى ما يسعى اليه من غايات رمزيّة سبق أن بينّاها . ولكنّ هذا التفسير لا يكفي . والمُرجَّح انّ المؤلّف يصدر كذلك عن اختيارات أدبيّة معيّنة . ونعني منها خاصّة بعض المبادىء المؤسّسة

(50) نعني بالرّواية « اللّجنة » .

للرواية الجديدة . ومنها « كونُ المكان فضاء ملموسا أو مرئيا لا نحتاج فيه الى إعمال الفهم او الذّاكرة . إنّما الادراكُ الماديّ المعيش هو سبيلنا إليه » (51) . و « إن كانت مهمّة الكاتب الكلاسيكيّ ان ينفذ الى ما تخفيه الأشياء من روح فذلك من باب التّحليل النّفسيّ الذي يُحوّل الشّيءَ الى اسطورة » (52) . أمّا اليوم حسب آلان رُوبْ قرِييي « فما عُدْنا نعتبر العالَم مِلكا لنا أو نتصوّره مُصمَّما وفقا لحاجاتنا أو قابلا للتّدجين (...) ولم يَعُد سطح الأشياء قناعا يُخفي قلبَها » (53) . ولذا « فعلى الرواية اليوم ان تجهد للتّعبير عن الحضور الآنيّ الرّاهن، عن الحضور الذي يَرَى ويَلمس تضاريسَ الأشياء. وعليها ان تجمع الملاحظات الدّقيقة (...) المتعلّقة بالحركة أو بالسّكون أو بغير هما من الشّوائب ممّا يظهر على سطح الأشياء » (54) . وقد كانت « اللّجنة » بحقّ في مواطن كثيرة أقرب الى المعاينة منها الى النصّ الأدبيّ . وتَربَّعت فيها الأشياء منغلقة على نفسها باردة لا حياة فيها . ولا شخصيّة لها ولا عمق . وقد تكثر هذه الأشياء فتحتلّ الفضاءَ كما فعلت في الشّارع مثلا . فاذا بها هي السيّدةُ المالئةُ للمكان المتمسّكةُ بمركزه . واذا الإنسان قابع على الهامش . فكأنّه كائن ثانويّ لا يستحقّ غير الأطراف والحواشي الضيّقة الحقيرة .

وهذا الفضاء الذي احتلّته الأشياء على حساب الحضُور البشريّ ليس في عُرف الرواية الجديدة غير « الفراغ وتراكم المسافات واستحالة الاتّصال . وهو لا يظهر الاّ وكأنّه حُلْم وذريعة وطريقة تسمح للبطل المحوريّ بالتقنُّع بخطيئته ذاتها » (55) . وفي نفس هذا الاتّجاه تقريبا يقول جورج مَا تُوري ملخّصا

---

(51) g. Motoré : l'espace humain ص 212 . ط 2 . Nizet باريس 1976 .

(52) المرجع السابق . ملخص لما ورد في الفقرة الاولى من ص 211 .

(53) اوردہ g. Moloré في المرجع السابق ص 211 . وورد أصلا في : Nouvelle revue fraçaise عدد VII 1956 . ص 84 .

(54) المرجع السّابق أي l'espace humain ص 211 .

(55) اورده ماتوري في المرجع السّابق ص 209 وهو B. Dort وقد ورد أصلا في : Esprit عدد VII 1958 ص 80 .

بعض آراء سارتر ما معناه « انّ الرواية الجديدة تقوم على سُوء النيّة ، سوء نيّة المؤلِفِ في اختياره مسبّقا معالجة الكون على أنّه هو الغيبة والعدم ، وفي تركيزه البحثَ على النّظر في الفراغ » (56) . لذا فانّه من الطبيعيّ ان تعزف الرّواية عن « أسطورة العمق القديمة » لتصف المساحات لا العمقَ والسّعة . وتهتمّ بالعلامات الظّاهرة . وليس من الهيّن ان نضبط مقام « اللّجنة » من هذه المقولات . فالقول باعتماد « اللّجنة » عليها كمُنطلقات مبدئيّة نظريّة يطعن فيما قدّمناه من دلالاتها. إذ تصبح هذه الدّلالاتُ دلالات عَرَضيّة قد اتّفقت للرواية اتّفاق الصّدفة . ولم تلتصق بها على أنّها هي القصد والغاية . ونفيُ تأثّر « اللّجنة » بهذه المقولات تقف دونه استجابتُها لها في مواطن كثيرة . والحقّ انّ الوجهين لا يخلُوان من صحّة . وبيانُ ذلك انّ « اللّجنة » وليدة سلسلتين من المؤثّرات : أُولاهما سلسلة المؤثّرات السياسيّة الاجتماعيّة النّاجمة عن الواقع المصريّ خاصّة والعربيّ عامّة . فالكيان الغربيّ لا يعدو بالفعل الكيانَ الذي قدّمته لنا « اللّجنة » . فهو مثله قد انعدمت فيه السّماتُ الانسانيّة البشريّةُ . وانحلّت العُروة الاجتماعيّة ليخلفها شتاتٌ من أفراد مشوَّهين . وانكمشت المساحاتُ الحيويّة وانقبضت . وطغى عليها ماردُ السياسة وقد غدا أخطبوطا يدفع بأصابع القهر والعنف الى كلّ مكان ، وهو مثله قد مات فيه الإنسان أو أوشك لتحلَّ محلَّه الأشياءُ مدعَّمةً بمنطق الرّبح والاستغلال . ومن الطّبيعيّ ان يبدو هذا العالم كالحَ الوجه خاليا من كل عمق وكلّ صواب . والفسادُ فيه فسادُ الفقر والجهل والتخلُّف . بخلاف العالم الذي تعنيه الرواية الغربيّة الجديدة . ففساده أو ما يبدو فسادا فيه فسادُ البذخ وطفرة الثّروة . فلهذا اذن فسادُ الجوع والنَّهم . ولذاك فساد الشّبع والتّخمة . لذلك ظهر العالمُ الرّوائيّ في « اللّجنة » وكأنّه وليد المبادىء النظريّة للرواية الغربيّة الجديدة . ولكنّنا لا

---

(56) l'espace humain G. Moloré ص 209 .

نشكّ في أنّ هذه المبادىء لم تكن عديمةَ الأثر على صنع اللّه ابراهيم . وإن لم تُوحِ له بالكثير فقد أوحت بالقليل على الأقلّ . خاصّة والتّجربةُ التي أراد تأديتها تتّفق مع هذه المبادىء الى حدّ بعيد . وممّا يشفع لنا في إقرار هذا التأثُّر ما نعرفه من حسن اطّلاع المؤلّف على أحدث التقنيات والمقولات الرّوائيّة الغربيّة . وقد ذهب في « نجمة أغسطس » الى تطبيق إحدى هذه التّقنيات . وهي الكتابة عمدا بطريقة مُملّة رتيبة بغية التّعبير عن رتابة الحياة اليوميّة وثقل وطأتها وخُلوّها من كلّ جديد . وهكذا تكون « اللّجنة » صدى جيّدا للواقع المعيش في مصر وفي العالم العربيّ عامّة . فهو مصدرُ الإلهام الأوّل فيها ومصدرُ المادّة الرّوائيّة جملة وانعكاسا الى حدّ ما لأهمّ التيارات الأدبيّة الغربيّة المهتمّة بالرّواية . ولعلّها ساعدتْه في اختيار طريقة المعالجة خاصّة .

ويمكن ان نستخلص أخيرا من كلّ ما تقدّم وجودَ موقعين جوهريين يستقطبان المكان . هما مقرّ اللّجنة ومنزل الرّواي وتشملُهما حركةٌ مُضاعفة تحمل الأوّلَ على التوسُّع والامتداد بالاستيلاء على الفضاء الاجتماعيّ الممتدّ حيّزا وَسَطا بين القطبين وإخضاعِه للمشيئة السياسيّة وحَلِّ الجماعة المُعَمِّرة له لتحويلها من كلٍّ مُؤتَلف متماسكٍ الى شتات من أفراد وصياغتِه وفقا لمنطقها منطق رأس المال ومقتضياته ومنطق القوّة . وتحكم على القطب الثّاني بالتقلُّص والانقباض حتّى يقع هو الآخر لمنطق السياسة ويُذعِن لإرادتها وتنتفي عنه حصانتُه وقداستُه . ومعنى ذلك انّ المكان لم يعُد مجرَّد عماد الأحداث والوقائع والشخصيات . فقد ارتفع ليصبح اكثر من مكان . فكأنّه شخصيّة صامتة خفيّة ساكنة تفعل في الأحداث وتوجّهها وتصنع محتوى الرّواية ودلالاته العميقة . وإنْ تيسّرت له مثل هذه الوظائف الجليلة فلأنه إسقاط للمجتمع وما يعتمل فيه من صراع بين المنطق السياسيّ والمنطق الاجتماعيّ . وممّا يروعنا في هذا الأثر إعلانُه عن موتِ الجماعة بانحلالها الى أفراد واختناقِ الأفراد

أنفسهم بعد أن عوّض « النّظامُ » حريّتهم بما يشبه السَّراحَ الشَّرْطيّ أو الإقامة الجبريّة . وليس من السّهل فهمُ ما يعنيه كلُّ ذلك . هل يعني أنْ لا سبيل الى الأملِ . وأَنَّ زمن اليأس قد حَلّ ؟ وعندئذ فلماذا هذا الأملُ الباهت الذي يُلوِّحُ لنا به المؤلّف بحرارة لم تُوَفَّق الى إقناعنا بإمكانه ! أم هل يعني أنّ الكائن البشريّ العربيّ قد مات بُعدُه الاجتماعيّ لكي لا يبقى منه الاّ الفردُ . الاّ أنّه فردٌ قد قُضي عليه بالنّفي والاغتراب بفعل تدهور المكان وتنكُّرِه لكلّ القيم الإنسانيّة . وفي هذه الحال تذكّرنا « اللّجنة » بأدب اللاّمعقول ، أدب أوروبا التي دمَّرت فيها الحربُ الكونيّة المكانَ ودكَّت العمران . وألَّهت القوّةَ والعنف والباطلَ . وممّا لا شكّ فيه ، مهما كان الجواب ، انّ هذه الرواية تكشف عن ضرورة بناء علاقة جديدة مع المكان . فقد ولَّت حروبُ التّحرير . وفيها كان المكانُ رُقعةَ الأمل والفعل . وانتهت عهود الاستقلال الأولى . وفيها كان المكان حيّز الحريّة والبناء والحُلم . أمّا الآن فقد أصبح المكان أرضَ الخِسّة والقمع وهدر الكرامة . وقد أقام البطل علاقتَه به على أساس التمرُّد . ففشل . فاختار المقاطعةَ والترقّبَ . وفَضَّلَ ترك مهمّةِ الثورة الجادّة الى الأجيال القادمة . وكأنّه يشير بذلك الى أنْ لا مفرّ من حلَّين اثنين : أن تستعيد الجماعة سيطرتَها على المكان لترصدَ فيه نفسَها بالفعل . وتحملَه على اتّخاذ الهيئة التي تساعدها على تمثُّل ذاتها فيه أو أن تُذعن للواقع الرّاهن . وتَقبلَ هذا المكانَ ـ السّجنَ . وليس لها عندئذ غير السّقوط والانسحاب من الحياة . ولئن اتّخذ المكان في « اللّجنة » مثل هذه القيمة فلطبيعةِ الظّرف المتأزّم الذي تترجم عنه . والأزمات تدفع بالمكان الى صدارة الاهتمامات والمشاغل . فهو الذي « « تَمُرّ » منه الأزمةُ غالبا . ومنه كذلك « يَمُرّ » الحلُّ وينبعُ .

عبد الصمد زايد

البنية القصصيّة في

« رسالة التّوابع والزّوابع »

لابن شهيد الأندلسيّ

بقلم : عبد العزيز شبيل

تُعتبر « رسالة التّوابع والزّوابع » لابن شهيد الأندلسيّ * (382 ـ 426 هـ/992 ـ 1035 م) معلماً من المعالم الأدبيّة الشّامخة في الأدب العربيّ . لذلك كان من الطّبيعيّ أن تستقطب آهتمام عديد من الباحثين في تاريخ الأدب ونقده ، فانكبّوا عليها يبحثون في خصائصها الفنّيّة ، وقيمتها التّاريخيّة ومكانتها في النّثر العربيّ . وقد تعدّى الأمر خصائص الأثر ذاته ليصل الى محاولة إبراز مكانته ضمن النّثر الأندلسيّ ، ويقارن بينه وبين شبيهه في الشّرق ، أي « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعرّي .

---

* اعتمدنا ، في هذه الدّراسة ، على « رسالة التّوابع والزّوابع » لابن شهيد الأندلسي : تصحيح وتحقيق وشرح وتبويب : بطرس البستاني ـ دار صادر ـ بيروت ، لبنان ـ 1967 .

ورغم العناية بالجوانب المذكورة ، فقد أهمل النّقّاد ، أو كادوا ، جانبا لعلّه أطرف ما في الرّسالة ، أعني به جانب الخيال والنّزعة القصصيّة والبناء الفنّيّ فيها . وهو من أهمّ ما يمكن أن يبرز خصوصيّة الأثر الأدبيّ ضمن إطار النّثر العامّ . من هذا الجانب تكتسب هذه المحاولة شرعيّتها ، دون أن تدّعي الإحالة بالموضوع أو شمول البحث في مثل هذا المقال .

فكيف تتجلّى عناصر البناء القصصيّ في الرّسالة ؟ وإلى أيّ حدّ نجح ابن شهيد في استغلالها ليرقى بأثره إلى مستوى الطّرافة الفنّيّة ؟

I/ شرط الإمكان

تتّفق المصادر القديمة والدّراسات الحديثة على أنّ ابن شهيد عاش حياة صاخبة مضطربة ، زاد من صخبها معايشته للفتنة البربريّة التي هزّت المجتمع الأندلسيّ . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تميّزت به شخصيّة ابن شهيد نفسه من إقبال على الدّنيا ، وحبّ للّذّة ، وتهالك على الجمال ، أدركنا آنذاك سرّ تميّز أدبه ، شعرا ونثرا ، بهذه الشّحنة من الانفعال والتّوتّر ، التي تميّز كلّ فنّان مرهف الإحساس . فابن شهيد ـ شأنه في ذلك شأن كلّ شاعر جيّاش العواطف ـ ذو نرجسيّة تطفو على سطح أدبه بما لا يدع مجالا للشّكّ ، وتعلن عن مركّب للعظمة بلغ حدّا من التّضخّم كبيرا . وفي هذا الجانب بالذّات تكمن عقدته ، كما يكمن سرّ نبوغه . لذلك ندرك بجلاء كيف أنّ تعريض معاصريه به ، من هذا الجانب ، أي جانب الشّاعريّة والمقدرة الأدبيّة ، سيُحدث في نفسه تصدّعا أليما وجُرحًا لا يكاد يندمل ، بينما لم يكن يأبه للتّهم التي حاولت المسّ من الجانب الأخلاقيّ فيه ، أعني حبّه للخمر والنّساء والغلمان .

هذا التّشهير الذي سُلّط عليه ، والذي حمل لواءه أبو القاسم بن الإفليلي ، اللّغويّ الشّهير ، تركّز على ثلاثة محاور = قلّة إلمامه بأمّهات الكتب

(1) ، وأنتحاله لأشعار المشاهير من الشّعراء (2) ، ثمّ عُجبه وميله إلى اللّهو والبطالة (3) .

انطلاقا من « محضر الاتّهام » هذا ، سيحاول ابن شهيد دفع التّهمة عن نفسه وإفحام خصومه ، عن طريق إبطال هذه الادّعاءات ، ثمّ إثبات مقدرتِه الأدبيّة ، لا بين الأندلسيّين فحسب ، وإنّما لدى أدباء المشرق باعتبارهم النّموذج المحتذى ، والمثال الذي كان الأندلسيّ يسعى إلى محاكاته .

ولكن ، كيف السّبيل إلى نيل الإجازة من هؤلاء الأعلام ، وجميعهم ينتمون إلى القرون السّابقة ؟ كيف يكون بإمكان ابن شهيد أن يحاور الأموات ؟ أمّا عودتهم إلى الحياة فأمر مستحيل ، بل مرفوض دينيّا ومنطقيّا . لذلك لم يبق أمامه سوى إمكان واحد ، وهو أن يتخيّل ، لا عودتهم الفعليّة ، بل رجعتهم الفنّيّة في شكل شياطين وتوابع ، وهو أمر تسمح به العقليّة القديمة ، باعتبار أنّ لكلّ أديب شيطانه الذي يوحي إليه .

هكذا ندرك ، بوضوح ، كيف فرض موضوعُ الرّسالة شكلَها الطّريف ، ونفهم سرّ التجاء ابن شهيد إلى هذا الإطار الغريب لمحاوراته الأدبيّة . ذلك أنّ أشخاص الرّسالة غير طبيعيين . فمن المنطقيّ ، حينئذ ، أن يكون لقاء ابن شهيد بهم في ظروف غير « طبيعيّة » ، أي في عالم آخر هو عالم « الغرابة » و « الغربة » و « الرّغبة » .

---

(1) انظر : رسالة التّوابع والزّوابع » لابن شهيد - تحقيق : بطرس البستاني - ص 54 - 55 .
(2) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي - « عصر سيادة قرطبة » - الطّبعة الرّابعة . دار الثقافة - بيروت . لبنان - 1975 - ص 299 و ص 302 .
(3) المرجع السّابق ص 290 - 291 .

II/ دنيا الشّياطين :

لعلّ أولى المشاكل التي اعترضت ابن شهيد ، أثناء تأليف رسالته ، تمثّلت في كيفيّة إنجاز النّقلة من دنيا البشر إلى هذا الموطن الآخر الذي تعمره التّوابع والزّوابع . وصعوبة الانتقال هذه تكون أشدّ بقدر ما تكون ذهنيّة أوّلاً ، لأنّها تقتصر على بناء هذا العالم داخل ذهن القارىء وخياله ، وغريبة ، ثانيا ، لأنّها تنوي تشييد عالم مُفارق وعاديّ في آن واحد . بمعنى أنّه عالم غريب عن تصوّر القارىء ، وفي نفس الوقت غير مطلق الغرابة إلى الحدّ الذي يستحيل معه تصوّره . معنى ذلك أيضا أنّ ابن شهيد كان محكوما بشرط مزدوج ، عليه أن يبني ضمنه واقعا فوق الواقع . وهو أن يكون المُرسِل والمتقبّل والرّاوي في نفس اللّحظة ، وأن « يقسّم جسمه في جسوم كثيرة » على حدّ تعبير عروة بن الورد .

إنّ شعور ابن شهيد بهذه الصّعوبة هو الذي فرض عليه تصدير رسالته بمقدّمة تضع القارىء في استعداد نفسيّ قبل القيام بالرّحلة إلى جاذبيّة جديدة . لذلك يتولّى ، في هذا التّقديم ، إجابة صديقه ابن حزم عن سرّ عبقريّته الأدبيّة التي جعلته « يؤتى الإحالة الحكم صبيّا ، ويهزّ بجذع الكلام فيسّاقط عليه رطبا جنيّا » . وعمليّة فكّ اللّغز تتزواج فيها البساطة والغرابة ، أو قل يمتزج فيها العالَمان . فقد أرتج عليه القول يوما ، وعجز عن الإنشاد ، وإذا « بفارس باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه ، قد اتّكأ على رمحه » (4) .

هو الإلهام ، إذن ، يأتي بلا استئذان ، ويعرض خدماته على الأديب بلا مقابل ، بل ويعبّر عن رغبته في مصادقته ، ويمكّنه من مفتاح الإلهام والإبداع =

---

(4) رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد ص 89 .

أبيات شعريّة أربعة يكفي إنشادها ليحضر التّابع ويلهم صاحبه أروع الأشعار . . . « وأوثب الأدهم جدار الحائط ثمّ غاب عنّي » (5) .

هكذا يتمّ استحضار الغرابة أوّلا ، ثمّ نفي هذه الغرابة ثانيا عن طريق تدجينها وتأنيسها ، بحيث يصبح عالم الغرابة عالم « الرّغبة » . وإذّاك يمكننا الولوج فيه أو يمكنه الولوج فينا .

1 الزّمن :

لا بدّ من الإشارة أوّلا إلى أنّ الزّمن ، في كلّ أثر أدبيّ ، زمانان على الأقلّ ، يمكن أن نطلق عليهما اسمَيْ الزّمن الذّاتي والزّمن الموضوعي . أمّا الزّمن الموضوعي ، فهو زمن تأليف الرّسالة ، وهو القرن الخامس للهجرة (6) . أمّا الزّمن الذّاتيّ أو الدّاخليّ ، فهو ذلك الذي يؤطّر الأحداث داخل الأثر ذاته . ومن خصائص هذا الزّمن أنّه يمكن أن يتمطّط إلى ما لا نهاية له ، كما يمكن أن يختصر فترات زمانيّة طويلة في فصل واحد أو حتّى جملة واحدة .

إنّ رحلة ابن شهيد تبدأ بإشارة مقتضبة غامضة إلى عنصر الزّمن في الرّسالة : « تذاكرتُ يومًا مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشّعراء » (7) . على أنّ مستوى العموميّة الذي تتميّز به لفظة « يوم » ، تمكّن ابن شهيد من التّخلّص من مأزق تحديد الفترة الزّمانيّة لبداية الحدث . فاللّفظة توحي بالزّمن الأرضيّ ، وفي نفس الوقت تتركه معلّقا ، ضبابيّا إلى الحدّ الذي يمكّنه من المساهمة في تشييد عالم الغرابة . ويتكرّر استعمال هذه الصّيغة الزّمنية في الرّسالة . يقول ابن شهيد في بداية فصل « حيوان الجنّ » : « . . . ومشيتُ

(5) رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد ص 90 .
(6) المصدر السّابق ص 67 إلى 70 .
(7) المصدر السّابق ص 91 .

يومًا أنا وزهير بأرض الجنّ أيضا نتقرّى الفوائد ونعتمد أندية أهل الآداب منهم » (8) . ومن جهة أخرى ، تقترن هذه الصّيغة الزّمنيّة بإشارات تؤكّد انغراسها في الإطار الدّينويّ مثل لفظة « الزّمان » : « . . . وما أنت إلاّ محسن على إساءة زمانك » (9) . ولفظة « الشّهر » : « . . . قال هو بدير حنّة منذ ثلاثة أشهر » (10) . ولفظة « اليوم » : « . . . قالوا : إنّه لفي شرب الخمرة منذ عشرة أيّام » (11) .

على أنّ هذا الزّمن البشريّ العاديّ يمتزج بزمن آخر يذوب فيه التّدرّج المنطقيّ وينساب فيه الزّمن انسيابا خارقا : « . . . وطار عنّي ثمّ انصرف كلمح بالبصر ، وقد أُذن له » (12) . بهذه الطّريقة تُطوَى المسافة بين عالمي الإنس والجنّ ، ويتمّ الأنتقال في « لمح بصر » معلنا ، في الآن نفسه ، عن انتفاء الفواصل المكانيّة بينهما ، مثلما وقع اختزال الزّمن إلى أقصى الحدود .

ولا يختلف الأمر كثيرا بالنّسبة إلى المكان ، إذ نلاحظ نفس المرور الخاطف من أرض البشر إلى أرض الجنّ ، كما نلاحظ نفس الجزئيّات الأرضيّة التي تخدم ، في النّهاية ، عمليّة تأنيس عالم الغرابة وتقريبه من ذهن القارىء .

2)المكان :

يتمّ الانتقال إلى عالم الجنّ بناءً على رغبة ذاتيّة يعبّر عنها ابن شهيد ، ويحقّقها تابعه « كلمح بالبصر » . فإذابه « يجتاب الجوّ فالجوّ ، ويقطع الدّوّ

(8) المصدر السّابق ص 147 .
(9) المصدر السّابق ص 101 .
(10) المصدر السّابق ص 102 .
(11) المصدر السّابق ص 105 .
(12) المصدر السّابق ص 91 .

فالدّوّ ، حتّى التمحتُ أرضا لا كأرضنا ، وشارفتُ جوّا لا كجوّنا ، متفرّع الشّجر ، عطر الزّهر » (13) . تلك هي أرض الجنّ يحلّ بها أبو عامر .

إلاّ أنّ هذا التّقديم المجمل ، رغم تأكيده على الاختلاف بين أرض البشر وأرض الجنّ ، لن يفسح المجال بعد ذلك لمزيد من التّفصيل . بل إنّ كلّ ما سيرد من أوصاف ، منذ تلك اللّحظة ، يزيد من تأكيد دنيويّة هذا الإطار . فتابع أمرىء القيس يقيم « بواد من الأودية ذي دَوْح تتكسّر أشجاره وتترنّم أطياره » (14) . وتابع طرفة بن العبد يقطن « وادي عتيبة » ، في « غيضة شجرها شجران : سام يفوح بهارا ، وشِحْرٌ يعبق هنديًّا وغارًا » إلى جانب « عين معينة تسيل ويدور ماؤها فلكيّا ولا يحول » (15) . أمّا صاحب أبي تمّام ، فهو يسكن إلى جانب « شجرة غيناء يتفجّر من أصلها عين كمقلة حوراء » (16) ، مثلما اختار صاحب البحتريّ الإقامة « بقصر عظيم قدّامه ناورد يتطارد فيه فرسان » (17) . ولعلّ أطرف الأمكنة ، « ديرحنّة » حيث ينزل صاحب أبي نواس . فهناك يجتاب ابن شهيد « أديارا وكنائس وحانات « حتّى يصل إلى « بيت قد اصطفت دنانه وعكفت غزلانه » (18) . أمّا صاحب المتنبّي ، فلا يمكن ملاقاته إلاّ في الطّرق النّائية ، وكأنّه دائم التّرحال لم يَرَ له مستقرّا (19) .

(13) المصدر السّابق ص 92 .
(14) المصدر السّابق ص 91 .
(15) المصدر السّابق ص 93 .
(16) المصدر السّابق ص 98 .
(17) المصدر السّابق ص 102 .
(18) المصدر السّابق ص 105 .
(19) المصدر السّابق ص ص 111 .

ولا يختلف الأمر كذلك بالنّسبة إلى الإطار الذي يقيم فيه توابع الكتّاب . فهم يجتمعون « بمرج دهمان ، وبيننا وبينهم فرسخان » (20) . كما يلتقي بحيوان الجنّ في « قرارة غنّاء تفترّ عن بركة ماء » 21) .

هكذا ، إذن ، يبدو عالم الجنّ « طبيعيّا » لا يختلف عن دنيا البشر في شيء . وهذا التّماثل بين العالمين يؤكّد بُعدا أساسيّا من أبعاد الرّسالة ، يتمثّل في كونها تعبيرا عن رغبة ذاتيّة لم تجد لها مُتنفّسا إلاّ في بناء واقع ثانٍ فوق الواقع الذي عاشه ابن شهيد . وممّا يزيد هذه الملاحظة تأكيدا ، التجاء الكاتب إلى إضفاء مجموعة من الصّفات « البشريّة » على شخصيّات رسالته ، إضافة إلى ما يتمتّعون به من قدرات خارقة .

3) **الأشخاص :**

إذا استثنينا أبا محمد بن حزم ، وابن شهيد نفسه ، وهما الشّخصيّتان المعروفتان تاريخيّا ، فإنّ جميع أشخاص الرّسالة من توابع وشياطين وحيوان ، ينتمون إلى عالم الخيال الذي شاده الكاتب . ومثلما وقعت الإشارة إليه سابقا ، فإنّ مجموعة من العوامل عديدةً فرضت عليه إضفاء الأوصاف ونعوت على أشخاص رسالته تجعلهم أكثر قربا من تصوّرات القارىء الذّهنيّة ، وعالَمه المحيط به . ولعلّ أهمّ ما يسترعي انتباه القارىء ، عند استعراض هذه الأوصاف ، غلبة صفة « الفروسيّة » على توابع الشعّراء أساسا . فعُتيبه بن نوافل ، صاحب امرىء القيس ، « فارس على فرس شقراء كأنّها تلتهب » ، (22) يهزّ رمحه في عزّة وخيلاء . وعنتر بن العجلان ، صاحب طرفة ، « راكب

(20) المصدر السّابق ص 115 .
(21) المصدر السّابق ص 147 .
(22) المصدر السّابق ص 92 .

جميل الوجه ، قد توشّح بالسّيف واشتمل عليه كسآء خزّ ، وبيده خطّيّ » (23) . وكذلك أبو الخطّار صاحب قيس بن الخطيم ، الذي يلتقي به الكاتب صدفة . أمّا طوق بن مالك ، المُكنّى بأبي الطّبع ، وهو تابع البحتريّ ، فهو « فتى على فرس أشعل وبيده قناة » (24) . ولا يختلف حارثة ابن المغلّس ، صاحب أبي الطّيّب ، عن هؤلاء جميعا ، إذ يبدو لنا « صاحب قنص . . . فارسا على فرس بيضاء كأنّه قضيب على كثيب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء . . . ناظرا من مقلة شوساء قد مُلئت تيها وعجبا » (25) . وبالإضافة إلى كلّ ذلك ، فقد أبى خيال ابن شهيد إلّا أن يضفي على تابعه الخاصّ ، زهير بن نمير ، من الصّفات ما يلحقه بقائمة الفرسان ، فإذا هو « فارس على فارس أدهم . . . قد اتّكأ على رمحه » (26) .

وإذا ما انتقلنا إلى الشّعراء المحدثين ، لاحظنا اختلافا في الأوصاف . فعتّاب بن حبناء ، صاحب أبي تمّام ، ينبجس من قاع عين ماء ، فإذا هو « فتى كفلقة القمر » (27) . أمّا حسين الدّنّان ، تابع أبي نواس ، فهو « شيخ طويل الوجه والسّبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زقّ خمر ، وبيده طرجهارة ، وحواليه صبية كَأَضْبٍ تعطو إلى عرارة ؛ (28) وهو على حال من السّكر تمنعه من الكلام ، حتّى إذا ما سأله ابن شهيد « . . . جاوب بجواب لا يُعقَل لغلبة الخمر عليه » (29) .

---

(23) المصدر السّابق ص 93 ـ 91 .
(24) المصدر السابق ص 102 .
(25) المصدر السّابق ص 111 ـ 112 .
(26) المصدر السّابق ص 89 .
(27) المصدر السّابق ص 98 .
(28) المصدر السّابق ص 105 .
(29) المصدر السّابق ص 105 .

وبمجرّد أن يتحوّل ابن شهيد وتابعه إلى « مرج دهمان » لملقاة توابع الكتّاب ، تتغيّر سمات أشخاص الرّسالة . فلم يعد من مجال لملاحظة صفات الفروسيّة ، حتّى لكأنّها تتضارب والنّثر . فهذا تابع الجاحظ ، عتبة بن أرقم ، وكنيته أبو عيينة ، « شيخ أصلع ، جاحظ العين اليمنى ، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة » (30) . أمّا صاحب الإفليلي ، الملقّب بأنف النّاقة بن معمر ، فيتراءى له في صورة « جنّيّ أشمط ، ربعة ، وارم الأنف ، يتظالع في مشيته ، كاسرا لطرفه وزاويا لأنفه » (31) . وذاك أبو هبيرة ، تابع عبد الحميد الكاتب ، يبقى ضبابيًا غائما بدون تحديد . وكذلك الأمر بالنّسبة إلى زبدة الحقب ، صاحب الهمذاني ، وأبي الآداب ، صاحب أبي إسحاق بن حمام ، وفاتك بن الصّقعب ، وشمردل السّحابيّ وفرعون بن الجون (32) .

إلّا أنّنا نلاحظ عودة ابن شهيد ، في آخر الرّسالة ، إلى التّفصيل في الوصف ، بمناسبة حديثه عن حيوان الجنّ . فبغلة أبي عيسى « شهباء ، عليها جلّها وبرقعها ، لم تدخل فيها دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة » (33) . أمّا أمّ خفيف ، الإوزّة الأديبة ، فتتراءى « . . . بيضاء شهلاء ، في مثل جثمان النّعامة ، كأنّما ذُرّ عليها الكافور أو لبست غلالة من دمقس الحرير ، لم أرَ أخفّ من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صبًّا ، تثني سالفتها وتكسر حدقتها ، وتُلَوْلِبُ قَمَحْدُوَتَهَا » (34) .

بعد أن استعرضنا هذه الأوصاف كلّها ، يكون من الطّبيعيّ أن نتساءل عن السّبب الذي دفع بابن شهيد إلى اختيار هذه الملامح والصّفات ،

---

(30) المصدر السّابق ص 115 .
(31) المصدر السّابق ص 124 .
(32) المصدر السّابق ص 128 إلى ص 146 .
(33) المصدر السّابق ص 148 .
(34) المصدر السّابق ص 149 ـ 150 .

وإسنادها إلى أشخاص رسالته ؟ على أنّ ذلك لن يتسنّى لنا إلاّ إذا حلّلنا منابع الخيال في الرّسالة ، وأبعادها التي تجسّمت في صورة أدبيّة خلاّقة ، ممّا يسمح لنا باكتشاف القيمة الفنيّة لهذا الأثر الأدبي المتميّز .

III/ الخيال في رسالة التّوابع والزّوابع :

ما من شكّ أنّ الأديب لا يمكن أن يبدع من عدم ، وإنّما ينطلق في إبداعه الأدبيّ من موروث ثقافيّ ينظر فيه نظرة مغايرة ، فيأخذ منه وينتقي ، ويحوّر منه ما لم يعد يصلح لمواكبة العصر . ثمّ يوظّف كلّ ذلك في خدمة إنتاجه الشّخصيّ ، بما يبدو معه القديم دائم التّجدّد . فلا معنى ، بعد ذلك ، للخلق ، وإنّما هو التّجديد في الرّؤية ؛ ذلك أنّ تاريخ الفكر والحضارة تواصُل أو لا يكون .

والنّاظر في « رسالة التّوابع والزّوابع » يلاحظ سمة مميّزة لهذا الأثر ، تتمثّل في استغلال ابن شهيد للتّراث الأدبيّ السّابق له ، ممّا مكّنه من أن يكسو أثره حلّة من الطّرافة والجدّة جميلة . فقد اعتمد ، في خياله ، على مصدرين أساسيين هما الشّعر العربيّ القديم والأساطير . ولعلّنا نلمس هنا جانبا هامّا يتعلّق بموقع رسالة ابن شهيد من النّثر الأدبيّ عامّة ، ويتمثّل في تميّزها تميّزا واضحا عن « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعرّي ، من حيث أنّ أبا العلاء ، وبالإضافة إلى المصدرين المذكورين ، قد استند أساسا إلى القرآن وما جاء فيه من أوصاف تتعلّق بالجنّة والنّار . أمّا ابن شهيد ، فلم يكن بإمكانه أن يستغلّ هذا المصدر الرّائع . لذلك اكتفى بما اختزنته الذّاكرة العربيّة الإسلاميّة عن الشّعر والشّعراء والتّوابع والشّياطين . إلاّ أنه ، مع ذلك ، لم يقتصر على التّلقي والتّكرار الجافّ . وإنّما استطاع تجاوز ذلك إلى التّصرف ببراعة في هذا المخزون الثّريّ تصرّفا بدت معه رسالته أثرا شديد الإيحاء ، وخاصّة في ما يتعلّق بالأسماء والصّفات .

1 ـ الأسماء :

حرصا منه على تقريب عالم الغرابة الذي شيّده ، من ذهن القارىء ، لجأ ابن شهيد إلى رسم ملامح مميّزة لكافّة أشخاص رسالته ، بحيث تتجلّى من خلالها نفسيّاتهم أو خصائصهم الجسديّة والخلقيّة . وبالجملة ، فإنّ صورة الشّاعر أو الكاتب ، مثلما تبدو في الرّسالة ، توافق ما نُسج حوله من أخبار ، وما يمكن استنتاجه من خلال أدبه ، أو إنّها تمثّل حصيلة « قراءة » ابن شهيد نفسه لآثاره ، والملامح التي تَمكّن من رسمها لهذا الشّاعر أو ذلك الأديب . وإذا كان هذا المجال الضّيّق لا يسمح لنا باستعراض كلّ الأسماء والكنى والألقاب ، وبيان قيمتها الإيحائيّة ، فإنّ في ما سنكتفي بالإشارة إليه ما يؤكّد هذه الملاحظة .

فقد اختار ابن شهيد لتابع آمرىء القيس اسم « عُتيبة بن نوفل » . والعتبة هي الغليظ من الأرض ، كما تعني « العتوب » الطّريق ومنعطف الوادي . أمّا « نوفل » فتفيد الرّجل المعطاء ، مثلما تفيد البحر . فإذا أدركنا ذلك ، أمكن لنا أن نرى في اختيار هذه التّسمية إشارة خفيّة إلى شاعريّة امرىء القيس وغزارة إنتاجه ، وتلميحا ذكيّا إلى صعوبة النّهج الشّعريّ الذي انتهجه ، وسَنِّهِ للطّريقة الشّعريّة التي سيتوخّاها من جاء بعده ، ممّا أهّله ليكون أمير الشّعراء . أمّا « عنترة بن العجلان » فرمزٌ إلى شجاعة طرفة بن العبد وتهوّره وسرعة مفارقته للحياة ، حتى لكأنّه يستعجل الموت أو هو يستعجله . ولا يختلف الأمر بالنّسبة إلى « حسين الدّنان » ، صاحب أبي نواس . ففي اسم « حسين » كلّ الدّلالة على الجمال والزّينة . وأمّا الدّنان ، فرائحة الخمر تكاد منها تفوح . كذلك ، لا يشذّ عن هذه القاعدة « حارثة بن المغلّس » تابع المتنبّي . فالحارث كنية للأسد ، والمُغلّس هو الذي سار في ظلمة آخر اللّيل . فواضح ، إذن ، ما في هذه التّسمية من إشارة إلى الشّجاعة والبطولة والتّفرّد ، وهو ما يوحي به شعر أبي الطّيّب ونفسيّته وأطوار حياته الصّاخبة .

2) الخصائص الجسديّة والخلقيّة :

ومن جهة أخرى ، فإنّنا لا نستطيع أن نمرّ دون أن نشير إلى أنّ صورة التّوابع في الرّسالة ليست دائما مستقاة من شعر الشّاعر أو أخباره ، وإنّما ترد أحيانا « رسما بالكلمات » لخصائصه الجسديّة مثلما اشتهر بها صاحبها . ويتجلّى ذلك خاصّة عند تابع الجاحظ ، عتبة بن أرقم . فهو « شيخ أصلع ، جاحظ العين اليمنى » (35) . هذا إذا ما توفّرت في المصادر مثل تلك الملامح الدّقيقة والأوصاف . فإذا ما سكتت المصادر عن ذلك ، لجأ ابن شهيد إلى أدب الرّجل يستوحيه ، أو إلى صورته العامّة كما ارتسمت في ذهنه من خلال مطالعته له . فصاحب عبد الحميد الكاتب يكنّى بأبي هبيرة ، ومعناه لغةً ذَكَر الضّفادع أو الضّبع أو الكثير اللّحم . بذلك يكون اختيار هذه الكنية إشارة إلى ضخامة جثّة عبد الحميد ، وهو ما لا نستطيع الجزم به ، أو إشارة إلى حكم ابن شهيد على أدب الرّجل إذ يشبّهه بنقيق الضّفادع ، وهو ما نميل إليه بالاعتماد خاصّة على ما جاء في نفس الفصل من حكم قاسٍ على نثره ، وتفضيل لنثر الجاحظ عليه .

وتنطبق نفس الملاحظة، تقريبا، على « أنف النّاقة بن معمر » صاحب الإفليليّ ، بل تبدو أكثر تأكّدا باعتبار أنّ الإفليليّ معاصر لأبن شهيد أوّلا ، والطّرف الأوّل في خصومة ابن شهيد مع معاصريه ثانيا . لذلك لم يلجأ صاحب الرّسالة إلى الطّعن في تكوين الرّجل ، الأدبيّ واللّغويّ ، وهو ما لا يقبل دحضًا ، وإنّما ركّز أساسا على عيوبه الخِلقيّة ، فإذا هو « جنيّ أشمط ، ربْعةٌ ، وارمُ الأنف ، يتظالع في مشيته ، كاسرا لطرفه وزاويا لأنفه » (36) . إنّ هذه الفكرة ، أخيرا ، تجد لها سندا في مظهر آخر ، يتمثّل في انعدام

---

(35) المصدر السّابق ص 115 .
(36) المصدر السّابق ص ص 124 .

الإشارات الدّقيقة الى الملامح الجسديّة أو الخصائص النّفسيّة أو الميزات الأدبيّة لدى نقّاد الجنّ ، ذلك أنّ ابن شهيد افتقد هنا مرجعا يعود إليه لرسم ملامح شخصيّاته تلك ، فلجأ إلى التّصوّر المبهم الذي لا يكاد يتجاوز الأسماء الغريبة ، من نوع « شمردل السّحابيّ » ، أو « فاتك بن الصّقعب » أو « فرعون بن الجون » . فهذه الشّخصيّات دخيلة على عالم الرّسالة ، وهي من وحي خيال الكاتب ، فلم يكن باستطاعته أن يركن ، أثناء الحديث عنها ، إلى أدب أو شعر أو أخبار ، وإنّما اكتفى بترديد الأسماء ذات الإيحاء الغريب ، التي أسندتها العقليّة العربيّة قديما إلى هذا الصّنف من المخلوقات (37) .

بالإضافة إلى هذه السّمات الخارجيّة ، يلاحظ القارىء أيضا تركيزا من ابن شهيد على السّمات الخُلُقيّة لشخصيّات رسالته . وهي سمات استقاها من التّراث الأدبيّ الذي تشبّع به ، أو من معرفته المباشرة لمعاصريه . وإذا كان الجانب الثّاني بسيطا لا يحتاج منه إلى كبير عناء في رسم هذه الشّخصيّات التي عايشها ، فإنّ مهمّته تكون أصعب بالنّسبة إلى أعلام الأدب السّابقين له ، لأنّها تفترض أوّلا معرفة واسعة وغوصًا كبيرا في ما خلّفوه من تراث ، كما تكشف ثانيا « قراءة » ابن شهيد نفسه لهذا التّراث ، وبالتّالي تضيء جانبا من ثقافته وشخصيّته .

وقد كنّا أشرنا سابقا إلى ملاحظة هامّة ، تتعلّق بصفة الفروسيّة التي أسندها ابن شهيد إلى أعلام الشّعراء ، وجرّد منها الكتّاب ومعاصريه . ويحقّ لنا الآن التّساؤل عن أسباب ذلك .

إنّ صفة الفروسيّة ، بالنّسبة إلى الشّاعر الجاهليّ ، تكاد تكون أمرا طبيعيّا . ذلك أنّ هذه الصّفة كانت أهمّ مرتكزات الشّعر والحياة . لذلك ركّز

---

(37) لعلّه من المفيد ، في هذا المجال ، أن نقارن هذه الأسماء بتلك التي أوردها أبو العلاء المعريّ في « رسالة الغفران » لاشتراكها في خاصيّة الإيحاء الصّوتيّ الغريب .

ابن شهيد وصفه عليها أثناء لقائه بتوابع امرىء القيس وطرفة وقيس بن الخطيم . ويبدو وكذلك طبيعيًا أنّ الفروسيّة صفة مميّزة لتابع المتنبيّ ، وهو الذي أخلص لها في شعره إلى حدّ أن جاء غزله زواجاً غريبا بين اللّحاظ والسّيوف ، وبين جراح القلوب ودماء العشق ، أو قُلْ جاء تداخلا مدهشا بين « حبّ الفروسيّة » و « فروسيّة الحبّ » . إلاّ أنّ ما يستوقف القارىء الفطن ، إنّما هو إسناد ابن شهيد صفة الفروسيّة إلى تابع البحتريّ ، وما كان ينبغي له . فإمّا أن يكون صاحبُ الرّسالة قد اعتمد على شعر البحتريّ في تخيّل هذه الصّورة ، وإمّا أن يكون قد نَحَا منحى رمزيّا مقصودا . وإذا كان قد رسم البحتريَّ بهذا الشّكل ، اعتمادا على شعره الحماسيّ فحسب ، فلِمَ حرم أستاذه أبا تمّام من هذه الصّفة ، وهو أغزر منه شعراً في هذا الباب ؟ لا مناص ، إذن ، في رأينا ، من تبنّي المنحى الرّمزيّ في التّأويل ، خاصّة وأنّه يوضّح قيمة الأثر الفنّيّة اكثر .

يبدو هؤلاء الفرسان جميعا ، في الرّسالة ، حَمَلة ألوية . فامرؤ القيس يحمل لواء إمارة الشّعر ، وطرفة يرفع لواء الفتوّة ، وقيس بن الخطيم لواء الأنفة وإباء الضّيم . أمّا تابع البحتريّ ، فمع رفعه لواء الطّبع الشّعريّ ، فإنّ خيال ابن شهيد الدّافق أبى إلاّ أن يرسمه لاعبًا في « ناورد يتطارد فيه فرسان » . ولعلّ في هذه الإشارة الذّكيّة ما يوحي بأنّ البحتريّ كان ينحو في شعره منحى السّهولة والطّبع ، أي منحى « اللّعب » الذي يرفض المعاناة والكدّ والغوص في المعاني والأفكار . وممّا يدعم ميلنا إلى هذا التّأويل ، نهاية المشهد ، التي جاءت لكلّ المشاهد الأخرى ، إذ لا يجيز البحتريّ ابنَ شهيد ، وإنّما يفتكّها صاحب الرّسالة منه افتكاكا : « . . . قال : أجزتُه لا بورك فيك من زائر ، ولا في صاحبك أبي عامر ! » (38) .

---

(38) المصدر السّابق ص 104 .

ويأبي خيال ابن شهيد أيضا إلّا أن يرسم تابع أبي تمّام وهو يقيم تحت الماء : « . . . فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفِلقة القمر ، ثمّ اشتقّ الهواءَ صاعدًا إلينا من قعرها حتّى استوى معنا » (39) . وفي اعتقادنا أنّه لم يكن ليظهره في هذه الصّورة الطّريفة إلّا ليشير بذكاء إلى « غوص » أبي تمّام على المعاني ، وإغرابه الذي تميّز به غيره من الشّعراء . فكأنّ البحتريّ يلعب على سطح المعاني ، بينما كان أستاذه يستخرج الكنوز من أعماق الفكر وثنايا الوجدان .

أمّا تابع أبي نواس ، فقد وضعه ابن شهيد في قمم الجبال حيث تحلّق شاعريته التي لا تضاهى . وبعد ذلك ، لم يزد على أن صوّر نثراً ما تكفّلت خمريّات النّواسي بتصويره شعراً .

مع بداية الفصل الثّاني ، تنمحي صفات الفروسيّة والأنفة والتّفرّد خاصّة ، لتحلّ محلّها صورة المجلس الأدبيّ الذي يجمع أعلام النّثر . هناك يصبح النّثر سيّد الموقف ، ويغيب الوجدان ، فتغيب معه صورة الحاضرين باستثناء بعض الأوصاف . فكأنّ ابن شهيد لم يجد في النّثر ما يمكّنه من إضفاء سمات على الكتّاب ، فاكتفى باستعراض فقرات مميّزة من نثرهم الفنّي . ذلك أنّ النّثر قد يبرز صاحبه ، ولكنّه ، بعكس الشّعر ، لا يكشف من خصائص صاحبه شيئا سوى إمكاناته العقليّة . كذلك الشّأن بالنّسبة إلى فصلَيْ « نقّاد الجنّ » و « حيوان الجنّ » ، إذا استثنينا ما كان ابن شهيد يعرفه من خصائص معاصريه ومعارضيه وأشار إليه بلُغة الحمير وحماقَة الإوزّ .

هكذا ، إذن ، يتجلّى الخيالْ في الرّسالة عنوانَ تجاوز وعلامة إبداع . ولكنّ الخيال لا يصدر من عدم ، وإنّما هو دائما بحاجة إلى ركيزة ينطلق منها .

---

(39) المصدر السّابق ص 98 .

هذه الرّكيزة هي واقع ابن شهيد ذاته . وبقدر ما كان هذا الواقع مرفوضا من قِبَله ، حاول صياغته من جديد ، اعتمادا على رغباته النّفسيّة ، بحيث يصبح واقعا متلائما مع ميوله وأحلامه. هذا الواقع « الجديد » الذي تولّد في خيال ابن شهيد ، يوحي بأكثر من دلالة ، ويحقّق أكثر من حلم ، فهو واقع يشي بتعلّق ابن شهيد بالشّعر ، وتفضيله على النّثر أوّلاً . كما يكشف أيضا عجز الكاتب عن التّصدّي لحسّاده ومنافسيه على أرض الواقع ، وفشله في فرض نفسه على السّاحة الأدبيّة في عصره . لذلك لجأ إلى تحقيق هذا الانتصار ذهنيّا ، وسحق معاصريهِ في حلبة الخيال ، في ضرب من إقناع النّفس بتغلّب الحلم على الواقع ، أو إيهامها بأنّ الواقع دون الحقيقة ودون الأماني .

وعلى مستوى أبعد ، لا نعدو الحقيقة إذا زعمنا أنّ ما تصوّره الرّسالة يتجاوز رغبات ابن شهيد لكي يعبّر عن رغبات المجتمع الأندلسيّ كلّه و« رؤيته للعالَم ». ذلك أنّ الفتنة البربريّة التي عاصرها ابن شهيد، وتهديد الإنسان للحضارة الإسلاميّة خلقت لدى المثقّف الأندلسيّ إحساسا مأساويّا جعله يركن إلى السّخرية اللاّذعة ، ورفض الواقع المتردّي ، عن طريق تعويضه بعالَم خياليّ يستعيد فيه الأندلسيّ ماضيه الزّاهر . وليس من باب الصّدف أن يكون ابن شهيد قد ركّز على « الفروسيّة » في رسالته ، إذ أنّها الصّفة الأساسيّة التي افتقدها المجتمع الأندلسيّ وهو يشعر ببداية الانحلال وقرب الأفول .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الخيال في « رسالة التّوابع والزّوابع » يحتلّ مركز الصّدارة ، إذ يبرز في ذات الوقت قيمة الرّسالة ، وقيمة صاحبها وقدرته على ارتياد مجاهل الإبداع الفنيّ . ولعلّنا ، لهذا السّبب بالذّات ، نعتبر ، وبالإضافة إلى ما ذكرنا ، أنّ أشدّ جوانب الخيال طرافة وإبداعًا ، وأدلّها على مقدرة ابن شهيد يتمثّل في تصوّره لعالَم رسالته ، أي في هيكلها العامّ الذي صاغ فيه أبطاله وحاك خيوط أحد أحداث قصّته .

IV/ هيكل الرّسالة

1) منطق الأفعال :

يعتبر « كلود بريمون » Claude Bremond أنّ الحكاية بأكملها تتكوّن من تتابع حكايات صغرى أو تشابكها واندماجها . وكلّ واحدة من هذه الحكايات الصّغرى تتكوّن أحيانا من عنصرين ، وغالبا من ثلاثة عناصر لا بدّ من وجودها . على هذا الأساس ، فإنّ جميع حكايات العالَم تُبنى حسب تركيبات مختلفة لعشرات الحكايات الصّغرى ذات البنية القارّة ، تناسب عددا محدودا من الوضعيّات الأساسيّة في الحياة ، ويمكننا تحديد هذه الوضعيّات بمصطلحات من نوع : « الخديعة » ، « العقد » ، « الحماية » الخ . . . (40) .

وبالرّجوع إلى رسالة ابن شهيد ، نلاحظ أنّها لا تكاد تخرج عن هذا الإطار . فهي ، من حيث بناؤها الدّاخليّ ، حكاية كبرى تتفرّع إلى مجموعة من الحكايات الصّغرى المتشابهة ، تتكوّن من هيكل ذي بنية ثلاثيّة قارّة يمكن تحديدها كالآتي :

* محور الرّغبة * محور الاختبار * محور تحقيق الرّغبة .

أ ـ محور الرّغبة :

تشترك كلّ الفصول أو المقاطع المحوريّة في الرّسالة في تعبيرها عن الرّغبة . بل إنّ الرّسالة كلّها لا تعدو أن تكون استجابة من ابن شهيد لصديقه أبي محمد بن حزم ، الذي رغب في إدراك سرّ عبقريّته الأدبيّة .

---

(40) انظر : ت . تودوروف : الأدب والمعنى ـ مكتبة لاروس ـ باريس ـ 1967 ص 53
T. Todorov : Littérature et signification — Librairie Larousse Paris-1967-p.53

أمّا في مستوى الحكايات الصّغرى ، فجميعها يبدأ بتحديد هذه الرّغبة باعتبارها البداية الحقيقيّة للحكاية . وبعد أن يكون ابن شهيد في مقدّمة الرّسالة محقّقا لرغبة ابن حزم ، يظهر في بقيّة الفصول باعتباره صاحب الرّغبة بينما يتكفّل تابعه زهير بن نمير بتحقيقها له . ولئن لاحظنا، في هدا المجال ، ضربا من الاختلاف ، بل التّناقض بين الحالتين ، فإنّ الإشكال ينمحي إذا تذكّرنا أنّ تحقيق ابن شهيد لرغبة ابن حزم ، إنّما هو تحقيق لرغبته الذّاتيّة ، ممّا يعيد التّناسق إلى الصّورة العامّة .

يبدأ القسمان الأوّلان من الرّسالة بطريقة متشابهة تتكرّر أثناء الأجزاء الفرعيّة ، وتتمثّل في طلب ابن شهيد من تابعه تمكينه من ملاقاة مجموعة من الشّعراء والكتّاب . يقول في مطلع الفصل الأوّل ، المخصّص للشّعراء : « ... هل حيلة في لقاء من اتّفق منهم ؟ » (41) . ويقول في مطلع الفصل الثّاني المخصّص لتوابع الكتّاب : « ... قلت : مِلْ بي إلى الخطباء » (42) . وبين هذا وذاك ، يتكرّر نفس الطّلب ، ولكن بتحديد أدقّ ، إذ يذكر ابن شهيد اسم الشّاعر أو الكاتب صراحة .

على أنّ مجموعة الحكايات الصّغرى ، ضمن الرّسالة ، لا تكتفي بالاشتراك في نفس البداية ، اعتمادا على محور الرّغبة ، بل تشترك أيضا في المحور الثّاني من محور البنية الثّلاثيّة القارّة ، ونعني محور « الاختبار » .

ب ـ محور الاختبار :

يمثّل هذا المحور جوهر الرّسالة كلّها ، إذ عليه يتوقّف نجاح الكاتب أو فشله ، أي تحقيق الرّغبة أو كبتها . فالاختبار ضرب من المحنة أو الامتحان

(41) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 91 .
(42) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 115 .

القاسي الذي يواجهه البطل . وعلى ضوء نجاحه أو فشله ، يستحقّ « المكافأة » أو يحرم منها . وما دام الأمر متعلّقا بشعراء وكتّاب ونقّاد ، فمن البديهيّ أن يكون موضوع الاختبار هو الشّعر والنّثر والنّقد . لذلك حفلت الرّسالة بالأدب . وشغل هذا العنصر الحيّز الأكبر منها ، باعتبار أنّه يقوم على المعارضة والمقارعة ، أي على « الإبداع » و« الشّاعريّة » أوّلًا ، كما يقوم على « التّشويق » و« إطالة العقدة » لشدّ القارىء وإيهامه بجواز الفشل وإمكانيّة الخيبة ثانيا . وذلك ممّا يخلق ضربا من التّعاطف مع البطل « المُمتحَن » . من جهة أخرى ، فقد كان الاختبار شاملا ودقيقا وصعبا . فبالإضافة إلى كونه شمل الشّعر والنّثر والنّقد الأدبيّ ، فقد تفرّع أيضا ، في مجال الشّعر ، إلى مراحل الجاهليّة وصدر الإسلام وظهره ، مثلما تفرّع في النّثر إلى مدارس الجاحظ وعبد الحميد والهمذاني ، وتفرّع في النّقد إلى مواضيع حسّاسة شائكة مثل المعارضة والاقتباس والسّرقة والطّبع والصّنعة . لذلك ، فعلى قدر الاختبار تكون الجائزة ، ولا أقلّ من أن تكون المكافأة تحقيقا للرّغبة .

ج ـ تحقيق الرّغبة :

ما دامت الرّغبة موجّهة نحو لقاء الأدباء ، وما دام الاختبار مركّزا على الأدب ، فمن البديهيّ عندئذ أن تكون المكافأة متمثّلة في « الإجازة » ، أي إثبات المقدرة الأدبيّة والاعتراف بالشّاعريّة . وتلك كانت الغايه الكبرى من تأليف الرّسالة أصلا . لذلك ، فمثلما لاحظنا سابقا تشابه البدايات المتعلّقة بكلّ الفصول والمقاطع ، نلاحظ أيضا تكرّر النّهايات فيها . بل إنّ التّكرار ليشمل التّعبير ذاته ، إذ عادت جملة : « إذهبْ ، فقد أجزتك » ، حرفيّا أو بتحوير طفيف ، ستّ مرّات ، بينما كان الاعتراف مُضمّنا في المناسبات الأربع الأخرى . وإذا كان يحقّ لنا أن نعتبر هذا الاعتراف الضّمنيّ ضربا من

« مخالفة » النّظام الأساسيّ لبنية الحكاية ، فإنّه ، لا محالة ، يكتسب دلالة لا تقلّ عمقا وإيحاءً ، كما سنرى .

2) خرق النّظام :

لقد رأينا ، فيما سبق ، أنّ الرّسالة - باعتبارها حكاية كبرى تضمّ في طيّاتها عددا من الحكايات الصّغرى - تخضع لنظام قارّ، هو ذلك النّظام المبنيّ على ثالوث محوريّ يشبه إلى حدّ كبير الثّالوث الذي اقترحه « كلود بريمون » Claude Brémond ثمّ بسّطه « ت . تودوروف » T. Todorov فيما بعد ، وما كان التّحليل السّابق لبناء الرّسالة سوى محاولة تدعيم لهذه الفكرة . إلاّ أنّنا ، مع ذلك ، لا يمكننا أن نضرب صفحا عن بعض الانحراف في هذا المسار الثّابت . بل سنحاول إبراز قيمة هذا الخرق للنّظام ومدى خدمته للأثر .

تبرز أولى هذه المخالفات عندما عبّر ابن شهيد لتابعه ، عن رغبته في لقاء صاحب أبي تمّام ، وإذا بهما يلتقيان ، وهما في الطّريق إليه ، بشيطان « قيس بن الخطيم » (43) . أمّا الثّانية ، فتظهر عندما رغب في ملاقاة صاحب أبي نواس ، فإذا به « يصطدم » بتابع البحتريّ (44) .

هذا النّوع الأوّل من المخالفة يليه نوع ثان يظهر بجلاء في الفصل الثّاني المخصّص لتوابع الكتّاب . فقد كانت بداية هذا الفصل خاضعة لمنطق الحكاية الثّلاثيّ ، إذ يعبّر ابن شهيد عن نفس الرّغبة بقوله : « مِلْ بي إلى الخطباء » ، مثلما ينتهي بنفس المكافأة : « . . . إذهب فإنّك شاعر خطيب » (45) . إلاّ

(43) المصدر السّابق ص 96 - 97 .
(44) المصدر السّابق ص 102 - 104 .
(45) المصدر السّابق ص 131 .

أنّنا ، رغم ذلك ، نلاحظ أنّ الخرق تمّ في مستوى المحور الثّاني ، أي محور « الاختبار » . فالامتحان يبدو أطول وأصعب من مواجهة الشّعراء . ثمّ إنّ رغبة ابن شهيد ، السّابقة الذّكر ، تنتفي في هذا الفصل ، لكي يحلّ محلّها نوع من الخضوع لرغبة الآخرين . فالكاتب يجهل هويّة محدّثيه ، ولذلك يلجأ إلى مُسَاءَلَةِ تابعه عنهم. ومن جهة أخرى، فإنّه لم يعد يفرض نفسه على الأدباء لمعارضتهم ، وإنّما صار هؤلاء هم الذين يفرضون عليه الاختبار . ولقد تكرّر ذلك مع توابع الجاحظ وعبد الحميد الكاتب والإفليلي وبديع الزّمان وأحد معاصريه المجهولين .

يمكننا أيضا أن نلحظ نوعا ثالثا من خرق النّظام ، تجسّد في الفصلين الأخيرين . فقد بدأ فصل « نقّاد الجنّ » ، على غير العادة ، بقوله : « وحضرت وزهير مجلسا من مجالس الجنّ » (46) . كما بدأ فصل « حيوان الجنّ » بقوله : « ومشيت أنا وزهير بأرض الجنّ . . . » (47) . ومثلما تغيّر محور الرّغبة ، أي بداية الفصول ، فقد تغيّر محور الاختبار تغيّرا كاملا . فبعد أن كان ابن شهيد هو « المُمتحَن » ، تحوّل في هذا الفصل الأخير إلى ممتحِن : « قال : تهيّأْ للحكم » (48) . لذلك حكم لفائدة بغلة أبي عيسى على حساب دُكين الحمار ، مثلما حكم بكلّ قسوة على الإوزّة الأدبية من خلال قوله : « قلت : فتطلّبي عقلَ التّجربة ، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطّبيعة . فإذا أحرزتِ منه نصيبا وبُؤْتِ منه بحظّ ، فحينئذ ناظري في الأدب » (49) .

إلى هذا الحدّ نكون قد اكتفينا بمعاينة الظّاهرة . ولا قيمة لهذه المعاينة ما لم نؤوّلها بما يخدم الأثر ذاته ، وبما يبرز قيمة هذه الظّاهرة في عمليّة الكتابة .

---

(46) المصدر السّابق ص 132 .
(47) المصدر السّابق ص 147 .
(48) المصدر السّابق ص 147 .
(49) المصدر السّابق ص 152 .

ذلك أنّنا لم نَعُدْ إبرازها بطريقة سلبيّة ، أي باعتبارها نفيا للنّظام السّابق أو اللاّحق لها . فما الغاية ، إذن ، من خرق النّظام ؟ وفيم تتمثّل قيمته ؟

يعتبر « تودوروف » Todorov أنّ الأفعال كلّها في الحكاية « . . . تخضع لقاسم مشترك يتمثّل في العرف الاجتماعيّ السّائد في عصر الكاتب » (50) . معنى ذلك أنّها تخضع للنّظام الخارج عن عالَم الحكاية . وهكذا تصبح « الحياة » جزءًا متمّما من الأثر الأدبيّ . بل إنّ وجودها عنصر أساسيّ يجب أن ندركه جيّدا لكي نتمكّن من إدراك بنية الحكاية . في هذه اللّحظة من تحليلنا بالذّات ، يصبح تدخّل المظهر الاجتماعيّ مشروعا ، بل إنّه يصير أمرا ضروريّا . ذلك أنّ الأثر الأدبيّ يمكن أن ينتهي ، بعد أن يكون قد أحلّ النّظام الموجود في الواقع . وإذا ما أدركنا ذلك . نكون قد أدركنا أنّ العُرف الاجتماعيّ ، الخارج عن عالم الحكاية ، هو الذي يقود خُطاها . وما الأفعال التي تضمّها الحكاية إلاّ أفعال توجد دوافعها ومبرّراتها خارج الحكاية نفسها ، لا داخلها : فالبطل يتصرّف بهذا الشّكل أو ذاك ، لأنّ « الواجب » يملي عليه ذلك . إنّه الموقف الطّبيعيّ الذي لا يحتاج إلى تبرير .

على هذا الأساس ، ننظر إلى الأثر من زاوية جديدة . فالحكاية لم تعُد مجرّد عرض لأفعال ، وإنّما تصبح قصّة صراع بين نظامين : نظام الأثر ذاته ، ونظام المجتمع الذي يحويه .

إنّ الحكايات الصّغرى المكوّنة لرسالة ابن شهيد تؤسّس نظاما جديدا ، مختلفا تمام الاختلاف عن نظام مجتمع ابن شهيد . وما وجود نظام المجتمع في الرّسالة إلاّ لكي يكون دافعا أو مبرّرا لبعض الأفعال . أمّا نهايات الفصول والمقاطع ، فإنّها تمثّل خرقا لنظام الحكاية ، أي رجوعا إلى نفس نظام المجتمع ، ذاك الذي قام الأثر لأجل خرقه .

---

(50) راجع : ت . تودوروف : الأدب والمعنى ص 156 وما بعدها T. Todorov:Littérature et signification

ولكن ، كيف يتجلّى كلّ ذلك في الرّسالة ؟

لِنبدأ ، أوّلا ، بتوضيح أمر ذي أهمّيّة قصوى : إنّ نظام المجتمع ، أو العُرف الاجتماعيّ ، الذي أشرنا إليه آنفا ، لا يكون بالضّرورة نظاما سياسيّا أو دينيّا أو أخلاقيّا فحسب ، وإنّما قد يشمل جوانب أخرى مختلفة من هذا العرف الاجتماعي ، وذلك حسب وضع الكاتب ذاته ، وحسب الغاية التي ينشدها . ومن هذا الجانب اختلفت الآثار الأدبيّة . والعُرف الذي تطلّع ابن شهيد ، في رسالته ، إلى خرقه ، هو العُرف الأدبيّ الذي تواضع عليه معاصروه في القرن الخامس الهجريّ بالأندلس . فقد التقى ، في بداية رحلته ، بتابعي شاعرين جاهليين هما امرؤ القيس وطرفة بن العبد . وكان يستعدّ بعد ذلك لملاقاة تابع أبي تمّام . معنى ذلك أنّه لم يُولِ الفترة الجاهليّة ما تستحقّ من عناية ، رغم أهميّتها في ثقافة الأديب الأندلسيّ ، وأنّه تجاهل تماما فترة ظهور الإسلام والقرن الأوّل للهجرة ، رغم قيمتها الأدبيّة ، لكي ينتقل مباشرة إلى أبي تمّام .

لهذا السّبب نعتبر خرق النّظام المتمثّل في محاورة قيس بن الخطيم عوضا عن تابع أبي تمّام ، ضربا من التّراجع أمام العُرف الثّقافيّ السّائد ، يوحي بأنّ ابن شهيد كان مضطّرا إلى ذلك إرضاءً لذوق الجمهور . إلاّ أنّه عرض الأمر بشكلٍ فنيّ تمثّل في طريقة إدماج حكاية ضمن أخرى (Enchâssement) .

في مستوى آخر ، وبعد محاورة تابع أبي تمّام ، رغب ابن شهيد في لقاء تابع أبي نواس ؛ ولكنّه يُفاجَأ بتابع البحتريّ . وذلك يمثّل الخرق الثّاني لنظام الحكاية ، أي الخضوع من جديد للعُرف الثّقافيّ السّائد . على أنّ هذا الخضوع يوحي بأنّ ابن شهيد يفضّل أبا تمّام على البحتريّ ، وبأنّ إفراد فصل « اعتراضيّ » للشّاعر ، كان مراعاة لذوق البيئة الثّقافيّة الأندلسيّة أكثر منه مراعاة لذوقه الخاصّ . ولعلّ أحسن الأدلّة على ذلك ما جاء على لسان تابع

البحتريّ نفسه في نهاية المقطع ، وقد اضطرّ إلى إجازة ابن شهيد مكرها ، بقوله : « أجزتُه ، لا بورك فيك من زائر ، ولا في صاحبك أبي عامر » .

ويحقّ لنا أيضا أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت بابن شهيد إلى مخالفة التّسلسل الزّمنيّ أثناء محاورته للشّعراء . فبعد أبي تمّام والبحتريّ ، وهما من القرن الثّالث ، يعود إلى القرن الثّاني للقاء تابع أبي نواس ، ثمّ ينتقل إلى القرن الرّابع لملاقاة تابع المتنبّي . وبالرّغم من أنّه ينال من جميعهم الإجازة ، مرصّعة بالاستحسان ، فإنّنا لا نستطيع أن نمرّ دون أن نلاحظ هذا التّلاعب بالزّمن ، أو هذا الخرق للنّظام الزّمنيّ « المنطقيّ » . إلاّ أنّنا نعترف ، رغم ذلك ، بأنّه يصعب علينا ، في مثل هذا البحث الموجز ، أن نجزم بخضوع هذا التّرتيب للنّموذج الثّقافيّ السّائد بالأندلس في القرن الخامس الهجريّ ، أو خضوعه إلى ذوق ابن شهيد الخاصّ ؛ مع ذلك ، فنحن إلى الرّأي الثّاني أميل ، نظرا إلى شخصيّة الكاتب وشعره .

أمّا عن مخالفة نظام الحكاية في الفصل المخصّص لتوابع الكتّاب ، فتكمن أهميّته في أنّه يشير إلى أنّ ابن شهيد ، في رأينا ، شاعر أساسا ، وأنّه اذا ما مارس الكتابة النّثريّة ، فقد فعل ذلك اضطرارا ومجاراة للسّنة الثّقافيّة في عصره ، والتي كانت تعتبر إجادة الشّعر والنّثر معًا شرطا أساسيّا للاعتراف بالقيمة الأدبيّة . أضِف إلى ذلك أنّ رسالة ابن شهيد ، وهي نثريّة ، يطغى عليها الشّعر بصورة ملحوظة ؛ بل إنّ الفقرات النّثريّة التي حرص الكاتب على إدراجها ضمن الفصل الثّاني لا تعدو أن تكون محاكاة لأساليب أعلام النّثر ، بالإضافة إلى كونها تبدو وكأنّها محشورة حشرا بدون أيّ رابط مقنع يشدّها إلى سياق الحكاية . لِنتذكّر أيضا ذلك الخضوع الاضطراريّ للسّنة الأدبيّة الشّائعة ، والذي عبّر عنه ابن شهيد صراحة بقوله : « الخطباء أولى

بالتّقديم ، لكنّي إلى الشّعراء أشوق » (51) . ولنتذكّر ، أخيرا ، إجازة الجاحظ وعبد الحميد الكاتب له ، وما تحويه من دلالة تتجاوز النّثر لكي تفضّل الشّعر عليه : « . . . فقالا : اذهب ، فإنّك شاعر خطيب » (52) .

والخضوع للسّنة الثقافيّة السّائدة هو الذي فرض على آبن شهيد أيضا مخالفة نظام الحكاية في الفصلين الأخيرين من الرّسالة (نقّاد الجنّ وحيوان الجنّ) ، وتغيير الثّالوث المحوريّ الذي انبنت عليه الحكاية . فبداية كلّ منهما لم تعد تعبيرا عن رغبة ذاتيّة ، وإنّما أصبحت تعتمد الصّدفة أو الاضطرار : « . . . قال : تهيّأ للحكم » (53) . ولقد أشرنا سابقا إلى أنّ الخضوع لرغبة الآخر ، ليس في الحقيقة سوى خضوع مقنّع للرّغبة الذّاتيّة . ولا أدلّ على ذلك من أنّ محور الاختبار ، وهو حجر الزّاوية ، يبقى حاضرا رغم تخفّيه وراء قناع المحاورة الأدبيّة البريئة في الفصل الثّالث ، وقناع الخصومة الحادّة في الفصل الرّابع . كما تتجلّى الرّغبة الذّاتيّة مجسّدة في المحور الثّالث من بنية الحكاية ، إذ يحصل ابن شهيد ، رغم ذلك ، على المكافأة التي يسعى إليها : « . . . والذي نفس فرعون بيده لا عرضتُ لك أبدًا ! إنّي أراك عريقا في الكلام » (54) .

إنّ هذه الملاحظات تقودنا من جديد إلى الاعتراف بأنّ « الحياة » موجودة ضمن عالَم الحكاية . بل إنّها الخيط السِّرّيّ الرّفيع الذي يقود اتّجاهها ويحرّك أشخاصها وأفعالها . فالحصول على الاعتراف بالشّاعريّة والقدرة الأدبيّة ، من قِبل أعلام الشّعر والنّثر ، لم يكن يكفي بمفرده ليتمكّن أديب مثل ابن شهيد من أن يفرض نفسه في السّاحة الأدبيّة . بل إنّ السّنة الثّقافيّة السّائدة في عصره

---

(51) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 91 .
(52) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 131 .
(53) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 147 .
(54) ابن شهيد : رسالة التّوابع والزّوابع ص 146 .

كانت تشترط ، بالاضافة إلى الشّعر والنّثر ، القدرة على النّقد الأدبيّ والتّذوّق الفنيّ ، وتحليل الظّاهرة الأدبيّة . لهذا السّبب ، كان ابن شهيد مضطّرا إلى خرق نظام رسالته « الخياليّ » لكي يستجيب إلى « نظام » مجتمعة الأدبيّ ، ويثبت ، بالتّالي ، أنّه يجمع كلّ الصّفات التي تُبوّئُهُ المكانة الرّفيعة في مملكة الأدب . إنّ الفصل المخصّص للنقد ، ونعني الفصل الثّالث ، يسعى إلى إبراز قدرة ابن شهيد على النّقد ، وبذلك يُفحم خصومه الحقيقيّين ، ممثّلين في شخص أبي القاسم بن الإفليلي اللّغويّ الشّهير ، أولئك الخصوم الذين كانوا ينعون عليه ضعف ثقافته « التّقليديّة » مثلما كانوا ينفون عنه صفة الشّاعريّة ويتّهمونه بالسّرقة والتّقليد .

وبما أنّ ابن شهيد قد أثبت جدارته بالإجازة في مجالي المنظوم والمنثور ، وأثبت قدرته على النّقد الأدبيّ ، فإنه يكون من الطّبيعيّ عند ذلك أن يتحوّل من تلميذ مُمتحَن إلى أستاذ مُمتحِن . وها هو الفصل الرّابع والأخير يقلب تماما نظام الحكاية الأوّليّ ، ليتولّى ابن شهيد الحكم على الآخرين . ولسنا بعد ذلك في حاجة إلى لفت النّظر إلى أنه يحكم على « حمير وبغال وإوزّ » ، مع ما في هذه الإشارة من تعريض بأعلام الأدب واللّغة في عصره ، كما أنّنا لا نستطيع في هذا المجال الضّيّق أن نحكم على شعر ابن شهيد ونثره وآرائه النّقديّة وتهجّمه على معاصريه . ذلك أنّنا سنضطرّ ، عندئذ ، إلى مغادرة عالم الجنّ ، أو قل عالَم الغرابة ، للنزول إلى عالم الواقع ، أي للخروج عن عالم الرّسالة .

إنّ عالَم الرّسالة هو عالم « الرّغبة الذّاتيّة » لم تجد لها مكانا في الواقع ، فسكنت الخيال . وإذا ما كان دور الخيال يتمثّل في تشييد واقع فوق الواقع ، فإنّ الرّسالة قد مكّنت صاحبها ـ إزاء الظّروف المحيطة به ـ من الخروج عن عالَمه الحقيقيّ ، والإقامة في عالم آخر من صنع خياله ، عالم تنتفي فيه التّناقضات والعراقيل ، وتكتسب فيه الرّغبات الدّفينة حقّ التّحليق بحريّة مطلقة دونما قيد أو موانع . وإذا ما كان مجتمع ابن شهيد قد نفى أديبنا

« ثقافيّا » ، فإنّ ابن شهيد ، عن طريق رسالته ، قد تمكّن من الثّأر لنفسه ، فنفى مجتمعه « خياليّا » .

وكيفما كان الأمر ، ففي النّفي معاناة . والمعاناة طريق الإبداع . ولقد أتاحت لنا معاناة ابن شهيد هذا الأثر الفنّيّ النّفيس . ومهما قيل ، فإنّ قيمة الأثر تبقى دائما كامنة في إمكان « قراءته » بطرق عديدة مختلفة ، لعلّ أحسن ما يجمع بينها الطّرافة . فعسانا قد وُفّقنا في قراءتنا لرسالة ابن شهيد قراءة حاولت ربط الماضي بالحاضر ، حتّى يكون الماضي أكثر حضورا ، والحاضر أكثر تأصّلا .

عبد العزيز شبيل
دار المعلّمين العليا - بسوسة

ابن النحويّ : حياته وآثاره

(433 ـ 513 هـ/1041 ـ 1119 م)

بقلم : محمد الأزهر باي

1 ـ حياته

ولد أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف بن النحوي بتوزر سنة 433 هـ/1041 م ودرس اللغة والأدب والفقه بمسقط رأسه على مشائخ الجامع الكبير وفي مقدّمتهم أبو محمد عبد الله الشقراطسي (1) ثم سافر إلى القيروان وصفاقس ليأخذ عن عبد الجليل الربعي الديباجي (2) وعبد الخالق السيوري (3) وأبي عبد الله المازري (4) وأبي الحسن اللخمي (5) . ولّما رسخت قدمه في المعرفة هبّ ينشر العلم في تونس والجزائر والمغرب فتخرّج على يده

---

(1) أديب وفقيه توزري ، ت سنة 466 هـ/1074 م .

(2) ت سنة 465 هـ/1072 م .

(3) ت سنة 460 أو 462 هـ/1067 أو 1069 م .

(4) ت سنة 530 هـ/1136 م .

(5) علي بن محمد الربعي ، ت سنة 498 هـ 1085 م .

علماء كثيرون منهم عبد الله التاهرتي (6) وابن الرّمامة (7) وموسى الصنهاجي (8) .

اضطر أبو الفضل إلى مغادرة البلاد التونسية لخلافات نشبت بينه وبين حكّامها لحدّة طبعه وصرامة مواقفه، ونزل بقلعة بني حمّاد فسلجماسة حيث اضطهده رئيسها عبد الله بن بسّام وسائر أهلها ، ثم ارتحل إلى فاس وما كان مقامه بها بأفضل من بسجلماسة إذ لقي من قاضيها ابن دبّوس (9) ما لقيه من ابن بسّام ومن أهل سجلماسة . عندها قفل راجعا إلى قلعة بني حمّاد ومنها قصد المشرق لأداء فريضة الحجّ وختم رحلته الطويلة بالاستقرار بالقلعة حيث كانت وفاته سنة 513 هـ/1119 م .

كان أبو الفضل يتحلّى بالظرف وسرعة البديهة والعفّة والورع والصلاح وكان عالما وعلى سنّة السلف الصالح ، شديد التعصّب للغزالي ، قال في شأنه ابن حمّاد (10) : « هو في بلادنا بمنزلة الغزالي في العلم والعمل » وجاء عن التنبكتي قوله : « هو كالغزالي في العراق علما وعملا » (11) . وفي قول نسب إلى القاضي عياض : « كان من أهل العلم والفضل » (12) . وورد عن محمد البصروي ، خلال شرحه للمنفرجة ، قوله : « قال الفهري : كان إماما عالما عاملا مجاب الدعوة متكلّما فصيحا متقعّرا . . . كان كالمازري حلقة وصل بين المدرسة القيروانيّة وبين المدارس التي ظهرت في المغرب الأوسط والأقصى »

(6) أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور فقيه ، نحوي ، من أهل تاهرت بالجزائر ، عاش في ق 6 هـ/12 م .
(7) أبو عبد الله محمد بن علي فقيه ولد بقلعة بني حمّاد سنة 478 هـ/1085 .
(8) أحد قضاة مرّاكش ، ت سنة 535 هـ/1141 م .
(9) عبد الحق بن عبد الله اليفرني ، ت بفاس سنة 557 هـ/1161 م .
(10) أبو عبد الله محمد بن علي ، مؤرّخ وأديب وفقيه ، تولّى قضاء الجزيرة الخضراء وسلا ومرّاكش ، سنة 613 هـ/1216 م .
(11) نيل الابتهاج (بهامش الديباج لابن فرحون) ، ص 350 .
(12) البستان ص 300 .

(13) . ونقرأ لجورج مرسيه ما نصّه : يبدو لنا أبو الفضل ابن النحوي كفكر يمثّل بما فيه الكفاية تديّن العالم الذي عاش فيه وتعبّده » (14) .

2 ـ آثــاره

ترك أبو الفضل آثارا عديدة إلّا أنّ يد الزمان لعبت بها فلم يصلنا منها غير نزر يسير يمكن حصره فيما يلي :

أ ـ وصيّــة (15) .

ب ـ الديباج المنشر والمنهاج المعشر وهو تعشير القصيدة الشقراطسيّة (16) .

ج ـ القصيدة المنفرجة في التوسّل (17) .

د ـ قصيدة يبوح فيها بشديد تعلّقه بمصر وقد زارها عند رجوعه من الحجّ (18) .

هـ ـ نتفة في التغنّي بحسن مدينة فاس قالها عند زيارته لها (19) .

و ـ بيتان يعكسان شعوره بالغربة بين ذويه (20) .

ز ـ نتفة يؤكّد فيها اعتماده على الله دون عباده (21) .

ح ـ مقطوعة يلتمس من خلالها الإذن من رئيس البلد في الرجوع إلى موطنه بعد أن شكا إليه أحد أقاربه ضيق حاله لفراقه (22) .

---

(13) شرح المنفرجة ، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 18187 ، الورقة 2 ب .
(14) بلاد البربر الاسلاميّة (بالفرنسيّة) ، ص 190 .
(15) أثبت النص كاملا بعنوان الدراية ، ص 278 ـ 279 .
(16) الجديد في أدب الجريد لأحمد البختري ، ص 52 ـ 53 .
(17) خصصناها بالفصل الموالي ضمن هذا المقال .
(18) مجمل تاريخ الأدب التونسي لحسن حسني عبد الوهاب ، ص 174 .
(19) المرجع السابق ، ص 175 ـ الأنيس المطرب لابن أبي زرع ، ص 34 .
(20) التشوّف لابن الزيّات ، ص 74 ـ نيل الابتهاج للتنبكتي ، ص 350 .
(21) بغية الوعاة للسيوطي ، 2360/2 .
(22) نيل الابتهاج ، ص 350 ـ البستان لابن مريم ، ص 302 .

ط ـ قصيدة في حكم تارك الصلاة .

ي ـ نتفة في مدح أبي حامد الغزالي (23) .

ك ـ قصيدة في مدح الإمام مالك (24) .

ل ـ قصيدة مطلعها :

لم أدر حين وقفت بالأطلال   مالفرق بين جديدها والبالي

تلك هي جملة ما عرفنا من آثار ابن النحوي وكانت أهمّها القصيدة المنفرجة لذا نفردها بالفصل التالي :

3 ـ المنفرجة

أ ـ تسميتها وسبب نظمها

المنفرجة وأمّ الفرج والفرج بعد الشدّة والفتوح عناوين أربعة لقصيدة أبي الفضل تشتمل على اثنين وأربعين بيتا وهي أهمّ نصّ تركته لنا الأيّام من آثار الرجل . نقل تاج الدين السبكي عن كتاب « الغرّة اللائحة والمسكة الفائحة » لابن الشبّاط التوزري في سبب نظمها أنّه بلغ إلى علم ابن النحوي وكان خارج بلده أنّ أحد الأشرار سطا على أمواله فتأثّر الشيخ وأنشد قصيدته هذه فرأى المعتدي في تلك الليلة رجلا في يده حربة ويقول له : « إن لم تردّ على فلان أمواله قتلتك بهذه الحربة » فتملّكه الذعر ولمّا استيقظ بادر بإعادة الأموال إلى مكانها (25) .

(23) خريدة القصر للعماد الاصفهاني ، 1/326 .
(24) ترتيب المدارك للقاضي عياض ، 1/252 .
(25) طبقات الشافعية 5/24 .

ب ـ نصوصها

عثرنا على ثلاثة نصوص شعريّة تحمل جميعها عنوان المنفرجة ولها عين البحر والقافية والغرض وهي ، حسب التسلسل الزمني :

1) ـ نصّ أبي محمد الشقراطسي (26) ومطلعه :

اشتدّي أزمة تنفرجي قد أُبدِل ضيقُك بالفرج
مهما اشتدّت بك نازلة فاصبر فعسى التفريج يجي

2) ـ نصّ أبي حامد الغزالي (27) ومطلعه :

الشدّة أودت بالمهج يا ربّ فعجّل بالفرج
والأنفس أمست في حرج وبيدك تفريج الحَرج (28)

3 ـ نصّ ابن النحوي وقد نسب على وجه الخطإ إلى الغزالي والصواب ، كما هو جليّ ، ما ذهب إليه الغبريني من أنّ قصيدة ابن النحوي متأثّرة فقط بقصيدة الغزالي (29) .

وقد تردّد تاج الدين السّبكي في نسبتها فتارة هي لعليّ بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم الأندلسي القرشي (30) وأخرى هي لصاحبنا ابن النحوي استنادا إلى إشارة ابن الشبّاط السالفة الذكر ولعلّ عليّا بن محمد الأندلسي وأبا عبد الله أحمد بن محمد الأندلسي وأبا الحسن يحي بن العطّار القرشي قد نظموا هم الآخرون قصائد تحت العنوان المذكور إلاّ أنّها لم تترك آثارا في يومنا هذا.

---

(26) ت 466 هـ/1074 م .
(27) ت 505 هـ/1111 م .
(28) أثبت النّبهاني قسما منها بـ « شواهد الحق » ص 295 ـ 296 .
(29) عنوان الدراية ص 278 .
(30) ت 590 هـ/1194 م .

ج ـ أهمّيتهـــا

ما تزال المنفرجة وهي المؤلّفة في مطلع القرن السادس للهجرة تتردّد إلى اليوم على الألسن ويتداولها القرّاء ويترنّم بها في المواكب وفي ذلك اكثر من معنى وأبلغ دليل على أهميّتها الكامنة في علوّ شأنها من الناحية الأدبيّة من جهة حتى فضّلها الغبريني على « منفرجة » الغز الي بقوله : « متأثّرة « بمنفرجة » الغزالي إلاّ أنّها أسلس نظما وأخصب خيا لا ومازالت هذه القصيدة معلومة الإفادة ظاهرة الزيادة » (31) . وتتجلّى من جهة أخرى في بُعدها الديني الذي جعل بعضهم يتبرّك بها ويقدّسها . هي قصيدة موضوعها التوسّل إلى الله ، تتألّف من اثنين وأربعين بيتا من بحر الخبب الذي أهمله الخليل وتداركه الأخفش . طبعت لأوّل مرّة بمطبعة حجريّة بالإسكندريّة سنة 1304 هـ/1886 م ، ثم طبعت ملحقة بكتاب « جالية الكدر للبرزنجي بمكّة سنة 1317 هـ/1900 م وطبعت بعدها بالقاهرة سنة 1321 هـ/1904 م وتوالت طبعاتها إلى غير نهاية .

د ـ العمليّات التي أجريت عليها

سبق أن أشرنا إلى أهمّية القصيدة المنفرجة وكان لهذه الأهمية أن اعتنى الناس بها ونسجوا عليها أعمالا أخرى فهذا يشرح وذاك يترجم وآخر يخمّس ورابع يقلّد وخامس يعارض وسادس يضمّن وسابع يشطّر وثامن يسبّع إلخ .

ـ الشـــرح

شرح المنظومة خلق كثير أشهرهم :

* الأنصاري (أبو يحي زكرياء بن محمد) ت سنة 929 هـ/1523 م ، له شرح فرغ من إعداده سنة 881 هـ/1477 م. هو من أشهر شروح

---

(31) عنوان الدراية ص 278 .

قصيدة ابن النحوي وعنوانه « الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة » ، طبع بالقاهرة سنة 1323 هـ/1907 م وبالجزائر سنة 1854 ـ 1855 تحت عنوان « مفرّج الكرب » وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب تحت رقمي 18153 و 6080 .

* البصري (أبو الحسن علي بن موسى)

* البصري أو البوصيري (علي بن يوسف) له شرح توجد منه نسخة بباريس 4118 رقم 2 وبالرباط 90، 580 رقم 1 .

* البغدادي (علاء الدين علي جمال الدين يوسف بن علي) .

له شرح عنوانه « السريرة المنزعجة بشرح القصيدة المنفرجة » ، نسخة منه بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 672 .

* البكري (قطب الدين مصطفى) ت . 1162 هـ/1749 م) له شرح عنوانه : الابتهالات السامية .

* الدفتري (يحي بن عبد الله)

شرحها وشرح التسبيع الذي وضعه جمال الدين محمد بن الوفاء .

* الدلجي (محمد بن محمد) ت . سنة 947 هـ/1540 م .

عنوان شرحه « اللوامع اللهجة بأسرار المنفرجة » ، فرغ منه سنة 894 هـ/1490 م .

* المقابري (عبد الرحمان بن حسن) ت . سنة 561 هـ/1166 م ، عنوان شرحه « الأنوار البهجة في ظهور كنوز المنفرجة » .

* المقري (يحي بن زكرياء) له شرح بعنوان « فتح مفرّج الكرب »

* النقاوسي (أبو العبّاس أحمد بن عبد الرحمان البجائي) ت . سنة 810 هـ/1403 م .

له شرح عنوانه « الأنوار المنبلجة » أورد في أوّله تعريفين ، الأوّل يعني ابن النحوي والثاني في بيان بحر القصيدة ، منه ثلاث نسخ ، اثنتان بدار الكتب الوطنيّة بتونس تحت رقمي 672 و3423 والأخرى ببرلين بريل 226 .

* ابن عجيبة (أحمد بن محمد بن المهدي) ، مغربي ت . سنة 1224 هـ/1809 م .

* ابن الكنان أو الكتان (محمد) ت . سنة 1153 هـ/1740 م . توجد نسخة من شرحه ببرلين تحت رقمي 7647 و 7648 .

* ابن يعقوب (عبيد الله بن محمد) ت . سنة 936 هـ/1529 م .

* سبعة شروح أخرى أحدها لمجهول وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب ذكرها الواردت AHLWARDT 7646 .

- النقــل

ترجمت المنفرجة إلى اللغتين والفارسيّة والتركيّة ومن بين من ترجموها نذكر :

* الأنقروي (إسماعيل بن أحمد) ت . سنة 1042 هـ/1616 م . نقل المنفرجة إلى التركيّة وشرحها سنة 1040 هـ/1630 ـ 1631 م تحت عنوان « الحكم المندرجة في شرح المنفرجة » ، طبع ببولاق سنة 1300 هـ/1882 م .

* البرغموي (عبد الله بن خير الدين) ت . 1026 هـ/1617 م ، نقلها إلى التركيّة وشرحها .

* المؤيدي (حسين بن أسعد الحسيني الدهستاني) ، نقلها إلى الفارسية .

- التخميــس

من العمليّات التي أجريت كذلك على المنفرجة نذكر التخميس وقد جمع منه سلّام بن عمر المزاحي ثمانية نصوص تحت عنوان « اللآلي المبهرجة في تخميس المنفرجة » وتوجد منه نسخة مخطوطة ببرلين ورقمها 7642 كما توجد لمجهول نسخة مخطوطة من تخميس المنفرجة بباريس تحت عدد 3118 رقم 1 .

وأخرى بالاسكوريال ثان تحت عدد 1393 رقم 3 .

أمّا المخمّسون لهذه القصيدة فنذكر منهم :

* التعزّي (أحمد بن عامر بن عبد الوهّاب) ، له تخميس ببودليانا وعدده 7641 .

* ابن خمسين (أبو بكر) ، له تخميس مودع بالاسكوريال ثان 1393 رقم 4 .

* ابن الشّباط (أبو عبد الله محمد بن علي التوزري) ت . 681 هـ/1282 م .

عنوان تخميسه « عجالة الرويّة في تسميط القصيدة النحويّة » وقد أثبته العبدري كاملا برحلته - ط - الرباط 1968 ، ص 52 - 59 (32) .

* الفقاعي (علاء الدين علي بن محمد) ت . سنة 917 هـ/1512 م .

* القرطبي (أبو محمد عبد الله بن نعيم) ت . سنة 636 هـ/1238 م ، له تخميس « حسن لا بأس به » كما جاء في عبارة الغبريني (33) . وجاء قبل هذا قوله : « وهذا التخميس قد ظهر من أمره

(32) رحلة العبدري ص 52 - 59 .
(33) عنوان الدراية ص 279 .

ومن العناية بمنشئه ما دلّ على خلوص نيّته وصلاح طويّته » (34) وطالعه :

لا بـدّ لـضـيـق مـن فـرج والصبـر مـطـيّـة كـلّ شـج
وبـدعـوة أحـمـد فـابـتـهـج اشـتـدّي أزمـة تـنـفـرجـي
قـد آذن لـيـلـك بـالـبـلـج (34)

القوسي (عمر القرشي)

يوجد نص تخميسه بجاريت 2003 رقم 9 وبرلين ثان 1148 .

* ابن مليك (علي بن محمد الحموي) ت . سنة 917 هـ/1511 م ، توجد نسخة من تخميسه ضمن مخطوطات برلين رقم 7640 .

- التقليد

ثلاثة على الأقل قلّدوا قصيدة ابن النحوي وهم :

* الصديقي (مصطفى بن كمال الدين) ت . سنة 1162 هـ/1749 م .

يقع نصّه ببرلين عدد 7651 - 7642 .

* مجهول له نصّ مخطوط يوجد ببرلين تحت عدد 7554 رقم 2 - 3 .

* النابلسي (عبد الغني) ت . سنة 1143 هـ/1730 م .

توجد منه نسخة مخطوطة ببرلين 7654 رقم 1 .

(33) المرجع السابق ص 278 .

(34) أثبت النّص كاملا بعنوان الدراية ص 272 - 279 .

- المعارضة

اكتفت المراجع بالإشارة إلى معارضتين أولاهما لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم البخاري مطلعه :

لا بدّ لضيق من فرج بخواطر همّك لا تهج

وثانيتهما لمحمد بن عبد الرحيم بن يحبش التازي ومطلعه :

اشتدّي أزمة تنفرجي قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدّت بك نازلة فاصبر فعسى الصبر يجي (35)

- التضمين

وضع أبو الفضل محمد بن أحمد بن أيّوب الدمشقي (ت . سنة 905 هـ/1499 م) تضمينا عنوانه « التحفة البَهِجَة في تضمين المنفرجة » .

- التسبيع

وضع جمال الدين محمد بن الوفاء تسبيعا على المنفرجة وهو الوحيد الذي ذكر في هذا الصدد ولا نعلم عنه شيئا .

- خاتمة

تلك هي بعض ملامح شخصيّة ابن النحوي ونبذة عن آثاره وبهذا نكون قد ذلّلنا السبل أمام المهتمّ بهذا الأديب الفذّ والفقيه المتبحّر والمتديّن الورع والمجتهد الموفّق عسانا مع مرّ الأيام نهتدي إلى الكشف عن معالم أخرى من شخصيّة الرجل .

محمد الأزهر باي

---

(35) انظر الأبيات الستّة الأولى من هذا النص في « درّة الحجال » لابن القاضي ، 2/149 . الراجح ان يكون هذا النص لتلميذ ابن النحوي أبي محمد الشقراطسي .

المصـادر والمراجـع

عربيّـة

* ابن الآبّار (محمدبن عبد الله)

ـ التكملة لكتاب الصلة ، نشر كوديرا ، ط . مدريد 1887 ، ج 2 ، الترجمة رقم 2098 .

ـ المقتضب من تحفة القادم ، القاهرة 1957 ، ص 8 ـ 9 .

* الاصفهاني (العماد)

ـ خريدة القصر ، تونس 1966 ، 1/325 ـ 326 .

* أماري (ميكالي)

ـ المكتبة العربيّة الصقلّية (بالايطاليّة)

تعريب من الإيطالية ، ط . بغداد ـ د . ت . ص603 .

* الأنصاري (زكرياء بن محمد بن أحمد)

ـ الأضواء ، البهجة في إبراز دقائق المنفرجة ، ط . القاهرة 1323 هـ/1907 م ، ط . الجزائر 1854 ـ 1855 تحت عنوان « مفرّج الكرب » .

* البجائي (أبو العبّاس أحمد بن أبي زيد)

* السريرة المنعرجة لشرح القصيدة المنفرجة ، مخطوط بدار الكتب الوطنيّة تحت رقم 672 (ينسب الناسخ النصّ إلى علاء الدين علي بن يوسف ابن علي البصروي) .

* البختري (أحمد بن إبراهيم)

ـ الجديد في أدب الجريد ، تونس 1973 ، ص 55 ـ 61 .

* بروكلمان (كارل)

- تاريخ الأدب العربي (G.A.L) ، ليدن 1937 ، ج 1/268 269 ، م 1/473 - 474 ، تعريب رمضان عبد التواب ، القاهرة 1977 ، 5/109 - 112 .

* البصروي (محمد بن خليل)

- شرح القصيدة المنفرجة ، مخطوط بمكتبة حسن حسني عبد الوهّاب بتونس ، رقم 18187 .

* البغدادي (إسماعيل)

- إيضاح المكنون ، اسطمبول 1947 ، 4/232 - 233 .

- هدية العارفين ، اسطمبول 1955 ، 6/551 .

* بويحي (الشاذلي)

- الحياة الأدبية بإفريقية في أيّام بني زيري (بالفرنسية) ، تونس 1972 ، ص 197 - 199 .

* التنبكتي (أحمد بابا)

- نيل الابتهاج (بهامش الديباج لابن فرحون) ، القاهرة 1329 هـ/1913 م ، ص 349 - 351 .

* الجزنائي (أبو محمد علي)

- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الرباط 1967 ، ص 96 - 97 .

* خليفة (حاجي)

- كشف الظنون ، اسطمبول 1943 ، 2/1346 - 1347 .

* ابن أبي زرع (علي بن عبد الله)
الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط 1972 ، ص 33 ـ 34 .
* الزركلي (خير الدين)
ـ الأعلام ، بيروت 1979 ، 9/325 ـ 326 .
* ابن الزيّات (أبو يعقوب يوسف بن يحي)
ـ التشوّف إلى رجال التصوّف ، الرباط 1984 ، ص 95 ـ 101 .
* السبكي (تاج الدين)
ـ طبقات الشافعيّة ، ط . 1 . القاهرة د . ت ، 5/24 ـ 25 .
* السلاوي (أحمد الناصر)
ـ الاستقصاء لدول المغرب الأقصى ، القاهرة 1894 ، 2/74 ـ 75 .
* السيوطي (جلال الدين)
ـ بغية الوعاة ، مصر 1384 هـ/1965 م ، 2/362 .
* العبدري (أبو عبد الله)
ـ الرحلة العبدريّة (أو المغربيّة) ، الرباط 1968 ، ص 52 ـ 59 .
* عبد الوهاب (حسن حسني)
ـ مجمل تاريخ الأدب التونسي ، تونس 1968 ، ص 172 ـ 175 .
ـ المنتخب المدرسي ، القاهرة 1944 ، ص 91 ـ 92 .
ـ ورقات ، تونس 1966 ، 2/406 ، رقم 1 .
* عياض (أبو الفضل القاضي عياض بن موسى)
ـ ترتيب المدارك ، بيروت 1387 هـ /1967 م ، 1/252 (ضمن ترجمة مالك)

* الغبريني (أبو العبّاس أحمد)
- عنوان الدراية في تراجم علماء بجاية ، الجزائر 1981 ، ص 272 - 279 .

* فنديك (ادوارد)
- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، القاهرة 1897 ، ص 390 .

* ابن القاضي (أحمد بن محمد)
- جذوة الاقتباس ، ط . حجرية بفاس 1309 هـ/1891 م ، ص 346 - 347 .

* القرافي (بدر الدين محمد بن يحي)
- توشيح الديباج ، بيروت 1983 ، ص 265 .

* القرطبي (أبو محمد عبد الله بن نعيم)
- تخميس المنفرجة ، بعنوان الدراية للغبريني ، ط . الجزائر 1981 ، ص 272 - 279) .

* ابن قنفذ (أبو العبّاس أحمد الخطيب القسنطيني)
- أنس الفقير وعزّ الحقير ، الرباط 1965 ، ص 107 - 108 .
- الوفيات ، مصر د . ت ، ص 40 .

* كحّالة (رضا)
- معجم المؤلّفين ، بيروت د . ت ، 343/13 .

* الكعّاك (عثمان)
- العلاقات بين تونس وإيران ، تونس 1972 ، ص 199 - 200 .

- ابن النحوي التوزري ، محاضرة القيت بتوزر في مهرجان الشابيّ 1960 ، مجلّة مهرجان الشّابيّ ص 26 ـ 27 .
- الرحلة الشابيّة ضمن مهرجان الشابيّ 1960 ـ ص 22 .
* محفوظ (محمد)
- تراجم المؤلّفين التونسيين ، بيروت 1982 ، 19/5 ـ 25 .
* مخلوف (محمد)
- شجرة النور الزكيّة ، القاهرة 1349 هـ/1930 م ، 126/1 .
* المرّاكشي (ابن عبد الملك)
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، الرباط 1984 ، السفر الثامن ، القسم الثاني ، ص 434 ـ 436 .
* ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد)
- البستان ، الجزائر 1908 ، ص 299 ـ 304 .
* المطوي (محمد العروسي)
- سيرة القيروان ، تونس 1981 ، ص 67 ـ 68 .
* نوهض (عـادل)
- معجم أعلام الجزائر ، بيروت 1971 ، ص 207 .
* النيّال (أحمد البهلي)
- الحقيقة التاريخيّة للتصوّف الإسلامي ، تونس 1384 هـ/1965 م ، ص 198 ـ 201 .
* النيفر (محمـد)
عنوان الأريب ، تونس 1931 ، 50/1 .

أعجميّــــة :

— BOUYAHYA Chédli

La Vie Littéraire en Ifrïqiya sous les Zïrides, Tunis 1972, pp. 197-199.

— IDRĪS Hādī Roger

★ La Berbérie Orientale sous les Zïrides, Paris 1962, II 793, 732, 798.

★ Le Crépuscule de l'Ecole Malikite Kairouanaise, Cahiers de Tunisie 1956, pp. 501-502.

— MARÇAIS Georges

La Bérbérie Musulmane, Alger 1946, p. 190.

رأي في محمد سلامة التونسي والعقد المنضد

أو

(حلقة التاريخ الثقافي التونسيّ المفقودة)

بقلم : المختار كريم

ان الفترة الفاصلة بين تأليف محمود مقديش (1) لنزهته (2) والباجي المسعودي (3) للخلاصة النقية في أمراء افريقية تمتد على ما يربو على نصف قرن (4) لم يظهر فيها أثر في التاريخ (5) سوى العقد المنضد في تاريخ الباشا

---

(1) محمود مقديش توفي 1228 هـ / 1813 م ولد بصفاقس ومات في طريقه الى القيروان صرف حياته للمعارف الدينية والتدريس تنقل كثيرا : جربة ـ تونس ـ مصر . ذكر له صاحب الاتحاف أربعة كتب من بينها كتابه المذكور . أنظر الاتحاف ج 8 ص ص : 55 ـ 56 و Ahmed Abdessalem : Les Historiens ; PP 273 — 284

(2) « نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار » يوجد منه بالمكتبة الوطنية ثلاثة نسخ مخطوطة وأخرى في طبعة حجرية .

(3) محمد الباجي المسعودي (1810 ـ 1880) تولى الكتابة على عهد حسين باى ، شاعر غزل ومدح ألّف الكتاب المذكور (انظر Les Historiens Tunisiens ; PP 308 ـ 314

(4) آخر الاحداث المسجلة في النزهة مؤرخة في محرم 1205 / سبتمبر أكتوبر 1790 في حين تمت كتابة « الخلاصة » في سنة 1863/1273 أنظر Ahmed Abdessalem : Les Historiens ص 274 و ص 310 .

(5) اذا ما استثنينا مؤنس الاحبة في أخبار جربة ، لمحليته أو أعمال بيرم الثاني وهي منظومات تتعلق باسرته وبالسلاطين العثمانيين وبمفتي الحنفية .

أحمد (6) لمحمد سلامة التونسي (7) وهذا الامر وحده يؤكد أهمية النظر في هذا التأليف لفهم تطور الفكر التونسي عامة وفهمه في نقطتين منه على وجه الخصوص هما مفهوم التاريخ وقضية الاقتباس من غير الامة الاسلامية فيما تستفيد منه وهي مسألة ستشغل بال المصلحين من بعده طويلا .

ويزيد هذا الأمر تأكدا سببان متداخلان :

أولهما الاهمال الذي سقط فيه هذا الاثر اذ أنه في أحسن الاحوال لخص تلخيصا محكما نازعا الى التقييم انتهى الى أنّه « لا يستاهل النسيان التام تقريبا الذي سقط فيه فهو وان ألّف تمجيدا لبداية ملك أحمد باي يشتمل على معلومات تتم اتماما مفيدا تواريخ المعاصرين وخاصة تاريخي ابن أبي الضياف والباجي المسعودي » (8) فلم ير هذا التقييم حينئذ أي طرافة فكرية فيما يتعلق بمفهوم التاريخ ولا الفكر الاصلاحي في كتاب العقد المنضد الا أنه بحذر الباحث وحدسه ترك باب النظر مفتوحا (9) .

وثانيهما سوء فهمنا ، نتيجة هذا الفراغ ، لتكون التفكير الاصلاحي وتشكله الاول في مستوى المصطلح والفكرة والاجتهاد ـ انطلاقا من التراث الديني ومن الاوضاع العربية والعالمية ـ في تيسير التحول على مستوى الافكار ومستوى الحياة السياسية العملية (10) . ونتيجة لسوء فهمنا هذا فاننا ننتقل

---

(6) مخطوط يتيم بالمكتبة الوطنية تحت رقم 18618 .

(7) محمد بن محمد بن الطيب بن سلامة توفي 11 شعبان 1266 / 20 جوان 1850 من أسرة فقهاء . اتصل بمصطفى باى وبابنه أحمد باشا واستفاد . قاضي المحلة ثم قاضي باردو ثم قاضي تونس ثم مفت مالكي له بعض الاشعار وهذا التأليف أنظر الاتحاف ج 8 ص 77 ـ 79 .

(8) Ahmed Abdessalem : Les Historiens PP 307

(9) نفس المصدر ص 12 .

(10) لا تهمنا صحة الافكار المقترحة والحلول المتصورة ولكننا نميّز بين فترتين أولى لم يشعر فيها المثقف التونسي بوجود مشكلية تخلف وثانية أصبح واعيا (بدرجات) بوجود هذه المشكلية .

دفعة من الرؤية المميزة لكتاب النزهة وما سبقه الى رؤية أقوم المسالك واتحاف أهل الزمان فلا يتم لنا تصور اختمار الافكار الجديدة في أوساط المثقفين التونسيين . فهل يعقل مثلا أن نمر من مقديش الى خير الدين وقد رأى البعض في كتابه برنامجا اصلاحيا كاملا ؟ (11) .

وفي اعتقادي إن هذا الاستفهام يجيبُ عليه العقد المنضد على ما عليه التأليف (12) وذلك اذا أعرنا نقاطا تبدو هامشية مبثوثة في الكتاب حقها من التقدير واذا تمعنا في جوانب الطرافة في المقدمة واذا فهمنا فهْمًا مناسبا حوافز التأليف وما استوجبته من مجهود ذهني .

فقد أبدى محمد سلامة في مواقع متعددة من كتابه حيوية فكرية مبشرة بتفتق الفكر الاصلاحي ، من ذلك ملاحظته لكساد سوق الاقمشة المحلية ابان رِحلته مع الباى لقابس (1840) في كل من نابل وسوسة وأشار الى أن سبب ذلك هو « كثرة الثياب الرومية الوافدة من بلاد النصارى » (13) ، كما أنّه بعد حديثه عن مقابلته الشيخ الشنقيطي الموريتاني المدرس بالازهر وبعد تعبيره عن اجلاله له وعن اعتقاده في بركته وعمق اطلاعه على التراث يشفع ذلك بتعليق طريف مميز للفكر المتحرر وهو قوله إن الشيخ : « متفنن في العلوم لكن على طريقة الاقدمين من النقل والتحقيق لا البحث والتفريق » (14) نفهم من هذا اختلافا في الرؤية بين الرجلين في تناول التراث ، أحدهما يجمع والاخر يعمل العقل كما نجده يبرر اقتصاره على فترة أحمد باشا باى بالجدوى الحاصلة من

(11) أنظر مقدمة الاستاذ المنصف الشنوفي لا قوم المسالك طبع الشركة التونسية لفنون الرسم سنة 1972 .

(12) المخطوطة الوحيدة المتوفرة بها مواضع نقص كثيرة وقد عدها ابن أبي الضياف مسودة في حين يذهب الاستاذ أحمد عبد السلام الى أنها النسخة المبيضة بدليل انعدام التشطيب فيها . أنظر ،
Ahmed Abdessalem : Les Historiens PP 301 — 302

(13) المخطوط الورقة 100 الظهر .

(14) المخطوط الورقة 73 الوجه .

كتابة تاريخ ، لنا عنه معلومات كافية ، ويشير قريبا من هذا الموضع الى قولة ابن شاكر (14 مكرر) من أن « من بنى تاريخه على آدم فقد أخطأ (15) وهذا أمر ينم عن روح من الشك تجاه المسلمات العتيقة .

أما فيما يتعلق بالمقدمة فيبدو في الظاهر أنه بناها جريا على سنة المؤرخين العرب في وضع مقدمة طويلة في مدخل تآليفهم يطرحون القول فيها ويعيدون حول مفهوم التاريخ ومنزلته في العلوم .

وهذه المنزلة يقدرونها بوظيفته الثقافية وتشترك في هذه الخاصية تآليف التاريخ العربية شرقيها وغربيها (16) وهي تجمع أيضا على أن للتاريخ دورا ثقافيا متصلا بالدين والاخلاق فعلى الفقيه أن يطلع عليه حتى يستطيع تفسير النصوص القرآنية وعلى الامير أن يطلع عليه ليتعظ بالسلف وعلى المتأمل أيضا لانه يقوم الاخلاق ويدعو الى الإتّـعاظ بالامم الخوالي وبأن كل شيء آيل للزوال .

ونفس هذه المعاني نجدها مسطرة عند محمود مقديش سلف محمد سلامة ، ولكننا نجد عند سلامة التونسي الى جانب بعض المعاني القديمة من نوع الحديث عن الملك والوزير وعن الخطط من قضاء وشرطة وغيرها وأنواع العلوم أمرا طريفا من وجهين : طريف لان فيه ربطا للتاريخ بالسياسة ربطا عضويا كما سنرى ، وطريف أيضا لصلته العضوية بمحتوى الكتاب مما يخرج المقدمة عن كونها مِثْلَمَا هو الامر مع سلفه) ركما لمعلومات وآراء تكاد تكون مستقلة عن ذات التأليف .

(14 مكرر) ابن عبد الله محمد بن شاكر الداراني الدمشقي الكتبي (686 ـ 1287/764 ـ 1363) (انظر.ALKUTUBI N.E.I)

(15) المخطوط الورقة 3 الظهر .

(16) Ahmed Abdessalem : Les Historiens Ch VII P 445

ولا يتوضح هذان الامران الا بفهمنا حوافز التأليف وتخليط الكتاب .

حوافز التأليف، أشار الى بغضها وكان واضح الرغبة في ابرازه اذ أعاده في أكثر من مناسبة (ولعل ذلك يوحي بعدم اقتناعه) ونفهم منه أنه كتبه عرفانا بجميل مخدومه أحمد باشا لأحقيقة هذا الرجل « الفذ »، وعلى هذا الاساس يتنزل الاثر برمته في اطار المدح ، ولكن الاقتصار على هذا التصور يفسد تمثلنا لحقيقة الاثر . فالمدح اطاره الشعر عادة ولصاحب التأليف في مخدومه أشعار مدحية ، ولكن يبدو أنها لم تكن ترضيه لهوائية الشعر ولعله دارت بخلده الآيتان الكريمتان : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمْ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (17) ، وقد كاد يذكرهما لما كان يبرز التجاءه الى تأليفه هذا لما قال : « وعزني آتي بما هو هو أوضح وخفت أن أنسب الى اللغو فيه فأظهرت في هذا الكتاب مخفيه حتى لا يشك في صدقه انسان » (18) . واذن ، فهذا الكتاب مدح يريد أن يأخذ الحجة و « الموضوعية » مسلكا .

ولكن كيف يكون ذلك ؟ ان الاجابة على هذا السؤال توضح لنا تخطيط الكتاب برمته وفهمنا لتخطيط الكتاب يمكننا من ادراك سيرورة المؤلف الفكرية ، هذه السيرورة التي جعلته يتخطى مستوى المدح ومستوى الممدوح .

في معرض تقديم الكتاب وقصره على أحمد باشا يكتب سلامة التونسي « وجعلته المبدأ والختام » ولو وقف عند هذا الحد لما لفت الانتباه ولكنه يواصل مباشرة وتعرضت فيه لخبر النظام وبيّنْته أي بيان. (19) فيبدو أن هناك تناقضا لما توحي به واو العطف من جمع، فكيف يقصر الكتاب على ممدوحه ويشركه في الوقت نفسه شريكا آخر هو الحديث عن « النظام » وتفسير ذلك أن الجيش

(17) الآيتان 224 ـ 225 من سورة الشعراء .
(18) المخطوط الورقة 2 الظهر .
(19) الورقة الاولى الظهر .

النظامي وان بدأ مع عمه حسين باى بطلب من السلطان العثماني محمود ، فأحمد باشا هو الذي ركزه بإحداث المكتب الحربي بباردو سنة 1840 ، وبهذا يزول الغموض الظاهرى ويصبح تخطيط الكتاب على النحو الآتي :

الكتاب اطاران من المدح : مدح عام وهو الاوسع ومدح خاص وهو الاضيق والكتاب حينئذ (ان كان يراد منه التقرب لاحمد باى فقط وهذا أمر فيه نظر) مدح وخبر النظام من هذا المدح عينه بل هو في نظري غرض التأليف أصلا . فمحمد سلامة قد مدح مخدومه كثيرا ولكنه في هذه المرة يريد أن يمدحه بأمور لا تدخل في باب الخيال أو المبالغات وانما يمكن أن تكون موضوع محاجّة . فهو ازاء اجراء سياسي على غاية من الاهمية وهو محل خلاف بين النخبة . وسلامة ينتصر لسيده ويريد أن يبين « أنه من الملوك الذين بهم يُقْتَدَى » (20) وما كتب في هذا الشأن يعتبر موقفا سياسيا يعبر عن صاحبه أكثر من أن يكون مناصرة لولي نعمة دون اقتناع (وما في النص من حرارة وبحث عن اقناع القارىء بوسائل مختلفة يؤكدان ما ذهبنا اليه) وان كان ذلك كذلك فابعد به أن يكون مدحا عاديا .

مرة ثانية نعود الى بنية التأليف لنستوضح هذه المرة البنية العميقة فنقول ان المظهر العام للعقد المنضد رياش وخليط من المدح ولكن به ركيزة أساسية تمثلت في اجراء سياسي هام تغيرت بمقتضاه مادة الدفاع ، وقف فيها محمد سلامة الى جانب التجديد وتطلب منه ذلك تقديما نظريا يدعم به رأيه (فكان ما وسمناه في المقدمة بالطرافة وتمثلت في رؤية للحياة وفي مفهوم للتاريخ) وتطلب منه أيضا استخدام حجج مستقاة من التراث ومن الوقائع القديمة والمزامنة له . فالمقدمة وان أتت في ترتيبها أولى فهي ناشئة في الاصل عن استعداد الكاتب الأوّلي للدفاع عن الجيش النظامي (لاتصاله بصاحب الاجراء) .

---

(20) الورقة الثانية الوجه .

وبعبارة أخرى : هي تصور ذو نزعة شمولية ، ناتج عن عملية الدفاع عن هذا الاجراء بالحجج النقلية والتاريخية والسياسية المباشرة مؤطّرٌ لها ، وموضعها هو موضع الاستنتاج وتخطيط الكتاب هو عملية معكوسة لبنيته العميقة وبنيته العميقة هي صورة طبق الاصل لسيرورة تفكير المؤلف ، وتدرجها كان على النحو التالي :

حدث تمثل في احداث الجيش النظامي ـ خلاف بين النخبة ـ بحث عن المبررات ـ رؤية جديدة لحركة التاريخ ـ هذه السيرورة الطبيعية هي التي سنتبعها لتبينّ طرافة الكتاب وأسبقيته في تناول قضية التفكير النهضوي كله وهي الاقتباس عن الغرب القوي أو الاعراض عن ذلك .

الحـــدث :

لا تهمنا من الحدث تفاصيله ويكفي أن نشير الى أنه في 1247 هـ/1832 م أسس حسين باى ثامن البايات الحسينيين ، الجيش النظامي ، وفي غرة محرم سنة 1256 هـ (1840 م) أحدث أحمد باشا مكتبا حربيا بباردو (21) ، يقدمه أحمد ابن أبي الضياف فيذكر انه لتعليم « ما يلزم العسكر النظامي من العلم كالحساب والهندسة والمساحة وغيرها ولتعليم اللغة الفرنساوية لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة ورئيسه العالم الماهر الامير الاى كالي قارس من أعيان ايطاليا ، بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورة في غير العلوم العسكرية متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم » (22) ، ويضيف تفاصيل تساعد على تبين توجه السلطة ونواياها من جهة

(21) يجعله الاستاذ المنصف الشنوفي في الجدول الذي وضعه لخير الدين وعصره المدرج في تحقيقه لمقدمة أقوم المسالك سنة 1838 .

(22) الاتحاف ـ تحقيق أحمد عبد السلام ـ طبعة المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1971 ص : 70 .

وتساعد على فهم مواقف النخبة آنذاك من جهة ثانية (23) فيكتب : « واعتنى / أحمد باشا / بهذا المكتب وكان يزوره ومعه خواصه وتسأل التلاميذ بحضرته ويثني على النجيب منهم ويمنّيه بما يؤول اليه حاله ويرغبهم في اكتساب المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقي وينفرهم من معرة الجهل » (24) . هذا هو الحدث اذن ؛ لكن ـ وهذا أمر لا يذكره صاحب الاتحاف ـ يبدو أن إحداث الجيش النظامي لم يكن محل رضى من كامل النخبة .

الخـــلاف :

نجد في مخطوط « العقد المنضد » في غضون الدفاع عن « النظام » اشارات الى وجود معارضة في صفوف الرعية بسبب التجنيد العام وهو أمر لا عهد لها به (25) ويبدو أن هذا الرفض قد تطور في صفوف النخبة وأخذ شكل أفكار وتصورات منظومة تمثّل وجهة نظر المحافظين ، يذهب أصحابها الى اعتبار « النظام » بدعة لانه تقليد للنصارى كما يظهر أن صاحب العقد نفسه جادل بعضهم حتى بلغ الامر الى استعمال عبارات تنم توتّر الاعصاب ففي معرض محاجته يقول وما يتمجدق (هكذا) به من لا خلاق له والجهل أعمى قلبه (26) . . . وفي آخر هذه المحاجة يقول : وتكلم معي هذا العالم فذكرت

---

(23) أنظر التعليق رقم 10 .

(24) الاتحاف ـ تحقيق أحمد عبد السلام ص : 70 .

(25) تمردت القيروان في أول تجنيد أيام حسين باي فعاقبهم بـ « سجن الاعيان والزام الخطية الكبيرة لكل انسان منهم كائنا ما كان وأخذ أعيان كبرائهم للنظام . . . وطالما استشفعوا فلم يصغ لهم » (الورقة 62 الوجه) .
ثم جاء دور الحاضرة أيام مصطفى باى « لما تقوى عزمه على زيادة العسكر النظامي فابتدأ بامساك بعض أولاد تونس فعظم الامر على الناس . فاجتمع أهل البلاد وصاروا يستشفعون اليه ويهرعون لديار الفقهاء والزوايا استشفاعا للامير من ذلك » . غير أن صاحب العقد المنضد « يفسر ذلك بجبن أهل تونس البلدية (أنظر الورقة 66 الوجه) .

(26) أنظر الورقة 58 الظهر .

له ذلك (حجج نقلية) فافتضح » (27) هذه أمارات واضحة على وجود خلاف حول هذه المسألة . وهكذا فاننا ، انطلاقا من احداث جيش على غرار الجيوش الاروبية ، نجد أنفسنا في قلب الخلاف الذي سيتملك على المصلحين مشاعرهم وعقولهم وهو الاختلاف حول أخذ الامة الاسلامية عن غيرها فكيف دافع محمد سلامة عن رأيه ؟

الدفاع عن النظام وعن التجديد :

فعلا ان محمد سلامة وان كان يدافع في الاصل عن النظام فقد تجاوزه للدفاع عن ضرورة التجديد ووجوب أخذ المسلمين ما يفيدهم عن غيرهم ولو كان كافرا منزلا ذلك في رؤية جديدة هي فلسفة واقعية متنورة فيها يقدم مفهوما جديدا للتاريخ ووظيفته أما دفاعه عن النظام فيمكن ضبطه في نقطتين هما :

× عرض تاريخي تقييمي لما سبق « النظام » من أحداث عالمية وداخلية .

× استنباط حجج نقليّة من التراث الديني .

في النقطة الاولى نجد عرضا تاريخيا ضافيا للظروف التاريخية العالمية والداخلية الداعية الى النظر في مادة الدفاع وهي تشتمل على عنصرين اثنين هما :

اختلال ميزان القوى بين المسلمين والنصارى وتحالف الكفّار على المسلمين أوّلا واحتلال الجزائر المتاخمة لتونس ثانيا .

---

(27) نفس المرجع .

وقد حاول في العنصر الأول أن يتوسع قدر الامكان في ما يشبه تحليل أوضاع تلك الفترة تحليلا سياسيا ، فيذكر أنّه بدخول عام 1236 (1812) وقع ظهور التغلب من النصارى لا سيما الانكليز (28) ثم يستدرك فيكتب « وان كان الامر ابتدأ من أول عام ثلاثين (1815) حين وقع الصلح ما بين الفرنسيين والانكليز » (29) ولا يفوته أن ينبّه الى أن هذا الصلح يهدد المسلمين وان خروج أوروبا من خلافاتها الداخلية يعني تزايد خطرها فيسترسل « بعد موت (بونابرت) وقع اتفاق النصارى على الاسلام » (30) ويشير بشيء من التفصيل الى مؤتمر (فينا) - (1230 - 1815) وقد أبطلت فيه القرصنة وأسر النصارى ويسجل أن قوة النصارى « أخذت في الازدياد بسرعة حتى كانت واقعة القريق وهي أعظم (الدواهي) » (31) حسب اعتباره ، وفيها ينهزم الجيش العثماني أمام (القريق) بمساعدة النصارى لا سيما الروس مما سيلهب نار الحرب بين الجيوش العثمانية والجيوش القيصرية وينهزم فيها الجيش العثماني (ممثل) الامة الاسلامية .

أما الأوضاع الداخلية الدافعة إلى احداث « النظام » فتمثلت في هزيمة الاسطول الجزائري عندما امتنع مما دعاه إليه الانكليز سنة 1236/1820 من ابطال القرصنة والكف عن سبي المسافرين النصارى في البحر ، وفي هزائم الجيش العثماني امام مقاومة اليونانيين الذين تدعمهم أروبا وخصوصا أمام الجيوش القيصرية الروسية التي كادت تبلغ في ايام السلطان محمود قاعدة الملك - اصطنبول لولا أن منعتها القوات الفرنسية والانكليزية من ذلك . ولا يخفى سر هذا الموقف عن - محمد سلامة - فيعلّق عليه بقوله : « لأنهم لا يحبّون أن

(28) المخطوط الورقة 49 الوجه .
(29) المخطوط الورقة 49 الظهر .
(30) المخطوط الورقة - نفس المرجع .
(31) المخطوط الورقة 49 الظهر .

يستبد بها أحد لعلوّ مقامها » (32) . ويفسّر صاحب « العقد » هذه الهزائم بخيانة الانكشارية مخضعا تفسيره هذا لما ورد في رسالة سلطان محمود في شأن الانكشارية ، وتحوله عنها الى الجيوش النظامية بسبب خيانتها للاسلام لمّا « دخلهم الفساد فانعدمت منهم الطاعة والآن نحو المائة سنة مهما توجهوا الا (هكذا) انهزموا » (33) . ولا يخفى في هذا المجال تبعية تونس ، الفكرية خصوصا ، للباب العالي .

أمّا العنصر الثاني وهو ناتج عن تفوق أوروبا فيقدمه ـ محمد سلامة ـ في كثير من الحرقة وقد افتتحه بقوله : « حتى دخل عام ستة واربعين ، فوقع فيه الداهية الدهياء والطامة العمياء وثلم سور الاسلام بأخذ الجزائر وتملك الفرنسيين لها » (34) وختمه بقوله : « فكانت مصيبة عظيمة على الانام وثلمة كبيرة في الاسلام » (35) ويدخل في الفصل الموالي وهو « خبر النظام » بكلام واضح الدلالة على أن هذه التطورات عالميا ومحليا هي الداعية لاحداث الجيش النظامي فيكتب : « وبوقيعة الجزائر تحيرت البلدان لا سيما بلادنا لقربها منهم (هكذا) لان الحد بالحد فأوجب ذلك النظر لحال العساكر وهو الداعي للمقدس (حسين باشا) بابتداء أمر النظام والباعث الاكيد لمولانا هذا (أحمد باشا) بالكد والاجتهاد والاعتناء بشأن العساكر النظامية » (36) .

ويلتفت (محمد سلامة) في النقطة الثانية من دفاعه عن النظام الى التراث من قرآن وسنة بروح الفقيه المستنير ليستنبط حججا نقلية تقنع المعارضين

---

(32) المخطوط الورقة 56 الظهر .
(33) المنخطوط الورقة 57 الوجه (من رسالة الباب العالي المعربة) .
(34) المخطوط الورقة 54 الوجه .
(35) المخطوط الورقة 55 الوجه .
(36) المخطوط الورقة 55 الظهر .

ومنهجه في ذلك قياسي يذكر الآية أو الحادثة ويجعل منها أصلا يقاس عليه اذا ما أريد تحقيق نتائج مماثلة لما حصل سابقا .

وقد انطلق من القرآن اذ دعا للاستعداد للعدو في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم (37) . فأساس الاستعداد هو ارهاب العدو ولكل وقت أدوات للارهاب ذلك هو تفسيره للآية وقد كتب : « قال العلماء جعل العلة في الاستعداد، الارهاب فكل أمر كان فيه الارهاب كان هو المأمور به وما لا ارهاب فيه لا عبرة به لان الوسيلة شرعت ليترتب المقصد . فالوسيلة التي لا يترتب عليها شيء لا تشرع » (38) . ويتدرج بمنطق تاريخي واقعي الى فترته فيذكر أن الرسول (ص) طلب تعلّم الرمي وقال لانه أنكى ثم أتى دور البارود والمدفع فأقبل عليهما الناس ثم أتى « هذا الحرب الجديد الذي لا يقابله الحرب القديم » (39) « ولا شك أنّه لم يبق للحرب الاصلي أثر ولا به ارهاب لعدو فالاستعداد به عبث » (40) .

أما مظاهر الجيش النظامي الاخرى المتصلة بتوزيع الوحدات العسكرية وبعلامات الرتب والألبسة وفيها تقليد للجيوش الاوروبية فقد حاول أن يجد لها أشباها في التاريخ الاسلامي ليخرجها عن كونها تقليدا غير مترّو للكافر فيذكر محمد سلامة تحت عنوان : « هذا النظام له أصل من حرب الاسلام » أن الجيوش كانت مؤلفة من ميمنة وميسرة وقلب وكراديس وأمراء وأمير واحد كبير على الجميع ولذلك علامات فعلامة أبي دجانة كانت حمراء « ويذكر أنها كانت

(37) الجزء الأول من الآية 59 من سورة الانفعال (مدنية) .
(38) المخطوط الورقة 58 الوجه .
(39) نفس المصدر .
(40) نفس المصدر .

تسمّى بـ (عصابة الموت) وكانوا يلبسون الادرع والقلنسوات الحديد » ويختم هذه النقطة بأنّ « لكل وقت ما يناسبه » (41) .

ويجادل المعارضين بافتراض أن الكثير من مظاهر الجيش الجديد مأخوذ عن النصارى ويقول أن لا ضير في ذلك اذ السنة شرعته فالرسول فعل الحفير عام الخندق باشارة سليمان الفارسي وقد « أخبره أن كفار الفرس يعملونه » وفعل المنجنيق في غزوة خيبر باشارة يهودي (42) .

ولا يخفى أن هذين المثالين يفيضان عن حدود « النظام » ليدخلا في باب أوسع وهو الاخذ عن « الكافر » فيما يفيد الأمّة الاسلامية .

وبنفس الروح يواصل محمد سلامة الدفاع عن وجهة نظره هذه في نقطة أخرى مثيرة لقلق المتحجرين وقد تمثلت في تعلّم لغة النصارى وكان المكتب الحربي يدرس المواد العسكرية بالفرنسية وكان الخلاف دائرا حول مبدا تعلم لغة النصارى وقد أنكر المعارضون على « النظام تعلم خط النصارى ولغتهم ويقولون العياذ بالله هذا غاية الجهل » (43) . وكان رده قطعيا اذ كتب : « بل كان انكاره قريبا من الكُفر » (44). وهذه العبارة تفصح عن مدى احساس محمد سلامة بفداحة خطإ المعارضين . ثم يعود الى الاثر ليدعّم رأيه بما ورد عن الرسول (ص) من أنّه أمر كاتبه زيد بن ثابت بتعلّم السريانية أو اليهودية (45) فتعلمها وذلك قصد استفادة الامة الاسلامية فقد كانت ترد على الرسول كتب من هؤلاء فلا يحسن أن يترجمها له غير فرد من قومه .

---

(41) نفس المصدر .
(42) المخطوط الورقة 58 الظهر .
(43) نفس المصدر .
(44) نفس المصدر .
(45) هناك اختلاف في الروايات .

ويوسع سلامة مجال الجدل ليؤكد أنّ الخلاف عميق ويتجاوز حدود احداث الجيش النظامي فيذكر أنّ الرسول (ص) أمر سعد بن أبي وقاص « أن يستشير حكيما كافرا في الطبّ » (46) ويختم قائلا « والحاصل أنّ انكار هذا من الجهل العظيم » (47) .

هذه هي وجهة نظر محمد سلامة التونسي من إحداث الجيش النظامي ومن قضية الاقتباس عن غير الأمة الاسلامية ويبدو أنّ تأمله في هذه القضية قادهُ الى تصور شمولي خاص به ، الى ما سميناه بـ « الفلسفة الواقعية المتنورة » فيها طرح جديد لمفهوم التاريخ ووظيفته وفي ظل هذه الرؤية تتنزل كل أفكاره الفرعية فما هي هذه الرؤية الاطارية ؟

الرؤية الجديدة :

وردت هذه الرؤية مختزلة في مقدمة الكتاب ومثلت اطارا تنزلت فيه وجوه الدفاع عن « النظام » وعن التجديد عموما وكانت رابطا عضويا بين المقدمة وأصل التأليف .

يقرر محمد سلامة أن التاريخ بشرى أولا وأنّه في حركة دائبة ثانيا فيكتب مبررا تخصيص تاريخه بأحمد باشا بأن ذلك « لتبدّل الكيفية واختلاف الحالة ونسخ الترتيب القديم بالترتيب الجديد . . . وذلك أن الاشياء تدور مع العلّة وجودا وعدما وتتبع المصالح فربّ ترتيب اقتضته مصلحة سابقة ولا تقتضيه المصلحة اللاحقة » (48) .

تفصح هذه الفقرة عن تصور خاص للحياة اذ فيها ايمان بتغير الاحوال وبأن هناك قديما وجديدا وسابقا ولاحقا وأن هناك زمنا يجرى ومصالح تتغيّر

(46) المخطوط الورقة 58 الظهر .
(47) نفس المصدر .
(48) المخطوط الورقة 5 الظهر .

سبل تحقيقها بتغيّر الاحوال وبما أن الحياة قائمة على الحركة والتبدل فمن الجهل عدم مسايرتها و « العاقل من يعرف جريان العلة في الامور ويحسن في تنزيل القياس والبليد من يقول انّا وجدنا آباءنا على أمة » (49) .

هذا هو التدرج المنطقي الذي سلكه محمد سلامة : الحياة متطورة ضرورة ويؤكد ذلك بالاحالة على القرآن فيواصل « ولذا ذم الله تعالى أهل التقليد » (50) ويخلص بعد ذلك الى أنّه « لا مرية أن النظر والفكر وتجريب الامور ومعرفة الوقائع يتخرج منها صواب التدبير » (51) . ودعوته الى التجريب دون الادعاء بأن كل جديد جيّد يؤكد مدى استنارته خصوصا اذا نزلناه في محيط يرفض التجديد ويقنع بجارى العادات .

وعلى ضوء هذه الرؤية يصبح التاريخُ العلمَ الذي يطلعنا على تجارب السلف . ولا نطّلع على تجارب السلف من أجل الاتعاظ وانما من أجل مصالحنا العملية المباشرة فالتاريخ وقائع ماضية وازاءها حلول أهل ذلك العصر والحاضر وقائع ماثلة أمامنا وبالنظر والتأمل نختار بين تطبيق التراتيب الماضية أو الاقلاع عنها لغيرها : « فرب ترتيب اقتضته مصلحة سابقة ولا تقتضيه المصلحة اللاحقة وهذا سر معرفة التاريخ حتى ينظر المتأمّل المصالح الماضية هل هي واقعة حال تأمله في زمنه فيجرى عليها ذلك الترتيب أم تغيرت فيعتبر ما يقتضيه الحال وتصير له ملكة يقتدر بها على اجراء الامور على مقتضى مراعاة المصالح » (52) .

ويبدو أن سلامة نتيجة استخدامه التاريخ في الدفاع عن اجراء جديد هو احداث الجيش العصري انتهى الى هذا التصوير البراغماتي للتاريخ بحيث

(49) المخطوط الورقة 6 الوجه .

(50) المخطوط الورقة 6 الوجه .

(51) نفس المصدر .

(52) المخطوط الورقة 5 الظهر .

يصبح التاريخ أداة تعبّر بها جدوى الاجراءات السياسية في سياق البحث عن حلول لمشاكل العصر . ويصبح المؤرخ السياسيّ الناجح أو المستشار المناسب لرجل السياسة (53) ويحسن بنا أن نؤكد في هذه النقطة أنّ ما انتهى اليه سلامة يختلف شكلا وروحا عما نجده في المقدمات من دور التاريخ الوعظي للامراء وغيرهم . انما يدعو محمد سلامة الى استنطاقٍ « موضوعيّ » للتاريخ قصد التجديد . وقد وردت أفكاره هذه في ظروف بدأت تواجه فيها الأمة الاسلامية وتونس بالذات أشكالا من التحدي وأول ميدان يحس فيه هذا التحدي هو الميدان العسكري وهذا أمر يفسّر مدى تملك فكرة الدفاع عن « النظام » صاحب « العقد المنضد » حتى أنه بعد تقديم رؤيته العامة الداعية للتجديد يضرب لذلك مثلا وهو أن الاوائل كان « لها اعتناء بعلم السهم والرمح وفرقة لها اعتناء بالفيلة . . فلا يكون الملك في الوقت (هكذا) مشتغلا بذلك لعدم الفائدة فيه ، لتبدل أنواع القتال . فلا يستبدل حرب النظام بحرب الفيلة ويقول : « هكذا كانت الفرس تفعل لان الشيء لا ينبغي أن يقابل الا بمثله » (54) . وتؤكد هذه الفقرة من جهة بنية التأليف مدى الصلة بين المقدمة وأصل التأليف فتزيد عمل محمد سلامة طرافة وتخرج مقدمته عن سنة المؤلفين في وضع مقدمات عامة ضعيفة الصلة بتواريخهم .

ومما يزيد التأليف طرافة أن الدفاع عن « النظام » وعن التجديد بالاقتباس عن النصارى ورد في منهج سيصبح سنة لدى المصلحين التونسيين وهو أن تبرر الدعوة للاصلاح بمبررات تاريخية اسلامية وأن تستقى الحجج من القرآن والسنة بفضل قراءة للتراث تنتقي ما يحرض على التجديد وتجعل من

---

(53) أن يكون المؤرخ مستشارا للحاكم مكان يناسب محمد سلامة لقربه من مخدومه أحمد باشا ويمكن اعتبار ذلك عنصرا من العناصر التي جعلت سلامة ينتهي الى هذه الاراء الجديدة .

(54) المخطوط الورقة 5 الظهر .

الاية أو الحديث أصلا يقاس عليه . والقارىء المطلع على مقدمة « أقوم المسالك » مثلا يلاحظ صلة القرابة بين الخلف والسلف في قضية الاقتباس عن الغرب القوي في ما تستفيد منه الأمّة الاسلامية ويزيدها قوة مادية .

وهكذا فان محمد سلامة التونسي في « عقده المنضد » يمكن أن يعد بجداره أب الفكر الاصلاحي التونسي وذلك لتوفّر شروط ثلاثة فيه وهي احساسه بوجود اشكالية تخلف أولا ودعوته للتجديد بأخذ ما يفيدنا عن غيرنا حتى وان كان كافرا ثانيا وبالمنهج الذي توخّاه لبلوغ ذلك ثالثا ولا يهمنا بعد ذلك ان كان قريبا من فكر الحاكم آنذاك (55) أو أن التأليف هو تأليف مدحي شبيه بالكتاب الباشي (56) وإن ما انتهينا اليه من استنتاجات سجلناها في هذا المقال تزيد الفكرة القائلة بتأصل الفكر الاصلاحي التونسي في التربية التونسية تأكيدا (57) فليس من شك في أنّ ما مكّن محمد سلامة من بلوغ هذه الاراء الجديدة انما هو مهمة الدفاع عن التجديد المتمثّل في احداث الجيش النظامي .

المختار كريّم

---

(55) كذلك كان حال المصلحين الاوائل الذين رأوا في الغرب قوة ينبغي أن يفهم مصدرها المسلمون ، مثل رافع رفاعة الطهطاوي مع الخديوي محمد علي .

(56) انظر الاتحاف و Ahmed Abdessalem : Les Historiens P : 303

(57) انظر تحليل مقدمة أقوم المسالك تحقيق الدكتور المنصف الشنوفي ص 42 و ص 47 .

المصادر والمراجع

المصــادر :

المصدر الوحيد هو مخطوطة العقد المتضد في تاريخ الباشا أحمد رقم 18618 المكتبة الوطنية بتونس .

المراجـــع :

أ ـ العربيــة

+ القرآن الكريم طبعة دار بوسلامة تونس 1398 ـ 1978 .

+ معجم الفاظ القرآن الكريم دار الشروق القاهرة 1501 ـ 1981 .

+ أحمد بن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية 1963 (الجزء الثامن) .

+ الجزء الثالث من اتحاف أهل الزمان تحقيق الاستاذ أحمد عبد السلام طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1971 .

+ خير الدين باشا : مقدمة « اقوم المسالك في معرفة احوال المسالك » طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ماي 1972 تحقيق وتقديم الدكتور المنصف الشنوفي .

ب الفرنسيــة :

ABDESSALEM AHMED ; Les Historiens Tunisiens des XVII^{e}, XVIII^{e} et XIX^{e} siècles, Tunis 1973.

« العقد المنضدّ في تاريخ الباشا أحمد » لمحمدّ سلامة التونسيّ

(قسم منه : سفر محلّة قابس)

تحقيق : المختار كريّم

هذا تحقيق جزء من مخطوط يتيم بعنوان : « العقد المنضد في تاريخ الباشا أحمد » لمحمد سلامة ، فما هذا المخطوط ؟ ومن صاحبه ؟ ولماذا تحقيق جزء منه فحسب ؟

I ـ 1 هو مخطوط يتيم من مخلف المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ، سجل تحت رقم 718 في الفهرس الذي نشرته حوليات الجامعة التونسية سنة 1970 العدد السابع الصفحة 248 (1) وبهذه النسخة أوراق مفقودة وأماكن متروكة بيضاء رأى فيها الاستاذ أحمد عبد السلام نسخة مبيضة وان تلك الفراغات متروكة عمدا في انتظار توفر الوثائق اللازمة (1 مكرر) في حين أن أحمد ابن أبي الضياف سجل في اتحافه أن : « الكتاب لم يخرج عن مسودته » (2) وعلى كل حال فانه ، بسبب هذه الوضعية لم يحقق الكتاب رغم عناية

---

(1) موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 18618 قسم المخطوطات .

(1 مكرر) A. Abdessalem; Les Historiens; p. 302

(2) أحمد بن أبي الضياف ، الاتحاف ، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والارشاد ، طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1964 ، ج 8 الترجمة رقم 296 ص 78 .

الباحثين التونسيين بالقرن التاسع عشر بتونس باعتباره قرن الهزات والاحداث الجسام في هذا القطر *

وفيما عدا هاتين النقطتين المذكورتين وما أصاب بعض المواقع من تلطيخ فان النص يمكن قراءته خصوصا اذا ما طالت ممارسته والتعود على رسم بعض الحروف فيه .

أما ناسخه فغير معروف ولا شك أنه غير المؤلف ولا شخصا في مستوى المؤلف أو حتى دونه درجات لما في الكتابة من أخطاء رسمية .

و « العقد المنضد » هو كتاب في تاريخ أحمد باى أساسا وتقف الاحداث المذكورة فيه عند حد سنة 1258 هـ ـ 1843 م ومن المحتمل جدا أن الكتاب لا يقف في الاصل عند هذا الحد خصوصا اذا علمنا أن موت صاحبه سيكون أيام الطاعون 1266 هـ ـ 1850 م وأن الكتاب يقف في شطر جملة .

I ـ 2 أما صاحِبُ التأليف فهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه العدل ابي عبد الله محمد الطيب بن الشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن بن علي بن سلامة توفي أيام الطاعون في 11 من شعبان (أو التاسع منه حسب التقويم) سنة 1266 هـ ـ 20 جوان 1850 م . نال مثل معاصريه حظا وافرا من المعارف التقليدية تلقاها عن جده من علماء عصره ، درّس قليلا ثم تعلم « فقه الاحكام والوثائق » (3) وأصبح قاضيا للمحلّةِ ثم بباردو ثم بالحاضرة ثم مفتيا وتقدّم على المفتين وله علاقة « صحبة وتقريب » (4) مع أحمد باى وفي مخطوط « العقد المنضد » اشارات وفقرات تدخل في باب الترجمة الذاتية اذ فيها تفاصيل عن حياته الشخصية كما توجد بها آراؤه ومواقفه وميوله وهي في الجملة

* باستثناء محاولة قدمت في شهادة كفاءة للبحث سنة 1977 فيها هذا القسم ولكنها غير موفية بالغرض وقد اطلعنا عليها قبيل صدور هذه الحولية .

(3) نفس المصدر .

(4) نفس المصدر .

تبرز لنا خصيصتين مميزتين في شخص محمد سلامة أولاهما شدة اعتدادِه بعمق معارفه الادبية التاريخية والفقهية وثانيهما شدة تعلقه بأحمد باى حتى أنه يفتتح بهاتين الفكرتين مؤلفة « العقد المنضد » فمن الصفحة الاولى نعرف أنه من « شبت شيبته في الادب » (5) وهو من صارت « نفسه لأخبار الملوك السابقة وتراجم شعرائهم ووزرائهم شائقة وبدا ذلك له ظاهرا للعيان » (6) وهذه أمور انشغل بها في مبتدىء عمره فهو يسجل : « وحثني عليه (المقصود الادب) داعي التصبي الحث الحثيث فلبست حليه وقلدت جيدي بفرائده الجمان » . (7) وبعد ذلك ينصرف « الى تحقيق علوم الاديان « وفي ذلك يقول : « ومازلت بعده (أيْ بعد العناية بالادب) في مسارح المعقول والمنقول أرتع ومن مناهل المنقول أكرع واشرب عَلَلاً بعد نهل » (8) . وقد دفعه احساسه بِعُمْقِ معارفه الى ضرب من الغرور فهو لا يتحرج من الخروج عن سنّة المؤلفين في التعبير عن قصورهم فيسجل أن مقدمته « على قصرها تربو على مقدمة ابن خلدون » (9) وهو يَرْبِطُ في كلامه هذا النبوغ المعرفي بالعوز الشديد ويقدم ذلك في صورة أدبية مهوّلة اذا صار يومه كليله تذهل له المراضع وتشيب له الولدان (10) وهو يفعل هذا لينزل مخدومه أحمد باى في منزلة البطل المنقذ له من الضياع اذ في أوج هذه الازمة « انقلب غيهب الكرب بصبح والد أميرنا الان (المقصود مصطفى باى) وبنجله السعيد البحر المديد اشرقت شمسي وراقت نفسي واسْتضاءت جوانبي من كل مكان » (11) .

(5) المخطوط الصفحة الاولى .
(6) نفس المصدر .
(7) نفس المصدر .
(8) نفس المصدر .
(9) نفس المصدر الورقة 19 الظهر .
(10) نفس المصدر الصفحة الأولى .
(11) نفس المصدر .

ويبدو ان انقاذه من الفاقة استعبده ودفعه الى شيء من التملق الواضح أحيانا ففي السفرة المحققة عقب هذا التقديم نجد إشارة الكاتب الى أن الامير طلب منه أن يصاحبهُ وهي اشارة مشفوعة بالتعليق الطريف الآتي : « ولو لم يأمرني بذلك لسبقته في المسير لأني لا أحب محلا ليس هو به حال ولا أطيق مفارقته على أية حال » (12) فالمسألة مع اعتبارنا لدواعي السجعة والى أن الصورة أدبية وقد قيل قديما « أحسن الشعر أكذبه » وفي ذلك قد ندخل النثر ومع اعتبارنا أن الكتاب يبدو كتاب مدح في ثوب تاريخ قد تجاوزت الحد المعقول في علاقات الرجال وقد نفسر ذلك برغبة الكاتب في أن يميز علاقته بمخدومه بأسس وجدانية متينة لا تتوفر عِند منافسيه من الحاشية وفي ذلك مالا يخفى من المصانعة الشديدة لانه وان كان عاشقا لسيده كان يمكنه ان يغض من شدة العبارة وصراحتها . وانتقاؤنا لِهاتين السمتين مقصود اذ انهما تطبعان الأثر برمّتهِ . فالاثر مدح ولكن فيه سمة مناظرة والمنافحة عن وجهة نظر صاحب التأليف .

I ـ 3 والجزء الذي اخترناه للتحقيق يبدأ من الورقة 97 بعد قوله : « ثم دخل عام ستة وخمسين » وهو يمتد على مدى سبع وثلاثين صفحة في كلَ واحدة منها خمسة وعشرون سطرا ، طول السطر منها أحد عشر صنتيمترا .

وقد اخترنا هذا الجزء لما بَدَا لنا فيه من استقلالية عن باقي التأليف ولسلامته من النقص . والنص عبارة عن « ريبورتاج » لرحلة أحمد باى الى الجنوب التونسي على رأس الجيش النظامي الحديث العهد سنة 1840 م بسبب ظهور بوادر عصيان في جهات من الإيالة ، خصوصا في قابس حيث قتل نائب العامل بها المكلف بجمع ضريبة « الربع » (13) وهو أن يدفع المنتج ربع

(12) الصفحة الأولى من النص المحقق .
(13) سماها أحمد ابن أبي الضياف بـ « المحصولات » .

انتاجِهِ للدولة تسديدا لحاجياتها خصوصا حاجيات الجيش النظامي ومن هذا المعطى يكتسي النص أهمية مميزة تأكد بها تحقيقه خاصة أن هذه الرحلة سجلها ابن أبي الضياف في اتحافه (14) وبين النصين « تقاطعات » وهذا أمر مفروغ منه. ولكن بينهما أيضا « اختلافات » وأول فارق ، في البنية ، ففي حين سلك محمد سلامة سردا زمنيا للرحلة نجد ابن أبي الضياف يتصرف فيها بالتقديم والتأخير وتلك سمة مميزة بين الكتابة المباشرة والكتابة القائمة على الذكرى . الى جانب ذلك نجد فروقا أخرى هامة منها أن صاحب الاتحاف ذكر أمرا مهمًّا لم يذكره صاحب العقد وهو أن الجيش النظامي وقف في صفاقس بمكيدة كادت تُودِي بحياة عامل الاعراض ومنها أن ابن أبي الضياف يجعل زيارة الباي جربة قبل زيارته قابس والعكس نجده في العقد وهو الاقرب الى الصحة . يضاف الى ذلك أن نص الاتحاف استذكار بارد محمل بمواقف لاحقة لتلك الفترة في حين أن نص محمد سلامة نابض بالحياة معبر عن وجهة نظر المثقفين في تلك الفترة حين كانت كل الكوكبة ملتفة حول الباى ولم تحس بعدُ بوَطْأة الازمة الاقتصادية التي ستؤدي الى ثورة 64 والى احداث اللجنة المختلطة والى معاهدة باردو واتفاقية المرسى في نهاية المطاف .

الى كل هذه العناصر المنشطة لتحقيق هذا النص وان على نسخة واحدة ينضاف عنصر آخر : وهو ما ورد فيه من وصف حي للمدن والقرى الساحلية التي مر بها الجيش ولجوانب من ظروف سن قانون الزيتون ولوصف استعراض عسكري في صفاقس .

---

(14) انظر الباب السادس من الاتحاف تحقيق الاستاذ أحمد عبد السلام ، تونس 1971 ، ص ص 71 ـ 82 .

ومما ييسر تحقيق هذا النص على نسخة واحدة ان كثيرا مما ورد فيه موجود في كتب محققة : من ذلك نص قانون الزيتون وهو من انشاء أحمد بن أبي الضياف وقد أدرجه في اتحافه ومقتطافات أخرى كثيرة مأخوذة من كتاب تقويم البلدان لابي الفداء ومن القاموس المحيط للفيروزبادى وقد رجعنا اليها في مظانها واستفدنا منها في اخراج النص . كما أننا لم نكتف باثبات النص وحده بل بحثنا عن تراجم الاعلام المذكورين كلهم عدا حالات نادرة وكذلك فعلنا مع أسماء الامكنة وصححنا أسماء الكتب المختزلة المشار اليها في المتن المحقق .

II - الرمـــوز

1 - [. . .] مكان استحال تهجؤه .

2 - [ ] اذا ضم المعقفان كتابة فهو اصلاح للنص الوارد بالمخطوط على ضوء النصوص الاصلية المنقول عنها .

3 - ( ) ما وضع بين قوسين يحتمل الخطأ بسبب فساد الخط .

4 - رمزنا للكتب في الهوامش بتسميات مختزلة اشتهرت بها . وفي البيبليوغرافيا عقب كل مرجع عنوانه مختزلا موضوعا بين قوسين .

5 - الارقام الموجودة بالطرة تعلّم صفحات المخطوط ورمز العمودي يُشير إلى نهاية صفحة وبداية أخرى مع اعتبار الصفحة الأولى من النص المحقق حاملة لرقم - 1 - والثانية - 2 - وهكذا .

المراجع المعتمدة في التحقيق والشروح والتراجم

I - العربيـــة :

أ - المخطوطــة :

(1) سلامة (محمد ابن الطيب) العقد المنضد في تاريخ الباشا أحمد ، مخطوط رقم 18618 ، المكتبة الوطنية بتونس .

(2) الكنش رقم 16511 قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية .

(3) الكنش رقم 16532 قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية .

ب - المطبوعـــة :

1 - أمين (أحمد زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة .

2 - ابن أبي الضياف (أحمد) اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق أحمد عبد السلام ، المطبعة الرسمية بتونس 1971 (الاتحاف) .

3 - ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ، صورة عن الطبعة الاولى الصادرة بمصر سنة 1328 هـ ، أنجزتها دار صادر بيروت (الاصابة) .

4 - ابن خلكان : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور احسان عباس طبعة دار صادر بيروت 1398 هـ / 1978 م (الوفيات) .

5 - ابن خلدون (عبد الرحمان) ، كتاب العبر ، طبعة دار الكتاب اللبناني 1959 .

6 ـ أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن عمر) ، تقويم البلدان ، طبع بباريس سنة 1840 .

7 ـ خليفة (حاجي) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، المطبعة الاسلامية بطهران (الطبع الثانية) 1387 هـ / 1947 م . (كشف الظنون) .

8 ـ الدباغ (عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله الانصارى) ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، المطبعة العربية بتونس سنة 1320 هـ . (معالم الايمان) .

9 ـ الزركلي (خير الدين) ، قاموس تراجم لا شهر الرجال والنساءمن العرب والمستعمرين والمستشرقين ، طبعة دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة الرابعة ، كانون الثاني (يناير) 1979 (الاعلام) .

10 ـ السراج (محمد بن محمد الاندلسي الوزير) ، الحلل الهندسية في الاخبار التونسية ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، طبعة الشركة التونسية لفنون الرسم .

11 ـ الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) ، الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية غير المنقحة ، نشر دار فرانز شتاير بقيسبادن 1381 هـ / 1962 م .

12 ـ عبد الوهاب (حسن حسني) :

× ورقات في الحضارة العربية بافريقيا التونسية ـ مكتبة المنار ، تونس 1966 (ورقات) .

× مجمل تاريخ الادب التونسي ، دار احياء التراث العربي بيروت 1968 . (ورقات)

13 ـ كحالة (عمر رضا) :
× معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان 1957 . (معجم المؤلفين) .
× معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دار العلم للملايين بيروت 1968 .

14 ـ الفيروزبادى (محمد يعقوب) ، القاموس المحيط .

15 ـ مخلوف (محمد بن محمد) ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان طبعة جديدة بالاوفست عن الطبعة الاولى سنة 1349 هـ . (شجرة النور الزكية) .

16 ـ النيال (محمد البهلي) ، الحقيقة التاريخية للتصوّف الاسلامي ، نشر وتوزيع مكتبة النجاح تونس 1965/1384 .

II الفرنسيـــــة :

Abdesselem Ahmed : Les Historiens Tunisiens des XVII, XVIII et XIX Siècles ; Tunis 1973

Encyclopédie de l'Islam (الطبعتان الجديدة والقديمة)

سفر محلة قابس مع مولانا أيده الله تعالى

[ورقة 1] أسلفنا (1) فيما مضى أن مولانا (2) أحدث التحجير (3) في الملح والصابون والدخان وأن أصل الربع (4) كان على عهد المشير المقدس السيد حسين (5) لكنه (5 مكرر) لم يتم بجميع البلدان فأكمل مولانا من ذلك وأمر باجرائه واجراء ما أحدث بعمل ايالته منها بلد قابس وذهب لها من ناب عن هذا الامر بها فأبى أهل قابس ذلك وشقوا العصا وقتلوا النائب الموجه من تونس وتعصبوا بمن قاربهم من العرب والبرابر وَأهل جبل مطماطة وفي أثناء ذلك

---

(1) ذكر ذلك في الورقة 45 آخر الظهر وبداية الورقة 92 بمناسبة الحديث عن النظام وعن سيطرة شاكير على زمام الجنود وقدرته في تدبير الاموال اللازمة للعساكر.

(2) المقصود المشير أحمد باى (21 رمضان 1221/2 ديسمبر 1886 ـ 24 رمضان 1271/10 جوان 1855) بويع بعد وفاة والده 10 رجب 1253/10 أكتوبر 1837 ـ حكم حتى وافاه الاجل (انظر الباب السادس من الاتحاف تحقيق د. أحمد عبد السلام).

(3) التحجير هو منع الصناع من استغلال المواد المذكورة وتبيعها الدولة للزام وقد ورد في المخطوط ثم دخل عام 1255 .. في هذا العام أحدث مولانا لزمة الجبس والملح والصابون على أن الجبس يباع بالسعر المتعارف قبلها وبذلك الكيل ولا يزاد على المشتري ما كان يعطيه انما الفرق الذي كان يأخذه الصانعون تستبد به الدولة تعطيه للزام »، كما ذكر لزمة الدخان مع « سعر مخصوص لا يبيعها الا لزّام ».

(4) الربع : ضريبة أحدثها حسين باى تتمثل حسب تعريف سلامة في أن كل ما يؤكل من الغلال والفواكه والثمار يخرج منه الربع للدولة (الورقة 60). كما ذكر أن شاكير هو الذي اقترح هذه الضريبة..

(5) حسين باى ثامن بايات العائلة الحسينية حكم بين (1824 ـ 1835).

(5 مكرر) لكن رسمها الناسخ في كامل المخطوط لاكن.

تحركت دريد (6) وأما الهمامة (7) فانهم أكدوا الامر طغيانا ، وأظهروا ما كان كامنا جهرا واعلانا ، فاتفق أنا بالمجلس يوم الاحد ومعنا المولى أيده الله فوجهت اليه كتائب قرأتها ثم انفصل المجلس فقام المولى مسرعا وأذن بجمع آلات الحرب جمعا وهيأ نفسه بذاته وأعد ما يناسب مقامه فأذن لخواص دولته وكبراء حضرته وأعيان خاصته بالسفر وكنت ممن سافر معه وأنا قاضي حضرته ولو لم يأمرني بذلك لسبقته في المسير لاني لا أحب محلا ليس هو به حال ، ولا أطيق مفارقته على أى حال ، ثم إنه احتفل بهذا السفر غاية الاحتفال ، وأتى فيه بما لم ينسح مثله على منوال ، وجرى على قانون الأمحال النظامية (8) ولم يكن قبل ذلك يعرف هذا الاصطلاح وقصد بهذا السفر فوائد أحدها ردع جميع القبائل والثاني الهمّة الملوكية في إدراك كل نيل ولو كان خفيفا لِيُعْلَمَ أنه إذا
أسرع لمثل هذا فلغيره أحرى/وإلّا فمولانا يخافه العاصي الداني والقاصي، ولو [2
أرسل لهؤلاء العصاة بعض خدمه لنال منهم أكثر مما يريد لكن غرضه دون ذلك ، ولما له في ترتيب الأحوال والسفر من فوائد منها رؤيته للعسكر الذي أحدثه (9) كيف حاله وما اليه ، إذا وقع قتال ، مآلُهُ قال الحكيم سابور لابد لكل دولة من صولة ، ولا تكون إلا بجولة بعد جولة ، فان الملك إذا لم يتفقد البلاد بالسفر إليها ومر العساكر عليها استهونت لأنها تصير تسمع بالجند

---

(6) من القبائل الهلالية وهم بطنان : توبة وعنز . انظر تاريخ العلامة بن خلدون القسم الاول الجزء السادس ص : 48 طبعة دار الكتاب اللبناني 1959 .

(7) بطن من بني رياح من يربوع بن حنضلة من العدنانية (معجم القبائل ج 3 ص : 135 .

(7 مكرر) في المخطوط اللفظ غير واضح والاقرب لمعنى السياق هو لفظ وجّهت .

(8) الامحال النظامية مصطلح أطلقه محمد سلامة على الجيش النظامي وقد كرس جزء من تأليفه لظروف إحداث هذا الجيش .

(9) أحدث أحمد باى المكتب الحربي بباردو في 5 مارس 1840 (انظر الاتحاف تحقيق أحمد عبد السلام ص 70) .

سماعا ، فلا يحصل لها ارتداعا لا سيما الأطفال (10) بخلاف ما إذا رأت ذلك فانها تهاب فلهذا كان ملوك بني العباس يطوفون البلدان بذواتهم بعد عام وعامين ولا زال هذا الامر بالمغرب الى الآن وله وجه من النظر وأمر في باب سياسة الملك يعتبر . فان الذي لا يتفقد الدار ، لا يأمن من خرابها بالفار ، هذه الاوجه السياسية والأنظار الملوكية هي الداعية لمولانا على السفر بذاته .

ولما اشتد الحزم وكمل العزم أمر العسكر بذلك فخرج معه بمحلة لم يقع قبلها مثلها عدة وعددا وكان السافر ثلاث الايات (11) الأولان اللذان قبله برنجي (12) وأكنجي (13) والثالث الذي أحدثه أجنجي (14) وآلاى الخيالة وبرنجي آلاي الطبجية صحبة واحد وعشرين مدفعا .

وخرج أعزه الله بمحلته الكبيرة التي لم يسبق مثلها يوم الخميس الرابع من ربيع الثاني (15) عام 1256 هـ ستّ وخمسين ومائتين وألف (1840 م) ونزلنا برادس العليا وقد تقدم الكلام على رادس في ترجمة تونس فأقمنا يومين على شفير وادي ملآن ثم ارتحلنا لسليمان وهذه البلدة تسمى بسليمان باسم

---

(10) الاطفال لفظ يطلقه المؤرخون التونسيون على العامة من باب تحقيرهم لسوء تدبيرهم خصوصا اذا انضموا الى متمرد وفشلوا كما نجد مرادفين لهذا اللفظ وهما الصبيان والاحداث .

(11) آلايات ج آلاي كلمة تركية تعني الفوج أو الاستعراض أو المجموعة أو العدد الكبير وفي الاصطلاح في القرن التاسع عشر أصبحت تعني الفيلق ويعرفه صاحب التأليف عند الحديث عن « النظام » فيكتب « معنى آلاي في الأصل اسم لعدد ثلاثة آلاف مثلما كان يقال في الانكشارية دار اسم لعدد ، وهذا الألاي يشتمل على ثلاثة طوابير والطابور عدد ألف رجل » (الورقة 60) » انظر : ALAY في N.E.I. ج I ص 269 .

(12) برنجي : ينقسم الألاي إلى وحدات أصغر ، أولها برنجي (المخطوط الورقة 61 الظهر) .

(13) أكنجي الفرسان غير النظامين في أول الدولة العثمانية ، المحاربون في أروبا خصوصا وهم لا ينزلون في الأصل مع باقي الجيش ومرتباتهم على قدر غنائمهم . انقرضت هذه المجموعات ثم ظهرت بثوب جيد اذ أصبحت مكونة من مدفعيين انظر AKINDJI في N.E.I .

(14) أجنجي : وحدة عسكرية أصغر من البرنجي (المخطوط الورقة 61 الظهر) .

(15) في الاتحاف تحقيق د. أحمد عبد السلام : كان خروجه يوم الخميس رابع ربيع الأول . . .

قصر قديم بها يقال له قصر أبي سليمان من قبل الإسلام بكثير قرب مرسى قديمة كانت وصار في أطرافها ملاحة والقصر بطرف الملاحة وهذا المرسى والقصر من قرطاجنة ومحسوب منها على ما ذكره ابن الشباط (16) في شرحه
3] (17) ثم انه لما جاءت الاندلس (18) بتونس في أذايل/المائة التاسعة تفرقوا في الأماكن من جملتها هذا القصر فبنوا فيه قرية ثم صارت بلادا ذات سوق وأشجار وعمرت وغرس الناس بنواحيها الزيتون وهي بلاد لا بأس بها وأهلها لهم قربة بالحاضرة ، والى الآن هي عامرة ، ثم ارتحلنا منها لبليدة يقال لها بني خلاد قرية بنواحيها شجر الزيتون وهي بلاد لا بأس بها يسكنها ضعفاء الناس ثم الى بلد نابل وهي بلدة كبيرة على شاطىء البحر ذات هواء (19) صحيح ومنظر مليح يفزع اليها أهل الأمراض المعضلة كثيرة الماء والأشجار ، والفواكه ، والثمار ، وبها أجناس السمك الغريبة الشكل العظيمة الطعم وهي من أحسن البلدان نزاهة وهواء وبنواحيها واد كبير يقال له وادي السّحير عريض الجوانب محفوف بظل الأشجار لا يملها المقيم بها ما أقام وهي من قديم قال في القاموس (19) : « نابل موضع بافريقية منه أحمد بن علي بن عمار

(16) هو محمد بن علي بن محمد بن علي بن عمر المصري التوزري ويقال له ابن الشباط (618/1221 - 681/1282) أديب مؤرخ ولد بتوزر وولي بها القضاء ودرس مدة بتونس وتوفي بتوزر (انظر الزركلي : الاعلام ج 7، 182 و 183) .

(17) المقصود : شرح الشقراطسية في كتابه صلة السمت وهي قصيدة في مدح النبيء (ص) وسيرة الصحابة قالها عبد الله بن يحي بن علي بن زكرياء المشهور بالشقراطسي نسبة الى قلعة رومية كانت قديمة قرب قفصة (انظر ح ح عبد الوهاب مجمل تاريخ الادب) .

(18) الاندلس : تسمية تطلق على المجموعات الاندلسية الفّارة من الأندلس نتيجة تساقط الامارات المسلمة . (انظر N.E.I. ج ص 511 وحوليات الجامعة التونسية العدد الرابع لسنة 1967 : عبد المجيد التريكي ، وثائق عن الهجرة الاندلسية الاخيرة الى تونس ص 23 وخاصة الوثيقة الواردة في الصفحة 71 .

(18 مكرر) في الأصل : هوى .

(19) هو القاموس المحيط تأليف مجد الدين محمد يعقوب الفيروزبادى .

النابلي » انتهى وبها الآن قاض وعدول وجامع خطبة ولها عمل عدة قرى تحتها .

ثم ارتحلنا الى الحمامات قال في تقويم (20) البلدان (21) الحمامات قريبة من تونس في البر وأما في البحر فدورة كبيرة وفي فم هذه الدخلة جزيرة قوصرة (22) المقابلة لصقلية وفي شرقي الحمامات على هذه الدخلة مدينة سوسة ، وبعد أن يشرق البحر عن سوسة يندفع الى الشمال ويدخل البر الجنوبي في البحر حتى يكون هناك مدينة المهدية (23) انتهى . والحمامات بلاد طيبة الهواء نظيفة المسكن سوقها خارج عنها . من عادة أهلها أنهم يخرجون صباحا لا يدخل أحد البلاد اصلا ولا يبقى فيها الا النساء فلا يدخل رجل والنساء في أزقتها كأنهن في دارهن (24) وجميع المآرب خارج البلاد ، فهم في غاية الحفظ للنساء . لها جامع حسن ، وصناعة أهلها حياكة الكتان من بديع النسيج ، وهو غالب لبس أهل افريقية يخيطون الثوب المعروف بالسورية ، وينسجون ثيابهم من الصوف أحسن ما يرى وفي/كلامهم إنحلال وشبه بكلام [4]
النساء . أشجارهم طيبة كثيرة الأزهار يأكلون الفلفل وبيض الدجاج بكثرة .

---

(20) ورد في المخطوط تقاويم عوضا عن تقويم وهو خطأ من الناسخ .

(21) تقويم البلدان : مؤلف في الجغرافيا الوصفية الفه أبو لفداء اسماعيل بن الفضل علي بن المظفر محمد بن المنصور (جمادى الأولى 672 هـ نوفمبر 1273 م بدمشق/محرم 732 هـ ـ أكتوبر 1331 م) أمير مؤرخ جغرافي ـ أنظر أبو الفداء EI و N.E.I وكذلك مقال جغرافيا N.E.I. .

(22) قوصرة (COSSYRA) جزيرة تقع في منتصف الطريق بين صقلية وافريقية وتبلغ جملة مساحتها نحو مائة كلم مربع وتسمى اليوم بنطلارية (Pantellaria) أنظر ورقات ج ص 282 .

(23) تقويم البلدان ص 126 . ونص المخطوط هو : « الحمامات قريبة من تونس في البرودة كبيرة في البحر من جهة الجنوب عن طريق ممرّ جزيرة الجزائر في دخلة من البحر يقابل [. . .] للدخلة جزيرة قوصرة المقابلة لصقلية وعلى هاته الدخلة مدينة سوسة ثم يدخل البر الجنوبي في الشمال للبحر حتى تكون هناك مدينة المهدية فضلت نص تقويم البلدان لان المخطوط ينقل عنه ولأنه واضح المعنى في حين تصبح ، في المخطوط ، الحمامات وسوسة تقعان على نفس الدخلة .

(24) في المخطوط « كأنهم في دارهم » وهو خطأ إذا المقصود النساء .

ثم بتنا بمحل يقال له بير البويتة بالطريق ومنه بتنا غدا (هكذا) بمحل يقال له هرقلة لم أعثر لها على ترجمة وهيئتها تدل على أنها قديمة وهي على شاطىء البحر قرية يسكنها ضعفاء أهل الساحل وبها زاوية الشيخ أبو منديل لا أعرف له ترجمة . وزيت هذه القرية من أحسن زيوت افريقية ، طيبة الهواء أعمار أهلها طويلة ثم منها كان حلولنا بمدينة سوسة . قال في كتاب التقويم « جزيرة قوصرة المقابلة لجزيرة صقلية وفي شرقي الحمامات . على الداخلة المذكورة مدينة سوسة (25) قال [وهي مدينة على الساحل جنوبي تونس وشرقيها (ومنها) (25 مكرر) كان فتح المسلمين لصقلية أي سيسيلية وهي أى سوسة في طرف داخل البحر ، مدينة قديمة جدا لها فنادق وأسواق وحمامات على البحر المالح حدٌّ بين كورة الجزيرة والقيروان ، عامرة بالناس كثيرة التجار والمسافرون اليها قاصدون وعنها صادرون بأنواع الثياب الرفيع ، وعليها سور من حجر حصين] (26) انتهى كلامه [وطولها 34 درجة والعرض 33 ينقص عشرين دقيقة مع تحرير قليل وهي من الاقليم الحقيقي العرف من بلاد الغرب] (26 مكرر) انتهى . قلت هي من عملنا يضرب البحر بسورها البديع البناء محيط بها البحر من ثلاث جهات : الشمال والجنوب والشرق ، وحولها اثار قديمة بنيانها بالصخر لها محارس وروابط وجوامع وهي في سند عال ترى دورها من البحر بها صناعة الغزل كثيرة لها محرس يُسمي بمحرس المنستير نزل بها جماعة من الاجلاء منهم الامام الفاضل سيدي يحي بن عمر (27)

(25) تقويم البلدان ص 126 ونص المخطوط هو : « جزيرة قوصرة المقابلة لجزيرة صقلية في دخلتها الحمامات وفي شرقي الحمامات على الدخلة المذكورة مدينة سوسة » فضلت نص تقويم البلدان لنقل المخطوط عنه وللغموض الحاصل بالمخطوط اذ تصبح الحمامات موجودة في دخلة جزيرة قوصرة .

(25 مكرر) غير موجودة في الخطوط .

(26) تقويم البلدان ص : 144 .

(26 مكرر) نفس المصدر ص : 28 . أما في المخطوط فقد تعذر تهجؤ هذه المقاييس .

(27) أبو زكرياء يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني الاندلسي القيرواني ولد بالاندلس سنة 223 هـ وتوفي في ذى الحجة سنة 289 هـ بسوسة (انظر شجرة النور الزكية ص : 73 الترجمة رقم 97) .

المدفون ببابها وافتتحها المسلمون صدر الاسلام وذلك أنه لما غزا معاوية بن حديج (28) افريقية سنة 45 خمسة وأربعين بعد الهجرة في زمن معاوية بن أبي/سفيان (29) رضي الله عنه في عشرة الاف مقاتل ومعه عبد الله بن عمر [5]
ابن الخطاب (30) رضي الله عنه وعبد الله بن الزبير (31) وابو (32) عبد الملك مروان (32 مكرر) ويحي بن أبي المحكم (33) وأشراف قريش بعث ملك افريقية بطريقا (34) في ثلاثين ألف مقاتل فنزل بساحل سوسة فأخرج اليه معاوية عبد الله بن الزبير فسار حتى نزل بينه وبين سوسة اثنى عشر ميلا

---

(28) هو معاوية بن حقبة بن قنبر ابو النعيم الكندي ثم السكوتي (. . . 52 هـ . . . 672 م) صحابي أمير كان في صفين الى جانب معاوية . ولاه معاوية بن ابي سفيان الجيش المجهز لمصر وكان الوالي عليها محمد بن ابي بكر الصديق من قبل علي بن ابي طالب فقتل محمدا وأخذ بيعه مصر لمعاوية ثم ولى مصر ليزيد ، غزا الغرب مرارا اخرها سنة 50 هـ استولى على صقلية وفتح بنزرت واعيد الى ولاية مصر وعزل عنها سنة 51 هـ وتوفي بها (انظر الاصابة الترجمة رقم 8064 والاعلام ج 7 ص 260 ومعالم الايمان ص 113 وفيه تصحيحات لتواريخ غزواته افريقية) .

(29) الخليفة الاموى الاول ولد خلال العقد الاول من القرن المسيحي السابع وتوفي سنة 60 هـ أفريل 680 م بدمشق (انظر الاصابة ج 3 ص 433 الترجمة رقم 8067) .

(30) أبو عبد الرحمان عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي « أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم في (10 قبل الهجرة 613 م/73 هـ 692 م) انظر الاصابة الترجمة رقم 4825 والاعيان ج 3 ص 28 ومعالم الايمان ج 1 ص 70 فيه انه غزا افريقية مرتين وكانت الثانية مع معاوية سنة 34 .

(31) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الاسدي 1 هـ 622 م/73 هـ 692 م انظر الاصابة الترجمة رقم 370 والاعيان ج ص 71 والاعلام ج 4 ص 87 ومعالم الايمان ص 93 .

(32) ورد في المخطوط عبد الملك بن مروان وهو خطأ .

(32 مكرر) أبو عبد الملك مروان بن الحكم بن أبي العاصي القرشي الاموي (2 هـ/65 هـ) شهد فتح افريقية ، بويع له بالخلافة في رجب سنة 64 هـ (أنظر معالم الايمان ج 1 ص : 133) .

(33) يحي بن أبي محكم .

(34) بطريق تعريب لكلمة Patricius اللاتينية و Patriciatus - dignitus هي لقب شرفي أحدثه الامبراطور قسطنطين 306 م - 337 م وهو لا يرتبط بوظيف ما وانما يقدم مكافأة على خدمات تُقدّم للامبراطورية الرومانية وقد حمله بعض العرب قبل الاسلام مثل الحارث ابن جبله الغساني وابنه المنذر الا ان هذا اللقب بعد أن أصبح المسلمون فاتحين للبلدان الرومية أصبح يطلق على القائد الاعلى البيزنطي الى جانب سردغوس ودمستق ودوقس (أنظر N.E.I ج 1 ص : 1287) .

فلما بلغ ذلك البطريق (35) أقلع في البحر منهزما ولما أقبل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ونزل بباب سوسة وصلّى بالمسلمين صلاة العصر تعجّب الكفّار من جرأته فخرجوا اليه غيلا فلما أنهى (35 مكرر) الصلاة ركب وحمل بمن معه على الروم فهزموا ثم انتقل فحاصر جلولا وهي (. . .) قريب من القيروان على أربعة وعشرين ميلا من القيروان مدينة قديمة مبنية بالصخور فيها عين كبيرة كثيرة المياه بها شجر الياسمين بكثرة وعسلها يضرب به المثل وفيها قصب السكر فقاتل أهلها وأخذهم وفتحها الله على المسلمين وفي هاته الوقيعة ماتت ابنة عبد الله بن عمر (36) ودفنت بالقيروان بمحل يسمى بمقبرة قريش كذا في ابن الشباط قلت وسوسة الان على غاية الاحكام والاتقان وأهلها من الحاضرة وبلاد متجر ومن أعيان المدن بافريقية ولا زالت صناعة الحاكة بها متقنة وهي غالب صنائعهم ولهم سوق لذلك عند العصر مشهور حتى في الكتب ففي المعيار (37) فتوى عن بعضهم لا يوجه القاضي عونه عند العصر لاهل سوسة لاجل سوقهم فلتراجع (38) والان هذا السوق لم يبق مثل ما كان لكثرة الثياب الرومية الوافدة من بلاد النصارى التي هي أقل سعرا فوقع الكساد بحاكة سوسة والحمامات ونابل من أجل هذا (38) .

وبها قاض ومفاة ولها عامل له رتبة في الولاية السياسية وأمّا جلولا فرأيتها ، لم يبق منها الا العين الكبيرة أمر عظيم والان عليها ظل أشجار عريش وتين وأشجار كبيرة لاَ ثمرة بها وبنوا حيها ما يدل/على الاصل القديم [6]

---

(35) في ورقات ص : 19 عن أبي عبيد البكرى باسناده في المسالك والممالك طبعة باريس 1911 ص : 34 ان هذا البطريق يسمى نقفور . ويضيف ح ح عبد الوهاب ان هذه الوقيعة كانت سنة 34 هـ - 654 م) .

(35 مكرر) أنهى الالف ساقطة في المخطوط .

(36) ذكر في معالم الايمان انها توفيت له لما قدم مع معاوية بن حديج وصحّح ابن ناجي تاريخ الغزوة فجعل فتح جلولا في خلافة عبد الملك بن مروان بينما موت بنت عبد الله بن عمر كانت سنة 34 هـ (أنظر معالم الايمان ج 1 ص : 73 و ص : 114) .

من الصخر والاثار وهي قريبة من جبل وسلات وتنتسب أهالي جلولا (39) اليه وترجمة جبل وسلات معروفة وكان عامرا بأخلّاء المقدس على باي . كما ذكر في تاريخ الشيخ ابن عبد العزيز (40) وأقمنا بسوسة ثمانية أيام وصلى الجمعة مولانا أيده الله بجامعها الكبير .

ثم ارتحلنا منها فحللنا من الغد بالمنستير قال في كتاب التقويم : « بضم الميم وفتح النون ، موضع بين المهدية وسوسة من أرض افريقية بينه وبين كل واحدة منها مرحلة » (41) وهي رباط عظيم ومحل مبارك قديم ينقل الناس فيه أحاديث منها : « المنستير باب من أبواب الجنة » ذكره ابن التلمساني (42) في حواشي الشفاء (43) والاحاديث الواردة في ذلك لا تخلو من وهن ثم انها الان مدينة لها سور وأهلها لا بأس بهم ، كثيرة الخيرات والبساتين والمنتهزات ، منها محل يقال له صقانس رياض قريبة من البحر ، رمال بها أشجار التفاح الذي لا نظير له أبدا في الدنيا والبحر بنواحيها ، كثيرة الانشراح ، طيبة متجر أهلها

(37) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب تأليف أبي العبّاس أحمد بن يحي الونشريسي المتوفي بفاس سنة 914 هـ ، أخرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي ، نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المملكة المغربية 1401 هـ/1981 م .

(38) وردت هذه المسألة في الصفحة 242 ج 10 « وسئل عما جرت به عادة أهل سوسة . . . » .

(39) نلاحظ فهم الرجل أسباب ظاهرة الكساد ولكن لا نلاحظ رد فعل .

(39) ذكرها ابن الشباط في شرح الشقراطسية ونقل عنه ما كتبه صاحب الحلل السندسية وخصص لها عنوانا : مدينة جلولا ج 1 ص : 854 .

(40) أبو محمد حمودة بن عبد العزيز ولد بتونس وبها توفي سنة 1202/1775 وتاريخه هو التاريخ الباشي . أنظر الاتحاف ج 8 .

(41) تقويم البلدان ص : 126 ورد في المخطوط تغيير يفسد المعنى اذ جاء : « . . . بين كل واحد والاخر مرحلة » . فيتساوى ما بين سوسة والمهدية مع ما بين المنستير وكل واحدة منها . وفي ما عدا ذلك يتطابق النصّان .

(42) عبد الله محمد بن علي بن ابي شريف التلمساني الحسني فقيه مالكي توفي سنة 921 (أنظر شجرة النور الزكية ص 276 الترجمة رقم 1032 جعله صاحب شجرة النور في فرع فاس) .

(43) المقصود شرحه المسمى المنهل الاصفى (أنظر شجرة النور ترجمة التلمساني) وهو شرح المؤلف القاضي عياض .

الزيت لها زيتون كثير بها قاض ومفت وعامل يخصها ، بها ضريح الشيخ الامام المازري (44) وضريح الشيخ المُرجّح الامام ابن يونس (45) وعدة أفاضل ومقبرة أهل جهاد ولها فضل معلوم من أجل مدى الساحل مكانة ومنظرا وسوسة أكبر منها وأتقن بناء وأغنى رجالا . والشيخ المازري هذا تلميذ الامام عبد الحميد الصايغ (45) دفين سوسة رضي الله عنهم .

ولقد احتفل مولانا يوم دخول سوسة غاية الاحتفال دخلها في موكب لم يسبق اليه ودخل المنستير على أكمل هيئة ونزلنا خارج البلد بالمحلة فأقام ثلاثة أيام ثم ارتحل للمهدية . قال في كتاب تقويم البلدان : « المهدية مدينة شرقي سوسة أحدثها المهدى عبيد الله (47) أول [الخلفاء] الفاطميين وجعلها كرسي مملكته بافريقية وهي على طرف داخل في البحر كهيئة كفّ [متصل] بزند والبحر محيط بها الا من جهة المدخل اليها وهو مكان ضيق فهي مثل مدينة [7] / سبتة وهي غربي مدينة صفاقس في حصنها سور شاهقق في الهواء بالحجر الابيض . كان ابتدأ بناءها سنة 303 ثلاث وثلاثمائة من الهجرة وبنى بها قصورا مشرفة على البحر وبنى الناس بها حتى صارت من أجل الامصار (48) [وطولها 35 درجة ينقص عشرين دقيقة وعرضها 32 درجة مع التحرير]

---

(44) محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري نسبة الى مازرة مدينة بجزيرة صقلية ويعرف بالامام (أبو عبد الله) محدث حافظ فقيه أصولي متكلم اديب ولد بمدينة المهدية وبها توفي سنة 453 ـ 536/1061 ـ 1141 .

(45) أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي أخذ عن علماء صقلية والقيروان توفي في ربيع الاول سنة 451 هـ بالمنستير .

(46) عبد الحميد الصايغ فقيه مالكي من أبناء القيروان انتقل الى المهدية ثم سوسة وبها توفي سنة 486 هـ/1093 م (ورقات ج 3 ص : 60) .

(47) المهدي الفاطمي (259 هـ 873 م/322 هـ 934 م) . عبد الله بن محمد بن الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد بن المكتوم الفاطمي العلوي من ولد جعفر الصادق مـؤسس دولة العلويين بالمغرب (الاعلام ج 4 ص : 197) .

(48) تقويم البلدان ص : 144 ـ 145 . سقطت من نص المخطوط كلمة « متصل » .

(49) قلت والان وقع بها بعض اندراس ومد الخراب لها يديه وبها معالم تدل على أصلها المتين وأهلها أهلُ متجر في الزيت والزيتون ، طيبة الهواء حسنة الثمار جدا لطيفة ، في كتاب الحسبة للعقباني (50) ، ان حاكم المهدية نقل الحجر الاسود من الكعبة الى المهدية فمات فدفن فلفظته الارض فردوه فلفظته الارض ولا زال كذلك لم تقبله الارض حتى ردوا الحجر لمحله فاستقر في الارض وكان جبارا عنيدا لا رحمه الله .

ولما استقر مولانا بالمهدية ظهر له من الرأي تدبير هو ان يرتب على زيتون الساحل قانونا (51) معينا قدّره على الاصول بحسب مكانتها على ترتيب ستعمله من الامر الذي كتبه ودعاه لذلك بأمينه كاتبه على لسانه بذلك الظهير من أنّ الذي ينوب في استخلاص الاعشار من الناس يفعل من الظلم وتطفيف الكيل ما لا يسعه قول قائل ويلجىء الناس الى السرقة وعدم الانصاف فلا يخلص رب المال من العشر الذي فرض الله عليه ولا ينتفع بيت المال بما أعد اليه فاقتضى الاجتهاد اراحة الناس من المظالم واراحة النواب من ذلك بعد ان نظر فيما يتعلق بذلك بين نسبة اداء العشر او القانون وحسب الحالتين ورتب ما لا يضرّ بالجانبين وزاد ابقاه الله ان تبرع عليهم باسقاط ما كان مرتبا ولازما لهم من اداء مخزني سابق كما ستطلع عليه بالامر . وأمر كاتب انشائه وعين بلغائه إمام البلاغة في زمانه (والفريد بصناعة الانشاء بين أقرانه) صاحبنا الا جل ابا

---

(49) نفس المصدر ص : 28 . هذه الاحداثيات من التقويم لتعذر قراءتها في المخطوط .

(50) أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني التوجيبي التلمساني ولد بتلسمان سنة 720 هـ وتوفي سنة 811 . انظر فهرست الرصاع ابي عبد الله محمد الانصارى ص : 115 الهامش رقم 2 . وشجة النور الزكية ص 251 الترجمة رقم 904 .

(51) في الاتحاف ذكر ابن ابي الضياف ان هذا القانون اقترحه قابض أموال الدولة اليهودي يوسف بيشي ووافقه على ذلك بعض الوزراء (الاتحاف تحقيق الاستاذ احمد عبد السلام ج 3 ص : 76 ـ 77 .

8] العباس ابن [أبي] الضياف (52) فأجاد وافاد/وابدع فيما قرأ على رؤوس الاشهاد وقيل في شأنه غيره يكتب كما يريد وهو يكتب كما يراد فانه بعد ان كتب باعلاه ، قبيل الحمد لله ، ما نصه « عشر الزيت قانونا (53) [الصاع والبلبة] والمطالب الراجعة لدار الباشا العشرة ريالات التي كانت مرتبة على كل ماشية والضيفه للقائد أو خليفته أو الشيخ . القيام بالسارد والوارد من الضيوف ومخازنية وغيرهم العقوبة بالمال وهي المسماة بالخطية » . ثم كتب تحته ما نصه : « سبحان من أناط العمران بسياسة العباد ، ونوَّع أحكامه فيهم حسب (53 مكرر) ما أراد ، وغير بتغيير أحوالهم قضايا الاجتهاد ، لم يوقفها على الف ولا اعتياد ، ربط بالعدل الصالح والسداد ، أحمده حمدا يستغرق الحصر والاعداد ، وأصلي على سيدنا محمد الهادي الى سبيل الرشاد ، مَنْ اليه المفزع وعليه الاعتماد ، في هذه الدنيا و (في) يوم الميعاد (54) لسائر المخلوقات من جموع وآحاد ، وعلى آله وأصحابه السادة الامجاد ، أركان الاسناد ، القائمين بمصالح أمّته في كل بلاد ، مادامت الآماد .

أما بعد فهذا ظهير وثيق البنيان ، ينتج ان شاء الله الخير والعمران . ويبقى نفعه على مر الا زمان ، بني على التسوية بين الامة أساسه ، وزكت بالعدل فصوله وأجناسه ، صدر الى كل من يقف عليه ، ويتدبر ما لديه ، من كافة أهل سوسة على اختلاف أصنافهم ، وتباين خططهم وأوصافهم ، وعامتهم وأشرافهم ، وكذا أهل المنستير والمهدية .

---

(52) أحمد بن أبي الضياف 1802 ـ 1803 . . 1803 انظر ما سجله في ترجمته الدكتور أحمد عبد السلام في تحقيقه للاتحاف وفي Les Historiens tunisiens des XVII, XVIII et XIX siècles وفي حوليات الجامعة التونسية العدد الخامس سنة 1968 وتعليق الاستاذ احمد عبد السلام الوارد في الحوليات العدد السادس سنة 1969 .

(53) الموضوع بين معقفين في نص القانون هي تصحيحات مطابقة لنص القانون الوارد في الاتحاف ص 80 . وقد حققه الدكتور أحمد عبد السلام على ست نسخ .

(53 مكرر) في الاصل على حسب .

(54) « التنادي » في الاتحاف . تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام .

لما خرجنا في مصالح الرعية وراعينا حفظ اموالهم ، وتفقدنا حال أعمالهم وعمالهم ، ورأينا أكثر الاداء مرتبا على الذوات ، وعدم الانصاف في المساواة وما رتب منه على الكسب ، معروض للخيانة والغصْب ، لما في طبع الانسان من الميل الى الرغبة والعدوان وقلة العدالة وضعف الامان ، وهو
[9] السبب فيما يعتري الخلق من النقصان ، وان صلح هذا الترتيب/بالاول، وجرى به العمل ، لمن تقدمنا من الدول ، فان الاحكام تدور مع العلل ، وتختلف باختلاف العمل ، وان اشرف الامور ما جرى على زوال الحيف [و] أوجب تجديد العمل فلذلك اقتضى نظرنا الحكم باسقاط الفصول السبعة [المرقومة] (56) اعلاه عن سائر بلدان الساحل اسقاطا تاما (مطلقا عاما) (57) لا استثناء فيه ولا طلب ينافيه اذ بعضه ممنوع لذاته ، وبعضه تعذر القيام بواجب صفاته ، ناهيك ما في عقوبة المال ، من فساد الاعمال ، وما في الاداء على الرقاب ، من البعد عن الصواب ، فتجد الغنيّ في ترف لذّاته ، والفقير يؤدي على وجود ذاته ، اذ لاشيء لديه حتى يحسب الاداء من زكاته ، وكل وقت تناسبه أحكام سياسية فلذلك رتبنا على زيتون الساحل قانونا في مقابلة اما أسقطناه يؤديه مالكه كل عام على كرتين تَل كرة بعد مضي ستة أشهر من أكتوبر سنة التاريخ وقسمناه الى ثلاثة أصناف عال ومتوسط وسافل فالاول يؤدي عوده ريالا (59) واحد عشر ناصريا والمتوسط يؤدي ربع ريال وخمسة نواصر والسافل يؤدي عوده اثنى عشر ناصريا (60) هذا في الذي يثمر أمّا الناشىء الذي لم يبلغ حد الاطعام فان عوده يرسم ولا يؤدي شيئا الا اذا أثمر فيلحق بالصنف الثالث حتى يكون كالصنف الثاني فيلحق به [وهكذا الاول]

(56) ساقطة من المخطوط .
(57) ساقطة من المخطوط .
(59) في المخطوط ريال واحد .
(60) في المخطوط اثنا عشر ناصريّ .

(61) ويؤدي على كل مائة ريال من القانون ريالا ونصفا للقبّاض في مقابلة نقص (عدد الدراهم) (62) وان تلدد أحد المالكين في دفع القانون حتى لزمه الغصْب بالتعيين فانه يؤدي نصف [ريال] (63) خدمة [على كل عشرة ريالات] (64) [هذا اذا كان التعيين من حضرتنا] (65) أما اذا كان من القايد فانه يؤدي ربع ريال على العشرة لا زائد على ذلك ومن لا زيتون عنده فلا قانون عليه وأداء الانسان على حسب ما لديه كفى الضعيف القيام بسد خلته ومعاناة معيشته . ومصلحة هذه السياسة أوضح من الصبح ، غنيّة عن الشرح ، لا يدخلها تطفيف ، ولا (يعتريها) (66) حيف ، ولا تمييز مشروف
10] عن شريف/سوينا في ذلك بين صغيرهم وكبيرهم، وجليلهم وحقيرهم، وأزلنا الفرق بيْن المحرر والرعية ، فالكل عيال الله ولهم حرمة مرعية بفضلـ [ـه] (67) استرعانا جماعتهم ، ووهب لنا طاعتهم ، وأرانا استطاعتهم ، وحرم علينا اضاعتهم ، بما نأخذه منهم ندفعه في مصالحهم عنهم والله يصلح أحوال العباد بفضله ومنته ويجازينا عن نيتنا يوم يسأل كل راع عن رعيته فاقرؤوا هذا الرقيم على جمعكم حتى يتقرر في قلبكم وسمعكم واحفظوه في جامع صلاتكم يبقى لكم حجة على سهل هذه المحجة والله يحكم لا معقب لحكمه والسلام من الفقير الى ربه تعالى أحمد باشا باي وفقه الله تعالى .

---

(61) غير موجودة في نص الاتحاف.

(62) في المخطوط : العدد .

(63) ساقطة من المخطوط .

(64) ساقطة من المخطوط .

(65) في المخطوط : « الا اذا كان التعيين من حاضرتنا » .

(66) غير موجودة في نص الاتحاف .

(67) ساقطة من المخطوط .

(وكتب) (68) في رابع جمادى الاولى من سنة 1256 ستة وخمسين ومائتين وألف (السبت 4 جويلية 1840 م) .

وكتب من هذا الظهير نظائر [الى] (69)بلدان الساحل وحين تم كتبه أرسله اليّ مولانا أيده الله أنْظُرُهُ لانه اعجبه غاية الاعجاب فلما حل بيدي كتبت في الحين ارتجالا (البسيط) :

إهْنَأْ بِذِكْرٍ بَدَا فِي الخَلْقِ مُنْتَشِرًا ... وَحُزْتَ مَا لَمْ تَدَعْ مِنْ بَعْدِهِ طَلَبَا
سُسْتَ الرَّعِيَّةَ فِي مَعْنَى رِيَاسَتِهَا ... أَحْرَزْتَ مِنْ شَأْنِهَا بَيْنَ الوَرَى أَرَبَا
أَسْقَطْتَ حَيْفًا وَقَوَّنْتَ الأُمُورَ عَلَى ... رَأْيٍ غَدَا بَيْنَ أَرْبَابِ الحِجَا عَجَبَا
هَذِى السِّيَاسَةُ مَنْ يَبْغِي الجِدَالَ لَهَا ... قَدْ رَاحَ يُسْدِلُ عَنْ شَمْسِ الهُدَى حُجُبَا
أَظْهَرْتَ هَذَا الظَهِيرِ الذْ بِهِ إِبْتَهَجَتْ ... أَهْلُ المَمَالِكِ فِيمَا قَدْ مَشَى عَجَبَا
مَا مِثْلَ رَأْيِكَ رَأْىُ سَيْفِ دَوْلَتِهِمْ (70) ... وَلَا كَكَاتِبِكَ الصَّابِي إِذَا كَتَبَا
فَانْسَخْ بِمُنْشِيكَ هَذَا فَخْرَ أَنْدَلُسٍ / ... بِابْنِ الخَطِيبِ (71) إِذَا مَا خَطَ أَوْ كَتَبَا [11]
لَا زِلْتَ شَمْسًا بِنُورِ السَّعْدِ طَالِعَةً ... فِي شَرْقِهَا كُلُّ بَاغٍ حَاسِدٍ غَرَبَا

وأرسلت ذلك اليه في الحين فأعجبه ثم أن مولانا أيده الله تعالى أرسل لعامة فقهاء الساحل سوسة والمنستير والمهدية ووفدت فقهاء صفاقس ونزل جميعهم عندي فلما علم ذلك المولى أيده الله أرسل اليّ هدية عظيمة الشأن تشتمل على المآكل العظيمة السكرية الملوحية وأرسل اليّ بصندوق موشى بالفضة مُلء عطرا من جميع الاجناس الرفيعة وحكة ذهبا كانت من خواص

---

(68) ساقطة من المخطوط .
(69) ساقطة من المخطوط .
(70) يشير الى سيف الدولة الحمداني (303 ـ 915 ـ 356/916 ـ 967) .
(71) ابن الخطيب (25 رجب 15/713 نوفمبر 1313) الشاعر الأديب الأندلسي المشهور .

والده المقدس سيدي مصطفى (72) أعزه الله وقال لي رسوله على لسانه هذه حكة والدي اخترتك اليها لقرابتك مني فلم يكن عندي شيء أعظم من هذا الامر وهو اعطاؤه لي حكة والده وكان هذا الامر بمحضر اولئك الفقهاء فكان فيه من التعظيم ما نسأل الله أن يجازيه عنّا أحسن الجزاء زيادة عما أكرمني به غاية الاكرام وأولانيه من المبرة والاكرام ، ووظفني (73) بزاوية الشيخ سيدي أبي سعيد الباجي (74) وأعطاني ريالا يومية ببيت المال أما الخيل والسروج واللباس لا أعدُّه ، وكم اعطاني من الفضل ما ليس الا بالدعاء أرده ، ولقد وقع لي أنه لدغتني عقرب فأتاني بذاته يعودني وجلس بمحلي عشية أما أقاربه ووزراؤه فمرارا أتوني ، وبما أروم من الاشياء حبوني ، والحاصل أن مثله من ملك تخدمه الرجال ، وتبيع في خدمته الابدان والاولاد والاموال ، لا عدمناه .

وجرى (75) الكلام على فضله وكرمه من فضله الكثير وكرمه الغزير أعطاني دارا بسيدي أبي سعيد وأصلها من ديار الباليك وبناؤها بناء الملوك ضخامة واتساعا ووقع بها الخراب فملّكني اياها ، وأعطاني بناءها ، وآلة مرمتها بما لا يظن أحد ذلك ، وأرسل الي وزيره الاكمل المسمى بابنه زيادة في
[1] الافتخار الاسعد أبا النخبة مصطفى خزندار (76)/ولو أني بقيت دهرى أعد

(72) مصطفى بن حسين تاسع بايات تونس حكم من 1835 م الى 1837 م .
(73) في المخطوط وضّفني .
(74) أبو سعيد الباجي (551 هـ ـ 1156 م/628 هـ ـ 1230 م) خلف ابن يحي التميمي الباجي نسبة الى باجة القديمة من أحواز تونس العاصمة قرب منوبة ، متصرف . (انظر الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ص 225) .
(75) في المخطوط جرا .
(76) مملوك يوناني الاصل بيع مرتين الاولى بالقسطنطينية والثانية بتونس تولى الوزارة لبايات تونس من سنة 1939 الى سنة 1973 (أنظر زعماء الاصلاح ص 152) .

خصاله الحميدة ، ومآثره المجيدة ، وعطاياه الملوكية لما وفيت فيه ، بابداء حق ذويه ، نسأل الله له البقاء ، والعيش الارغد الى يوم اللقاء . آمين .

ثم ارتحلنا وبتنا بمحل يقال له الشابة والصبية بليدة على شاطىء البحر بها أرض بها سبخة وبها بعض أجنة بمقربة من الديار وبحرها في غاية الصفاء يزعم أهل ذلك المحل أنه مجرّب يدفع الأوهام (77) اذا نام به شخص في ذلك العام كله وبحرها به المد والجزر ويبتدىء هذا الجزر والمد من المنستير الى قابس من محل يقال له برج خديجة بقرب المهدية من عمل المنستير الى قابس يزيد أصله من نصف النهار الى نصف الليل ومن نصف الليل ينقص بحيث ان السفينة اذا دخلت ليلا وطلع النهار تبقى في البر يذهب الناس لها على التراب .

قال في تقويم البلدان : قال الادريسي (78) المد والجزر (79) في البحر يقع ببحر الظلمات وبالبحر الشرقي الخارج من طنجة وسبتة وهو بحر الروم ويسمى هذا البحر بالزقاق وكان ساعات الزقيق في القديم من بر العدوة الى بر الاندلس عشرة أميال والآن تسعة (80) . قال وهذا المد رأيناه في بحر الظلمات الغربي يمتد في الساعة الثالثة من النهار الى أول الساعة التاسعة ثم يأخذ في الجزر ست ساعات مع آخر النهار ثم يمتد ست ساعات ثم يجزر كذلك ، فيمتد في اليوم مرة وفي الليل مرة قال وسببه أن الريح تهيج في هذا البحر في أول الساعة الثالثة وكلما طلعت الشمس كان المد مع زيادة الريح

---

(77) غامضة في الأصل .

(78) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ينتهي نسبة الى علي بن أبي طالب فهو علوى ولذا لقب بالرشيف ولقب بالادريسي نسبة الى جده الاعلى ولقب أيضا بالشريف الصقلي لاقامته مدة طويلة عند ملكها روجر الثاني وقد ولد الادريسي بسبتة المغربية سنة 493 هـ/1100 م وتوفي سنة 560 هـ/1166 م اشتهر بكتابه « نزهة المشتاق وقد ألفه بطلب من روجر 2 وهو في الجغرافيا (انظر الوافي بالوفيات ج 1 ص 163) .

(79) في المخطوط : الزجرْ وتواتر استعمالها بهذه الصيغة .

(80) في المخطوط : تسع .

وينقص مع ميل الشمس للغروب وكذلك في الليل يهيج في أوله وينقص في آخره. قال : وزيادة الماء ليلة ثلاث عشرة (81) الى الليلة السادسة عشرة ويصل الماء الى أمكنة لا يصل اليها الا في مثل تلك الليالي وهذا أمر مشاهد عند أهل المغرب (82) انتهى .

قلت وهذا كذلك عندنا ويعبّر عنه بالقصير وأهل هذا المحل قالوا من الخامس والعشرين من الشهر الى خمسة من الذي بعده يقال [لها] (83)
13] أموات / يقل الماء ويقع الجزر والمد مرتين مرة في الليل ومرة في النهار والماء مع هذا قليل وفي أيام الحياة يزيد مرتين في النهار ما بين الصباح والعشي وينقص مرتين وكذلك في الليل يقع الجزر والمد مرتين ، ومن العجيب أن هذا المحل الذي يقع به الجزر والمد في بعض الاماكن مثل جربة تجد زقاقا كبيرا بحره لا جزر فيه ولا مد والذي أمامه والذي خلفه فيه الجزر والمد ، سبحان المدير الحكيم وما ذكره الادريسي في النزهة (84) من التعليل لهيجان الريح غير ظاهر لما ذكرنا فان هذا الزقاق الذي بين المحلين حقه اذا هاجت الريح في الذي بجنبيه وفعلت ذلك يكون هو كذلك والمشاهد خلافه ، [و] (85) الله أعلم .

ثم ارتحلنا وبتنا بمحل يقال له حزق ثم الى موضع يقال له غار مسعود بن مسعاد ثم ارتحلنا معه الى مدينة صفاقس ودخلنا [ها] صبيحة الاثنين ضحى الثامن والعشرين من أولى الجمادين سنة 1256 .

---

(81) في المخطوط ثلاثة عشر .

(82) منقول بتصرف في اللفظ من تقويم البلدان ص 126 .

(83) في المخطوط لهم .

(84) نزهة المشتاق : سماه الصلاح الصفدى في الوافي بالوفيات « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » وطبع أول مرة بروما تحت عنوان : « نزهة المشتاق » في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدن والافاق « كما عرف بكتاب رجار أو الكتاب الرجاري وقد أتم الادريسي تأليفه سنة 548 هـ/1153 م (أنظر الوافي بالوفيات ج 1 ص 163) .

(85) الواو غير موجودة بالمخطوط .

وهاته المدينة شرقي المهدية بميل الى الجنوب لها سور وآبار يشرب منها أهلها وبساتين كثيرة جدا وهي في مستو (86) من الارض من جنوبيِّها الجبل الذي بينها وبين قفصة على نصف مرحلة المسمى بجبل السَّبَع بفتح السين والباء .

وفي القاموس « صفاقس بلد بافريقية على شاطىء البحر شربهم من الآبار » انتهى . بها أسواق وحمامات وفنادق ورحبة ولها مرسى منشرحة حسنة ، أهلها أهل متجر ودين وعفة ، لهم محافظة على الصلوات الامر العظيم [. . .] لدى امام الجامع الكبير ، وأهل البلاد في شأن التبكير ، للجمعة والتهجير ، وفي آذان آخر الليل وفي الحسبة فيه . وهذا لم نره في غيرها أصلا] وهم أهل اكرام للضيف مع أنهم في ما عدا (87) الامر اللازم أشد الناس مماسكة في البيع والشراء والبخل ، لهم همة في جمع المال مع دين متين في المتاجر . اتفق لي أن أوليت بها فقيها ولاية الفتيا وولده وظيف (88) الشهادة وكذا أخوه وكان هذا الاخ تاجرا فاشتريت منه منديلا لأنهم أهل صناعته فأبي
أن يحط من الثمن شيئا مثل / عادة التجار في البيع وأكرمني ضيافة مأكلا أما [14]
المتجر وعلائقه فلا تحرك به لسانك وكل ما تراءى لدي منهم ما رأيت في أحد الخصمين ، [. . . . .] اذا توجهت يمين على أحدهم ترك النزاع له أو عليه والحاصل أنهم أناس قريبون من الشرع جدا لهم تصب في الاسماك وهو غالب فاكهتهم ويأكلون الشعير بكثرة عن عادة وشهية لا عن قلة ، كثير عندهم اللوز والفستق والتفاح والى تونس يجلب الفستق واللوز وكذلك يحسن عندهم البطيخ الاخضر المعروف بالدلاع .

---

(86) في المخطوط في مستوى .
(87) في المخطوط ما عدى .
(88) في المخطوط : وضيف .

ولما دخلها مولانا أيده الله احتفل احتفالا كبيرا لم أر مثل ذلك اليوم ولقدحصل لي الخشوع بكثرة وصرت أقول : الله أكبر من كل كبير الملك لله الواحد القهار وذلك أن خارج البلاد اتساع كبير من الارض اصطف بها العسكر النظامي شاهرا السيوف وكل جماعة أمامها الالة المعروفة بالطنبور وأهل الخيل باعلامهم منشورة ، وجماعة مولانا يمينه وشكاله مسطورة ، وهو يمشي بينهم كالبدر بين النجوم ، والخيل صاهلة ودخان المدافع مركوم ، والناس على اختلافهم صفوفا ، تعدهم ألوفا ، على لسان واحد يدعون بالنصر ، والنساء تولول بلا حصر ، فما رأت عيني مثل ذلك وهذا الملك القيوم على مثله تنافس الملوك ، ولا تحسد الغزالة حقيقة إلا على وقت الدّلوك .

فانخنا مطي الرحيل، وتفيأنا بظل ذلك الظل الظليل (90) وأقمنا أياما، نراها في النزاهة (هكذا) احلاما ، زرنا بها مقام الامام الفاضل شيخ المالكية الامام اللخمي (91) وصلينا بجامعه وهو خارج البلاد بمقبرة .

ثم بعد أيام حان لمولانا الرحيل فأما ما كان من المحلة فتوجهت على طريق البر لقابس وأما ما كان من مولانا وخواصه فركبوا البحر وكنت ممن ركب البحر فاقمنا ليلتين ويوما ووصلنا قابس التي لا جلها كان السفر فوجدنا المحلة وصلت لانها سبقت من صفاقس وتأخرنا حتى وصلت فنزلنا بها ضحى على شاطىء البحر بمستو من الارض من رمل وهي بكسر/الباء قال في القاموس [15]
« قابس كناصر بلد بالمغرب بين طرابلس وصفاقس » انتهى . وفي كتاب تقويم البلدان : « قابس بافريقة كدمشق في الشام ينزل اليها نهران من الجبل في جنوبها [. . .] وخصت في افريقية بالموز وحَب العزيز والحناء ، على ثلاثة

---

(90) في المخطوط : الضل الضليل .

(91) أبو الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي ولد بالقيروان ومنها انتقل ال صفاقس ايام الزحف الهلالي وبها توفي سنة (478 هـ/1085 م) . مالكي (أنظر ورقات ج 3 ص 59 والحلل ج 2 ص ص 336 ـ 337) .

أميال من البحر تدخل المراكب المتوسطة في نهرها شرقي صفاقس وجوبيها عليها سور وخندق وبينها وبين غدامس أربع عشرة مرحلة من اقليم المغرب (92) .

وفي ابن الشباط عن « اقتباس الانوار » (93) « قابس مدينة جليلة ذات سور وحصون من بناء الاول ، فيها التّوت بكثرة والحرير كثير بها جدا والحناء ماؤها كثير ينساب من عين في جبل بين القبلة والمغرب وبها منارة كبيرة وساحلها مرسى للسفن » انتهى . قلت، الآن ليس كما وصف بل الموجود الحناء والموز والياسمين والتمر وكله حسن جدا وبها يعظم البطيخ . اتفق أني وزنت واحدة فاذا بها سبعة وخمسون رطلا وهي أرض وخيمة موحشة ومعالمها دائرة ، لكنها بكثرة السكان عامرة ، أهلها غالبهم أعراب وأهل مال ووبر ، والنهر باق كما ذكر ، وليس لها وصف حسن سوى مجاورة سيدي رفاعة ابن المنذر المكني بأبي البابة (94) الصحابي المشهور وان أنكر بعض الناس ذلك لكن شهره ابن ناجي (95) في معالم الايمان (96) وقواه بالتواتر القاطع وحين زرته رأيت

---

(92) منقول بتصرف عن تقويم البلدان ص : 143 .

(93) هو كتاب اقتباس الانوار والتماس الازهار في انساب الصحابة ورواة الاثار لابي محمد عبد الله بن علي اللخمي الشهير بالرشاطي توفي سنة 466 هـ ، من كتب الانساب . أنظر كشف الظنون ج 1 ص : 134 .

(94) أبو لبابة بن عبد المنذر الانصاري مختلف في اسمه فمنهم من سماه بشير ومنهم من سماه رفاعة وقيل مروان روي عن النبي وروي عنه ولداه وعبد الله بن عمر بن الخطاب كما اختلف في مماته فمن يقول مات في خلافة علي ومن يقول مات بعد مقتل عثمان ويقال عاش الى بعد الخمسين (أنظر الاصابة ج 4 ص 168 الترجمة رقم 981 ضمن الكني ذكره صاحب الحلل 349 وفيه « قال التيجاني لم أر أحدا من المؤرخين عد أبا لبابة ممن دخل افريقية » .

(95) ابن ناجي : هو ابو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني فقيه حافظ تعلم بالقيروان وولي القضاء في عدة اماكن من اثاره شرح المدونة والشافي في الفقه وزيادات على معالم الايمان توفي بالقيروان سنة 838 هـ (أنظر شجرة النور الزكية ص 244 الترجمة رقم 878) .

(96) هو معالم الايمان في علماء القيروان المنسوب لعبد الرحمان بن محمد بن عبد الله الانصارى المعروف بالدباغ مع اضافات لابن ناجي (أنظر المؤلف بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بتونس - تحت رقم 508) .

حجرا عند رأسه بخط قديم فيه : هذا قبر رفاعه من المنذر البدرى رضي الله عنه ولم يتعرض له ابن الشباط فيما رأيت .

ولما ألقت المراحل عصاها واستقر بها النوى سأل مولانا عن القاتل لنائب وكيل الربع وهو رجل فارس بطل يقال له ابن محمود وابنه فأخبر أيده الله أنه تحصن بجبل مطماطة وهذا الجبل هو منعة الفجار من أهل الاعراض وحين شقوا العصا اتفقوا على الاجتماع به والمنعة فيه وقد رأى أهل الاعراض وأهل قابس ما عليه مولانا من قوة الجأش وكثرة الجيش دخل الرعب قلوبهم وسقط
[16 / ما في أيديهم من الأمل الكاذب فتفرقت عليهم الكلمة وذهب كل انسان يطلب النجاة لنفسه ويرى كل حين استبدال منزله برمسه . فما لبث أيده الله ان وجه قطعة من المخازنية للجبل فأتوا بالقاتل وابنه (97) عن عجل وأسرعوا بهما ومن معهما محجّلين بقيد الرعب والوجل فحكم عليهم بما حكم به الشرع من قتل القاتل لاخيه المسلم وشاق العصا على الامير ولم يقتل غير من قتل اداء بحق القصاص ، ولو أن جميعهم عاص ، لكنه حرسه الله بعين العناية ، عادتُه الاحتراز من قتل الانفس إلا بالشرع ، فهذا منه أعزه الله غاية الحزم ونهاية الحلم . ولكنه زجر البقية من الناس غاية الزجر وعلموا معنى القدرة ثم العفو والحلم بعد الظفر ووجّه نظره لاصلاح ما بين القبائل وردّ ما أخذه الطاغي على صاحبه وكانت الفرقة الطاغية الهمامة ولا سيما أولاد عزيز فخد منهم فأرسل اليهم ، فأبوا فبعث لهم طليعة من الجيش فأخذوهم أشد أخذ وثأروا منهم بالثأر القديم وتركوهم صرعى ، ونهبوهم جمعا فطابت الرعية ، وسكنت الشوكة البدوية ، ونادى منادى العدل بالامان لمن كان على المنهج المستقيم وانبلج صبح العافية عن ليل الحرب البهيم فرد مولانا من المتعدى على المتعدى

---

(97) صمت ابن سلامة عن نقطة تفصيلية ذكرها ابن ابي الضياف وهي ان الباي اتته جموع الاعراض للسلام عليه ولما بلغ جمع مطماطة سجنهم وهددهم بالقتل ان لم يسلموا المتمردين المعتصمين بجبلهم .

عليه وأنصف المظلوم ممن ظلمه وهمّ أعزه الله بالسفر لجربه ليراها ويعرفها حيث قرب منها فأمر المحلة بالرجوع لصفاقس وركب وخاصته لجربة بحرا فسافرنا ليلتين لفساد الريح ودخلناها عشية ومن الغد ارتحلنا . وجربة هاته قال في القاموس « جربة بفتح الميم قرية بالغرب » انتهى وفي كتاب تقويم البلدان « جزيرة جربة شرقي صفاقس اذا تجاوزها البحر مشرقا يصير الجانب الجنوبي من البر دخلة في البحر للشرق والشمال حتى يبلغ طرابلس الغرب وتقدم الكلام على البحر الافريقي وما هو من علائقه وقال ابن الشباط لما تآمّر رويقع ابن ثابت على المغرب افتتح جزيرة جربة وذلك في سنة سبع وأربعين وغزاها من طرابلس وانصرف من عامه . قال البكرى (98) في تاريخه : « جزيرة ذات بساتين وزيتون بينها وبين البرّ الطين مجاز اسمها هكذا جربة من قديم » / [17]
انتهى .

قلت وهي كبيرة وديارها بالبساتين وأهلها أهل متجر وغنى بها صناعة البرنس من الصوف المخلط بالحرير أمر لا نظير له مما يهديه ملوك تونس للسلطان العثماني ويرغب فيه ، وبهذا ناهيك مكانة . وغالب تجارة أهلها في ذلك بين اصطنبول ومصر . بها فرق على الاعتقاد الفاسد من زمن قديم يخفون ذلك . وهي مما لها شأن بافريقية بها قبر الشيخ العالم الراسخ حلوس . . . البرزى (99) والشيخ الصالح شيخ مشايخ مشايخنا سيدي ابراهيم الجمني

---

(98) عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد البكري نسبة الى قبيلة بكر (توفي في شوال 437 هـ أكتوبر - نوفمبر 1094 م) والكتاب المشار اليه هو كتاب الممالك والمسالك. انظر أبو عبيد . (N.E.I.

(99) لم نعرف أسمه ولا وجدنا له ترجمة .

(100) قال الشيخ جدى رحمه الله كنّا نقرأ على الشيخ الغرياني (101) في المختصر (102) فختم الكتاب وحضر النّاس وأحسن الشيخ قال فلما فرغنا قلنا له هذا لم يقع لمثلك فضحك وقال يا بني واللهلو حضرتم ختم شيخنا سيدي ابراهيم الجمني لما استعظمتم نفس المختصر أحرى من يدرسه كأني أرى رجلا يقول له في أذنه وهو يتكلّم ، يسكت كالمنصت ثم يقول ما ليس بكتاب . حضر جميع علماء الوقت لم يستطع أحد أن يسأله سؤالا اما الصلاح فذلك آخر الناس والسلام وأخذ جدى البخاري (103) عن الشيخ العزيزي (104) عن الشيخ الجمني عن الشيخ الدسوقي (105) وأنا أخذت عن الجد فلي (106) عن الشيخ محمد الباروني عن الشيخ الجمني وأخذته أنا من هذا الطريق .

(100) أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم الجمني فقيه عالم دخل لمصر ثم زواوة ثم زاوية الحمارنة بقابس واستقر أخيرا في جربة حيث أصبحت له مدرسة وبجربة توفي سنة 1134 هـ وله ابن أخ يسمى باسمه (أنظر شجرة النور الزكية الصفحتين 324 و 346 ، والترجمتين 1266 للجمني الأول و 1368 لابن أخيه) .

(101) أبو عبد الله محمد بن علي الغرياني الطرابلسي التونسي فقيه عالم تلميذ ابراهيم الجمني بجربة وزيتونة بتونس ـ درس المختصر مرات والبخاري وهو أول من تولى التدريس بالسليمانية وقد أسسها علي باشا باسم ابنه سليمان توفي في شوال 1195 (أنظر شجرة النور الزكية ص 349 الترجمة رقم 1387) .

(102) هو مختصر في المذهب المالكي ألفه ضياء الدين أبو المودة خليل ابن اسحاق . امام فقيه مالكي (أنظر شجرة النور الزكية ص : 223 الترجمة رقم 794 .

(103) البخاري هو محمد بن اسماعيل أبو عبد الله جامع الحديث الشهير صاحب الجامع الصحيح (13 شوال 194 هـ 21 جويلية 810/رمضان 256 عـ ـ 31 أوت 870 م) أنظر N.E.I. والمقصود كتابه المعروف بصحيح البخاري .

(104)

(105) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ازهري ولد بدسوق وتوفي بالقاهرة في ربيع الثاني سنة 1230 هـ ورثاه تلميذه الحسن العطار (أنظر شجرة النور الزكية ص 361 الترجمة رقم 1445) .

(106) هكذا في المخطوط ، ولم نفهمها .

ثم من الغد ركبْنَا البحر ورجعنا لصفاقس وفي ذلك يقول صاحبنا البليغ أبو العبّاس الشيخ أحمد ابن أبي الضياف لما أشرف مولانا أيّده الله عليها من مركبه (المجتث) :

صَفَاقُسُ قَدْ تَبدَّتْ   وَلِلأَمِيرِ إِسْتَعَدَّتْ
لَوْ زَادَ عَنْهَا مَغِيبًا   سَارَتْ إِلَيْهِ وَجَدَّتْ

وحين حللناها أعاد كبراؤها المقابلة وأنشد الشعر عنهم مثل مفتيها الفقيه النوازلي أبي العبّاس أحمد الفوراتي (107) مهنيا لي بالقدوم وكانت وقعت بيني وبينه ألفة في المرة الاولى وبعض تساجيل في القريض فأنشدني قوله (الكامل) :

[18] / نُورُ السَّعَادَةِ لاَحَ مِنْ تِلْقَاكَ   فَاهْنَأْ بِهَا إِذْ لَمْ تَزَلْ تَلْقَاكَ
وَآبْشِرْ بِفَضْلِ اللهِ جَلَّ جَلاَلَهُ   وَبِمَا مِنَ الخَيْرَاتِ قَدْ أَوْلاَكَ
يَاذَا السَّعَادَةِ وَالسِّيَادَةِ وَآلْحِجَى (108)   وَآلْفَضْلِ وَالمَذْكُورُ بَعْضُ عُلاَكَ
يَا قُدْوَةَ الأَخْيَارِ يَا مَنْ عَدْلُهُ   وَسِعَ الأَنَامَ وَنَوَّرَ الأَحْلاَكَ
يَا فَخْرَ أَعْلاَمِ القَضَاةِ أُولِي الهُدى   مِمَّنْ يُشَارُ لَهُ بِذَاكَ وَذَاكَ
نَجْلَ الهُمَامِ الطَّيِّبِ الاصل الذِي   هُوَ أَحْمَدُ بِمُحَمَّدٍ سَمَّاكَ
شَيْخِي وَأُسْتَاذِي وَجَدُّكَ سَيِّدِي   أَكْرِمْ بِهِ جَدًا إِلَى عَلْيَاكَ
لَقَبٌ رَفِيعٌ مَجْدُهُ مُتَنَاسِبٌ   مَا بَيْنَ أَهْلِيهِ وَهُمْ آبَاكَ
وَأَتَيْتَ بَدْرًا سَامِيًا قَدْ أَشْرَقَتْ   أَنْوَارُهُ مِنْ هَا هُنَا وَهُنَاكَ

---

(107) لم نعثر على ترجمة لهذا الاسم إلا أننا وجدنا اسما آخر يقاربه في التسمية ومكان الولادة والاقامة وزمن الحياة والمهنة وهذا الشخص هو أبو عبد الله أحمد بن عبد العزيز الفراتي الصفاقسي فقيه مفتي صفاقس توفي في غرة رجب سنة 1275/الجمعة 4 فيفري 1859 م (أنظر الاتحاف ج 8 الترجمة رقم 334 ص : 107) .

(108) في المخطوط الحجا .

مَوْلَايَ يَا ابْنَ سَلَامَةٍ يَاذَا الَّذِي ... قَـدْ عَـطَّرَ الآفَـاقَ طِيبُ ثَنَـاكَ
أَهْلًا بِمَقْدَمِكَ السَّعِيدِ وَمَـرْحَبًا ... شَـرَّفْتَ يَـا مَـوْلَايَ مَنْ لَاقَـاكَ
سُرَّتْ بِطَلْعَتِكَ النُّفُوسُ وَسَارَعَتْ ... لِلِقَـاكَ والـبُشْـرَى لِمَنْ يَـلْقَـاكَ
1 [أَنْتَ الُمهَنى بِـالسَّـلَامَـةِ دَائِـماً / ... وَلَهَـا إِنْتَسَبْتَ بِهَـا يَـدُومُ هَنَـاكَ
هَـذَا وَإِنِّي فِي الـثَّـنَـاءِ مُـقَصِرٌ ... لَا أَسْتَـطِيـعُ وَفَـاءَ حَقِّ عُـلَاكَ
أَنَّى لِمِثْـلِي فِي القُصُورِ إِحَـاطَـةٌ ... بِعُـلَاكَ وَالـرَّحْمَـانُ قَـدْ أَعْـلَاكَ
لَكِـنَّنِي فِي ذا الَمقَـالِ مُعَـوِّلِي ... فِيـمَا أَتَيْتُ بِـهِ عَـلَى إِغْضَـاكَ
لَا زِلْتَ ذَا فَضْـلٍ يُسَامِحُنِي وَإِنْ ... قَصُرَ الَمقَـالُ وَطَـالَ مَجْدُ سَنَـاكَ
دُمْ فِي العُـلَا بَدْرًا مُنِيرًا سَـامِيًا ... كَـيْـمَا نَـسِـيرُ وَنَهْتَـدِي بِهُـدَاكَ
وَبَقِيتَ غَـوْثًا لِـلأَنَـامِ وَمَلْجَـأً ... نَـأْوِي إِلَيْـكَ وَنَحْتَمِي بِحِـمَـاكَ
وَاللَّهُ يَمْنَحُـكَ السَّـلَامَـةَ وَالهَنَـا ... وَبِـلُطْفِـهِ وَبِـحِـفْـظِهِ يَـرْعَـاكَ

وقرضت له بقولي : (البسيط)

أَقْلَامُهُ تَسْحَرُ الأَلْبَابَ قَدْ سَحَرَتْ ... آيَـاتُهَا فَـرَمَتْ لِلْعَقْلِ أَشْـرَاكَـا
أُمُّ الغَـزَالَـةِ بَـانت بِـالظَّهِيـرَةِ أَمْ ... بَـدرٌ أَنَارَ بِـأُفْقِ الجَـوِّ أَحْـلَاكَـا
كَلَّا وَلَكِنَّهُ نَـظْمُ البَلِيغِ أَبِي الْـ ... ـعَبَّاسِ خَيْرُ فَتًى فِي النَّاسِ يَلْقَاكَ
مِنَ الفُـرَاتِ يَـدَاهُ أَخْرَجَتْ دُرَرًا ... لَمْ يَـأمل السَّـابِحُونَ الآنَ أَشْـرَاكَـا
2 [مُفْتِي الأَنَامِ وَرَوْضُ الشِّعْرِ يَانِعَةٌ / ... فَخْـرُ البَيَانِ جَـرِيرُ النَّـاسِ إِدْرَاكَـا
يَـاأَيُّهَا الُمـرْسِـلُ العُـذْرِيُّ تَهْنِيَـةً ... أَدَّيْتَ هَـذَا الهَنَا فَـاللَّه يَـرْعَـاكَ
فَـلَا تَـلُمْنِي فَـالأَسْـفَـارُ مُعْـذِرَةٌ ... لَـكِنَّـمَا الـلَّهُ بِـالإِحْسَـانِ جَـازَاكَ

وأقمنا أياما بصفاقس ثم ارتحلنا قاصدين الرجوع وكانت همة مولانا ارادة المرور على الكاف وباجة فلما أحسّ أهلها بذلك أتوا مسرعين ولأداء حقّ الطاعة مهرولين وللأمر سامعين وطائعين فعزم على الأوبة لتونس على طريق القصر المعروف بقصر أجم الذي هو من عجائب افريقية وأظنه بضم الألف

والجيم لأن في القاموس أجم بالضم الحصن وهو شكلُ حِصْنٍ فيكون مأخوذا من أجم على وزن فرح أو بالفتح على أنه مصدر جَم كعَم محل اجتماع كثرة الماء وهذا مناسب أيضا لانه قيل إنه من بناءات الجاهلية على أنه حصن وقيل إن بانيه قبل الطوفان كان له علم بالنجوم ، فلما رأى الاقتران القاضي بالطوفان بناه وقاية وجعل به برجا يدخل الماء خلالها ويخرج منها وبنى تحته غارا لا يدري منتهاه يقال انه ينتهي الى المهدية من تحت الارض وهذا القصر له درج ينتهي التراقى بها الى بطحاء بها كوّات مشرفة على الارض ثم يلقى درجا آخر يرقى فيلقى مثل ذلك وهكذا حتى [. . .] لغاية اذا رفع الناظر رأسه إليها سقطت عمامته ، محكمٌ ، أصل بنائه بالحجارة المنحوتة وبنواحيه أناس من أهل الساحل لهم مسجد خطبه وهذا المحل قليل الماء جدا وأحدث به الوزير الأسمى الأكبر أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع (109) سبيل ماء تقربا الى الله . وقبح الله أهل ذلك المحل فهم أقل عباد الله وأرذلهم أخفوا ليلة مبيتنا الماء وبخلوا به . وأعجب ما وقع أن الوزير صاحب الطابع المذكور رق لحالهم
[21] من العطش فبنى لهم السبّالة / وأخذ الحجر من ذلك القصر الذي هو خراب للبناء نفعا لهم فاشتكوا ذلك وقالوا بنى السبالة بحجر قصرنا أعوذ بالله من هؤلاء قوم السوء .

ثم ارتحلنا عنهم لا بارك الله فيهم ورجعنا حتى حللنا بمدينة القيروان المدينة المشهورة المؤسسة في الاسلام وذلك أن السيد عقبة ابن نافع (110)

(109) مصطفى صاحب الطابع (توفي سنة 1277/1861 ، مملوك من القرجستان أهدى الى حمودة باشا باي وقدم خدم دولة حسين باي ومصطفى باي وربي أحمد باي وقد تخلى عنه لما تولى الحكم لصالح مصطفى خزندار .

(110) عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي الفهري (1 قبل الهجرة 621 م/63 هـ 683 م) مؤسس القيروان ووالي افريقية على عهد معاوية (وقد عزله سنة 55 هـ) ثم على عهد ابنه اليزيد (أنظر الاصابة ج I ص 492 الترجمة رقم 5613 والأعلام ج II ص 241 ومعالم الايمان ج I ص 128 .

القرشي الصحابي المشهور لما توجه لافريقية على عهد سيدنا عثمان (111) وفتح قرطاجنة والصحيح أنه على عهد معاوية ، كان توجيه عقبة كما تقدم ذلك في أوّل الكتاب في فتح افريقية (112) فلما حل عقبة (113) ومعه عشرة آلاف مقاتل ورأى أن أهل الاسلام لا مقر لهم بافريقية قال يا معشر المسلمين هل لكم أن تتخذوا مدينة هنا فأجابه النّاس واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين وقالوا نقرِّبها من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط ثم رأوا بُعْدَهَا من البحر أَوْلى مخافةً مِنْ مَلِكِ القسطنطينية ملك الروم واختاروا أن تكون قريبة من السبخة لأن أكثر دوابهم الابل حتى تكون مرعاها على الباب وأن تكون أرضها كأرض الحجاز وهواؤها كهواء الحجاز . فبحثوا في نواحي افريقية فأَلْفَوْا القيروان على هذا المنوال وقالوا انما نريد البناء هاهنا وكان بذلك المحل أشجار برية ووحوش وحيّات فنادى عقبة رضي الله عنه باعلى صوته يا أيها الوحوش والهوام إن أصحاب الرسول عليه السلام أرادوا بناء مدينة هنا فآخرجوا باذن الله فخرج كل من كان فيها والنّاس ينظرون ثم أمر بحرق الاشجار واختطّ الجامع الكبير واختلف عليه محل القبلة في المحراب فرأى في المنام قائلا يقول : خذ لواء واجعله في يدك فإذا أصبحت تسمع تكبيرا لا يسمعه غيرك فحيث ينقطع التكبير أركز اللواء فصنع كذلك فحيث ركز اللواء هو الان موضع المحراب ولما كان في سنة احدى وخمسين أولى معاوية ابن أبي سفيان مسلمة (114) على

---

(111) عثمان بن عفان القرشي الأموي الخليفة الثالث ذكر ابن حجر في الاصابة انه : « ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح » وهو أول مهاجر الى الحبشة ومعه زوجته رقية وتخلف عن بدر لتمريضها قتل سنة 35 هـ (أنظر الاصابة ج II ص 462 ـ 463 ، الترجمة رقم 5448 والاعلام ج IV ص 210) .

(112) يبدو أن صاحب التأليف أو ناسخه تدارك الخطأ باللفظ المرسوم تحاشيا للتشطيب .

(113) في المخطوط معاوية وهو خطأ .

(114) مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نبار بن لوذان بن عبد ود ابن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة الانصارى الخزرجي (1 هـ ـ 622 م / 62 ـ 682 م) روي عن النبي (ص) ولاه معاوية على مصر ثم ضم اليه المغرب . أنظر الاصابة ج 3 ص ص 418 ـ 419 الترجمة رقم 7989 والاعلام ج ص : 224 .

افريقية فاختطَّ مدينة أخرى بَعد القيروان بميلين مما يلي تونس وأخذ النّاس في
عمارتها واخلاء القيروان فدعا (115) /عليه ابن نافع رضي الله عنه وكان [22]
مجاب الدعوة فمات ولم يتم له غرض وذلك ان مسلمة لما فتح في مجيئه جزيرة
شريك (116) وهي مدينة كبيرة بين سوسة وتونس واليها ينسب باب الجزيرة
من أبواب تونس ويزعم النّاس الان أنّه منسوب للجزيرة القبلية وهي من
سليمان الى ما وراءها والامر قريب وجزيرة شريك هاته الآن خالية وكانت ذات
حصون وعند توجهه (117) إلى افريقية ذهب عقبة الى بلد المشرق فالتقى به
معاوية فاعتذر له في ولاية مسلمة ولما تولى اليزيد (118) بعد معاوية ردّ عقبة
وعزل مسلمة فرجع الى افريقية وأمر بإخلاء المدينة التي أحدثها مسلمة وعمارة
(119) القيروان ولم يزل مسلمة متخوفا من دعوة عقبة ابن نافع حتى مات
قتيلا ثم إن عقبة رضي الله عنه أبقى بالقيروان زهير بن قيس البلوي (120)
وشرع يفتح في نواحي افريقية حتى بلغ تلمسان واستشهد بمحل يقال له كسيلة
(120 مكرر) ثم نما أمْر الجامع إلى غاية صار أبلغ جوامع الدنيا حكمة ومكانة
وهو على شكل جامع الزيتونة بتونس لكنه أكبر وكبر في ضخامته زيادة ابن
الاغلب (121) والحاصل انها دار العلم والاولياء ومسكن الصحابة والاتقياء

(115) في المخطوط : دعى .

(116) جزيرة شريك الوطن القبلي حاليا ذكرها صاحب الحلل السندسية ج 2 ص : 552 ونسبها الى أحد عمالها وأشار محقق الكتاب في الهامش انها الجزيرة المسماة الان الراس الطيب وذكر أن صاحب الحلل نقل ما كتبه عن رحلة التيجاني دون اشارة .

(117) المقصود مسلمة .

(118) اليزيد بن معاوية بن أبي سفيان (25 هـ ـ 645 م/64 هـ ـ 683 م) ثاني ملوك الدولة الاموية ولي الخلافة سنة 60 هـ 681 م (الاعلام ج 8 ص : 189) .

(119) في المخطوط : وعادة .

(120) زهير البلوي (. . 76 هـ/690 م : نسبة الى بلي كعلي وهي قبيلة من قضاعة أمير قائد فاتح يقال : له صحبة ، شهد فتح مصر وولاه أميرها عبد العزيز بن مروان على برقة سنة 69 هـ أقام بالقيروان مدة وقتل في برقة لما عاد اليها لمقاومة هجوم موجه من القسطنطينية (أنظر الاعلام ج 3 ص : 52) .

(120 مكرر) بل اسم شخص .

(121) في المخطوط زياد بن أغلب وهو خطأ انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ج 15 ص 18 .

ترجم لها كتاب تقويم البلدان قائلا : « هي قاعدة كرسي افريقية في صدر الاسلام والان تابعة لتونس وشرب أهلها من المواجل ، صحراء تصلح للابل » (122) انتهى وذكرها في القاموس وأتم الكلام عليها ابن ناجي في معالم الايمان وابن الشباط واسمها القيروان لان القيروان لغة الجماعة والقفل ومن بعض أسماء الحيّات القرن فكان معنى القيروان المحل المعد لجمع النّاس ورحالهم وغلط من زعم أنها تسمى بافريقية بل هي من افريقية وانما اسم افريقية بلغة أهلها مزاق (123) ولهذا قال شاعر العرب (124) قبل فيما تقدم وكان بالعراق (وافر) :

ذَكَـرْتُ القَيْرَوَانَ فَهَـاجَ شَوْقِي وَأَيْنَ القَيْـرَوَانُ مِنَ الـعِـرَاقِ
2] مَسِيـرَةُ أَشْهُـرٍ لِلْعِيسِ كَـدًا / مِنَ الأبـلِ المُضَمَّـرَةِ العِتَـاقِ
فَـابْلِغْ أَنْعُـمًا وَبَنِي بَنِيـةِ وَمَنْ يُـرْجَى لَنَا وَلَـهُ التَّلَاقِي
بَـأن اللهَ قَـدْ خَـلَّى سَبِيلِي وَجَـدَّ بِنَـا المَسِيـرُ إلَى مُـزَاقِ

وخبر القيروان شهير تكتفل الناس به من قديم وحديث وغرضنا الاختصار وذكر ما ليس بمسبوق به .

ثم إنَّا اردنا الارتحال وهناك تم أمر قضية الهمامة بالسبي والاخذ وانصرف نظر مولانا لجماعة دريد (125) وأراد أن يريهم كيف الكيد فخافوا

(122) تقويم البلدان بتصرف ص : 144 ـ 145 . فقد ورد في التقويم : « ... صحراء تصلح لجمال العرب وكانت قاعدة افريقية في صدر الاسلام وهي اليوم تابعة لتونس وشرب أهلها من الآبار » .

(123) مزاق : تعريب لكامة Byzacia وقد كانت ولاية رومانية عاصمتها سوسة في عهد الرومان والوندال ويقابلها اليوم بلاد الساحل (أنظر ورقات القسم 2 ص : 18) .

(124) هو عبد الرحمان بن زياد بن انعم (94 هـ و 95 هـ ـ 161 هـ قيل إنه من أول مواليد المسلمين بافريقية ـ محدث قاض مع تفنن في علم العربية والشعر . والابيات قالها لما سرحه أبو جعفر المنصور من خدمته وقد ورد فيها (وللخيل) عوضا عن (من الابل) و (بني بنيه) عوضا عن (وبني بنيه) أنظر ترجمته والابيات في معالم الايمان ص : 171 وما يليها) .

(125) ذكر صاحب الاتحاف الهمامة وانهم أجفلوا أمام أبي العباس أحمد آغة المبعوث اليهم في عقد من الخيل وأنه تمكّن من أنفار منهم ولكنه لم يذكر دريد .

أن يحل بهم من الامر ما لا يطيقونه فأتوا بأهل الجرائم وألقوا السلاح ونكسوا الجماجم ونزعوا ما عادتهم لبسه من شعار الكبر القاصم وتسربلوا برداء الذل وتعمَّمُوا به بدل العمائم فاجتهد أبقاه الله تعالى بمقتضى نظره فأوثق كبارهم في الأكبال وشدد عليهم في الاعتقال وعزل وأولى وأذاقهم من عظم العقاب هولا فذلت له الارض وطاب له ، بهذا السفر ، الطول والعرض . وأمّم تلقاء مدين أمنه وأمانه تونس الخضراء فطوى السير في المراحل ونزل يوم الاربعاء السابع والعشرين من ثاني الجمادين بالمحمدية (126) التي ذكرناها أول الكتاب فخرج إليه اعيان الناس وتعرض له أخوه الاسعد السيد محمد بن السيد حسين وكافة اخوته واجتمع كل مسافر في ذلك اليوم بأهله ، ومن الغد لتونس دخل على أكمل حال واتم منوال وفي ذلك قلت اهنيه واعد مراحل السفر . (البسيط)

سَقِيتَ تَرْشِيشَ لَمَّا أُبْتَ يَاغَادِي ... مَاءَ آلْهَنَا فَتَرَوَّى كَالِحُ آالنَّادِي (127)

غَنَّتْ بِوَصْلِكَ أَطْيَارُ آلْمَحَبَّةِ مَا ... يَحْدُو بِسَيْرِكَ فِي أَخْذِ الْعِدَاحَادِي

[24] / رَأَيْتَ أَنَّ العُلَا بِالحَزْمِ مُولَعَةٌ ... فَكُنْتَ بِالعَزْمِ لِلْعُلَا بِمِرْصَادِ

فَسِرْتَ يَوْمَ الخَمِيسِ بِالخَمِيسِ وَقَدْ ... وَازَى الكَرَادِيسِ أَنْجَادا بِأَنْجَادِ

لَاحَتْ بَوَارِقُهُمْ تَحْتَ الرُّعُودِ بِمَا ... حَمَى مُصَابَهُمْ مَنْسُوجُ إِيرَادِ (129)

أَخَالُهُمْ شُهْبًا لِلرَّجْمِ قَدْ خُلِقُوا ... [..................] (130)

---

(126) لم يذكر صاحب الاتحاف اقامة الباي ليلة في « المحمدية » .

(127) ذكر صاحب المخطوط نقلا عن البكري (بن أبي السرور) ولسنا ندري إن كان الوالد 1028/1619 أوالا بن 1060/1650 أن تونس كانت تسمى ترشيش (أنظر العقد المتضد الورقة 24 الوجه) كما نجد في معجم البلدان لياقوت الحموي أن ترشيش اسم لتونس القديمة .

(128) الخميس الثانية الجيش . أنجاد مفردها نجد وهو الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره .

(129) البوراق ج . بارق صفة للسيوف . الرعود ج . رعد وهو صوت السحاب وقد كنى به عن صوت اسلحة البارود .

(130) لا يمكن قراءة العجز .

وَأَنْتَ تَقْدُمُهُمْ تَخْطُو بِمَوْكِبِهِمْ مِنَ الفَلَاةِ تَشُقُّ ذَاتَ أَوْتَادِ (131)
حَلَلْتَ مَلَّانَ ثُمَّ أُبْتَ مُرْتَحِلاً إِلَى سُلَيْمَانَ تَبْغِي نُزْلَ خَلَّادِ
وَجُزْتَ لِحَمَّامَاتِهَا سُبُلاً مِنْ نَحْوِ نَابُلَ صَفْوِ الرِّيِّ لِلصَّادِي
إِلَى الخَلِيِّ عَلَى بِئْرِ البُوَيْتَةِ طُفْتَ بِأَحْوَازِهَا أَوْعَارَ أَبْعَادِ
وَيَوْمَ إِذْ جُزْتَهَا يَوْمٌ يُقَامُ لَهُ مَا كَانَ مِثْلُهُ فِي أَحْقَابِ أَوْبَادِ (132)
مِنَ الْمُنَسْتِيرِ رِيحَ الهَدْيِ مُنْتَشِقًا مِنْ عَرْفِ مَهْدِيَةٍ دَارِ الفَتَى الهَادِي (133)
مِنَ الصَّبِيَّةِ لِلْحِسْيَانِ بَعْدَهُمَا حَزْقٌ إِلَى غَارِ مَسْعُودِ بْنِ مِسْعَادِ (134)
[2] إِلَى صَفَاقُسَ دَارِ الخَيْرِ مَنْزِلَةً / أَكْرِمْ بِهَا فِي الثَّنَا مِنْ دَارِ عُبَّادِ
وَكَانَ يَوْمُكَ لَمَّا أَنْ دَخَلْتَ بِهَا تَخْتَالُ بَيْنَ مَصَالِيتَ لِأَجْنَادِ (135)
يُزْرِي بِيَوْمِ ٱزْدِيَادِ النِّيلِ مُسْتَوِيًا وَالمِهْرَجَانِ وَنَيْرُوزَ بِأَهْنَادِ (136)
وَحِينَ دَوَّخْتَهَا بَرًّا عَمَدْتَ إِلَى خَوْضِ البِحَارِ عَلَى تَيَّارِ أَزْبَادِ
لَمْ تَدْرِ قَابُسُ حَتَّى أَنْ شَعَلْتَ بِهَا مِنَ اسْمِهَا مَا دَرَتْ مَعْنَاهُ فِي بَادِي (137)
ظَنَّتْ بِأَنَّكَ لَا تُطْفِي لَهَا قَبَسًا بِقَابُسٍ مِنْكَ فِي زَرْعِ العِدَاعَادِي
وَلَمْ تُحَرِّكْ لَهُمْ جَيْشًا وَلَا انْتَظَمَ آلْـ ـغُزَاةُ فِيهَا وَلَمْ تُصْحَبْ بِأَحْقَادِ
مُجَرَّدُ الإِذْنِ فِيهِمْ قَدْ كَفَى وَلَقَدْ ظَنُّوا الحِمَايَةَ فِي أَكْنَافِ آسَادِ

(131) ذات أوتاد يعنى بها الارض ذات الجبال أخذ ذلك من قوله تعالى « والجبال أوتادا » .

(132) الاحقاب ج حقب وهو الدهر . أو باد يقصد آباد وقد أبدل الهمزة واو او هو خطأ لأن الوبد من المستعمل في اللغة وهو شدة العيش (أنظر الملاحظة رقم 141) .

(133) الفتى الهادي يقصد المهدي الفاطمي (259 هـ ـ 322 هـ) مؤسس الدولة الفاطمية وقد اختار لها المهدية عاصمة .

(134) الصبية كنًى بها عن الشابة .

(135) مصاليت . ج . مصلوت صفة للسيوف . والمستعمل هو مُصلت وصلت ومنصلت واصليت .

(136) المهرجان كلمة فارسية وتعنى احتفالا يقام عند الفرس في السادس والعشرين من سبتمبر . نيروز : أول يوم من السنة الفارسية وهو عند الفرس عيد . وقد نسب الشاعر المناسبتين للهند خطأ .

(137) بادي : اضمر الشاعر كلمة الامر فهو يقصد في بادىء الامر . وفي البيت تلويح لما بين اسم قابس والقبس من معنى . فالقبس الشعلة من النار . والشاعر يتهمهم بالفتنة .

رَأَوْا جِبالَهُمْ حِصْنًا وَمَا حَسِبُوا   بِأَنَّ جَدَّكَ نَسَّافُ لِأَطْوَادِ
تَرَكْتَ أَشْبَالَهُمْ صَرْعَى وَمِلْتَ إِلَى   أَطْلَالِ جِرْبَةَ إِيفَاءً بِمِيعَادِ
وَجِئْتَ عَنْ أُجَمِ قَصْرِ العَجَائِبِ كَمْ   فِي أَمْرِهِ مِنْ أَحَادِيثَ وإِسْنَادِ (138)
وَسِرْتَ مِنْهُ لِنَحْوِ القَيْرَوَانِ فَمَا   أَزْكَى مَنَازِلَهَا مِنْ دَارِ أَسْيَادِ
حَطَطْتَ حِمْلَ العَنَا بِهَا وَمِلْتَ إِلَى   قَطْعِ الوَغَى بَيْنَ أَنْذَالٍ وَأَوْغَادِ
[26] بَنُو عَزِيزٍ طَغَوْا أَذْلَلْتَ عِزَّتَهُمْ /   وَصِدْتَهُمْ صَيْدَ مَعْضُودٍ لِأَفْهَادِ (139)
أَعْقَلْتَهُمْ مِنْ عِبَادِ الذُّلِّ مُعْتَقَلًا   أَرْغَمْتَ مِنْهُمْ أُنُوفًا بَعْدَ إِسْمَادِ
سَقَيْتَهُمْ مِنْ شَرَابِ القَتْلِ حَامِيَةً   فَرَّقْتَ أَكْتَادَهُمْ مِنْ وَصْلِ أَكْرَادِ (140)
أَرْكَبْتَهُمْ دُهْمَ أَسْيَافٍ مُهَنَّدَةٍ   كَسَوْتَهُمْ بِالدِّمَا أَثْوَابَ فِرْصَادِ
وَمَنْ حَمَى حَيَّهُمْ لَاقَى الَّذِي وَجَدُوا   كَادُوا فَكِدْتَ لَهُمْ أَنْوَاعَ أَكْيَادِ
لَيْسَ التَّعَزُّزُ بِالْمُلْكِ القَرِيرِ مُنًى   العِزُّ فِي الذِّكْرِ يَبْقَى بَعْدَ أَوْبَادِ (141)
وَأَنْتَ قَدْ جُبِلَتْ فِيكَ الجِبِلَّةُ عَنْ   تَرْكِ النَّوَى ذَائِدًا ضَيْمًا بِأَذْوَادِ (142)
يَا أَيُّهَا المَلِكُ المَوْلَى الأَعَزُّ ثَنًى   الشَّائِعُ الصِّيتِ مِنْ خَافٍ وَمِنْ بَادِ
الأَحْكَمُ المُنْتَضَى المِحْرَابُ مَنْ جُمِعَتْ   فِيهِ المَنَاقِبُ أَزْوَاجًا لِأَفْرَادِ
قَدْ أَعْلَمَتْنَا بِكَ الأَخْبَارُ مِنْ زَمَنٍ   بِأَنَّكَ الوِتْرُ لَمْ تُشْفَعْ بِأَفْرَادِ (143)
نَرْجُو لِمُلْكِكَ طُولًا فِي هَنَا سَعَةٍ   جَلَّتْ مَعَاطِيهِ عَنْ إِحْصَاءِأَعْدَادِ
فَأَنْتَ مِصْبَاحُ بُشْرَى وَقْتَ شِدَّتِهِ   كَمْ كَانَ مِنْ ضَوْئِهِ فِي الكَرْبِ إِيقَادِ (144)

---

(138) أجم يقصد قصر لجم .

(139) المعضود صيغة مفعول من عضده يعضده اعانه وقد تعنى محفوفا بالجيش والحاشية من قولهم : بعير معضود اذا كان صاحبه يعضده بأن يمشي مرة عن شماله ومرة عن يمينه .

(140) الكتد والكتد ويجمع على أكتاد وكتود أصل العنق . وأكراد مفردها كرد وهو مجثم الرأس على العنق .

(141) أوباد تحريف لآباد .

(142) « النوا » في المخطوط .

(143)ذكر في مخطوط العقد المنضد أن الاولياء الصالحين بشروا بحلول ملك فذ هو أحمد باي .

(144) في البيت إقواء .

وَالَيْتَ عَنِّي وَقَـدْ أَوْلَيْتَني كَـرَمًـا … عَمَّتْ مَزَايَاهُ آبَائي وَأَوْلَادِي (145)

2] / أَغْمَرْتَنِي فِي سِجَالٍ مِنْ نَدَاكَ فَلَمْ … أَجِدْ لَهَا المِثْلَ فِي تَعْدَادِ أَجْوَادِ (146)

أَكْبَرْتَنِي بَيْنَ أَقْرَانِي وَقَدْ كَبُرَتْ … عَنْ غِمْرِهِمْ غَمْرَةٌ مِنْ غَيْرِ أَحْقَادِ (147)

بِـالبِرِّ تُسْتَعْبَدُ الأَحْرَارُ طَـائِعَـةً … وَيَحْصُلُ الصَّقْرُ فِي أَشْرَاكِ صَيَّادِ

فَهَا أَنَا الآنَ رِقٌّ فِي نَـدَاكَ إِذَا … لَا نِلْتُ عِتْقًا وَلَا تَسْرِيحَ أَقْيَادِي

يَا سَيِّدًا فَخْرُهُ مِنْ ذَاتِهِ وَلَقَـدْ … زَادَ الفَخَارُ لَـهُ مِنْ نَحْوِ أَجْدَادِ

يُهْنِيكَ رَجْعٌ إِلَى الخَضْرَا عَلَى أَمَلٍ … مُقَـرِّبٍ لَـكَ قَـاصِي كُـلِّ أَبْعَـادِ

بِـلَادُكَ البَلَدُ الذِي خَـرَجْتَ لَـهُ … نَـارُ التَّوَحُّشِ تَصْلِي نُضْجَ أَكْبَادِ

لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْكَ الخَلْقَ يَا مَلِكًا … مَا عَنْهُ بَعْدَ النَّوَى صَبْرًا لِأَجْلَادِ

وَاسْعَدْ وَدُمْ وَاتَّئِدْ وَاخْصَبْ وَنَلْ أَمَلًا … وَاهْنَـأْ وَعِشْ أَبَـدًا يُقْفَى بِـآبَـادِ

وَقَاكَ وَاقٍ مِنَ النَّصْرِ العَزِيـزِ عَلَى … رَغْمٍ يَقِيكَ الرَّدَى مِنْ عَيْنِ حُسَّادِ

مَا قَالَتِ النَّاسُ فِي الرَّجْعِ مُؤَرِّخَةً … وَالبَيْتُ قَصْدُكَ مِنْ وَاقٍ بِإِسْعَـادِ

وَقَال الأديب المشارك المنشىء أبُو عبيد الله الشيخ محمد الاصرم (148) رئيس كتبة ديوان الانشاء في التاريخ . (الكامل) (149)

2٤] لَمَّا أَنِسْتَ مِنَ الزَّمَـانِ خُمُولًا / … جَهَّـزْتَ فِي طَلَبِ البُغَـاةِ خُيُـولَا

وَرَكِبْتَ مَتْنَ الجِـدِّمُقْتَعِـدَ العُـلَا … وَشَحَـذْتَ عَـزْمًـا سَيْفُـهُ مَسْلُولَا

---

(145) واليت عني بمعنى ميزتني وفصلتني .

(146) السجل وجمعه سجال : الدلو الضخمة المملوءة ماء .

(147) الغِمْرُ امتلاء الصدر عقدا . الغمرة شدة الشيء ومزدحمه .

(148) العمر وجمعه اغمار هو الجاهل الغر . العمرة الماد الكثير .

(148) محمد بن محمد بن أحمد الاصرم رئيس الانشاء في دولة حسين باي ، وفي عهد أحمد باي عين في وزارة القلم وتوفّي سنة 1277 هـ/1860 م (انظر مجمل تاريخ الأدب التونسي ص 265 والاتحاف ح 8 الترجمة رقم 341 ص 115 .

(149) القصيد موجود أيضا في كنش بالمكتبة الوطنية مسجل تحت رقم 16511 ابتداء من الورقة 42 الظهر . وهو موجود أيضا ابتداء من البيت السادس والثلاثين (مرآته جلى الذكاء صقالها . . .) في كنش آخر مسجل تحت رقم16532 في الورقة الاولى والثانية منه .

مِنْ تُونِسَ الغَرَّاءِ سِرْتَ بِجَحْفَلٍ قَدْ ظَلَّلُوا بِرِمَاحِهِمْ تَظْلِيلاَ
بَحْرٌ مِنَ الأَبْطَالِ مَاجَ عُبَابُهُ وَرَحَلْتَ لِلْهَيْجَاءِ فِيهِ رُحُولاَ
وَمَرَرْتَ فِي عِزٍّ وَمُلْكٍ بَاذِخٍ (150) لَمْ تَتَّخِذِ غَيْرَ الأَسِنَّةِ غِيلاَ (151) (152)
حَتَّى تَرَاءَتْ نَابُلٌ فِي حُسْنِهَا غَيْدَاءَ مَالَتْ لِلنُّعَاسِ قَلِيلاَ (153)
حَفَّتْ بِهَا أَشْجَارُهَا فَكَأَنَّهَا صَبٌّ تَوَارَى فِي السَّمَاءِ مُحُولاَ (154)
حَتَّى وَصَلْتَ لِسُوسَةَ الحَسْنَا وَقَدْ أَشْرَقْتَ عَدْلاً لاَ تَخَافُ أُفُولاَ
وَسَلَكْتَ مُحْتَفِلاً بِكُلِّ كَرِيهَةٍ (155) لاَ يَسْتَطِيعُ لَهَا الزَّمَانُ مَثِيلاَ
لِصَفَاقُسٍ نِعْمَ البِلاَدُ صَفَاقُسٌ لَمَّا رَأَتْكَ تَهَلَّلَتْ. تَهْلِيلاَ
أَكْرِمْ بِهَا من بَلْدَةٍ وَبِأَهْلِهَا حَازُوا المَكَارِمَ صَاغِرًا وَجَلِيلاَ
وَعَطَفْتَ فِي فَلَوَاتِهَا وَرِمَالِهَا لَمْ تَتَّخِذْ غَيْرَ السُّيُوفِ دَلِيلاَ
تَقْفُوا لِقَابُسَ قُبِّحَتْ مِنْ قَابُسٍ لَمْ تَحْوِ إِلاَّ فَاجِرًا وَذَلِيلاَ
[29] / سُحْقًا لَهَا وَلِأَهْلِهَا مَا غَرَّهُمْ حَتَّى اسْتَطَابُوا لِلْبِلاَدِ مَهُولاَ
أَبْدُوا شِقَاقًا فِي نِفَاقٍ وَاقْتَفَوا أَثَرًا يَكُونُ بِهِ الرَّفِيعُ ذَلِيلاَ
وَتَجَاهَرُوا بِالبَغْيِ فِي أَرْجَائِهَا قَدْ سَوَّلَتْهُ نُفُوسُهُمْ تَسْوِيلاَ

---

(150) باذخ رفيع الشأن عظيمه .

(151) الغيل الاجمة وكل واد فيه ماء وموضع الاسد وفي البيت استعارة مكنية فقد استعار لممدوحه صورة الاسد دون أن يصرح به .

(152) هذا البيت يرد الثامن في ترتيب الكنش .

(153) في الكنش ورد : « حتى تراءت نابل ونزلتها غيثا اصاب من الرياض محولا » وهو متبوع ببيتين مفقودين في مخطوط العقد المنضد وهما :

فانعم بواديها وحسن ثمارها * وسرى النسيم مع الغشي عليلا
أسرعت منها للترحل مزمعا * وعدلت عن حب النعيم عدولا

(154) هذا البيت غير موجود في الكنش ولاوجه للمعنى في عجزه ، خصوصا أن « محولا » وهي مصدر من محل المكان يمحل أي أجدب تناسب المعنى الوارد في الاحالة السابقة .

(155) في الكنش كريمة .

وَتَـراجَـفَتْ سُفَـهَـاؤُهُـمْ بِـقَـلِيلِهِ   حَتَّى اسْتَهَلَّ وَصَيَّرُوهُ جَلِيلَا (156)
فَجَمَعْتَ مِنْهُمْ كُـلَّ عِلْقٍ فَـاسِـدٍ   وَشَـفَيْـتَ مِـنْهُـمْ لِـلزَّمَـانِ غَـلِيـلَا
وَطَحَتْهُمْ طَحْنَ الـرِّيَـاحِ رِمَـالَهَـا   وَسَفَتْهُ فِي عَرَصَاتِهَا تَكْمِيلَا (156 مكرر)
وَتَـرَكْتَهُمْ أَقْوَاتَ وَحْشٍ فَـلَاتِهَـا   وَتَمَـوَّلُـوا مِـنْ شِـلْوِهِـمْ تَمْـوِيـلَا
وَحَـلَمْتَ فِي بَـاقِيهِـمُ عَنْ قُـدْرَةٍ   حِلْمًا عَـلَى رَغْمِ الحَسُـودِ جَمِيـلَا
فَانْجَابَ لَيْلُ البَغْيِ عَنْ صُبْحِ الهُدَى   بِـحُـسَـامِ عَـدْلٍ لَمْ يَـكُنْ مَـفْلُولَا
كَـذَبَتْ أَرَاجِيفُ الـذِينَ تَـعَلَّلُوا   لَمَّا اسْتَحَالَ صَدَى القُلُوبِ صَقِيلَا
فَـآسْتَسْلَمُـوا لَمَّـا رَغِمَتْ أُنُـوفُهُمْ   بَـيْنَ الـوَرَى وَتَبَـتَّلُوا تَبْـتِيـلَا
رَغْـمًا بِـهِ دَانَ العِبَـادُ بِأَسْـرِهِمْ   وَتَـرَكْتَهُمْ فِي الصَّالِحَـاتِ دُخُـولَا
وَأَخَـذْتَ فِي عِزٍّ لِجَرْبَـةَ قَـاصِـدًا   وَآسْتَـوْحَشَتْ لَمَّـا أَقَمْتَ قَلِيـلَا
[31 /حَنَّتْ إِلَيْكَ حَنِينَ إِلْفٍ وَاشِجٍ (157)   لَمَّـا عَزَمْتَ عَـلَى الـرَّحِيـلِ أَصِيـلَا
وَقَصَدْتَ صَبْرَةَ ضَارِعًا لِوَلِيِّهَا (158)   وَبِـصَـبْـرَةٍ لَمَّـا أَقَـمْتَ طَـوِيـلَا
أَنِسَتْ بِقُـرْبِكَ ثُمَّ هَـزَّتْ عِـطْفَهَـا   تِـيهًـا بِمَـا خَـوَّلْتَهَـا تَخْـوِيـلَا
يَـا حُسْنَهَـا لَمَّـا رَأَتْـهُ مُـتَـوَّجًـا   أَوْمَتْ لِـبَـاطِـنِ كَفِّـهِ تَـقْـبِـيـلَا
يَـا أَحْمَدُ المَلِكُ الجَلِيـلُ وَمَنْ غَـدَا   فِي قُـطْرِ إِفْـرِيـقِيَّـةٍ ظَـلِيـلَا
هَاتِي البِلَادُ أَبُوكَ أَعْلَى كَفَّهَا (159)   وَاخْتَـارَهَـا دُونَ الأَنَـامِ رَعِيـلَا
رُعْيًـا لَهَـا وَلِأَهْلِهَـا مِـنْ أُسْـرَةٍ   حَـازُوا المَكَـارِمَ بَـازِلًا وَفَصِيـلَا

---

(156) شفع الكنش هذا البيت ببيت غير موجود في العقد المنضد وهو :
فَـاسْـبَبْـتَ مـن غـوغـائـهـا أَدْوَاءَهُـمْ ❋ لَمَّـا أَصَـبْـتَ مَحَـلَّهَـا المَـغْـلُولَا

(156 مكرر) الضمير في سفته كان ينبغي أن يكون مؤنثا ولعل الشاعر أعاده على اسم الجنس من الرمال وهو الرَّمل مراعاة منه لضرورة الوزن .

(157) « حنينُ الف واشبح » ملطخة في الاصل لا تقرأ ، وهي واضحة في الكنش رقم 16511 .

(158) صبرة : المقصود القيروان (انظر معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الحموي) .

(159) أبوك : يقصد جدّ ممدوحه الاعلى حسين بن علي التركي مؤسس الدولة الحسينية .

يَا نَبْعَةَ الرَّأْيِ الَّذِي قَدْ أَثْمَرَتْ ... جُنْدَ السَّلَامَةِ بِالهَنَاءِ بَلِيلَا
رَأْيٌ بِمَاءِ الفِكْرِ غَذَّى أَهْلَهُ ... فَغَدَا نَبِيلُ الأَمْرِ مِنْهُ كَفِيلَا
فِكْرٌ يُرِيهِ تَفَلُّتَاتِ زَمَانِهِ ... وَمِنَ الصُّدُورِ خَفِيَّهَا تَفْصِيلَا
مِرْءَاتُهُ جَلَّى الذَّكَاءُ صِقَالَهَا ... فَتَخَيَّلَتْ خَافِي الخَفَا تَمْثِيلَا (160)
فَاصْدَعْ بِفِكْرِكَ قَوْلَ كُلِّ مُنَاصِحٍ ... إِنَّ المُنَاصِحَ قَدْ يَكُونُ غَفُولَا
وَالرَّأْيُ بَعْدَ العَزْمِ لَا تَحْفَلْ بِهِ / ... فَنَجَاحُهُ فِي النَّازِلَاتِ قَلِيلَا [31]
كَالرَّأْيِ قَبْلَ العَزْمِ مَهْمَا شِمْتَهُ ... صَلُحَتْ مَوَاقِعُهُ وَكَانَ أَصِيلَا
إِنَّ الَّذِي سَمَّاكَ أَحْمَدَ عَالِمٌ ... حُلَلَ المَحَامِدِ طَوَّقَتْكَ شُمُولَا
مِنْ دَوْحَةٍ فَرْعَاءَ غُذِّيَ أَصْلُهَا ... بِالمَجْدِ حَتَّى أَثْمَرَتْكَ نَبِيلَا
وَازَنْتُكَ الأَرْضَ التِي قَدْ سُسْتَهَا (161) ... فَضْلًا وَإِحْسَانًا فَكُنْتَ عَدِيلَا
مَهْمَا تُوَازِنْكَ العُقُولُ فَإِنَّمَا ... تَكْبُو لَدَى كُنْهِ الوُصُولِ وُصُولَا
إِنَّ المَكَارِمَ قَدْ ظَفِرْتَ بِكُلِّهَا ... لَمْ تُبْقِ مِنْهَا لِلْمُلُوكِ فَتِيلَا
يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي سَطَوَاتُهُ ... سَطَوَاتُ لَيْثٍ لِلنُّفُوسِ مُزِيلَا
أَعْرَابُ عَمْرَةَ مَعْ سِوَاهِمْ قَدْ بَقَوْا ... وَآسْتَطْرَدُوا أَهْلَ العَرَاءِ 162) زَمُولَا (163)
دَارَيْتَهُمْ بِالحِلْمِ يَا ضِرْغَامَهُمْ ... وَنَسَوْا بِأَنَّكَ لِلرِّجَالِ أَكُولَا
فَخَرَجْتَ فِي جَمْعٍ (164) يَمُوجُ مَوَاكِبًا ... جَازَ البَسِيطَةَ عَرْضَهَا وَالطُّولَا
أَسْيَافُهُمْ (165) قَدْ أَشْرَقَتْ مَصْلُوتَةً ... (166) غَرُبَتْ بِنَحْرِ المُفْسِدِينَ أُفُولَا

---

(160) من هذا البيت إلى آخر القصيد موجود في الكنش رقم 16532 .
(161) في كل النسخ ورد الذي عوضا عن التي وهو خطأ .
(162) القراء في كلا الكنشين .
(163) معنى العجز لا يستقيم إلا بتأويل وقد يعنى أن الجيش سلب اعراب عمرة كل مؤنهم وتركهم يطلبون القوت بصيد الحيوانات البرية .
(164) « جمع » ساقطة من الاصل موجودة في الكنيشين .
(165) « وسيوفهم » في الكنشين .
(166) انظر الملاحظة رقم 135 .

وَرَدَعْتَهُمْ بِالسَّيْفِ لَمَّا لَمْ يَكُنْ   فِيهِمْ سِوَاهُ مِنَ الفِعَالِ فَعُولاَ (167)
3] / سَيْفٌ كَأَنَّ النَّصْرَ مَعْقُودٌ بِهِ   فِي كَفِّ أَرْوَعَ لِلرِّقَابِ مُحِيلاَ (168)
فَتَشَتَّتُوا خَوْفًا أَطَارَ قُلُوبَهُمْ   وَالخَوْفُ فَاعْلَمْ لِلْجَبَانِ قَتُولاَ
وَالسَّيْفُ إِلاَّ مِنْ قَرِيبٍ فِعْلُهُ   وَالرُّعْبُ مِنْهُ يَطِيرُ مِيلاً مِيلاً (169)
هَرَبَ الجَبَانُ مَخَافَةً مِنْ بَطْشِهِ   وَبَقَى الكَمِيُّ مُصَفَّدًا مَكْبُولاَ
كُنْ وَاثِقًا بِالنَّصْرِ يَا مَنْ رُعْبُهُ   سَيْفٌ عَلَى أَعْدَائِهِ مَسْلُولاَ (170)
يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي أَوْلَيْتَنِي   مِنْ فَيْضِ بِرِّكَ وَافِرًا وَجَزِيلاَ
غَيْرِي اسْتَمَالَ الحُبَّ فِيكَ بِزُخْرُفٍ   وَبِصَفْوِهِ خَوَّلْتَنِي تَخْوِيلاَ
أَغْرَقْتَنِي فِي بَحْرِهِ يَامِنَّتِي   لاَ زِلْتُ فِيهِ مَدَى الزَّمَانِ حَصُولاَ
وَأَنَا الَّذِي فِي بَحْرِ وُدِّكَ سَابِحٌ   رَغْمًا عَلَى مَنْ كَانَ فِيكَ عَذُولاَ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَأَنْتَ نُقْطَةُ نَاظِرِي   لَمْ يَتَّخِذْ يَوْمًا سِوَاكَ بَدِيلاَ
عُذْرًا لِحُسَّادِي فَإِنَّ مَثَارَهُمْ   قَدْ كُنْتُ أَهْلاً أَنْ أَكُونَ خَلِيلاَ
قَصُرَ النَّقَاءُ بِهِمْ وَقَدْ دَارَيْتُهُمْ   مُنْذُ (171) اسْتَفَدْتُ من النَّقَاءِ قَبُولاَ
3] اكْسِيرُ قُرْبِكَ صَادَنِي فَأَحَالَنِي /   ذَهَبًا إِلَى كُلِّ القُلُوبِ شَغُولاَ
فِكْرِي تَقَسَّمَ (172) فِي عُلاَكَ قَصِيدَةً   وَلَوْ آسْتَطَعْتُ الرُّوحَ كَانَ قَلِيلاَ
مَاسَتْ (173) دَلاَلاً ثُمَّ فَاحَ بُخَارُهَا   وَتَرَتَّلَتْ بِمَدِيحِكُمْ تَرْتِيلاَ
عَذُبَتْ مَوَاقِعُ قَوْلِهَا فِي خَاطِرِي   قَصْدِي إِلَى نَادِي المَلِيكِ قَفُولاَ
وَجْهِي صَبِيحٌ وَالتَّذَلُّلُ حَازَنِي   لاَ تَتَّخِذْ غَيْرِي إِلَيْهِ رَسُولاَ

---

(167) ابتداء من هذا البيت إلى آخر القصيد نسبها الكنش رقم 16511 إلى الشيخ محمد بيرم بنفس المناسبة وهو خطأ وقصيدته هي الموالية .

(169) الكنش 1511 جعل هذا البيت قبل فتتشتتوا خوفا اطار قلوبهم . . .

(170) في البيت اقواء .

(171) فبذا في الكنش رقم 1511 .

(172) ساقطة في الاصل موجودة في الكنشين .

(173) مالت في الكنش رقم 1511 .

أَرْسَلْتُهـا دُرَرًا إِلَيْـكَ وَلَيْـتَنِي ... كُنْتُ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلَا
إِنِّي مِنَ القَـوْمِ الَّـذِينَ تَـظَافَـرُوا ... عَنْ (174) مُلْكِ أَحْمَدَ أَنْ يَكُونَ طَوِيلَا
فَـارْجِعْ لِقَصْـرِكَ رَاقِيًا يَا مُهْجَتِي ... دَرَجَ المَـعَـالِي لَا تَخَـافُ نُـزُولَا

وَأَنْشَدَ صَاحِبُنَا الفقيه العلاّمة البارع ابو عبد الله محمد بيرم الرابع (175) تهنئة في القُدوم (176) (طويل) :

تَبَسَّمَ لِلْخَـضْـرَا بِمَقْـدَمِـكُمْ ثَـغْـرُ ... وَفَاحَ (177) بِهَا مِنْ طِيبِكُمْ لِلْوَرَى نَشْرُ
وَهَبَّ نَسِيمُ الـوَصْلِ فـانتعَشَتْ به ... نُفُـوسٌ صَلاهـا مِنْ مَغِيبِكُمْ جَمْـرُ
وَأَصْبَـحَ قُمْرِيُّ المَسَـرَّةِ صَادِحًـا ... عَلَى فَنَنِ العَلْيَـاءِ لَيْسَ لَـهُ ذُعْـرُ
[34] / وَأَشْرَقَ أُفْقُ المُلْكِ لَمَّا انْجَلَى به ... لِأَحْمَدَ نَجْمٌ بَـلْ تـراءى بِـهِ بَـدْرُ
هُوَ المَلِكُ السَّامِي الَّذِي عَزَّ أن يُرَى ... لَهُ مُشْبِهٌ فِي فَضْلِهِ أَيْ هُوَ الوَتْـرُ
أَنَـابَ عَـلَى شُمِّ المُلُوكِ بِهِـمَّـةٍ ... تَعَـالَتْ إِلَى أَوْجٍ بِـهِ خَيَّمَ النَّسْرُ
وَحَـزْمٍ لَـوْ أَنَّ الشُّهْبَ قَـارَعَهَـابِـهِ ... لَأَضْحَى لَهُ فِي حِزْبِهَا النَّهْيُ وَالأَمْرُ
وَفَـرْطِ مَضَاءٍ فِي الأُمُـورِ تَـظَافَـرَتْ ... عَـلَى نُجْحِهِ الأَقْـدار فارتَفَـعَ القَدْرُ
أَشَـادَ بِنَـاءَ المَكْـرُمَـاتِ فَـأَصْبَحَتْ ... لَـهُ مَأْثُـرَاتٌ لَا يُحَاط بِـهَـا، غُـرُّ
وَقَـامَ بِتَـأْلِيفِ الجُنُـودِ مُـنَـظِّمًا ... لَهَـا مِثْلَمَا فِي سِلْكِهِ يُنْـظَمُ الـدُّرُّ
فَـجَـاءَ بِتَـرْتِيبٍ تَـوَدُّ لِحُسْنِـهِ ... لَوِ انْخَرَطَتْ فِي ضِمْنِهِ الانْجُمُ الزُّهْرُ
يُرِيكَ بَسِيطَ الأَرْضِ صَفْحَةَ كَاتِبٍ ... وَتِلْكَ حُرُوفٌ قَدْ أُجِيدَ لَهَا حِبْرُ
بِهَـا صَـارَ لِـلْإِسْلَامِ عِزٌّ مُعَجَّلٌ ... وَنَحْنُ نُرَجِّي أَنْ سَيُبْلَى بِهَـا الكُفْرُ

---

(174) في اللسان تضافر القوم على فلان وتظافروا عليه .

(175) محمد بيرم الرابع (1220 م/1805 م ـ 1278/1861) رابع البيارمة المحمدين قاض مفت حنفي ونقيب الاشراف وهو أيضا امام ومستشار صهره محمد باي 1855 ـ 1859 (انظر الاتحاف 8 ص 124 الترجمة رقم 347)

(176) القصيد موجود بالكنشين رقم 1511 بالمكتبة الوطنية الورقة 106 الوجه لكنه منسوب خطأ لمحمد بن الطيب سلامة .

(177) في الكنش : راح .

لُيوثُ عَـرِينٍ أَنتَ قَـائِدُ حِـزْبِهِمْ وَعُقْبَانُ جَوٍّ أَنْتَ مِنْ بَينِهِمْ صَقْـرُ
بِهِمْ لُحْتَ مِنْ خَضْرَاءِ مُلْكِكَ سَائِرًا أَمَامَكَ دُونَ الجَيْشِ عَزْمُكَ والنَّصْرُ (178)
3] فَشَرَّفْتَ فِي ذا السَّيرِ مِنْكَ مَنَازِلاً/ نَزَلْتَ بِهَا بَلْ جَاءَ أَرْجَاءَهَا القَـطْرُ
كَفَـاها عَنِ التَّعْيِـينِ مَااَشْتَهَـرَتْ بِه فَصَارَتْ بُرُوجًا حَيْثُ حَلَّ بِهَا البَدْرُ
وَأَوطَـاتَ أَرْضَ الثَّـائِرِينَ فَـوَارِسًـا يَهَـابُ وَيَخْشَى أَنْ يُقَارِعَهَـا الـدَّهْـرُ
فَحَلَّ بِهِمْ مِنْ سَطْوَةِ المُلْكِ مَارَأَوْا وَنَـالَهُمْ مَـالاَ يُحِيطُ بِـهِ الـشِّعْـرُ
أَمَـا عَـلِمَ الأَقْـوَامُ أَنَّ وَرَاءَ هُـمْ مَلِيكًـا لَدَى الهَيْجَـاءِ مَـطْعَمُـهُ مُـرُّ
أَلَمْ تَـرَهُ إِذْ وَجَّـهَ العَـزْمَ نَحْـوَهُمْ أَناب عَلَى مَـظْنُونِ مَـا زَوَّرَ الفِكْرُ
فَسَكَّنَ مِنْ غَـوغَـائِهِمْ كُـلَّ ثَـائِـرٍ وَأَرْخَى رِدَاءَ الأَمْنِ وَاَنْفَصَلَ الأَمْرُ (179)
وَعَادَتْ إِلَى أَغْيَالِهَا أُسْدُ شيسَةٍ (180) وَعَـادَتْ إِلَى الأَغْمَادِ أَسْيَافُهُ البُـتْرُ
وَآبَ أَمِـيرُ المُـؤْمِـنِـينَ مُـظَفَّـرًا يُجَـرِّرُ أَذْيَـالَ الثَّـنَـا فَلَهُ الفَـخْـرُ
فَكَـانَ لَنَـا فِي عَـوْدِهِ اليُمْنُ كُلُّهُ وَحُقَّ عَلَيْنَـا أَنْ يُـدَامَ لَـهُ الشُّكْـرُ
فَـدُونَـكَ مِنْ دُرِّ الثَّـنَـاءِ جَـوَاهِـرٌ وَعَنْبَرُ أَمْدَاحٍ مَجَامِرُهَا (181) الفِكْرُ
أَتَيْتُ بِـهِ نَزْرًا مِنَ القَـوْلِ تَجَمُّـلاً وَهَلْ تُحْسَبُ الحَصْبَاءُ أَوْ يُحْصَرَ القطْرُ (182)
لِمَـا أَنَّ إِحْصَـائِي كَمَـالَـكَ مُعْجِـزٌ وَلِي فِي اَلتَّجَافِي عَنْ تَفَاصِيلِهِ العُذْرُ (183)
3] / وَلَسْتَ بِمِّنْ يَزْدَادُ بِالمَدْحِ رُتْبَةً (184) وَلاَ أَنَـا بِمَّنْ عَـدَّ حِلْيَتَـهُ الشِّعْـرُ

---

(178) في المخطوط : العزّ . والإصلاح من الكنّش .
(179) في الكنش : وأرخى رداء الامن والفضل والامر فيصير بالبيت إقواء .
(180) في الكنش : جيشه . و « شيسة » قد تكون اسما لموضع وقد تكوّن صفة لأسْد مشتقة من شَئِسَ المكان أي كان غليظ الحجارة فألحق ذلك بالاسود . هي على وزن فَعِلَةً شَئِسَةً حففت همزتها فصارت شيسة (انظر اللسان مادة شأز . وفيه أيضا نجد تقاطعا بين شوسَّ وشئِسَّ وشأزّ)
(181) في الكنش : مجامره
(182) في الكنش : الدرّ
(183) ورد العجز في الكنش على النحو التالي : وَهَلْ تُحْسَبُ الحَصْبَاءُ أَوْ يُحْصَرُ الدُّرُّ وهو عجز البيت الذي قبله من المخطوط المحقق مع ابدال الدر بالقطر .
(184) رفعة بالكنش عوضا عن رتبة .

وَلَكِنَّ ذا عُنْـوانَ حُبٍّ مَنَحْتُـهُ   عُـلاكَ وَأَضْعافًا لَـهُ أَوْدَعَ الصَّدْرُ
قَدُمْ في مَراقي العِزِّ غَيرَ مُزاحَمٍ   وَلازالَ ثَغْـرُ السَّعْـدِ نَحْـوَكَ يَفْتَرُّ
وَدامَ لِمَـوْلانَـا السُّـرُورُ مُضَـاعَفًـا   وَطالَ لَهُ في العِزِّ السَّعْدُ وَالعُمْـرُ

وَكَتَبَ مُهَنِيا لحضرة الوزير الاكمل ذي الفخار الهمام أبي النخبة مصطفى خزندار (البسيط) (185)

لَـكَ السَّعَـادَةُ في حِلٍّ وَمُـرْتَحَـلِ   إذْ أَنْتَ مِنَّا نَظِيرُ النُّورِ في المُقَلِ
فإنْ تَباعَدْتَ شَخْصًا فالقُلُوبُ غَدَتْ   مَنازِلًا أَنْتَ عَنْهَا غَيْرُ مُرْتَحِلِ (186)
وَمَا يَضُرُّ العُلَا إنْ غِبْتَ عَنْ نَظَرٍ   فَطِيب ذِكْـرِكَ لَمْ يَبْـرَحْ وَلَمْ يَـزُلِ
وَقَـدْ غَـدَا صَادِحُ العَلْيَـا يُسْمِعُنَـا   قَوْلًا هُوَ الغَايَةُ القُصْوَى في الأَمَلِ
آبَ الـوَزِيـرُ فـآبَتْ كُـلُّ مَكْـرُمَـةٍ   في سِلْكِ مَاقادَ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ خُوَلِ
ذاكَ الذّي قَدْ غَدَا في فَضْلِهِ مَثَلًا   وَمُصْطَفى مَالَهُ في الدَّهْرِ مِنْ مَثَلِ
شَخْصٌ تَصَوَّرَ مِنْ نُبْلٍ وَمِنْ كَرَمٍ / فَجَاءَ فَذًّا بِكُـلِّ المَكْـرُومـاتِ مُـلِي [37]
شَخْصٌ أَحاطَتْ بِهِ أَوْصَافُ سُؤدَدِهِ   فَانْظُرْ تَجِدْهُ جَمِيعَ النَّاسِ في رَجُلِ
قَدْ أَضْمَرَتْهُ العُلَا في سِرِّها حِقَبًا   حَتَّى غدا غُرَّةً في أَشْرَفِ الدُّوَلِ (187)
يامَنْ جَعَلْتُ حِمَى قَلْبي له سَكَنًا   وَالحُبُّ يَشْهَـدُ أَنِّي غَيرُ ذِي زَلَـلِ
خُذْ جَوْهَرًا قَدْ غَدَا فِكْرِي يَرْصَفُهُ   لَـهُ نَضارَةُ رَوْضٍ شِيبَ بـالبَلَلِ
أَمْـلاهُ وِدُّكَ وَالأَقْـلامُ تَـرْقُـمُـهُ   فَجاءَ مَدْحًا يُحاكِي رِقَّةَ الغَـزَلِ
لازِلْتَ تَكْسُـو زَمَـانًـا أَنْتَ بَهْجَتُـهُ   مَحَاسِنًا تَـزْدَري بـالحُـلَى والحُلَلِ

تحقيق : المختار كريّم

---

(185) هذه القصيدة موجودة بالكنش المذكور أعلاه رقم 16511 الورقة 106 آخر الظهر ووجه الورقة 107 وقد نسبت خطأ أيضا لمحمد بن الطيب سلامة .

(186) في الكنش انت عنها غير منتقل .

(187) هذا البيت ساقط من الكنش .

عِلْمُ النّبات عند العرب
من مرحلة التدوين اللغوي
الى مرحلة الملاحظة العلميّة المحْض

بقلم : ابراهيم بن مراد

نعتقد أنْ ليس من باب المبالغة القولُ بأنّ علمَ النبات لم يَلْقَ من الحُظْوَة والاهتمام عند الأمم السالفة ما لَقِيَهُ عند العرب في القرون الوُسطى ، وأنّ المباحثَ فيه لم تشْهَدْ عند أمّة من الأمم السابقة ما شهدته من تطوّر على أيدي علماء النبات العرب . وليس ذلك في الحقيقة بدْعًا ، فهم ـ بعد مرحلة بداوتهم في الجزيرة العربيّة ـ قد انتشروا في الأرض انتشارَهم الواسع وتكوّنت أجيال عربيّة تلَتْها أجيال تمكّنوا من الاطلاع على مواليد الطبيعة في الأمْصَار المختلفة والبيئات المتنوّعة . وحصلت لهم من ذلك خِبْرة كبيرة بالنباتات ومعرفةٌ جيّدة بها . وقد تحقّقت لهم من ذلك كلّه تجربة فذّة في علم النبات جعلت منهم السبّاقين إلى الاهتمام بعلم النبات المحْض . ذلك أنّ غيرهم من الأمم قد اهتمّوا بعلم النبات ضمن اهتمامهم بعلوم ومباحثَ أخرى . ونذكر من تلك الأمم خاصّة اليونانيّين والرومان ، وأهم علماء النبات عند اليونان اثنان : هما ثيوفراسطس (Théophrastos) دِيُوسْقُرِيدِيس (Dioscorides) . وقد اهتم الأوّل بالنبات ضمن اهتمامه بالفلسفة ، واهتمّ به الثاني ضمن

اهتمامه بالطبّ والصيدلة . وأهمّ علماء النبات عند الرومان اثنان أيضا : هما بَلِينُوس (Plineius) وأبلُيُوس المادُوريّ (Apuleius) ، وقد اهتمّ به الأول ضمن اهتمامه بعلوم الطبيعة عامة ، واهتمّ به الثاني ضمن اهتمامه بالطبّ والصيدلة . والحقيقة أنّ العرب أيضا لم يُعْنَوْا ـ طيلة مدّة لا يستهان بها من تجربتهم العلميّة ـ بالنبات لذاته ، بل اهتمّوا به ضمن مباحِثهم في اللغة في البداية ثم ضمن مباحثهم في الطبّ والصيدلة . إلاّ أنّهم ـ في القرنيْن السادس والسابع للهجرة خاصّة ـ قد جعلوا منه علما مخصوصا لذاته وعُنُوا به عناية خاصّة فقاموا بالرحلة من أجله بحْثا عن أعيانه في مظانّها داخل البلاد العربيّة الاسلامية وخارجَها ، وتدْقيق البحْث في أنواعه وأجناسه على اختلافها ، حتى تهيّأ لهم من معرفتِه ما لم يتهيأ لغيرهم من الأمم السابقة . وذلك ما جعل من تجربتهم في علم النبات تجربةً فذّة تتنزّل منزلة متميّزة في التراث العلميّ الانسانيّ .

وسنحاول في هذا البحث أن نستَجْلِيَ بعض أوْجُهِ تلك التجربة ، بالحديث عن أربع مراحلَ مِن اهتمامهم بعلم النبات : أُولاهَا مرحلةُ التدْوين اللغويّ ، وثانيتُها مرحلة النقل والترجمة التي مكّنتهم من الاطلاع على مباحث اليونان في علم النبات ، وثالثتُها مرحلة الاهتمام الطبيّ والصيدليّ بالنبات ، ورَابِعَتُهَا مرحلة الملاحظة العلميّة المحْض (1) .

1 ـ مرحلَةُ التدوين اللغويّ :

لقد نشطت حركة التدوين اللغويّ في القرنيْن الثاني والثالث للهِجْرة خاصّة . فقد سعى علماءُ اللغة في هذه الفترة من تاريخ اللغة العربيّة إلى جمع

(1) لقد اهتم العرب بالنبات ضمن اهتمامهم بعلم الفلاحة أيضا . وقد أهملْنا الحديث عَمْدا عن هذا الجانب ، لأنّهُ قد خصّ بدراساتٍ سَابِقةٍ .

المتفرّق من مفردات اللغة وخاصّة منها الدّالّة على الأشياء وصفاتها . وتجمّع لهم من ذلك عددٌ كبير من الرسائل في مواضيع شتّى : كالحيوان ـ مثل الإبل والشّاءِ ـ والانسان والمطر والسّحاب والبئر . . . الخ . وقد كان النبات من أهمّ المواضيع التي شغلتهم فأفردُوه برسائلَ مستقلّة غلب فيها الجمْعُ وقلّ فيها الترتيب المنهجيّ الدّقيق . واللغويّون الذين ألّفوا في النبات كثيرون (2) . نذكر منهم خاصّة الأصمعيّ (ت . 213 هـ / 828 م) مؤلفَ « كتاب النبات » وأبا زيد الأنصاري (ت . 215 هـ / 830 م) الذي يُنْسَبُ إليه كتابُ « النبات والشجر » وابن الأعرابيّ (ت . 231 هـ / 845 م) الذي نُسِبَ إليه كتابُ « النبات » وكتابُ « النبت والبَقْل » ، وابنَ السكيّت (ت . 246 هـ / 860 م) الذي نُسِبَ اليه كتاب « العشب والبقل » وكتاب « الشجر والنبات » . . . الخ .

والغالب على مؤلّفات هذه الفترة ـ النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجريَّيْن ـ صفةُ الرسائل ، والغالب على مُؤَلّفيها الرغبةُ في جَمْعِ اللغة وتدوين مفرداتها المتّصلة بالنبات وصفاته . فعمَل هؤلاء يمثل إذَنْ ـ في أساسه ـ مرحلة جمع مفردات « المعجم النباتي » العربيّ . وبما أنّ غَايتَهم كانت لغويّةً محضا فإنهم لم يُعْنوا بالبحث عن النباتات في مظانّها ولم يهتمّوا بالبحث في أصناف النبات وأنواعه وأجناسه ولم يحاولوا استيعاب ما في البيئة العربيّة من نباتات بل اكتفوا بتدوين ما بَلَغَهُم من الرّواة وذكره الشعراء في قصائدهم . ونُمَثّل لمؤلّفات هذه الفترة بكتاب « النبات »

(2) انظر حول الرسائل المؤلّفة في هذه الفترة : Sezgin : GAS 3/330 - 338 .

للأصمعي ، وهو رسالة صغيرة (3) قد جمع فيها مؤلّفها حوالي ثلاثمائة اسم من أسماء النباتات العربيّة . ولكنّ معظم هذه المفردات قد ذُكِرَ غُفْلاً من التعريف . ويبدو أنّ غاية المؤلّف الأساسيّة من رسالته هي جَمْعُ « مادّة نباتية » مِمّا تُنْبِتُه أرض الجزيرة العربيّة . وقد غلبت عليه في ذلك الجمع ثلاثةُ اهتمامات بارزة : أوّلها التعريفُ اللغويّ بالأرض المُنْبِتَة (4) ، وثانيها التفريقُ بين النبات والشجر (5) وثالثُها التوزيع الجغرافي لبعض أنواع النبات (6) . على أنّ حديثَه عن هذه الأغراض الثلاثة كان متداخِلاً غير خاضع لترتيب معيّن ، يغلب عليه الاستشهاد اللغويّ والشواهدُ الشعريّة على طريقة أهل العصر في التأليف ، وذلك ما جعل - في نظرنا - قيمة هذه الرسالة وأمثالِها لغويّة مَحْضًا ، لا تتجاوز ما ابتغاه واضعُوها من جمع اللغة وتدوين متفرّقها في موضوع مخصوص هو النبات .

على أنَّ القرن الثالث الهجريّ قد شهد ظهور كتاب آخر جليل القدْرِ عظيم الخطر في تاريخ علم النبات عند العرب ، وهو « كتاب النبات » لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوريّ (ت . 282 هـ / 895 م) . وهذا الكتاب لم يكن مجرّد رسالة في صفات النبات وأسمائه بل كان موسوعة نباتية في حوالي ستة أجزاءٍ أربعةٌ منها في موضوع النبات عامة واثنان في أسماء النباتات مرتّبة على حروف المعجم . وقد ضاع معظم هذا الكتاب ولم يبق منه إلا بعْضٌ

---

(3) نشرها هفنر بعنوان « كتاب النبات والشجر لأبي سعيد الأصمعي » (ط 2 ، بيروت 1908 ، في 48 ص) ، وأعاد نشرها عبد الله يوسف الغنيم ، وعلى هذه النشرة الثانية اعتمدنا في هذا البحث . والملاحظ أن نسبة الرسالة الى الأصمعي قد أثارت جدلا : انظر حسين نصّار : دراسات لغويّة ، ص ص 69 - 70 .

(4) الأصمعي : كتاب النبات ، ص ص 3 - 13 .

(5) نفس المصدر ، ص ص 13 - 19 ، 22 - 23 و27 - 33 .

(6) نفس المصدر ، ص ص 19 - 24 و36 - 37 .

نخصّ بالذكر منه قسمًا مهمًا من الجزء الخامس يحتوي معجم أسماء نباتية (7) ، إلّا أن معظم موادّ هذا المعجم قد بقي في كُتُبِ العلماء اللاّحقين في الزمن لأبي حنيفة ، فقد كان « كتاب النبات » مصدرا أساسيًا لمن اهتمّ بعْدَ أبي حنيفة بالنبات ، فاقتبس منه مؤلفُو المعاجم اللغويّة والأطباءُ والصيادلة المؤلفون في الأدوية المفردة ، وقد قام العالم الهنديّ محمد حميد الله بجمع المتفرّق من موادّ الكتاب في تلك المصادر (8) وقد حصل له من ذلك 638 مادّة أضافها إلَى ما نشره من قبل المستشرق برنارْ لوين .

والناظر في هذا المعجم يتبينّ بيسر انتماءَهُ إلى المرحلة اللغويّة . فالمصادر الأساسية التي اعتمدها فيه أبو حنيفة لغوية ، وخاصّة الرواة من الاعراب ، وعلماءَ اللغة ، مثل أبي زياد الأعرابي يزيد بن عبد الله الكلابي (9) الذي يتنزّل بين مصادره منزلةً خاصّة ، والفرّاءِ (ت . 207 هـ / 822 م) وأبي عبيدة (ت . 210 هـ / 825 م) والأصمعيّ (ت . 213 هـ / 828 م) وأبي زيد الأنصاري (ت . 215 هـ / 830 م) وأبي عُبَيْد (ت . 224 هـ / 839 م) وابن الأعرابي (ت . 231 هـ / 845 م) وأبي تصر أحمد بن حَاتم (ت . 231 هـ / 845 م) . . . الخ . ثم إنّه قد نحا نحو سابقيه من علماء اللغة في التمثيل بالشواهد ، فهو يكثرمن إيراد الشواهد إكثارًا ظاهرا (10) ومعظمها من الشعر ـ ديوانِ العرب ـ وبعْضُها من القرآن الكريم والحديث

(7) قد نشره برنار لوين (B. Lewin) ، وفيه موادّ الحروف (أ ـ ز) ، وسيكون على هذا الجزء اعتمادنا الأكبر في هذا البحث ؛ وعدد الموادّ فيه 482 مادّة .

(8) أضاف موادّ الحروف (س ـ ي) ، وسنعتمد هذا الجزء اعتمادا قليلا .

(9) يذكر ابن النديم في الفهرست (ص 44) أنه قدم بغداد أيام المهدي (154 هـ / 771 م ـ 169 هـ / 785 م) وأقام بها أربعين سنةً وقد كان شاعرًا وألف في اللغة ، إلا أنه لم ينسب إليه كتابا في النبات .

(10) المادة الأولى وحدها ـ أراك ـ فيها ثلاثون شاهدا : كتاب النبات ، 1/2 ـ 10 .

النبوي الشريف (11) ، وهو يُكْثِرُ مِن الاسْتِطْرادِ ، إمّا لِتَفْسِير شاهِدٍ شعريّ أو للبحْث في اشْتِقَاقَاتِ المفرَدة المتَحدَّثِ عَنْهَا أو للتعليق على قول مرْويّ بقول مرويّ آخر ، بل إنّ الاستطراد عندَه قد يكون بالاسترسال في الحديث عن موضوع جديد يُقْحِمُه في المادّة التي يتحدّث عنها إقحاما دون أن يكون له بها علاقة ، مثل الذي فعل في مادّة « أثل » حيث تحدّث عن « الأواني والصِّحَافِ » مبتدِئًا استطرادَهُ بقوله : « وإذْ قد جرى ذكرُ الأواني والصّحاف فسَنَصِفُ منها ما يحضرنا ذكْرُه » (12) .

على أنّ أبا حنيفة قد تجاوز سَابِقِيهِ من المؤلّفين في المادّة النباتية تجاوزا كبيرا . فهو ينتمي الى مدرستهم اللغويّة بدون شكّ ، ولكنّه قد أضاف إلى مناهج سابقيه إضافاتٍ مهمّة قد أخرجت كتابه من حيّز الاهتمام اللغويّ الضيق إلى ميدان الدراسة العلميّة الشاملة . ولا شكّ أن لعِلْمانيَّة أبي حنيفة دورًا في ذلك . فهو لم يكن مجرّد جمّاعة للأخبار والنوادر والأشعار والمتفرِّق من شتات مُفْرَدَات اللغة مثل الذي كانَهُ معظم سابقيه ، بل كان عالما موسوعيًا قد عُنِيَ ـ إضافة الى علوم اللسان ـ بعلوم أخرى مستجدَّةٍ في عصره ، وخاصّة الحسابَ والفلكَ والطبّ والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات (13) . وهذا التعدّد في المعارف قد جعل أبا حنيفة في نظرنا أوْسعَ أفقًا من سابقيه وأعْرفَ منهم بموضوع النبات . وقد ظهر ذلك واضحا في كثير من الجوانب الجديدة

---

(11) من المواد التي ذكر فيها شواهد قرآنية : « أب » ، 38/1 ، و« جنا » ، 92/1 ، و« حصاد » 114/1 ، و« حطام » 141/1 ، و« خضر » ، 150/1 ؛ ومن المواد التي ذكر فيها شواهد من الحديث : « شبرم » ، 61/2 ، و« غبيراء » ، 167/2 ، و« غرقد » ، 171/2 .

(12) ابو حنيفة : كتاب النبات ، مادة « أثل » ، 17/1 . وقد استغرق هذا الاستطراد أربع صفحات : 17 ـ 20 .

(13) انظر الثبت المفصّل لمؤلفات أبي حنيفة في مقدمة حميد الله الفرنسية للقسم الثاني من كتاب النبات ، ص ص 53 ـ 56 .

التي يَفْضُل بها كتابُه على الكتب التي ألّفها اللغويّون مِنْ قبلِه . وتتلخّص تلك الجوانب فيما يلي :

أ ـ حجم الكتاب : فهو كتاب كبير الحَجْم متعدِّد الأَجزاء بينما كان معظم المؤلَّفات الأخرى رسائلَ صغيرة .

ب ـ ترتيبُ المادَّة : فقد كانت المؤلفات السَّابقة غيرَ خاضِعَة في معظمها لترتيب مُعَيّن . بَيْنَما أخضع أبو حنيفة كتابه لنوعيْن من الترتيب : أوّلها الترتيب الموضوعيّ ، فهو قد قَسَّم الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه إلى أبواب مستقلّة خَصَّ بكلّ باب موضوعًا مستقلاً من مواضيع النبات والمواضيع المتّصلة به . وقد أحال في القِسْم الأوّل من معجمه على عدد كبير من تلك الأبواب نذكر منها « باب النبات العامّ» (14) و« باب وصف العُشْب العام » (15) « وباب تجْنِيسِ النبات » (16) و« باب ذكر جماعات الشّجر » (17) و« باب الزَّرْعِ » (18) و« باب الزَّرْع مع القطاني » (19) و« باب النّخْل » (20) و« باب الكرم » (21) و« باب الكَمْأَة » (22) و« باب النبات الطيّب الرائحة » (23) و« باب العُلُوك » (24) و« باب اللّثا

---

(14) انظر في القسم الأوّل من الكتاب الموادَّ 93 ص 62 ، 107 ص 64 ، 109 ص 65 . . . الخ .
(15) نفس المصدر ، المادة 105 ، ص 64 .
(16) نفس المصدر ، المادة 105 ، ص 63 .
(17) نفس المصدر ، الموّاد 1 ، ص 4 ، 42 ص 40 ، 44 ص 40 .
(18) نفس المصدر ، الموّاد 45 ص 40 ، 99 ص 63 ، 106 ـ 107 ص 64 .
(19) نفس المصدر ، المادّتان 70 ص 45 ، 87 ص 54 .
(20) نفس المصدر ، الموادّ 34 ص 38 ، 35 ص 38 ، 36 ص 39 ، 37 ص 39 . . . الخ .
(21) نفس المصدر ، المادّة 67 ص 45 .
(22) نفس المصدر ، المادّة 41 ص 39 .
(23) نفس المصدر ، المواد 39 ـ 40 ص 39 ، 91 ص 60 ، 94 ص 62 . . . الخ .
(24) نفس المصدر ، المادّة 74 ص 47 .

والصُّمُوغ » (25) و« باب ما يُصْنَعُ من النبات » (26) . . . الخ . وثانيهما ترتيبُ أسماء أعيان النبات على حروف المعجم في الجزْأَيْن الأخيرين ، الخامس والسادس من الكتاب . وقد أشار إلى هذا الترتيب في مقدّمة معجمه ـ وقد حذفها المحقق لسبب لم يُبِنْ عنه واكتفى بذكر مقتطف منها في تمْهيده ـ بقوله : « ونجْعَلُ تصْنِيفَ ذلك على توالي حُروف المعْجَم كما تُوالِيهَا العامّة إن شاء الله ، وتصْنيفُها على حروف أوائلها أحبّ إليّ من تصنيفها على حروف أواخرها . وإنّما آثرْنَا هذا التصنيفَ لأنّه أقربُ إلى وِجْدَانِ المطلوب وأهْوَنُ مَؤُونَةً على الطّالب من كلّ تصنيفٍ سِوَاهُ فيما نرى » (27) . إلاّ أنّ هذا الترتيب المعجميَّ شديدُ الاضطراب كثيرُ الاختلال المنهَجِيِّ ، ذلك أنّ المؤلّف لم يُراعِ فيه إلاّ الحَرْفَ الأوّلَ من الكلمة وأهملَ تَتابُعَ الحروف التالية له ، وهذا ترتيبُ المواد العشرين الأولى من حرف الالف : 1 ـ أراك ، 2 ـ اسحل ، 3 ـ أثْأب ، 4 ـ أثل ، 5 ـ أرز ، 6 ـ اشكل ، 7 ـ آء ، 8 ـ ألاء ، 9 ـ أَرْطى ، 10 ـ آس ، 11 ـ أسْتَن ، 12 ـ إخْرِيط ، 13 ـ أَفَانٍ ، 14 ـ أقْحُوَان ، 15 ـ أيْهَقان ، 16 ـ إسْلِيح ، 17 ـ إعْلِيط ، 18 ـ إحْرِيض ، 19 ـ إغْرِيض ، 20 ـ أجْرَد .

ج ـ التعريف العلميّ : فقد تجاوز ظاهرةَ التعريف بالترادُف أو بنسبة النبات إلى نوعه أو إلى موضع منبته إلى التعريف العلميّ الدقيق بوصف النبات وصفا دقيقا ووصف ثمره وطعمه ورائحته . وهذا النوع من التعريف دالّ في رأينا على أن أبا حنيفة يمثل بداية الاهتمام بالملاحظة العلميّة المحْض في دراسة النباتات . ونذكر من أمثلة هذا النوع من التعريف قوله في مادّة « حَلَمَة » :

(25) نفس المصدر ، المواد 38 ص 39 ، 118 ص 68 ، 128 ص 72 . . . الخ .
(26) نفس المصدر ، المواد 9 ص 25 ، 93 ص 40 ، 80 ص 52 . . . الخ .
(27) نفس المصدر ، تمهيد المحقّق ، ص 6 .

« ترتفع الحَلَمَةُ دون الذراع ، ولها ورقة غليظة ، وأفنان كثيرة وزهرة مثل شقائق النعمان إلّا أنها أكبر وأغلظ ، والحَلَمَةُ كثيرة البراعيم والأفنان كأنّ براعيمها حَلَمُ الضروع ، والفرق بينها وبين شقائق النعمان أنّ نورةَ شقائق النعمان ترتفع في رأس قضيب طويل أجردَ ، وليس بشجرة الشقائق من كثرة البراعيم مثل ما للحملة » (28) ؛ وقوله في مادة « رقع » : « الرقع شجرة عظيمة كالجوزة ، ساقها كساق الدُّلْبَةِ ، ولها ورق كورق القرع أخضر فيه صُهبة يسيرة ، ولها ثمر أمثال التين العِظَام كأنه صغار الرمّان ، لا ينبت في أضعاف الورق كما ينبت التين ولكن من الخشب اليابس يتصدّع عنه ، وله معاليق وحِمْلٌ كثير جدّا » (29) .

د ـ حديثه عن منافع النبات : وهي صنفان ، عامّة وخاصّة . أمّا المنافع العامّة فمتّصلة باستعمال النبات المتحدَّث عنه في الحياة العامّة . وقد خصّ المؤلف تلك المنافع بأبواب مستقلّة في الأجزاء الأولى من الكتاب ، مثل « باب السّواك » (30) و« باب الدباغ » (31) و« باب القِسيِّ » (32) و« باب ما يَصْبُغُ به من النبات » (33) . . . الخ . وقد أعاد الحديث عن تلك المنافع ـ وكثيرٍ غيرِها ـ عند تعريفه بأعيان النبات في معجمه . أمّا المنافع الخاصّة التي اهتمّ بها أبو حنيفة فمتّصلة بالمداواة والعلاج خاصّة . وهو باب جديد قد أدخله هو في كتب اللغة ، إذْ لا نعرف إلى حدّ الآن عالما لغويّا آخر ممن ألّفوا في النبات قد اهتمّ به . على أن اهتمام أبي حنيفة أيضا لا يتجاوز

---

(28) نفس المصدر ، المادّة 221 ، ص 102 .
(29) نفس المصدر ، المادّة 446 ، ص 198 .
(30) قد أحال عليه في الموادّ 1 ص 3 ، 72 ص 46 ، 141 ص 75 . . . . الخ .
(31) نفس المصدر ، المادّة 8 ص 23 .
(32) نفس المصدر ، المادّتان 1 ص 6 ، 117 ص 67 . . . الخ .
(33) راجع التعليق 26 .

بعض الإشارات الصغيرة ، نذكر من ذلك مثلا قولَه عن « اسحار » إنّ له حَبّا « يُؤكَلُ ويُتَدَاوَى به ، وفي وَرَقِهِ حُروفَة ، لا يأكله الناس ولكنّه ناجح في الإبل » (34) ؛ وقولَه عن « الأيْدع » إنّه « تُداوَى به الجراحات » (35) ؛ وقوله عن « أمّ وجع الكبد » إنّها سُمّيَتْ بهذا الاسم « لأنها شِفَاءٌ من وجع الكبد والصَّفَرِ . اذا غُصَّ بالشرسوف يسقى من عصيرها » (36) ؛ وقولَه عن « الاسحفان » انه غير صالح للرّعي « ولكن يُتَداوَى به من النَّسَا » (37) . . الخ .

وما يمكن استنتاجُه ممّا سبق هو أن أبا حنيفة قد طوّر التأليف في كتب النبات اللغويّة وأدخل عليه منهجا جديدا لم يكنْ مُتَعَارفًا من قَبْلِهِ عند علماء اللغة . وأهَمُّ سِمَاتِ ذلك المنهَج الجديد إحْلاَلُ أبي حنيفة في كتابه ما نريد تَسْمِيَتُهُ بـ « الفَقْرَة النَّبَاتيّة »،ونَعْني بالفقرة النّباتيّة التعريف المتكامِل بالنّباتِ ، وهي ممّا اختصت به كتب الأطباء والصيادلة المؤلّفة في الأدوية المفرَدةِ ، وقد ركّزها هَؤُلاَءِ على أركان قارّة متفاوتة العدَدِ من عالم لآخر ، وقد ظهر منها في كتاب أبي حنيفة أربعةُ أركان : أوّلها التعريف اللغويّ المحْضُ ، وثانيها التعريف العلمي بخصائص النبات ، وثالثُها التعريف بمنافعه ، ورابعُها التعْرِيف بمواضِعِ نباته . ونذكر من الفقرات « التامّة » عندهُ ما أوردهُ في مادّتَيْ « ثيل » و« حِنَّاء » ، فقد عرّف النبات الأول بقوله : « قال أبو عمرو : الثيل يقال له النجْمُ ، والواحدة نَجْمَة (. . .) ، وقال بَعْضُ الرواة : الثيل نبات يَشْبِكُ الأرض (. . .) ورقُه كورق البُرّ الا أنه أقصرُ ، ونباتُه فَرْشٌ على

(34) أبو حنيفة : كتاب النبات ، 1 / 36 (المادة 27) .
(35) نفس المصدر ، المادّة 38 ص 39 .
(36) نفس المصدر ، المادّة 59 ص 43 .
(37) نفس المصدر ، المادّة 61 ص 44 .

الأرض يذهب ذهابا بعيدا ، ويشتبك حتى يصير على الأرض كاللِّبْدَةِ ، ولذلك سُمِّيَ الوَشِيجَ (. . .) ، وله عُقَدٌ كثيرة وأنابِيبُ قِصَارٌ ، ولا يكاد ينبت إلاّ على ماءٍ أو في موضع تحته ماء ، وهو من النبات الذي يُسْتَدَلُّ به على الماء » (38) ، وعرّف النبات الثاني بقوله : « حنَّاء : واحدتُه حِنّاءَةٌ ، وبه سُمِّي الرجل حِنّاءَةً ، وأصله الهَمْزُ (. . .) وشجر الحنّاء شجر كِبَار مثل شجر السِّدْرِ ، وللحنَّاءِ فاغية وهي نوْرتُه ، وبزْره عناقيد متراصِفة إذا تفتّحت أطرافُها شَبَّهْتَها بما يَنْفتح من الكُزْبُرَةِ إلاّ أنّها طيّبة الرائحة ، وإذا تَحاتَّ نوْرُه بقيت له حبّة غبْراءُ صغيرة أصغر من الفُلْفُلَةِ (. .) وشجره يورِّق في العام مرتيْن أي يؤخَذ ورقُه ، والحنَّاء بأرض العرب كثيرٌ . فأما الخِضَاب فقد وصفْنَاه في باب ما يُخْتَضَبُ به من النبات » (39) .

على أنّ هذه الطريقة لم تكن ـ فيما يبدو لنا ـ من ابتكار أبي حنيفة . فهي قد ظهرت لأول مرّة في كتب الأدوية المفردة ، وأول كتاب ـ حسب علمنا ـ عرف فيه العربُ هذه الطريقةَ هو كتاب « المقالات الخمس » ـ ويسمّى أيضا « كتاب الحشائش » ـ لديوسقُرِيديس ، وقد نُقِلَ هذا الكتابُ الى العربية في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة ، وقد كان له أثر واسع فيما ألّفَ العربُ في الأدْوية المفرَدة منذ القرن الثالث . وليس غريبا من عالِم موسوعيّ مثل أبي حنيفة أن يسعى إلى الاطّلاع على تلك المؤلفات وأن يقتبس منها . ولعلّ أصدَقَ دليل على ذلك ميْلُه إلى ذكر الخصائص العلاجية لبعض النباتات ، ثم إشارته في إحدى موادّ كتابه إلى « المتطبّبين » ـ وهم الأطباء ـ ، فقد قال عن « العُنْصُل » ـ فيما رواه عنه ابن البيطار ـ : « ويعْظُم حتى يكون مثل الجُمْع ، ويقع في الدواء ، ويقال له العُنْصُلَان أيضا ، وأصوله

(38) نفس المصدر ، المادّة 149 ص 82 .
(39) نفس المصدر ، المادّة 227 ص 106 .

بِيضٌ (. . .) والمتطبّبون يسمّونه الاشقيل » (40) . إلاّ أن هذا الاقتباس من الكتب الأخرى لا ينقص من أهمية أبي حنيفة وكتابه في تاريخ علم النبات عند العرب ، ولو لم يكُنْ له إلاّ فضْلُ جَمْعِ المادّة النباتية العربيّة وتَبْوِيبها تبويبًا علميًا منهجيًا لكفاه ذلك فَخْرًا .

2 ـ مرحلة الترجمة :

لقد عُنِيَ العرب من بين ما عُنُوا به من العلوم الأعجميّة بعلم النبات . ولكنّ عنايتَهُم به تُعْتَبر ضَئِيلَةً إذا قيست بما أَوْلَوْهُ للطب والفلسفة من عناية . فالكُتب النباتية الأعجميّة التي وصلتنا ترجماتُهم لها نادرة جدّا ، لا يبلغ عددُها الخمسةَ ، وهي :

أ ـ كتاب « النبات » لأرسطو : قد وصفه اليعقوبي (ت . بعد 278 هـ / 891 م) في « تاريخه » وقال عنه إنّه « في الابانة عن عِلَلِ النبات وكيفيّاته وخواصِّهِ وعوامّه وعلل أعضائه والمواضع الخاصّة به وحركاته » (41) . ولكن يبدو أن العرب لم يَنْقُلُوا هذا الكتاب بل نقلوا تفسيرَه الذي وضعه نِيقُولَاوسُ الدمشقي ، وقد نَقَلَ هذا التفسير إسحاقُ بنُ حنين وأصلحَه ثابت بن قرّة (42) بعنوان « تفسير كتاب أرسطاطاليس في النبات » .

(40) انظر كتاب « الجامع » لابن البيطار ، 2/138 ، وقد نقل حميد الله هذه الفقرة : كتاب النبات ، 2 / 156 ـ 157 .

(41) اليعقوبي : التاريخ ، 1 / 131 .

(42) انظر الفهرست لابن النديم ، ص 254 ، وعبد الرحمان بدوي : Transmission de la philosophie grecque p , 58 et 108 .

ب ـ كتابُ « أسباب النبات » لثاوُفْراسْطس (372 ـ 287ق.م) وهو كتاب يبحث في الفروق بين النباتات ، اعتمادًا على فلسفة أرسطو ، وقد عرّب هذا الكتابَ ابراهيم بن بكّوس (43) .

ج ـ كتاب « في النبات » لجالينوس . ولانعرف عن هذا الكتاب وترجمته العربية شيئا لأنه قد ضاع ولم يبْقَ إلّا في ترجمَة لاتينيّة موضوعة عن النص العربيّ (44) .

د ـ كتاب « الحشائش » لديوسقريديس (من القرن الأوّل الميلادي) ويسمّيه العرب كتاب « الخمس مَقالات » أيضا ، لانه مقسم إلى خمس مقالات ، وهو في الحقيقة ليس كتابا خالصا في النباتات بل هو في الأدْويَة المفرَدة قد تحدّث فيه مؤلفُه عن المنافع العلاجيّة لعدد هائل من الموّاد المنتمية الى المواليد الثلاثة ، النبات والحيوان والمعادن ، إلّا أن حظ المادّة النباتية كان أغلبَ ، ولذلك سُمِّي بكتاب الحشائش . ومؤلفه ـ ديوسقريديس ـ قد غَلَبَ النّباتُ عندَهُ على الطبّ ، وقد احتوى كتابُه على حوالي 500 نبات جديد . وقد أعانَه على اكتشاف هذا العدد الكبير من النباتات تَرْحَالُه الطويل وخاصّة في رفقة الجيش الرُّومَانيّ ـ وهو يقوم بالخِدْمَة العَسْكَرِيّة ـ حوالي ثلاثين سنة (45 ـ 75 م) . وقد حَظِيَ كتابُه بمنزلة رفيعة بين اليونانيّين أنفسِهم ، فقد قال فيه جالينوس : « تصفَّحْتُ أربعَةَ عشر مُصْحَفًا في الأدوية المفردة لأقوام شتّى فما رأيت فيها أتمّ من كتاب دياسقوريدوس (. .) وعليه احتذى كلّ من أتى بعدَه ، وخلّدَ فيه عِلْمًا نافعًا وأصلاً جامعا » (45) .

(43) ابن النديم : الفهرست ، ص 252 ، وكذلك : Sezgin : GAS, 3/313 .
(44) انظر سزكين في نفس المصدر السابق ، 314/3 .
(45) عن « طبقات الاطباء والحكماء » لابن جلجل ، ص 21 .

لَقِيَ الكتابُ حُظْوَةً كبيرة عِنْدَ العَرَبِ ، فنقله حُنَيْنُ بن اسحاق (ت . 260 هـ / 873 م) الى اللّغة السريانيّة ، ثمّ اعتنى به اصطفن بن بَسِيل - وهو أحَدُ تلاميذ حنين - فنقله الى العربيّة من اللغة اليونانية مباشرة ، إلّا أن ترجمة اصطفن لم تكن جيّدة فأعاد فيها حنين نفسُه النظرَ وأجازها ، وقد كان ذلك في زمن الخليفة العبّاسيّ جعفر المتوكّل (232 هـ / 847 م - 247 هـ / 861 م) (46) ، إلا أن هذه الترجمة - رغم مراجعة حنين لها - قد بقيت تثير مشاكل جمّة ، وخاصة في مستوى المصطلحات ، ذلك أن كثيرا من الأدوية المفردة التي تضمّنها الكتاب يونانيّةٌ محْضٌ ليس لها مقابلاتٌ في اللغة العربيّة ، فكان نقلُها الى العربيّة - لذلك - غيرَ ممكن . ثم إنّ من مصطلحاتِ الكتاب مَالَهُ مقابِلٌ في العربيّة لكن المترجمَيْن يجهلانه فكانا في مواضع كثيرة من الترجمة يكتفيان برسم المصطلح اليوناني بأحْرف عربية راجِيَيْن أن يأتيَ بعدَهُما من يستطيع اكتشاف المصطلحات العلميّة العربيّة المؤدّية للمصطلحات اليونانيّة المستَعْصِيَة عليهما (47) . وقد لخّص ابنْ جلجل الاندلسي ، فيما رواه عنه آبن أبي أصيبعة ، هذه المشكلة بقوله : « فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقْتِهِ له اسما في اللسان العربيّ فسّره بالعربية ، وما لَمْ يعلم له في اللسان العربي اسما تركَهُ في الكتاب على اسمه

(46) قد نشر هذه الترجمة قيصر دبلار (C. Dubler) في الجزء الثاني من اطروحته : «La Materia Medica de Dioscorides : Transmision medieval y renacentista» por Cesar E. Dubler (6 vol), 1er éd. Barcelona - Tetuan, 1952 - 1959 —

(47) نذكر من تلك المصطلحات - مستخرجةً من طبعة دبلار - مثلا : أسَارُون (ص 18) ، أَصْبَالاَتُش (ص 29) ، أغالوخُن (ص 31) ، نَشْقَفْشُ (ص 31) ، الانْيُون (ص 34) ، اقاقِليس (ص 87) ، أَلِيمُون (ص 88) ، أقاقيا (ص 96) ، أَطا (ص 99) ، اغْرِيالاَ (ص 100) . . الخ ، وكلها أسماء نباتات .

اليُونَانيّ ، اتكالا منه على أن يبْعَثَ الله بعدَهُ من يعرف ذلك ويفسّره باللسان العربيّ » (48) .

فالكتاب ـ إذَنْ ـ في ترجمته العربيّة لم يكن سهْلَ التناوُل لما يثيره من مشاكل في المستوى اللغوي الاصطلاحي خاصّة . فقد بقي فيه عدَدٌ هائل من النباتات مجْهُولاً . وقد بقي تأثيرُ الكِتَابِ ـ لذلك ـ محدودًا في كُتب الطبّ والصيدلة العربيّة طيلة القرنيْن الرابع والخامس الهجريّيْن ، وكان المؤلفون في الأدْوية المفردة حَذِرين في الاعتماد عليه خشية الوقوع في الخطإ . وذلك يعني أنّ نباتاتٍ كثيرةً ممّا دخل الثقافة العربيّة عن طريق الترجمة بقيت غريبةً مجهولةً لم يُنْتَفَعْ بها ولم تأخذ حَيِّزَهَا في المعجم النباتي العربيّ الذي كان أبو حنيفة قد وضع أُسُسَه . إلّا أنّ العلماءَ العربَ لم يقفوا موقف العجْز أمام تلك المشاكل ، بل واصلوا الاهتمام بالكتاب وبترجمَته البغْدَادِيّة خاصّة ، لرفع قِنَاع العُجْمَةِ عمّا بقي فيه مجهولا من أعيان النبات خاصّة . وقد كَثُرت ـ من أجل ذلك ـ مراجَعَاتُ الترجمة البغداديّة وشروحُها ـ اعتمادا على الأصل اليونانيّ أحيانا ـ منذ النصف الأول من القرن الرابع للهجرة (49) . وأهمّ تلك المراجعات إطلاقا هي المراجعة التي تمّت في الأندلس بعد أن أهدى ملك القسطنطينية إلى الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر سنة 337 هـ / 948 م نسخة يونانيةً مُحَلّاةً بالرسوم والصُّوَر من « كتاب الحشائش » . ثم أرسل نفسُ الملك بطلَبٍ من الخليفة الأموي عالما اسْمُه نِقُولاَ الراهب يُجِيدُ اللسانَيْن اليونانيَّ واللاتينيَّ لإعانة علماء قرطبة على الاستفادة من تلك النسخة اليونانية الجيّدة للكتاب . وقد

(48) ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2/46 ـ 47 .

(49) انظر حول ترجمة الكتاب ومراجعاته وشروحه : « انتقال مقالات ديوسقريديس إلى الثقافة العربية : ترجمةً ومراجعةً وشرحًا » لابراهيم بن مراد في حوْليّات الجامعة التونسيّة ، 24 (1985) ، ص ص 247 ـ 291 .

أقبل أولئك العلماءُ على الترجمة البغداديّة يعيدون النظر فيها ويصحّحون أخطاءَها ويزيلون العُجْمَةَ عمّا بقي فيها مجهولا . وقد لخّص ابن جلجل - وقد كان أحد المراجعين - فيما رواه عنه ابن أبي أصيبعة النتائجَ التي انتهت إليها تلك الجماعة بقوله : « فصحّ بِبَحْثِ هؤلاء النَّفَرِ الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريديسَ ما أزال الشكَّ فيها وَأَوْجَبَ المعرفةَ بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطْقِ بأسمائها بلا تصحيف ألاّ القليلُ منها الذِي لا بَالَ بِهِ ولا خَطَرَ له ، وذلك يكون في مِثْلِ عشرة أدْوِيَةٍ » (50) . إلاّ أن هذه المراجعَةَ - على أهمّيتها - لم تَحُلّ القضايا الاصطلاحية المتبقّية في الترجمة البغداديّة حَلاّ جذويّا وفعْليّا ، لأنّ أصحابَها - وإنْ لم يسْتَعْصِ عليهم إلاّ حوالي عشرة مصطلحات يونانيّة كما ذكر ابن جلجل - كانوا يلْجَأون في معظم الحالات إلى « تعريب » المصطلحات الأعجميّة اليونانية بمصطلحات أعجمية أخْرى لاتينيّة وبربريّة ، وذلك ما جعل الانتفاع بها محدودا لا يتجاوز بلاد الأندلس والمغرب ، وجعل الكتَاب في حاجة الى مزيد من الشرح والتعريب .

وقد تصدَّى لتلك المهمّة - فعْلاً - ثَلاَثَةٌ من جِلَّة علماء الأندلس هم ابن جلجل (ت . بعد 384هـ / 994 م) في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس » وقد استفاد فيه من المراجعة الأندلسية خاصّة فكان صَدًى لها ، ثم أبو العباس أحمد بن محمد النباتي (ت . 637 هـ / 1239 م) في كتابه « شرح أدوية دياسقوريدوس وجالينوس والتنبيهُ على أوهام مترجميها » ، ثم ابن البيطار (ت . 646 هـ / 1248 م) في كتابه « تفسير كتاب دياسقوريدوس » . وآخر هذه الكتب الثلاثة كان أهمّها لأسباب ثلاثة : أولها تمكّنُ ابن البيطار من مادّة « كتاب الحشائش » تمكّنا لم يبلُغْه أحدٌ من قبله

(50) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2 / 48 .

بشهادة تلميذِه ابن أبي أصبيعة الذي قال فيه « وأتْقَنَ درايةَ كتاب ديسقوريديس اتقانا بلغ فيه إلى أنْ لا يكادُ يوجَدُ من يجاريه فيما هو فيه » (51) ؛ وثانيها وقوفُه على أعيان النباتات التي ذكرها ديوسقريديس في مواضعها وتحقّقه من أسمائها العربية في البلاد العربيَّة نفسِها أثناء رحلته العلميّة الطويلة التي زار فيها بلاد اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس ، إضافة الى كامل البلاد العربية ؛ وثالثُها كونُه آخر الشارحين ، وذلك يعني استفادتَه من أعمال سابقيه الذين تناولوا « كتاب الحشائش » بالمراجعة والشرْح ، والمقدّمة التي وضعها ابن البيطار لكتابه تبيّن أن المشاكل التي يثيرها كتاب ديوسقريديس قد بقيت قائمة حتى القرن السابع الهجريّ ، فقد قال : « لمّا وقفت من كتاب الفاضل دياسقوريدوس على ما تقصر عنه هِمَمُ جماعة من المتشوّفين ورأيت استعجامَ أسماء أشْجَارِه وحشائشه على كافّة المتعلّمين وعامّة الشَّادِينَ وتواري حقائقه على غير واحد من الشجّارين والمتطبّبين عزمْتُ بعون الله تعالى على تقريب المرام في ترجمته وتسهيل المطلب في تفسير أسْماء أدويته لأكْشف عن وَجْهِ مقاصده قِنَاعَ عُجْمَتِه وأبرِّزَه كالبدْر في هَالَتِه » (52) . وقد تمكّن ابن البيطار - فِعْلاً - اعتمادا على تجربته العميقة في دراسة النبات ومعرفتِه الواسعة بأعيانه من كشف قناع العُجْمَةِ عن جلّ المصطلحات اليونانية التي بقيت مجهولةً في ترجمة اصطفن وحنين ، بعد أن اكتشف تلك النباتَاتِ في البلاد العربيّة فعرّبها بالأسماء العربيّة التي تُعْرَفُ بها ، ولم يَسْتَعْصِ عليه إلاّ عددٌ ضئيل من النباتات لا يتجاوز الثّمانيةَ .

---

(51) نفس المصدر ، 2 / 133 .

(52) ابن البيطار : تفسير كتاب دياسقوريدوس ، ص 1 ظهر .

وأهمّ النتائج التي نخرج بها عن مرحلة الترجمة هذه :

أ ـ أنّها كانت مرحلةَ اتصال بيْن الثقافة النباتية العربيّة والثقافات الأعجميّة ممثَّلَةً في الثقافة اليونانية ، وقد أفادتْ منها الثقافةُ العربيّة أيَّما إفادَة بالأخْذ عن الثقافة اليونانيّة والاقتباس منها ، فتعرّف العَرَبُ أثناءَهَا على نباتات جديدة أضافُوها الى زادِهِم النّباتيّ الذي كان أبو حنيفة من قبل قد عرّف به ، فهي إذن مرحلة اقتباس وإضافة .

ب ـ أنّ هذه المرحلة لم تتوقّفْ في القرن الثالث للهجْرة بترجمة كتاب ديوسقريديس ، بل تواصلت حتى القرن السابع بتناوُل هذا الكتاب بالمراجعة والشّرْح حتى أصبح على صورة جَيِّدَةٍ في القرن السّابع على يَدِ ابن البيطار .

ج ـ أنّ هذه المرحلةَ كانت مرحلة علميّةً لأنّ العربَ قد تعرّفوا ـ اعتمادًا على ديوسقريديس ـ على الخصائص العلميّة والمنافع الطبيّة لنباتات كثيرة تُوجَدُ على أرضهم ، إلاّ أن الجانب اللغوِيّ الاصطلاحيّ فيها كان كبيرا أيضا لا يُسْتَهَانُ به ، ولذلك يمكن اعتبارُها مواصلةً للمرحلة الأولى ـ اللغويّة ـ التي كان أبو حنيفة أحسنَ مُمَثّلٍ لها .

3 ـ مرحلة الاهتمام الطبّي بالنبات :

يُعْتَبر النَّبَاتُ أهمّ المواليد الثلاثة في صناعة الأدوية ، لأنّه أكثرُ تعدُّدًا وتَنَوُّعًا وأيْسَرُ مَنَالاً . ولذلك كَبُر اهتمامُ الاطباءِ والصيادلة العرب به . فلم يَخْلُ كتابٌ من كتبهم من الحديث عن منافعه ، وخاصّة فيما أَسْمَوْهُ بالأدوية المفردة . إلاّ أنّ الحديثَ عن الأدوية المفردة لم يكن دائما مستقلاّ عن الحديث العامّ في الطبّ والصيدلة بل كان جُزْءًا منه يُفْرَدُ بباب خاصّ ضمن أبواب أخْرَى تتّصل بالطبّ والصيدلَة عامّة . وقد بدأت هذه الطريقةُ عند العرب منذ القرن الثالث الهجريّ وتواصلت حتى القرن الثاني عشر . فهي الطريقة التي اتّبعها علي بن ربّن الطبريّ (ت . بعد 240 هـ / 855م) في كتابه « فردوس

الحكمة » الذي خصّص البابَ الأوّل من المقالة الثانية من النوع السادس منه للأدوية المفردة والعقاقير النباتيّة ، وأبو بكر محمّد بن زكرياء الرازي (ت . 313هـ / 925 م) في « الكتاب الحاوي » الذي جعل القسمَ السّابع منه « في صيدلة الطبّ » ، وأبو القاسم الزهراوي (ت . 404 هـ / 1013 م) في كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » الذي خصّص بابَهُ التاسع والعشرين للأدوية المفردة ، وأبو علي ابن سينا (ت . 428 هـ / 1037 م) في كتابه « القانون » الذي خصّص البابَ الثاني منه للأدوية المفردة . وقد تواصلت هذه الطريقة حتى وقت متأخّر اذ نجدها مُتَّبَعَةً في « تذكرة أولى الألباب » للشيخ داود الأنطاكي (ت . 1008 هـ / 1599 م) الذي خصّص الجزء الأول من كتابه للأدوية المفردة ، وفي كتاب « الجوهر المكنون من بحر القانون » لعبد الرزاق بن حمّادوش الجزائري (ت . بعد 1168 هـ / 1754 م) الذي تحدّث في الجزء الرابع من كتابه عن الأدوية المفردة . وهؤلاء العلماء ـ وأمثالهم مِمّن عُنُوا بالأدوية المفردة عناية جزئيةً ـ لم يكونوا صيادلَةً ولا علماءَ نباتٍ . لذلك غلب عليهم في أحاديثهم عن النباتات الاقتباسُ من غيرهم ، والاهتمامُ بمنافع النباتات العلاجيَّة أكثر من الاهتمام بالنباتات في حدّ ذاتها .

على أنّ الكتب المستقلّة المُؤَلّفَةَ في الأدوية المفردة كانت أكثرَ عددًا ، وقد بدأت في الظهور أيضا منذ القرن الثالث للهجرة . ويبدو أن أول من ألّف كتابا مستقلّا فيها هو اسحاق بن عمران (ت . 279 هـ / 892 م) العراقيّ ثمّ الإفريقيّ التونسيّ ، فقد وضع هذا العالِمُ الفيلسوفُ كتابًا بعنوان « الأدوية المفردة » (53) ، وقد بقيت لنا من هذا الكتاب شواهدُ أخذَها عنه أحمد الغافقي في كتابه « الأدوية المفرَدة » وابن البيطار في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، وجملةُ الشواهد الواردة منه عند ابن البيطار 180 في 161

(53) انظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، 2 / 36 .

مادّة ، ثلاثة عشر منها في التعريف اللغوي أو التعريف بخصائص الأدْوية ، واثنان وعشرون في النبات والمَدَاوَاةِ ، وستّة وثلاثون في النبات ، وأربعة عشر ومائة في المداواة والعلاج (54) . وأهمُّ ما يُسْتَنْتِجُ من تلك الشواهد : أن ابن عمران كان يَبْنِي موادّ كتابه على أركان أساسيّة : أوّلُها التعريف اللغويّ وثانيها ذكرُ طبيعة النبات من حيثُ القوّةُ والدَّرجة من الحرارة والبرودَة واليبوسة والرطوبة ، وثالثُها وصْفُ النبات وصفًا علميًا دقيقًا ، ورابعُها ذكر خواصّه العلاجية من حيث المنافعُ والمضَارّ ، وخامسُها ذكر أَبْدَالِهِ في حَالِ انعدامه . ثم إنّ ابن عمران أدخل في كتابه نباتاتٍ جديدةً ممّا تعرّف عليه في بلاد المشرق قبل مجيئه افريقيةَ ، ولم يعرفه اليونانيّون من قبله ، مثل الأذْرِيُون والبَهْمَن والحماحم والخيار شنبر والريباس والشاهِسْفَرم والصندَل والقاقُلّى والقَرَنْفُلِ والمَحْلَبِ . . . الخ . إلاّ أنّ همّ ابن عمران الأكبَر من حديثه عن النباتات ـ القديمة والجديدة ـ كان البحثَ في منافعها الطبيّة ، فغلب على تعريفاته النباتيَّة الايجازُ والاختصار .

وقد تواصلَ التأليف في الأدْوية المفردة والحديثُ عن النبات فيها في القرون التالية للقرن الثالث ـ حتى القرن السادس ـ على طريقة اسحاق بن عمران ، وخاصّة في بلاد المغرب والاندلس . ومن أهم الكتب التي ظهرت في هَذه المدّة كتابُ « الاعتماد في الأدْوية المفردة » لأبي جعفر أحمد بن الجزّار القيروانيّ (ت . 369 هـ / 980 م) وكتابُ « الأدْوية المفردة » لحامد بن سَمْجُون (ت . بعد 392 هـ / 1001 م) وكتاب « الصيدَنة » لأبي الريحان البيروني (ت . 440 هـ / 1048 م) وكتاب « الأدْوية المفردة » لأبي المطرّف عبد الرحمان بن وافد (ت . بعد 467 هـ / 1075 م) . والْكتاب الأوّل من بين هذه الكتب أي كتاب « الاعتماد » يستحقّ أن نقف عنده قليلا لأهمّيته التّاريخيّة ، والعلميّة . فقد ألّفه ابن الجزّار قبل سنة 334 هـ / 945 م ،

(54) انظر تفصيل الحديث عن تلك الشواهد في : « المصادر التونسية » لابراهيم بن مراد : 1 / 126 ـ 128 .

وكان غَرَضُه مِن تأليفِه أتمامَ « أوْجُهِ النقص » عند سابقيه ممّن تحدّث في الأدوية المفردة ، من القدماء ـ أي اليونانيّين ـ والمحدَثين ، ويعني بهم العَرَبَ . وقد لخّص ابن الجزار أوجُهَ النقص عند سابقيه في مقدّمة كتابه بقوله : « إنّ معرفة الأدويةِ المفردةِ ومنافعها بابُ عظيم القَدْرِ جَلِيلُ الخَطَر في صِناعَةِ الطبّ ، ولم أرَ لأحَدٍ من الأوائل المتقدّمين ولا لِـمَنْ تَشَبَّهَ بهم وقَفَا آثارَهُم من المتعقّبين في ذلك كتابا جامعا مرْضيّا ولا كلامًا شافيا بحسب ما يجب أن يُؤَلَّفَ في هذا الباب الكريم المنفَعةِ العظيم الفائِدَةِ في معالَجَة الأسقام والأدْواء إلّا الرجلَ الذي يُسمَّى دياسقوريدوس ، وَجَالينوس ، فإن هذَيْن الرجُلَيْن لا نهايةَ وراءَهُما ولا حِجَابَةَ بعدهما فيها عانياه من هذا الفنّ . غير أنّا وجدْنا ما عَانَيَا من ذلك قد لحقه التقْصِيرُ عن بلوغ نِهاية المدْح في ثلاثة أوجُهٍ : أحدُها أنّ دياسقوريدوس ذكر أكثرَ منافع الأدوية ومضارّها ومُنَاسِبها والمختار منها ، ولم يذكر طبائعَها ولا كمّيتَها وقُوّةَ كلٍّ واحدٍ منها في أيّ درجَةٍ هو من حرارة أو بُرُودَةٍ أو رطوبة أو يُبُوسَة . أمّا جالينوسُ فإنّه ذكر قُوَى أكثرها ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضَارّها وخواصِّها المخصُوصَة بها (. . .) . والوجْهُ الثّاني : أن كثيرًا من الأدوية التي ألْقَيَاهَا في كُتُبِهِمَا مجْهولٌ غيرُ معروف في اللسان العربيّ ، وكثيرٌ منها مَعْدُومٌ غيرُ موجود . والوَجْهُ الثالث : أنهما تركا ذِكْرَ كثير من الأدوية المفردة التي لَا غَنَاءَ لأحَدٍ من الأطباءِ عن عِلْمِهَا ومعرفتها لمعلوم منفعَتِها وكَثْرة الحاجَة الى استعمالها ، فإنّما يوجد القولُ عليها مُفَرَّقًا في كتب كثيرة وأماكِنَ مُخْتَلفة . فلمّا كان الأمرُ في هذا الفنّ من العِلْمِ على ما بيَّنّا حُمِلْنا على العناية بتأليف كتاب أذكُر فيه الأدويَةَ التي عليها اعتمادُ الأطِبَّاء في معالجة الأدْواء » (55) .

(55) ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ص 113 ظ ـ 114 و ، وانظر نصّ هذه المقدّمة محقّقا في بحثنا « المصادر التونسيّة » ، 1 / 132 ـ 133 .

قَسَّم ابنُ الجزّار كتابَه إلى أربع مقالات ، ورتّب الأدويةَ المفردةَ فيه حسب قُواها ، فجعل أدويةَ الدّرجة الأولى في المقالة الأولى ، وأدويةَ الدّرجة الثانية في المقالة الثّانية ، وأدويةَ الدّرجة الثالثة في المقالة الثالثة ، وأدويةَ الدّرجة الرابعة في المقالة الرابعة ؛ وهو ترتيبٌ صعْبٌ يدُلُّ على مَدَى خِبْرةِ ابن الجزّار بطَبَائع الأدوية وقواها . وجملةُ الأدوية التي تحدّث عنها 278 دواء ، تتنزّل الأدوية النباتيّة بينها المنزلةَ الأولى ، إذْ يبلغ عدَدُها 219 دواء ، أما بقية الأدوية فمعظمُهَا مَعْدَنِيّ (56) .

وعند النظر في موادّ هذا الكتاب النباتيّة نلاحظ بلُوغَ مرحلة الاهتمام الطبّي بالنبات عند العرب درجةً من النضج كبيرةً ، ذلك أنّ معرفةَ العرب بالنباتات الطبيّة قد بَلَغَتْ مع ابن الجزّار درجةً فائقةً من الدقّة والوضوح . فَهُمْ قد خبروا قُواها وطبائعَها خبرةً جيّدة جعلت ابن الجزّار يرتّب موادّ كتابه حسب القُوى والطبائع ، ثم إنَّهم قد أجادوا معرفةَ منافع النباتات العلاجيّة ، وذلك ما جعلَ ابنَ الجزّار يطيل الحديث في تلك المنافع ويتوسَّع فيه توسُّعًا ظاهرا (57) . إلاّ أنّ تلك المعرفةَ الدقيقةَ بالخصائص الطبيّة لم تَصْحَبْها معرفةُ تماثلها بتَجْنِيس النبات وتصنيفه . فالخَلْطُ بين الحشيش والشجر مثلاً

(56) عدد المواد المعدنية 45 ، أما بقية المواد وعددها 14 فمختلفة الأنواع . والملاحظ أن عدد الأدوية التي تحدّث عنها ابن الجزّار قليل إذا قيس بما انتهت إليه معارف عصره ، ولكنّ ذلك كان منه متعمَّدا ، فهو لم يتحدّث عن الأدوية الحيوانية لأنه قد خصّها بكتاب مستقلّ . ولم يتحدّث عن الأغذية ضمن الأدوية النباتية لأنه ألّف فيها كتابا هو « مصالح الأغذية » . وقد أوجز هو بنفسه أسباب اختصاره في كتابه بقوله : « واقتصرنا من كثير على قليل لوُجُوهٍ : أحدُها حبّ الاختصار وتركُ الاكثار ، والثاني أنّا أَبَيْنَا ذكْرَ الأدوية التي هي مجهولة في بلدان العرب وإن كانت عند أطِبّاءِ العجم معروفةً ، لقلّة منفعتنا نحن بذلك ، والثالث أنّ ما كان منها مشهورًا مَعْرُوفٌ ، والقولُ فيه يسيرٌ » ـ الاعتماد ، ص 216 وجه .

(57) انظر مثلا حديثه عن منافع « السوسن » (ص ص 151 و ـ 152 و) و« السقمونيا » (ص ص 178 و ـ 179 و) ، و« الغـار » (ص ص 181 و ـ 182 و) ، و« الكـرفس » (ص ص 199 ظ ـ 201 و) و« اليتوعات » ، (ص ص 208 و ـ 209 و) .

مازال قائما ، وكلّ نَبْتٍ يمكن أن يُسَمّى شَجَرًا وحشيشا في نفْس الوقت .
ونورد من هذا الخَلْط عند ابن الجزّار مثالَيْن : أولهما قوله عن « الأسْطُوخُودُوس » : « إنَّه حشيشة ذاتُ ورق وقُضْبان تَعْلُو على الأرض ذراعيْن وأكثر وأقلّ ، وهي شجرة تشبه شجرةَ الاكليل » (58) ، وثانِيهما قولُه عن « الشّيْلَمِ » : « وشجَرتُه حشيشة تعْلُو على الأرض الذراعَ وأكثرَ وأقلَّ » (59) . ثم انّ التصنيفَ النباتيّ قد بقي عندَهم على ماكان عليه عند ديوسقريديس من قبلهم فلم ينتبهُوا ـ مِثْلَهُ ـ الى تصنيف النباتات حسب فصائِلها (Familles) ، بل بقيت عندهم مُصَنَّفَةً حسب أنواعها (Espèces) وضروبها (Variétés) . على أنّهم قد تمثَّلُوا في الحقيقة هذا النوعَ الأخيرَ من التصنيف تمثُّلاً واضحا وإنْ لم يَخْلُ عندهم من التشْوِيشِ والاضطراب .
وأنواعُ التصنيف حسب الضُروبِ التي يُقدّمُها لنا ابن الجزّار في كتاب « الاعتماد » تبلغ التسعَةَ : وهي التصنيفُ حسبَ اللّوْن ، كَأَنْ يكُونَ من النبات أحمَرُ وأبيَضُ (60) ، وحسب لون النوّار ، كَأَنْ يكونَ من النبات أصفَرُ النوّار وبنفسجيُّه وأبيضُهُ (61) ، وحسب هيْئَة النبات ، كَأَنْ يكُونَ من النبات طويلٌ ومُدَوَّرٌ (62) ، وحسب هيئة الورق أو الحبّ أو الأغصان ، كأنْ يكونَ من النبات كبيرُ الحبّ ، وصغيرُه (63) ، أو كبيرُ الورق صغيرُ الأغصان ، وكبيرُ الورق والأغصان (64) ؛ وحسب حَجْم النبات ، كأنْ

---

(58) ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص 129 ظ .
(59) نفس المصدر ، ص 202 و .
(60) انظر مثلا : « الاشقيل » ، ص 162 و ، و« الحرف » ، ص 204 و .
(61) مثل « الخيري » ، ص ص 150 و ـ 150 ظ .
(62) مثل « الزراوند » ، ص 144 و .
(63) مثل « الأبهل » ، ص 174 و .
(64) مثل « الخطمي » ، ص 163 و .

يكونَ منه كبيرٌ وصغيرٌ (65) ؛ وحسب المَنْبَتِ ، كأنْ يكونَ من النبات برّي وبستانيٌّ (66) ، أو برّيّ وبستانيّ وجبليّ (67) ، أو بستانيّ وجبليّ ومائيّ (68) ؛ وحسب زمن ظهور النبات ، كأنْ يكونَ منه صيفيّ وشتويّ (69) ، وحسب المنطقة الجغرافية التي يكثر فيها ومنها يُسْتَجْلَبُ ، كأنْ يكونَ منه هنديّ وحبشيّ (70) ؛ وحسب « جنس » النبات ، حسب التذكير والتأنيث ، فيكونُ منه الذكَرُ والأنثى (71) .

لقد أخذَ ابن الجزار هذه الأنواع من التصنيف عن ديوسقريديس ثم عن اسحاق بن عمران . لكنه لم يَحْفَلْ في الغالب بالبحْث عن ضروب أخرى من النباتات التي تحدّث عنها ، بل إنّه على عكْسِ ذلك كان في أحيان كثيرة يلْجَأ إلى حذْفِ ضروب نباتية ذكِرَتْ قبلهُ معْتَبِرًا الحديثَ عنها غير مُجْدٍ ، إما لأنها مجهولة عند العرب ، أو لأنّه هو ذاتُه يجهَلُها . ومن أهمّ الأمثلة على هذا المَنْحى عند ابن الجزّار نباتُ « اليتوع » الذي ذكر له ديوسقريديس سبْعَةَ ضُرُوبٍ (72) وفصَّلَ الحديثَ عنها ، ولم يذكر له ابن الجزّار إلّا الضربيْن الأول والثاني فقط عند ديوسقريديس ، أي الذكَرَ والأنثَى (73) . ولا شكّ أن

(65) مثل « لسان الحمل » ، ص 142 ظ ، و« الخروع » ، ص 159 و ، و« القنطوريون » ، ص 163 و ، و« حيّ العالَم » ، ص 189 و .

(66) مثل « السوسن » ، ص ص 151 و - 151 ظ ، و« النمّام » ص 153 و ، و« الرازيانج » ، ص 166 ظ ، و« السذاب » ، ص 204 و .

(67) مثل « السعتر » ، ص 104 ظ ، ويضيف اليها صنفا رابعا هو « السَّعْتَرُ الكرماني » .

(68) مثل « الكرفس » ، ص ص 199 ظ - 200 و ، والبستاني منه صنفان ، ثانيهما أرق وأصغر من الأوّل .

(69) مثل « الهندباء »ص 136 ظ .

(70) مثل « الأبنوس » ص 167 و .

(71) مثل « اليتوع » ، ص 208 و- 210 و .

(72) ديوسقريديس : المقالات الخمس ، ص ص 361 - 364 .

(73) ابن الجزّار : كتاب الاعتماد ، ص ص 208 و - 210 و .

سبب هذا الاهتمام الضئيل بالنبات في حدّ ذاته عند ابن الجزّار هو كونُه طبيبًا وصيدلانيًّا تهمّه من النبات منافعُه العملية العلاجيّة ، وليس عالِمَ نبات يَسْتَهْوِيه البحْثُ في خصَائص النبات العلميّة المحْض .

ولم يشذّ عن ابن الجزار في الحقيقة الأطباءُ والصيادلةُ اللاحقون له طيلةَ القرنيْن الرابع والخامس الهجريّيْن ، في اتباع هذا المنْحَى . على أننا نريد أنْ لا نغْمِطَ هؤلاء حقّهُم في تحقيق بعض التقدّم في دراسة النباتات الطبيّة . إلا أنّ ذلك التقدّم لو يتجاوَزْ في نظرنا اكتشافَ بعض النباتات الجديدة ـ وخاصّة في البيئة الأندلسيّة ـ التي أضيفَتْ إلى الرصيد القديم . أمّا البحثُ فيها فلم يخرج عن نطاق الاهتمام بالمنافع الطبيّة . وقد ظلّ هذا المنحى سائدا حتّى النِصْفِ الأوّل من القرن السادس الذي شهد ظهور كتاب جليل بحقّ في تاريخ « النباتات الطبيّة » عند العرب ، ونعني به كتاب « الأدْوية المفردة » لأبي جعفر أحمد بن محمّد الغافقي (ت . 560 هـ / 1165 م) .

إنّ المطّلع على القسْم المتبقّي من هذا الكتاب (74) يتبيّن لمؤلفه ميزَةً لا نعرف أنّ أحدًا من الأطباء والصيادلة العرب السابقين له قد توفّرت له ، وهي

(74) ـ لم يبق ـ حسب علمنا ـ من أصل الكتاب إلاّ النصفُ الأوّل ، من حرف الألف حتى نهاية حرف الكاف حسب الترتيب الأبجدي ، وَيُوجَدُ لديْنا منه صورتان شمسيّتان لمخطوطتيْ الخزانة العامّة بالرباط (رقم ق 155) ومكتبه أسلر في مونريال بكندا (رقم 7508) . والمخطوطة الأولى تَنْتَهِي بنهاية حرف الزاي والثانية هي التي تنتهي بنهاية حرف الكاف . وقد وصفْنا هاتَيْن المخطوطتَيْن وحقّقنا منهما مقدّمة الكتاب ونماذجَ من شروح باب الألف في بحثنا « أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب الأدوية المفردة ، دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته ، ونماذج من شروحه » في مجلة معهد المخطوطات العربيّة ، 30 / 1 (1986) ، ص ص 157 ـ 210 . ويوجد للكتاب أيضا مختصر كامل وضعه أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري (ت . 684 / 1286 م) ، وقد حقّق منه ماكس مَايرْهُوف وجورج صُبْحِي وترجمَا إلى الانقليزية الحروف الستّة الأولى من الألف حتّى نهاية حرف الواو : The Abriged version of «the book of simple drugs» of Al - Ghafiqi, translated and published by Max Meyerhof and G.P. Sobhy, Ist ed, Cairo, 1932 - 1940 (4 vol.) .

كونُه نباتيّا وعشّابا ، إضافة إلى كونه طبيبا وصيدلانيّا . وقد نتج عن تلك الميزة عنده تفوّقٌ ظاهر على سابقيه من العلماء ، وخاصّة في معرفة المادّة النباتية القديمة ، والبحْثِ عن النباتات الجَدِيدَةِ والكشْفِ عنها ، والاهتمام في دراسة النباتات بالخصائص العلميّة المحْض أكثر من الاهتمام بالمنافع العلاجيّة . ويُبْرِزُ الجانبَ الأوّلَ عندَهُ نقْدُه الشديدُ للأطباء والصيادلة السابقين له ، لعدم تحرِّيهم ولتقليدِ بعضِهم البعْض (75) ، ثم إلمامُه الدقيق بالمادّة النباتية في كتاب « المقالات الخمس » لديوسقريديس ، وقد مكّنه ذلك من إدْراج معظمها في كتابه والكشْف عن الكثير من أسماء النباتات التي بقيت مجهولة في ترجمة الكتاب العربيّة (76) . ويُظْهِرُ الجانبَ الثاني عندَه إضافتُه نباتاتٍ جديدةً أو ضروبًا جديدةً من نباتات كانت معروفة من قبلُ ، وقد وقف على ذلك جميعا في بلاد

(75) يقول الغافقي في ذلك : « ومَنْ نظر في كتُبِهم وَجَدَ فيها من الاختلاف ما لا مَزِيدَ عليه حتى يتحيَّر ولا يعْرِفَ الحقّ من الباطل . وترى أكثرهم مُتّبعين بعضَهُم مقلّدين في غلطهم لأقدمهم ، إذا غلط واحِدٌ منهم رأيت جَمَاعَةً تتبع غلطَه وتخطِيء بخطئه . وهذا دليلٌ على أنّهم لم يكتبوا ما كتبوه في كتبهم ببَحْث وطلَب ولكن انتسخ بعضُهم مِمّن تَقَدَّمَهُ من كتابه نَسْخًا ، فما أخطأ فيه تابعَه على خطئه وما أصاب وَافَقَ فيه معه ، فليس ينبغي أن يُلاَمَ أحدُهم إن أخطأ ولا يُحْمدَ إن أصاب . بل ينبغي أن يُلاَمَ الكلّ منهم لَوْمًا واحدا على توانِيهم في البحْث وقلّة فحْصهم على الحقائق (. . .) ومنهم مَن غلط في الجَمْع بين الأقاويل كما فعل ابن وَافِدٍ حيث يجمع بين كلام ديسقوريدوس في دواء ويُضيفُهُ إلى كلام جالينوس في دواء آخرَ وهو يظن أنّهما واحد . وهذا إلى ما حرّف من كلام جالينوس وأفسدَه وأخرَجَه عن معناه وأساء العبارة عنْه وصَحّف عليْه مّما يطول ذِكْرُه . ومنهم من يكذب كما فعل ابن سينا في مواضع كثيرة من أدْويته حيث يَحْكي عن ديسْقوريدوس وعن جالينوس ما لم يَقُولاَه . وبالجملة مَا مِنْ أحد تكلّم في أحد هذيْن الغرضيْن المذكوريْن في صدر هذا الكتاب إلاّ وقد غلط الغَلَط الفاحِشَ ، من الرّازي الذي كان أوّلَهُم الى زماننا هذا « ـ الأدوية المفردة ، ص ص 2 ـ 3 (من مخطوطة الرباط) .

(76) قسّم الغافقي كلّ باب من أبواب كتابه إلى قسميْن : الأول علميّ يذكر فيه الأدويةَ ومنافعَها ، والثاني لُغويّ تفسيريّ يشرح فيه الأسماءَ الواردة على ذلك الحَرْف في متن كتابه . وأغلب الأسماء المفسّرة من اليونانية ، فالعددُ الجمليّ للمصطلحات المفسّرة في الأقسام التفسيرية من أبواب الكتاب الستّة الأولى (أ ـ و) يبلغ 1488 منها 665 مصطلح يونانيّ . أما البقية فمصطلحات عربيّة وفارسيّة وهندية ولاتينية .

الأندلس (77) . والنباتات التي أضافها في أبواب الكتاب السبعة الأولى (أ ـ ز) أحد عشر نباتًا ، هي « الامليلس » (78) و« أذْنُ الأرنب » (79) و« الأطـرمـالَـة » (80) و« الانجبـار » (81) و« اليُـربشَـانَـة » (82) و« البَلَخْتَة » (83) و« البِشْنَة » (84) و« البَدد » (85) و« البرْبِينَة » (86) و« الهُذَيْلِيَّة » (87) و« الوَطْم » (88) . وأما الضروب الجديدة التي أضافها في تلك الأبواب نفسها من كتابه فسبْعَة : ثلاثة منها للأسارون (89) واثنان للأمْصُوخ (90) واثنان للأشْنَان (91) . ويدلّ على المظهر الثالث عنده احتفالُه الكبير بوصْف النباتات ـ التي أضافها خاصّة ـ وصفًا دقيقا مركّزا على الملاحظة العلميّة المحْض واهمالُه الظاهرُ منافعَ النبات العلاجية التي لاَ يشير

(77) أشار إلى ذلك في مقدّمة كتابه بقوله : « وألْحَقْتُ على ذلك أيضا (أي الأدوية التي تحدّث عنها سابقوه) بعضَ الحشائش الموجودة عندنا التي يستعملها أهل بلادنا ممّا لم يذكرها أحد ممّن تقدّمَنا » ـ الأدوية المفردة ، ص 4 .

(78) الغافقي : الأدوية المفردة ، ص 60 .

(79) نفس المصدر ، ص 64 . .

(80) نفس المصدر ، ص 64 .

(81) نفس المصدر ، ص 67 .

(82) نفس المصدر ، ص 155 ، وقد ذكره ضمن حديثه عن « البهمن » .

(83) نفس المصدر ، ص 186 .

(84) نفس المصدر ، ص 186 .

(85) نفس المصدر ، ص 187 .

(86) نفس المصدر ، ص 187 .

(87) نفس المصدر ، ص 310 .

(88) نفس المصدر ، ص 324 .

(89) نفس المصدر ، ص 8 .

(90) نفس المصدر ، ص 63 .

(91) نفس المصدر ، ص 83 .

إليها إلا لِمَامًا في بعض الأحيان (92) او يُهْمِلُها إهمالا كليّا في أحيان أخرى(93) . إلا أن الغافقي - رغم أهميّة إسهامه في التقدّم بالبحث النباتيّ عند العرب - لم يكن بمَنْجَاةٍ من الخطإ (94) ولم يبلغ مستوى عَالِمٍ آخر لَاحِقٍ له ، هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار .

لقد شغل الطبَّ والنباتُ ابنَ البيطار (ت . 646 هـ / 1248 م) لكنّ النبات كان عليه أَغْلَبَ حتى نُسِبَ إليه فسُمِّيَ « النباتيّ » (95) و« العشّاب » (96) . وابن البيطار يستحقّ في الحقيقة هاتيْن الصّفتيْن عن جدارة لأننا لا نعرف عالما آخر - عدا أستاذِه أبي العبّاس النباتي - قد خَصَّ النباتَ بمثل ما خصّه هو به من العناية والبحث فطلبه في مظانّه وارتحل من أجله لإحكام معرفته به . وقد ابتدأ اهتمامُ ابن البيطار بالنبات منذ شبابه الأوّل فعشّب في بلاد الأندلس وتعرّف على محيطها الطبيعي النباتي وخاصّة صحبة

(92) انظر مثلا حديثه عن « الأمليلس » و« وأذن الأرنب » و« الأطرمالة » و« البلختة » و« البشنة » و« البدد » و« البربينة » ، وهذا مِثالٌ من مادة أطرمالة » : « هو نبات له سَاقٌ تعلو نحْو الذراع ، ليس عليها شِعَبٌ ، وله ورق في أربعة صفوف متوازية ، والورقُ يُشْبِهُ ورق الشهدانج إلّا أنّه أصغَرُ مِنْهُ بِكَثِير وله سُنْبلَة نحو شبر منظومة مرصّفة بغُلُفٍ ملتصقة بعضُها فوق بعْض مرتفعة والغلف مدوّرة مفتوحة الأفواه في شكل غلف البندق التي يكون فيها البندق إلّا أنها أصغر بكثير داخلها ثمر كالبندق أيضا في شكله وهو قَدْر الحمّص في دَاخله بزر دقيق جدّا أحمر إلى السواد وعلى أعلى النبات لُزُوجَةٌ تدْبَق كالعسل وله زهْر أبيضُ دقيق وربّما كان أصفَر ونباتُه في الأرض الجدبة والقفر . وبَزْرُ هذا النبات يُكْتَحَلُ به فينفع من الجرب والسّلاق ومن ابتداء الرمد البارد » - الأدوية المفردة ، ص ص 64 - 65 .

(93) انظر مثلا حديثَه عن الصنفين الأوّل والثالث من الأسارون ، والصنف الثاني من الأشنان .

(94) قد الف أبو العبّاس النباتي كتابا في نقده سمّاه « التنبيه على أغلاط الغافقي » ، ذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ، 513/1 ، وابن الخطيب في الاحاطة ، 212/1 ، وانتقده ابن البيطار في مواضع كثيرة من كتابه « الجامع » ، انظر مثلا : 40/2 ، 77/2 ، 117/3 ، 173/3 ، و75/4 .

(95) بذلك سمّاه ابن أبي أصيبعة في عيُون الأنباء ، 133/2 ، وبذلك سُمِّي في بداية كتابيْهِ « التفسير » ، ص 1 ظ ، و« الإبانة والإعلام » ، ص 1 ظ .

(96) بذلك سمّي في بداية كتابه « الجامع » ، 1/1 .

أستاذه أبي العباس أحمد بن محمد النباتي ، ثم غادر الأندلسَ في رحلة علميّة نباتية طويلة لم يعد بعدها إلى الأندلس كان يقيم أثناءَها في كلّ بلد يحلّ به وينصرف إلى دراسة نباتاته وأعشابه . والبلدانُ التي مرّ بها وأقام فيها هي - تباعًا - المغرب الأقصى والمغرب الأوسط (الجزائر) وافريقية (تونس) وطرابلس الغرب (ليبيا) ثم بلاد اليونان التي أخذ إليها طريق البحر من برقة ، ثم تركيا فبلاد فارس والعراق فبلاد الشّام والجزيرة العربيّة ومصر حيث انتهى به الترحال وعُيِّنَ رئيسا على سَائر العشّابين والصيادلة . ولم يتوقّف في هذه المدّة عن التعشيب ، فقد كان ينتقل بين القاهرة ودمشق للغرض نفسه ولأغراض أخْرى ، وكان له تلاميذُ يصطحبونه في التعشيب منهم ابن أبي أصيبعة الذي قال إنه شاهد « معه في ظاهر دمشق كثيرا منَ النبات في مواضعه » (97) . وقد جعل هذا الاهتمامُ البالغُ بالنبات وهذا البحث الدَّؤوبُ عنه من ابن البيطار « أوْحد زمانه وعَلاَّمةَ وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعْتِ أسمَائه على اختلافها وتَنَوُّعِهَا » كما يقول ابن أبي أصيبعَةَ (98) ، بل لعلّنا لا نبالغ إذَا قُلْنا إنّ ابن البيطار كان شَيْخَ علماء النبات العرب القُدَامَى وأعلمَهُم على الإطلاق بالنباتات وأحوالها ، رغم أنّ اهتمامَهُ بها في كتاباته كان مُوَظّفا لِغايات صيدليّة وطبيّة وليس للبَحْثِ في النبات في حدّ ذاته .

وَيَتَبَيَّنُ صِحّةَ ما ذكرْنا كلُّ من اطَّلع على أربعةٍ من كُتُب ابن البيطار ، هي « الجامع لِمفْردات الأدْوية والأغذية » - وهو أهمّها - و « الـمُغْني في الأدوية المفردة » - وقد اطَّلعنا على الجُزْءِ الثاني منه فقط - و « تفسيرُ كتاب ديَاسقوريدوس » وكتاب « الإبانةُ والاعلاَمُ بما في المنهاج من الخلَلِ

(97) ابن أبي أصيبعة : العيون ، 133/2 .
(98) نفس المصدر ، 133/2 .

والأوهام » . والمطّلع على هذه الكتب يخرج بثلاثة استنتاجات أساسيّة تبيّن أهميّة إسْهام ابن البيطار في تطوير المباحث العربيّة في علم النبات .

وأوّلها اطلاعُه الواسع المُعمَّقُ على ما كتبه سابقوه ومعاصرُوه ـ من أعاجم وعرب ـ في النبات ، وهو لم يطّلع على ما كتبه أصحابُ صناعته فقط من أطباء وصيادلة وعلماء طبيعةٍ ، بل على ما كتبه علماءُ اللغة أيضا ، وقد بلغ عدَدُ العلماء الذين اعتمدَهُم في كتاب « الجامع » مثلا حواليْ مائة وخمسين عالِمًا من أُمَمٍ مختلفة . وقد غربل ما كتبه أُولَئِك العلماء ونَخَلَهُ وسجّل منه في كتابه ما صحّ عنده ـ كما يقولُ ـ « بالمشاهدة والنظر » وثَبَتَ عندَه « بالخِبرة لا بالخَبَر » (99) . وما يسترْعِي الانتباهَ عند النظر في هذه الظاهرة هو اتقانُ ابن البيطار الدّرايةَ بالنباتات التي ذكرها ديوسقريديس في مقالاته الخمْس ، ويُظْهِرُ تِلْك الدّرايةَ عنده أمران : هما استيعابُه المادّةَ النباتيّة الواردَةَ في مقالات ديوسقريديس استيعابًا كلّيا في كتابه « الجامع » ، وافرادُه كتابًا مُسْتَقِلًا لتفسيرها وكشْف قناع العُجْمَةِ عنها . ويمكن لنا القولُ ـ انطلاقا ممّا ذكرنا ـ أن معارفَ العَرب والعجم في النبات ـ وخاصّة في النَّباتَاتِ الطبيّة ـ قد بلغت عند ابن البيطار في القرن السابع الهجريّ حَدّا أقْصَى من « الهَضْم » والتَّمَثُّلِ العلمِيَّيْن .

وثانيها ـ وهو متّصل بالأوّل ـ هو معرفتُه الفائِقَةُ بدقائق أعيان النبات وأحْواله وخصائصه . وأهمّ ما يُعَبّر عن ذلك عنده نَقْدُه العِلميّ المنهجيُّ الدقيقُ لأخطاءِ العُلَمَاءِ العرَب الذين أخذ عَنْهُم والتراجمَةِ الذين نقلوا كُتُبَ الطبّ الأعجمية إلى العربيّة . ومن العلماء الذين انتقَدهم وأصلح أخطاءهم

---

(99) ابن البيطار : الجامع ، 1/3 .

حنين بن اسحاق (100) واصطفن بن بسيل (101) واسحاق بن عمران (102) والرازي (103) واسحاق بن سليمان الأسْرائيلي (104) وأحمد بن الجَزّار (105) وابن جلجل (106) وابن سمجون (107) وابن سينا (108) وابن وافد (109) والشريف الإدريسي (110) والغَافِقيّ (111) . والعالم الذي نالَ منه النصيبَ الأوفرَ من النقد هو ابنُ جَزْلَةَ ، فقد انتقدَه في مواضع عديدة من كتاب « الجامع » (112) وخصّهُ بكتاب مستقلٍّ هو « الإبانةُ والاعلام بما في المِنْهاج من الخلل والأوْهام » (113) . والانتقاداتُ التي وجّهَها ابنُ البيطار للعلماء السّابقين له مُهِمّة جدّا لأنها دالّة على مدى قُدْرَتِهِ على التّمْييزِ الصحيح بيْنَ أصناف النبات وأنواعِه وفَصَائِله . ونكتفي بالإشارة من ذلك إلى ثلاثة أمثِلَة ممّا خلَطَ فيه السّابقون وأزَالَ هو اللّبسَ عنه ، أولُها تَمْييزُهُ بيْنَ الإذْخِرِ والأسَلِ وقد خَلَطَ

(100) نفس المصدر ، 26/1 ، 40/2 ، 45/2 ، 13/3 ، 86/4 ، 105/4 .
(101) نفس المصدر ، 173/1 .
(102) نفس المصدر ، 144/3 ، 201/4 .
(103) نفس المصدر ، 16/1 ، 40/2 . 82/4 .
(104) نفس المصدر ، 168/1 .
(105) نفس المصدر ، 144/3 ، 201/4 .
(106) نفس المصدر ، 20/1 ، 49/1 ، 173/3 .
(107) نفس المصدر ، 40/2 .
(108) نفس المصدر ، 16/1 ، 143/1 ، 40/2 .
(109) نفس المصدر ، 91/1 ، 148/1 ، 40/2 ، 45/2 .
(110) نفس المصدر ، 51/1 ، 92/1 .
(111) راجع التعليق 94 .
(112) انظر في الجامع : 16/1 ، 143/1 ، 40/2 ، 68/3 ، 172/4 .
(113) على صفحة هذا الكتاب الأُولَى عنوان آخر أعمّ هو « الإبانة والإعلام بما في كُتُبِ المفردات من الأغاليط والأوهام » ، ولكنّ التّسمية الأولى هي الصَّحيحة لأنها مذكورة في الصفحة الأخيرة من الكتاب ثم لأن ابن البَيْطار نفسَه قد ذكرَهُ بهذا الاسم في مادة « حندقُوقَى برّي » في كتاب « الجامع » ، 40/2 ؛ و« المنهاج » هو « منهاج البيان فيما يستَعْمِلُهُ الانسان » .

بينهما الرازي وابْن سينا وابن جَزْلة (114) ، وثانيها تمييزُه بين أصناف « لُوطُوس » الثلاثة وهي الحندقوقَى البرّي والحندقوقَى البستاني والبشنين ، وقد خلط بَيْنَهَا حنين بن اسحاق ثم تواصل الخلط بعده حتى عصر ابن البيطار (115) ، وثالثها تمييزُه بين الطُّبَّاقِ والغَافَث ، وقد خلط بينهما أطباءُ المشرق والمغرب على السّواء حتى عَصْر ابْن البيطار أيضا (116) . وابن البيطار يلحّ على ضرورة التمييز بين أنواع النبات وأصنافه حتى لا يُعْطَى نباتٌ خصائص نبات آخر ، ولا يقعَ الطّبيبُ في الزلل ويُوقِعَ من يأتي بعْدَه فيه ، وهو زَلَلٌ لا يُغْتَفَرُ في نظر ابن البيطار (177) .

والاستنتاج الثالث ـ وهو الأهمّ ـ هو إضافة ابن البيطار نباتاتٍ جديدةً من محض اكتشافه إلى النباتات التي عرفها العرب من قبلُ سواء عن طريق الترجمات أو نتيجة التجارب . وإضافاته صنفان : أولهما تمثّله النباتاتُ الجديدة جِدَّةً كلّيّة باعتبارها نباتاتٍ مستقلّة ، وثانيهما تمثّله أصناف جديدة لنباتات قد عُرِفَتْ قبلَه . أما النباتات الجديدة التي أضافها فعَدَدُها عشرة ، هي آاطـريـلال (118) وأرْجَـان (119) وبُـوقِشْـرَم (120) وزَلْمْ (121) وشُشْـرُنْب (122) وصُفَيْـراء (123) وعَـاقَـرقَـرْحَـا (الحقيقيّـة) (124)

(114) انظر « الجامع » ، 16/1 و26/1 ، و« الإبانة » ، ص ص 4 ظ ـ 5و .

(115) الجامع ، 40/2 و116/4 ، والإبانة ، ص ص 26 ظ ـ 29 ظ .

(116) الجامع ، 97/3 و144/3 ،والإبانة ، ص ص 57 ظ ـ 58 ظ .

(117) يقول في ذلك : « واعْلَمْ أنّ العَالِمَ أوْلَى الناس بالتثُّبتِ والاحتياط لنفسه ولغيره ، وقد قالت الحكماء : لا تُقَالُ زلّة العَالِمِ لأنه يُزِلُّ بزَلَّتِهِ العَالَمَ » ـ الجامع ، 40/2 .

(118) ابن البيطار : الجامع ، 4/1 .

(119) نفس المصدر ، 22/1 و112/4 .

(120) نفس المصدر ، 127/1 .

(121) نفس المصدر ، 166/2 .

(122) نفس المصدر ، 62/3 .

(123) نفس المصدر ، 85/3 .

(124) نفس المصدر ، 115/3 .

وكَبْسُون (125) وكُتَيْلَة (126) ومُسْتَعْجِلَة (127) . وأما الأصناف النباتية الجديدة التي أضافها فتبلغ سبعة عشر صنفا : صِنْفَان للاقحوان (128) ، وصنف للانْتُلَة هو الأَنْتُلَة البيضاءُ (129) ، وصنفان للبشنين (130) ، وصنف للبلّوط هو البهش (131) ، وَصِنْفٌ ـ غير شائك ـ للحرشف هو الخرّيع (132) ، وصنف للزقّوم (133) وصنف لشجرة مريم هو العبْهَر (134) وصنف للقستوس هو الشَّقْواصُ (135) وصنف للغافث هو الغافث العراقي (136) وصنف للقُنّب هو القُنَّبُ الهنديّ (137) وصنفان للمخلّصة (138) وصنفان للمشكطرا مشير (139) وصنف للبيش هو الطوارهْ (140) . والجدير بالملاحظة عند النظر في هذه النباتات أو الاصناف النباتية الجديدة جميعها هو غَلَبَةُ الحِلْيَةِ النباتية المحْضِ على المنافع الطبيّة العلاجية . فالهمّ الأوّل عنده هو التعريف بالنبات تعريفا علميّا يدقّق فيه في

---

(125) نفس المصدر ، 50/4 .
(126) نفس المصدر ، 52/4 .
(127) نفس المصدر ، 157/4 .
(128) نفس المصدر ، 48/1 .
(129) نفس المصدر ، 66/1 .
(130) نفس المصدر ، 96/1 .
(131) نفس المصدر ، 122/1 ، وقد ذكر البهش قبلَهُ أبو حنيفة (كتاب النبات ، 47/1 ، المادة 73) لكن البهش عند أبي حنيفة هو « المُقْلُ مادام رَطْبًا » ، وشَجَرُهُ الدَّوْمُ .
(132) ابن البيطار : الجامع ، 57/2 .
(133) نفس المصدر ، 166/2 .
(134) نفس المصدر ، 55/3 و116/3 .
(135) نفس المصدر ، 66/3 .
(136) نفس المصدر ، 144/3 .
(137) نفس المصدر ، 39/4 .
(138) نفس المصدر ، 142/4 .
(139) نفس المصدر ، 157/4 .
(140) نفس المصدر ، 105/3 .

الغالب وصْفَ معظم أجزاء النبات وخصائصه المخصوصة به من أصْلٍ وجمّة وساق وعيدان وقضبان وأوراق وزهر وثمر وحجم وامتداد ولون وطعم وزمن وموضع . الا أن هذا التعريف عنده غير خاضع في الحقيقة لمنهج دقيق مضبوط لأنّه قد يصف النبات من الأعلى الى الأسفل أو من الأسفل الى الأعلى ، كما أنه قد يبتدىء بوصف أجزاء النبات لينتهيَ بوصف خواصّه ، أو يبدأ بوصف الخواصّ ليتدرّج في وصف الأجزاء ، وقد يمزج في أحيان أخرى بين الأجزاء والخواصّ فتردُ متداخلةً . وابن البيطار لم يشذّ في هذا المنحى ـ في الحقيقة ـ عن الأطباء والصيادلة الذين عُنُوا قبلَه بالنباتات الطبيّة ، فهو مثلهم لم يُخْلِص العِنَايَة بالنبات لذاتِه بل لغرض أعمّ هو الطبّ والصيدلة ، فنظر مثلهم الى النَّبَاتَاتِ باعتبارها أدويةً وأغذيةً ، لكن الذي ميّزه عنهم هو أنه لم يكتف بالنقل والاقتباس كما فعل معظمُهم بل بحث عن النباتَاتِ الطبيّة في مظانّها فوقف على أعيانها وأشخاصها في مواضعها فشخّصها وتحقّق من ماهياتها فكانت خبرتُه لذلك بالنبات أكبرَ وكان علمُه به أغزر وأوفى .

4 ـ مرْحَلَةُ الـمُلاَحَظَةِ العِلميّة الـمحْضِ :

قد رأينا أنّ الاهتمام بالنبات في المراحل السابقة كان موظّفا لأغراض ثانوية غير النبات في حدّ ذاته ، فلم تتكوّن لذلك مدرسة يمكن تسميتُها بمدرسة علم النبات العربيّة . وَلَمْ يُتَحْ لتلك المدرسة أن تَنْشأ إلا في النصف الأوّل من القرن السابع الهجريّ في الأندلس على يَدَيْ عالم فذّ لكنّه لا يزال مغمورا خاملَ الذكر هو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن مفرّج ابن الرُّوميَّة الاشبيلي (561 هـ / 1165 م ـ 637 هـ / 1239 م) الذي اشْتَهَرَ باسم أبِي العبّاس النباتي في كلّ المراجع التي تحدّثَتْ عنه لغلبة الاهتمام بالنبات عليه . ومن طرائف هذا العالم أنِ اجتمع عنده عِلْمان تميّز فيهما قلّ أن اجتمعَا عند غيره من

قبلُ : هما علمُ الحديثِ ـ حتى سُمّي بأبي العبّاس الحَافظ وأبي العبّاس الـمُحَدِّث ـ وعلم النبات . وقد كان في الفقه ظاهريّا متعصّبا لمذهب أبي محمد علي بن حزم . ويبْدُو أنّ هذا الميلَ الى الأخذ بالظاهر قد غلب عليْه في مباحثه النباتيّة أيْضًا ، فتخلّص من طريقة الرواية والاسناد ـ وقد أجادَها في علم الحديث ـ والاعتمادِ على أقوال السّابقين لِيَخْلُصَ الى البحث الميدانيّ المحْض ، بحثًا عن النباتات الجديدة التي لم يقع عليها سابقوه ورغبةً في الكشف عن حقائق النباتات التي اشتبه أمرُها على سابقيه فتناقلَها بعضُهم عن بعض دون تَحْلِيَةٍ أو وصف علميّ دقيق . وقد حصلت له من ذلك البحث نتائج على غاية من الأهميّة لم يسبقه أحد اليها ، وهو ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : « ولم يزل باحثا عن حقائقه ـ أي النبات ـ كاشفا عن غوامضه حتى وقف منه على ما لَمْ يقف عليه غيرُه ممّن تقدّم في الامّة الاسلامية ، فصار أوحَدَ عصره في ذلك فردًا لا يُجارِيه أحدٌ فيه بِإجماع من أهل ذلك الشأن »(141).

أخذ أبو العبّاس علم النبات « عن أبيه وعن جدّه وكانا قدوة في العلم به » (142) ، ثم طاف بلاد الأندلس ـ شرقًا وغربا ـ للتعشيب . ثم أخذ طريق المشرق سنة 612 هـ / 1215 م بنيّة الحجّ ورواية الحديث ودراسة النبات . وقد كان مسلَكُه في هذه الرحلة بطيئا لأنّه كان ينصرف في كلّ بلد يحلّ به الى ملاقاة العلماء ـ علماء الحديث خاصّة ـ ودراسة النبات . ومشاهدَاتُه النباتيّة التي وصلتنا تثبت أنه قد أقام بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط وافريقية وطرابلس الغرب وبرقة ومصر ـ حيث استبقاه ملكها الأيوبيّ لكنه رفض ـ والحجاز ـ حيث أدّى فريضة الحجّ سنة 613 هـ / 1216 م ـ والعراق وبلاد الشّام التي عرّج منها على صقلّية ثم عاد الى الأندلس سنة

---

(141) ابن عبد الملك : الذّيْل والتكملة ، 1/512 ـ 513 .

(142) نفس المصدر ، 1/512 .

615 هـ / 1218 م . وبعد عودته جمع مختلف مشاهداته النباتية أثناء رِحلته في كتاب سمّاه « الرحلة المشرقيّة » يبدو أنه رتّب مادّته على حروف المعجم (143) . والمؤسف حقّا أنّ هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق لنا منه إلاّ مائة وثلاث موادّ في كتاب ابن البيطار - تلميذ أبي العبّاس - « الجامِع لمفردات الأدوية والأغذية » (144) . والحقيقة أن سبْعًا وتسعين مادّة فقط من تلك الموادّ نباتية ، أما الموادّ الستّ الباقية ففي غير النبات (145) .

وعند النظر في هذه الموادّ النباتية المتبقّية من الكتاب نلاحظ أنّها جَميعها في الحقيقة جديدة ، ومظاهر الجدّة فيها أربعَةٌ :

أوّلها طريقة التناول بالبحث والدرْس . ذلك ان ابا العباس هو أوّلُ من اعتنى اعتناءً حقيقيا بالوصف الظاهريّ والتحلية العلميّة الدقيقة للنباتات المدروسة . وهو يمعن في وَصْفِ أجزاء النبْتِ المتحدِّثِ عنه وذكرِ خصائصه المخصُوصَة به إمعَانًا يدلّ على اهتمامه النباتيّ المحض . فهو - عند الحديث عن النبْت الواحد - غالبا ما يحيط بوصف الأصول والجُمَّة والسّاق والعيدان والأغصان والقضبان والشوك والزغب والصمغ والرأس والورق والزهر والبزْرِ وذكر الشكل والحجم والطول أو العرض والامتداد واللون والطعم وموضع الانبات وزمانه . وذلك الوصف الدقيق ليس له من غاية إلا الإخْبارُ عن ماهية النبات المتحدَّث عنه من حيث هو نباتٌ فحسب ، وليس لغاية تعريف الناس

---

(143) المقريّ : نَفْعُ الطيب ، 596/2 ، وقد قال : « صَنَّفَ كتابا حَسَنًا كثير الفائدة في الحشائش ورتَّب فيه أسماءَها على حروف المعجم » . والملاحظ أنّ ابن الخطيب قد سَمّى كتاب « الرحلة » في الإحاطة (212/1) « الرحلة النباتية » .

(144) قد أنجزنا بحثًا عن أبي العبّاس النباتي لا يزال مَخْطُوطًا تحدّثنا فيه عن منزلته في تاريخ علم النبات عند العرب واستَخْرَجْنَا فيه الموادّ التي بقيت من كتاب « الرّحلة » في « جامع » ابن البيطار وحقَّقْناها .

(145) هي موادّ « حجر السلوان » (الجامع ، 8/2) و« حجر اليُسْر » (12/2) و« حجر بَارِقي » (12/2) و« صدَف البواسير » (82/3) و« صوف البحْر » (91/3) و« قاوند » (3/4 - 4) .

بماهيته حتى يَحْسُنَ اختيارُه ويصحّ استعمالُه في الطبّ . فأبو العبّاس من هذه الناحية كان أوّل من أخضع دراسة النبات للملاحظة العلميّة المحْض المباشرة . على أنه في الحقيقة كثيرا ما يقع في هَنَة كانت غالبةً عند سابقيه ، هي الوصف بالتشبيه ، فيصف ورق نبات مّا ـ مثلا ـ أو زهره أو ثمره بتشبيهها ـ من حيث الخصائص خاصّة ـ بزهر نبات آخر أو ورقه أو ثمره . مثال ذلك قوله في وصف النبات المسمّى « أسرار » : « . . . وهو على قدْر ما صَغُرَ من شجر الرنْدِ ، وَوَرَقُه وَزَهْرُهُ [كورقه] وزهْرِه ويُثمِر ثمرا على قدر البنْدُق كأنّه ما صَغُر من ثمر الخَوْخِ ، أزْغَبُ الى الطول ما هو ، وفيه يسير بشاعة (. . .) ولهذه الشجرة صَمْغَةٌ لَدُنَةٌ فيها بعض شَبَهٍ بالكنْدر » (146) . يضاف إلى هذا أن أبا العبّاس لم يَخْلُصْ دائما من ذكر منافع النبات في إشارات تتخلَّلُ أو تَعْقُبُ الحديث عن صفات النباتاتِ . إلا أنّ تلك الاشاراتِ عنده لا تتجاوز في أغلب الحالات الجمْلَةَ الواحدة أو الجملتيْن . وتلك المنافع عنده صنفان : قليلا ما تكون طبيّة وغالبا ما تكون اجتماعية مثل استعمال النبات في الطعام او الصباغة أو التزيين أو الغِرَاءِ . . . الخ . إلاّ أنّ هاتيْن الظاهرتيْن لا تُقلِّلاَن من قيمة السبق الذي كان له في الاهتمام بالنبات في حدّ ذاته باعتباره عِلْمًا مستقلاّ غيرَ موظّف لغايات أخرى . وقد كان هذا الاهتمامُ عنده بالنَّبات المحض متعمَّدا إذ كان بامكانه أن يوظِّف دراسةَ النبات لغايات طبيّةٍ مَحْضٍ لأنه كان طبيبا مشهورا أيضا ، جيّد العلاج . وقد كان المستشرق الفرنسي لوسيان لكلرك (L. Leclerc) ـ مترجمُ ابن البيطار الى الفرنسيّة ـ قد تفطّن إلى هذا السبق منذ أواخر القرن الماضي ، فقالَ عنه : « لقد كان أبو العبّاس بين العرب عالمَ النبات الأحَقَّ بهذا الاسم . فقد كان العلماءُ قبلَه يعتمدون عادةً النقلَ والروايةَ ، وهو أوّلُ

---

(146) الجامع ، 33/1 .

من صرف حياتَه إلى دراسة النبات دراسة [ميدانيّة] مباشِرَةً فتجاوز نظرةَ السابقين الى النباتات باعتبارها مُجَرَّدَ مفردَاتٍ طبيّة . فابنُ جلجل كان قد كشف عن نباتات جديدة لم يذكُرْها ديوسقريديس ، لكن اعتمادَه في ذلك كان على الكتب . والغافقيّ والشريفُ الادريسي كانا قد أدْخَلا في قائمة النباتات الطبيّة عددا غير قليل من النباتات الجديدة . لكنّ همّهما لم يكن توسيعَ ميدان علم النباتِ المحْض (. . .) . وباختصار فإنّ أبا العبّاس بين العرب لم يكن أوّل من عُنِيَ فحَسْبُ بالملاحظة العلميّة المحض في ميدان النبات ، بل كان أخصبهم [اكتشافا] » (147) .

ومظهر الجدّة الثاني عند أبي العبّاس النباتيّ هو تَحْلِيَتُهُ لأوّل مرة نباتاتٍ قديمةً كانت معروفةً من قبل بأسمائها فقط أو كانت ماهياتُها وخصائصُها مثَارَ اشتباهٍ . فقد كان أبو العبّاس ذَا اطلاع واسع على ما أُلِّفَ قبلَه في النبات . وإذ كانت غايتُه نباتيّة محضًا فإنّه لم يهْتَمّ بالنباتات المعروفة التي أصبحت لا تثير شبهة أو إشكالا ، ولم يُثْقِلْ كتابَه بالنُّقُولِ عن سابقيه مثل المؤلفين في الأدْوية المفرَدة ، بل سعى إلى الوقُوفِ على أعيان النبات بنفسه للتحقُّقِ من ماهياتها لوضع مُدَوّنةٍ في النبات يضيف فيها جديدًا . وقد أتاحت له تلك المعَايَنَةُ المباشِرَة التعرُّفَ على ماهيات نباتات كثيرة كانت من قبلُ منقُوصَةَ الحِلْيَةِ أو مثَارًا للإشْكَالِ ، وقد بلغ عدد هذه النباتات عنده خمسين نباتا من جملة سبعة وتسْعين . وهذه النباتات تنقسم إلى ثلاثة أصناف : الأوّل - وهو الأقلّ عددًا - تمثّله نباتات مَغْربيّة - بربريّة بالخصوص - قد اكتشفها قبلَ القرن السابع بعض المؤلفين في الأدوية المفردة فتحدّثوا عن منافعها الطبيّة وأبقوا حِلْيَتها العلميّة منقوصةً ، ومن هذه النباتات مثلا نَبَاتًا « آاكْثار » (148)

(147) Leclerc : Histoire de la médecine arabe, 2/246 .

(148) الجامع ، 1/5 .

و« أرْجِيقُنُهْ » (149) ، وقد كانا من اكتشاف الشريف الادريسي (ت . 560 هـ / 1165 م) في القرن السّادس . والصنف الثاني تمثّله نباتات قديمةٌ ـ وعددها حوالي العشرة ـ معظمُها قد ذُكِرَ في الكتب اليونانية وبعْضُها قد ذكر في كتب الأدْوية المفردة العربيّة ، ولكن الاهتمام بمنافعها قد جعل المؤلفين السّابقين يُقَصِّرُونَ في وصف ماهياتها . وقلّة عدد هذا الصنف تعود بدون شكّ إلى كوْن أبي العبّاس كان قد أفرد لشرح مفردات ديوسقريديسَ وجالينوس كتابا مستقلا سمّاه « شرح أدوية ديسقوريدوس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميهَا » (150) . ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « سعوط » (151) و« عشرق » (152) و« غبيراء » (153) و« قضّاب مصريّ » (154) و« ماميثا » (155) . وهذا المثال الأخير من أحسن الأمثلة للتدليل على نزعة أبي العبّاس في التحقيق وَرَغْبَتِه في إضافة الجديد . فلقد كانَ الأطبّاء والصيادلة في معرفتهم للمَامِيثا عَالَةً على ديوسقريديس ، فلم يصفُوها في كتبهم اتّكالاً على وصف هذا العالم اليوناني لها . ولكن الماميثا من النباتات التي تثير الاشتباه لموافقتها في ماهيتها موافقةً كبيرة نباتًا آخرَ هو الخشخاش السّاحليّ ، أي الخشخاش المعروف بالمقرّن ، وقد أدّى هذا التوافُقُ بين النباتَيْن إلى الخلط بينهما . وقد ناقش أبو العبّاس هذه المسألة نقاشا علميّا دقيقا نورد منه هذه الفقرة : « الفرْق الثابتُ الذي لا يَشْكُلُ ولا يُحْتَاجُ معه إلى فَرْقٍ آخر ـ وقد خَفِيَ على من مضى من المحْدَثِين ولم يعْلَمْه كثير من المتأخّرين ـ أن الخشخاشَ

(149) نفس المصدر ، 20/1 .

(150) ذكره ابن عبد الملك في الذّيل والتكملة ، 513/1 ، وابنُ الخطيب في الأحاطة ، 212/1 .

(151) الجامع ، 16/3 .

(152) نفس المصدر ، 123/3 .

(153) نفس المصدر ، 148/3 .

(154) نفس المصدر ، 23/4 .

(155) نفس المصدر ، 124/4 ـ 125 .

السّاحليّ فيه الحبّةُ المنكّتة وغير المنكّتةِ والماميثا المُحقّقة النّابِتَةُ في البرّ مُسْتأنِفَةُ الكَوْن في كُلّ سَنَةٍ وتَنْحطِمُ عند انتهاء الصيف . والمزْدَرَعُ من الخَشْخَاشِ السّاحليّ بالبساتين الـمُسَمّى مَامِيثَا عند أهل اشبيلية فإنّ الذي يَنْبُتُ منه على الأصل تَنْحَطِمُ أغصَانُه وتَبْقَى أرومتُه منها في الـمُقْبِلِ (. .) . واعلَمْ أن الخَشْخَاشَ المقَرّن والماميثا لاَ فَرْقَ بيْنَهُمَا في صورة الورق والزهْرِ والثمر ولَوْن الأصْلِ من الصفرة التي فيها إلاّ ما انبأْتُك به أولاً وآخِرًا من اختصاص الماميثا بالبراري والأرضِ الطيّبة واختصَاصِ الخَشْخَاشِ بالسواحِلِ البحْرِيَّة بِرَمْليّها وبَحْرِيِّها . وكذا قد اعلَمْتُكَ أنّ من الماميثا ما يكون في أسفل وَرَقِه نُكْتَةٌ دَكِنَةُ اللوْن ومنه ما لاَ نُكْتَةَ فيه وكذا من أنواع الخَشْخَاشِ ما يُشْبِهُه إلاّ أن زهر هذا أحمرُ وسِنْفَته قائمة فصار فيها خشونة بخلاف سِنْفَةِ الخَشْخَاشِ الـمُقَرَّنِ . والماميثا فإنّ زهر ثمرها مُعْوَجّ كالقُرُون »(156) .

والصنف الثالثُ من هذه النباتات نباتات عربية ـ وعدَدُها الأغلبُ ـ من جزيرة العرب خاصّة ، كان أبو حنيفة قد ذكرها في كتاب « النبات » لكنّه لم يَصِفْهَا ولم يُحَلِّهَا ، وقد اتّكَلَ المؤلفون في الأدْوية المفردة بَعْدَه عَلَيْه فاكتفوا في الغالب بالقليل الذي عنده . وهذا الصنف في الحقيقة على قَدْرٍ كبير من الأهمية لأنّ نباتَاتِه في معظمها تنتمي الى أرض الجزيرة العربيّة والى ساحل البحر الأحمر بالخصوص . ولَوْلاَ تعريفُ أبي العبّاس بتلك النباتات تعريفًا علميّا دقيقا لبقيت في المؤلفات العربيّة مجهولةً مثل نباتات أخْرى كثيرة لم تصلنا الاّ في معاجم اللغة ومُتُونها . وقد جعل هذا المظهرُ المستشرقَ الفرنسيّ لسْيان لكلرك يُشِيدُ بقيمة كُشُوفِ أبي العبّاس ويعتبرها سَبْقًا مهمّا وتكملةً أساسية لمباحث العالم السويديّ بطرس فُرسكال ـ من القرن الثامن عشر ـ النباتية في أرض

(156) نفس المصدر ، 4/125 .

مصر والجزيرة (157) . ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « أيْهَقان » (158) و« بَكَا » (159) و« تنوم » (160) و« تمتم » (161) و« جثجاث » (162) و« حَدَق » (163) . . . الخ .

ومظهرُ الجِدَّة الثالثُ عند أبي العبّاس هو اضافتُه أصنافًا جديدةً لنباتات قديمة معروفة . وهذا المظهر يُعْتَبَر توسيعًا حقيقيا في ميدان علم النبات والمعارف السابقة فيه . وعدَدُ الاصناف الجديدة التي أضافَها سبْعَةَ عشَر ، هي الإشْراسُ وهو صنف من الخُنْثَى (164) والاكْرَارُ وهو الصنف الكبير غير المُثمِر من الطُّرْنُشُولَى (165) والبَابُونَق وهو الصنف الصغير من البَابُونَج (166) والصنف الصقليّ من البرْدِيّ (167) والربَلُ وهو صنف من البرنجَاسَف (168) والصَالْبِيَة وهو صِنْفٌ صغير من الناعمة - الألَالسْفَاتُن - (169) والزيْزَفُون وهو الصنف الذكر غير المثْمِر من

(157) Lecture : Histoire de la médecine arabe, 2/247 ؛ وكتاب فرسكال المشار اليْهِ هو Flora Aegyptica, Hanniae 1775 .

(158) الجامع ، 72/1 .

(159) نفس المصدر ، 107/1 .

(160) نفس المصدر ، 141/1 .

(161) نفس المصدر ، 151/1 .

(162) نفس المصدر ، 159/1 .

(163) نفس المصدر ، 14/2 .

(164) نفس المصدر ، 38/1 .

(165) نفس المصدر ، 52/1 .

(166) نفس المصدر ، 73/1 .

(167) نفس المصدر ، 86/1 .

(168) نفس المصدر ، 135/2 .

(169) نفس المصدر ، 77/3 .

الغُبَيْرَاءِ (170)والغُبَارِية وهو صنف من مَسْبَلِين (Mespilus) اليونانيّ (171) وسبعة أصناف من القَرصعْنَة هي الأبيضُ الزهر والأخضَرُ والمستديرُ الوَرق والأزرقُ والأبيضُ والسّاحليُّ والمرّ(172) ، واللوفا وهو صنف من القوطوليدُون (173) والمثْنان اللبنيّ - أوْ البرْقيّ ، نسبة الى بَرْقَة - وهو صنف من المثنان النابت في مصر وبلاد الشام (174) .

وأما مظهر الجدّة الرابع عند أبي العبّاس فاضافتُه نباتاتٍ جديدةً اكتشفَها هو ولم تكن معروفة قبلَه ، وعدَدُها الجمليّ عشرون نباتا من جملة سبعَة وتسعين ، وهو عدد يُعْتَبر مُهِمًّا جدّا بالقياس الى عدد الموادّ المتبقية بين أيدينا من كتاب « الرحلة المشرقية » . وتلك النباتات العشرون موزعة على أماكن مختلفة من المواضع التي عشّب فيها أبو العبّاس ، اثنان منها أندلسيّان هما « بُطْرة » (175) و« عُدَيْسَة » (176) ، ونبات واحد رآه في المغرب الأقصى هو « أَقْشُرْوَا » (177) ، وخمسة نباتات رآها في افريقية هي « أكر البحر » (178) و« زُقُشْتَة » (179) و« قُزّاح » (180) و« قُلْلُجة » (181)

(170) نفس المصدر ، 148/3 .

(171) نفس المصدر ، 149/3 .

(172) نفس المصدر ، 12/4 .

(173) نفس المصدر ، 115/4 - 116 .

(174) نفس المصدر ، 140/4 .

(175) نفس المصدر ، 101/1 .

(176) نفس المصدر ، 118/3 .

(177) نفس المصدر ، 6/1 .

(178) نفس المصدر ، 52/1 .

(179) نفس المصدر ، 166/2 .

(180) نفس المصدر ، 17/4 - 18 .

(181) نفس المصدر ، 32/4 .

و« قَلَنْجُونَة » (182) ، وأربعة رآها في الحجاز ـ وخاصّة على ساحل البحر الأحمر ـ هي « اسرار » (183) و« شُورَة » (184) و« عِكْرِش » ـ وهو غير الذي ذكره أبو حنيفة ـ (185) و« عَلْقَم » ـ وهو أيضا غير النبات المعروف بهذا الاسم من قبلُ ـ (186) ، وخمسة مشتركة قد شاهدها في أكثر من موضع ، هي « بُلّان » وقد رآه في برقة وبيت المقدس (187) ، و« ذَنَبُ الخروف » ـ وهو نبات غير المعروف من قبلُ بهذا الاسم ـ ؛ وقد رآه في افريقية وبلاد الشام (188) و« شَشْتَرة » وقد رآه في الأندلس وبلاد المغرب (189) ، و« شُطَيْبَة » وقد شاهد نباته في الأندلس وافريقية (190) ، و« ليفيّة » وقد وقف عليه في مصر والحجاز (191) . وأما النباتات الثلاثة الباقية فإنه لم يصرّح بموضع معيّن شاهدها فيه ، وهي « شبرم آخر » (192) ، و« صَنِين » (193) ، و« غَلْقَى » (194) . والمظنون عندنا أنه شاهد الشبرم والغلقى في الحجاز ، ففي حديثه عنهما ما يوحي بذلك .

---

(182) نفس المصدر ، 32/4 .

(183) نفس المصدر ، 33/1 .

(184) نفس المصدر ، 73/3 ـ 74 .

(185) نفس المصدر ، 130/3 .

(186) نفس المصدر ، 134/3 .

(187) نفس المصدر ، 113/1 .

(188) نفس المصدر ، 126/2 .

(189) نفس المصدر ، 62/3 .

(190) نفس المصدر ، 62/3 .

(191) نفس المصدر ، 117/4 ـ 118 .

(192) نفس المصدر ، 52/3 .

(193) نفس المصدر ، 90/3 .

(194) نفس المصدر ، 151/3 .

تلك أهمّ المظاهر الجديدة في تجربة هذا العالم الطبيعيّ النباتية . ولو وصلنَا كتابه « الرحلة المشرقية » كاملا لأمكننا بدون شك تبيّن مظاهرَ جديدةٍ أخرى فيه . إلاّ أن هذه المظاهر الجديدةَ الأربعة كافيةٌ في نظرنا لتنزّل أبا العبّاس المنزلة الأولى بين العلماء الطبيعيّين العرب الذين اهتمّوا بالنبات وتجعلنا نعتبره صاحب مذهب ومدْرَسَة في تاريخ علم النبات عند العرب . إلاّ أنّ المذهبَ الذي ذهبه أبو العبّاس والمنهَجَ الذي سَنَّهُ في دراسة النبات قد تَوَقَّفَا بعْدَهُ ولم يكن لهما حظّ من الوجود ، إلاّ ما رأيناه عند تلْمِيذِه ابن البيطار وقد كان له معاصرا ، إلاّ أنّ عمل ابن البيطار كان نباتيّا طبيّا ولَيْس نَبَاتِيّا محضا . ولقد غلب بعد النصف الأوّل من القرن السابع مذهبُ التلميذ على مذهب الاستاذ فأقبلَ العلماء على كتاب ابن البيطار - « الجامع » - يلخّصونه ويختصرونه وينتخبون منه لغايات طبيّة علاجيّة ، ونُسيَ كتاب « الرحلة » لأبي العبّاس وأُهْمِلَ المنهجُ الجديدُ الذي أدخلَ لأوّل مرة في المباحث النباتيّة العربيَّة .

خاتمة

تلك هي المراحل الأساسيّة التي مرّ بها علم النبات عند العرب . فقد بدأ الاهتمامُ بالنبات عند العرب في إطار لغويّ محض ثم في إطار التّماسّ بين اللغات والثقافات عن طريق الترجمة ثم في اطار الاهتمامات الطبيّة العلاجية . وقد تخلّل ذلك كلّه اهتمامٌ من نوع آخر في إطار المباحث الفلاحية ، لكنّ هذا الاهتمام أيضا لم يكن بعلم النبات المَحْض بل لغرض آخرَ غيْرِه . ولم تُخْلَص العنايَةُ بالنبات المَحْض إلاّ في النصف الأوّل من القرن السّابع الهجريّ في محاولة فريدة وتجربةٍ فذّة من المؤسف أنْ لم يكُنْ لها تواصُلٌ . وبعْدَ هذا العَرْض

الذي قدّمنا لمختلف تلك المراحل ليس لنا إلا أن نؤكّد ما كنّا ذكرناه في مقدّمة هذا البحْث : فالتجربة العربيّة في علم النبات تجربة رائدة ليس لها سابق أوْ مِثْلٌ في تاريخ علم النبات ، وهي تجربة متميّزة في التّراث العلميّ الانسانيّ سواءٌ من حيث عدَدُ العلماء الذين اهتمّوا بالنبات أو من حيث المذْهَبُ الذي ذهبُوه في دراستِهِ والمنهج الذي سلكوه في مباحثه . فالأممُ السابقَةُ تشارِكُهم في الاهتمام به لأغراض طبيّة وفلاحية ولكنّهم يمتازون على غيرهم باخلاصهم العنايةَ به لذاته إذْ جعلوا منه عِلْمًا مستقلاّ .

ولكن أينَ نحْنُ اليوم من التجربة النباتية العربيّة القديمة ومن التجربة العالميّة ؟ أوّل ما تجدر ملاحظَتُه هو أنه لا يوجد عالِمٌ عربيّ واحِدُ اليومَ يمكن أن يُنْعَتَ بالنباتيّ مثلما نُعِتَ أبو العبّاس الاشبيلي أو تلميذُه ابن البيطار في القرن السّابع الهجريّ . وأبرز الدلائل على ذلك أنّ معظم الدراسات الأساسية التي وُضِعَتْ في وصف المحيط النباتي العربيّ ـ مشرقيِّه ومغربيِّه ـ كانت من عمل أعاجِمَ ، وبلغات غير العربيّة . وأولئك الأعاجم هم الذين اكتشفوا النباتَاتِ والأصناف النباتيَّة الجَديدة التي لم يعرفها العلماءُ العرب والعلماء السابقون لهم من قبْلُ . ثم انّ التراث العلميّ النباتي العربي القديم يكاد يكون اليوم في جملته مجْهُولا ، إذ لا يعرف الناس منه الا النزْرَ القليلَ ممّا وصلنَا في « جامع » ابن البيطار خاصّة . وأسباب ذلك الجَهْل كثيرة نكتفي منها بأربعة : أوّلها بقاء ذلك التراث إلى يومنا هذا مخطوطا مهملا لا يُنْتَفَعُ به ، ولو اهْتُمَّ بِهِ ونُشِرَ للناس لتمَّ استقراؤه استقراء علميّا منهجيّا والاستفادة منه في مباحثنا النباتية العربيّة الحديثة . وثانيها غيابُ المعجم التاريخيّ الموسوعيّ العربيّ الذي يُدَوِّنُ متْنَ اللغة العربية في كلّ العصور وكل الأمصَار العربيّة وفي كلّ مستويات اللغة . وثالثها عائق اللغة ، ذلك أن مُعْظَمَ نباتيينا إنّما هم مُهَنْدِسُون درسوا عِلم النبات بلغاتٍ أجنبيّة في جامعات أجنبية والقطيعةُ بينهُم وبين التراث

النباتيّ العربيّ كبيرةٌ . ورابعها اهتمامنا ـ إلى حدّ الآن ـ في المجامع العلميّة والجامعات خاصّة ، بالنقْلِ والترجمة من اللغات الأخْرى ، حتّى أَنَّكَ تكاد لا تجد اليوم كِتَابًا عربيًا واحدا في وَصْفِ النباتات العربيّة وغير العربية ، ولو على مثال كتاب « الرحلة المشرقية » لأبي العبّاس النباتي . وجُلّ من نجدُه معاجمُ ثُنَائِيَّة اللغة أو متعدِّدة اللغات مَنْزِلَةُ العربيّة فيها ثانويّة . ثم هي في الغالب معَاجِمُ اصطلاحية لغويّةٌ وليسَتْ نباتيّة علمية تُعْنَى بوصف ماهيات النبات وتحليته وتصنيفه ، يُضَافُ الى ذلك كونُها موسوعاتٍ في علم الطبيعة ليست خالصة في النبات ، إلاّ النادر منها . وأهمّ تلك الأعمال « معجم العلوم الطبيّة والطبيعيّة » للدكتور محمد شرف (طبع سنة 1926) وهو انقليزي عربيّ ، و« معجم أسماء النبات » للدكتور أحمد عيسى (طبع سنة 1930) وهو لاتينيّ فرنسيّ انقليزي عربيّ ، ومُؤَلِّفَا هذيْن الـمُعْجَمَيْن طبيبان ، وثاني المعجمَيْن في النبات المَحْضِ لكنّه في المفردات النباتية ، وقد قام فيه مؤلّفه بجهد كبير في استقراء ما توصّل إليه ـ وهو قليل ـ من كتب التراث النباتي العربيّ ، ثم « معجم الألفاظ الزراعية » للامير مصطفى الشهابي (طبع سنة 1943) ، وهو فرنسيّ عربيّ في النباتات الزراعيّة والحيوان خاصّة ، و« الموسوعة في علوم الطبيعة » لادوار غالب (طبع سنة 1965 في ثلاثة أجزاء) ، وهو معجم عربيّ لاتيني فرنسي انقليزي . . . في مصطلحات مواليد الطبيعة الثلاثة : النبات والحيوان والمعادن ، فهو إذن في غير النبات المَحْض . إلاّ أنه يمتاز على المعاجم السابقة بخصلتين : ترتيب موادّه على حروف الهجاء العربيّة ، وتعريف الموادّ فيه ـ بإيجاز ـ تعريفا علميّا دقيقا بماهية المولود المتحدّث عَنْه وخصائصه . وآخر هذا الصنف من المعاجم «معجم مصطلحات عِلْمِ النبات» (طُبِعَ سنة 1978) . وهو الجزْءُ الخامس من « المعجم الموحّد للمصطلحات العلميّة في مراحل التعليم العامّ » ، من وضع المنظمة العربية للتّربية والثقافة والعلوم ، وهذا المعجم انقليزيّ فرنسيّ عربيّ ، صغيرُ الحجم ، لغويّ اصطلاحي

أساسا . وميزتُه هي كونُه في النبات المحض . إلا أن فيه عيبا كبيرا ظاهرا لكلّ عين ، هو احتكام واضعيه الى الاجتهاد الشخصي في ترجمة المصطلحات الانقليزية والفرنسية وإهمالهم إهمالا يكاد يكون كليّا أعمالَ سابقيهم من محمد شرف حتى أدوار غالب . أما العلماء العرب القدامى فكأنّ بينهم وبين واضعي هذا الكتاب جدارًا سَمِيكًا ! (195) .

وخلاصة القول : إنّ المرحلة التي يمرّ بها عِلْمُ النبات عند العرب في العصر الحديث تُشْبِهُ إلى حدّ كبير المرحلة الثانية التي تحدّثنا عنها في هذا البحث ، أي مرحلة النقل والترجمة . ولسنا نَدْري الى متى ستتواصل هذه المرحلة . وهي على كلّ حال متواصلة باقية ما دام علم النبات في البلاد العربيّة يدرّس بلغات أعجميّة ، وما دامت اللغة العربيّة في المؤلفات التي توضع في

---

(195) الأمثلة الدّالّة في هذا المعجم على جهل واضعِيه أعمالَ القدماء من العلماء العرب كثيرةٌ نكتفي بذكر نوعين منها : أوّلهما الميْلُ فيه إلى تعريب مصطلحات أعجمية قد انتهى القدماءُ إلى إيجاد مقابلاتها العربيّة أو المعرّبة ، من ذلك تعريبُهم مصطلح « Allium » بـ « أَلْيُوم » (ص 7) عوض « ثوم » ، ومصطلح « Arum » بـ « أَرُوم » (ص 15) عوض « لوف » ، و« Cassier » بـ « كَاسْيَا » (ص 34) عوض « سَنَا » ، و« Galbanum » بـ « جَلْبَانُوم » (ص 87) عوض « خلباني » ، و« Gaiac » بـ « جَيَاك » (ص 98) عوض « عود الأنبياء » أو « عود الصّليب » ، و« Héliotrope » بـ « هِيلْيُوتْرُوب » (ص 102) عوض « رقيب الشمس » أو « أكْرار » أو « تنوّم » أو « شجرة اليمَام » أو « صَامَرْيُومَا » أو « حشيشة العقرب » ـ وقد وردت هذه المصطلحات كلّها عند ابن البيطار في كتاب « الجامع » ـ ، و« Solanum » بـ « سُولاَنُم » (ص 138) عوض « مغد » ، و« Sorbus » بـ « سُورْبُس » (ص 139) عوض « غبيراء » ، و« Orobos » بـ « أُرُوبُس » (ص 149) عوض « كرسنّة » أو كشْنَى » ، و« Pamplemousse » بـ « بَامْبلِيمُوس » (ص 161) عوض « كبّاد » أو « ليمون هندي » ، و« Pyrètre » بـ « بِيرْتْرم » (ص 166) عوض « عاقرقرحا » . . . الخ ؛ وثانيهما المَيْلُ الى تعريب مصطلحات أعجميّة محرّفة من مصطلحات عربيّة بألفاظها الأعجمية الحديثة دون إعادتها الى أصولها العربيّة ، من ذلك تعريب مصطلح « Laque » بـ « لاَكْ » (ص 98) وهو محرّف من العربية « لُكّ » و« Caquiller » بـ « كاكلى » (ص 178) وهو مُحرّف من العربيّة « قَاقُلّى » و« Sumac » بـ « سُمَاك » (ص 192) وهو محرّف من العربية « سُمَّاق » ، و« Usnea » بـ « أُسْنِيَا » (ص 202) وهو محرّف من العربية « أُشْنَة » . . . الخ .

النبات ذاتَ منزلةٍ ثانويّةٍ ، وما دام نباتيّونا لا يَعْرِفُون التراثَ العلميّ النباتي العربي معرفةً حقيقيّةً جيّدة ، ولا يَعْرِفون طريقَ الرحلة داخلَ البلاد العربيّة وخارجَها بحثا عن النباتات في مظانها لمعرفةِ الـمُتَعارَفِ منها مَعْرِفَةً أدقَّ تَفُوقُ ما يصلهم عن طريق الترجمة ، واكتشافِ الجديد الذي لم يُكْتَشَفْ بعد ، حتى يُحْيُوا سُنَّةً اندَثَرتْ ، ومذْهَبًا في العلم كان العلماءُ العرَبُ القدامى السبّاقين اليه .

إبراهيم بن مراد

مصادر البحث ومراجعة

أ ـ العربيّة :

(1) ابن أبي أصيبعة (موفّق الدين) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق أوغست ملّلر ، ط . 1 ، القاهرة ، 1299 هـ / 1882 م (جزآن) .

(2) ابن البيطار (أبو محمّد عبد اللّه بن أحمد) : « كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهج من الخَلَل والأوهام » ، مخطوطة مكتبة الحرم المكّي ، رقم 36 (1) طبّ (80 ورقة) .

(3) ابن البيطار : « تفسير كتاب دياسقوريدوس » ، مخطوطة مكتبة الحَرَم المكّي ، رقم 36 (2) طبّ ، (38 ورقة) .

(4) ابن البيطار : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، ط . 1 ، بولاق (القاهرة) ، 1291 هـ / 1874 م (أربعة أجزاء في مجلديْن) .

(5) ابن الجزار (أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد) : « كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة » . مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر ، قطعة خامسة ضمن مجموع ، رقم 1476 (من الورقة 113 ظ الى 216 و) .

(6) ابن جُلْجُل (أبو داود سليمان بن حسّان) : « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق فؤاد سيّد ، ط . 1 ، القاهرة ، 1955 (138 ص) .

(7) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمّد بن عبد الله) : « الإحاطة في أخبار غرناطة » تحقيق عبد الله عنان ، نظرنا في الجزء الأوّل ، ط 2 ، القاهرة ، 1973 .

(8) ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمّد) : « كتاب الذّيْل والتّكْملة لكتابي الموصول والصّلة » ، نظرنا في السفر الأوّل ، تحقيق محمّد بن شريفة ، ط 1 ، بيروت ، (بدون تاريخ) .

(9) ابن مراد (ابراهيم) : « المصادرة التونسيّة في كتاب « الجامع » لابن البيطار » ، بحث صدر في مجلة « الحياة الثقافية » (تونس) ، 8 (1980) ، ص ص 117 - 158 ، 10 (1980) ص ص 107 ـ 144 .

(10) ابن النديم (محمّد بن إسحاق) : « الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدَثين وأسماء كتبهم » ، تحقيق غوستاف فلوغل ، ط . 1 ، ليبزيغ ، 1872 (351 ص نص عربيّ + 351 ص تعاليق ومقدمات وفهارس) .

(11) أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود بن وَنَنْد) : « كتاب النّبات » : الجزء الأوّل (أ - ز) تحقيق برنار لوين ، ط . 1 ، ليدن ، 1953 (15 + 236 + 51 ص) ، والجزء الثاني : (س - ي) ملتقطات ما نُسِبَ إليه عند المتأخرين ، اعتنى بجمعها محمّد حميد الله ، ط . 1 ، القاهرة ، 1973 (447 + 57 ص) .

(12) الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) : « كتاب النبات » ، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط . 1 ، القاهرة 1972 (23 + 110 ص) .

(13) ديوسقريديس (بدانيوس - العينْ رزني) : « المقالات الخمس وهو هَيُولى الطبّ » ، ترجمة اصطفن بن بسيل وإصلاح حنين بن إسحاق ، تحقيق قيصر دبلار وإلياس تراس ، ط . 1 ، تطوان - برشلونة ، 1957 (626 + 180 ص) .

(14) الغافقي (أبو جعفر أحمد بن محمّد) : « كتاب الأدوية المفردة » ، مخطوطة الخزانة العامّة بالرّباط ، رقم ق 155 (200 ورقة) .

(15) المقرّي (أحمد بن محمّد - التلمساني) : « نفح الطيب من غُصْن الأندلس الرطيب » ، تحقيق إحسان عبّاس ، (في سبعة أجزاء) ، نظرنا في الجزء الثاني ، ط . 1 ، بيروت ، 1968 .

(16) المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم : « معجم مصطلحات علم النبات » ، ط . 1 ، دمشق ، 1978 (397 ص) .

(17) نصّار (حسين) : « دراسات لغويّة » ، ط . 1 ، بيروت ، 1981 ، (235 ص) .

(18) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : « التاريخ » ، ط . بيروت ، 1970 (جزآن) .

ب - الاعجميــــــة :

(19) Badawi (Abdurrahman) : «La transmission de la philosophie grecque au monde arabe», 1ère éd. Paris, 1968 (199p).

(20) Leclerc (Lucien) : «Histoire de la médecine arabe», 1ère éd. Paris, 1876 (2 vol).

(21) Sezgin (Fuat) : «Geschichte des Arabischen Schriftums», 1ère éd., Leiden - Brill, 1967 - 1984 (9 vol).

التصاحب النطقي للتفخيم في العربية *

بقلم : سالم الغزالي

تعريب : عبد الفتاح ابراهم

مقدمة

يعرف التصاحب النطقي (Coarticulation) بأنّه تداخل العمليات النطقية أثناء انجاز سلسلة أصوات في الخطاب المسترسل . ولا ريب في أنّه لا مهرب من تأثير صوت لغوي في آخر متاخم تأثيرا تقدميا أو تراجعيا ، لأنه لا يتيسّر لأعضاء النطق أن تُحوّل حالا من موضع إلى آخر ، كما أن أثر سياق صوتي قد يتجاوز الصوت الملاصق ليدرك أصواتا أخرى أبعد منه . وما تزال ظاهرة التصاحب النطقي قضيّة أساسيّة في النظرية الصوتية في الجملة . وأهمّ الأبحاث في هذا المجال ملخّصة عند كنت ومينفي (Kent et Minifie 1977) وعند ماك نيلاج (Mac Neilage 1979) لذلك لا ننوي العودة إليها في هذا البحث .

يبدو أنّ التفخيم ، وبعبارة أدق الاطباق (Pharyngalisation) ، يستطيع أن يمتدّ إلى عدّة وحدات صوتية . لكن الفرضيات التي قُدّمت

* نشر هذا المقال بمجلة ارابيكا ARABICA المجلّد 28 العدد 3/2 .

عن امتداد التصاحب النطقي للتفخيم وعن درجته تختلف من دراسة إلى أخرى ، وفي نفس اللهجة أحيانا . ونحن نرى أنّ هذه الاختلافات لا تمثّل النتائج المباشرة لاختلافات لهجية ممكنة فحسب بل تعود أيضا ، وبصورة خاصة ، إلى العوامل التّالية :

1 — إنّ الدّراسات التي سعت الى وصف مجال التفخيم وصفا دقيقا كانت دراسات فونولوجية غالبا ، ونعني خاصة تحاليل هرّيس (Harris 1942) وهارل (Harrel 1957) وليـن (Lehn 1963) . وقد لخّصها كوهين (Cohen 1969) ونقدها في مقاله الممتاز ؛ تضاف إليها تحاليل أحدثُ قامت به بروسلو (Broselow 1976) وكولوغلي (Kouloughli 1978) .

وإسهام هذه الأبحاث في الفونولوجيا العربيّة عظيم جدّا ، لكنّها — على ما فيها من الإغراء — أبحاث تقريبيّة جدا ، ولا تتلاءم والوقائع الفيزيولوجيّة والطيفيّة الملحوظة ، في أغلب الأحيان ، لأنّها مقامة على انطباعات سمعيّة . فليس الأمر ، حسب ما يبدو ، أن يكون الصوت مفخّما أو غير مفخّم حتْما ، إذ يمكن أن يكون مفخّما جزئيا وهو ما قد لا ييْسُر إدراكه بالأذن المجرّدة أو وصفه وصفا مناسبا باعتماد القواعد الفونولوجيّة .

2 — إنّ ما نعيبه على الدّراسات عن التصاحب النطقي للتفخيم على ضوء الصوتيات التجريبيّة هو ندرتها واقتصارها في الغالب على دراسة مقاطع من نوع : حرف + حركة (CV) وحركة + حرف (VC) أو حركة + حرف + حركة (VCV) . أمّا الذين حاولوا النظر في وحدات أوسع — الكلمة غالبا — فاصطدموا بصعوبات منهجية . ولم يخصّص بدر الدّين (1977) الذي قدّم بحثا هامّا جدا عن التفخيم في لهجة القيروان (الجمهورية التونسية) غير بعض الملاحظات عن التصاحب النطقي مبنيّة على مدوّنة لا تتعدّى كلمتين .

كذلك ليست نتائج أبحاث علي ودانيلوف (Ali-Daniloff 1972) عن التصاحب النطقي للتفخيم في اللهجة العراقية مفيدة جدّا هي أيضا. فمدوّنة عملهما التي لا يُستهان بها لم تُختر مع الأسف اختيارا دقيقا. كما أنّ عددا من المتغيّرات مثل اختيار الحروف المفخّمة ومدى الحركة وجرسها لم تُخضع للمراقبة التجريبيّة. ويؤكّد بونّو (Bonnot 1977) الذي درس التفخيم في العربيّة الفصيحة بنطق باث سعودي أنّ « آثار الحرف [المفخّم] لا تتجاوز الصوت المجاور إلاّ في حالات شاذّة جدّا » (ص 69) ولا بدّ أن نلاحظ، في هذا الموضع أن المدوّنة التي عرضها بونّو ومثّل لها وناقشها لا تضمّ إلاّ مقاطع من نوع : حركة + حرف (VC) وحرف + حركة (CV) وحركة + حرف + حركة (VCV) من ناحية أولى ؛ ومن ناحية ثانية فإنّ الخروج باستنتاجات عن نطق العربيّة الفصيحة انطلاقا من نطق متكلم بلهجة من اللهجات العربية يبدو لنا أمرا مشكوكا فيه، حتّى وإن كان الباث سعوديا.

3 — وأخيرا، فإنّ اختلاف الاراء في ما يكوّن صوتا مفخّما يبدو مصدر كثير من الخلط عند علماء الصوتيات وعلماء الفونولوجيا على حدّ سواء، إذْ أننا نلاحظ في بعض الأعمال أنّ وصف امتداد التفخيم يتمّ انطلاقا من كلمات لم يعتبر المتغيّر التجريبي فيها (الصوتم الذي يفترض عمله في الصواتم الأخرى بسحبها إلى الخلف) مفخّما في أبحاث أخرى. ولن نعود في هذا البحث إلى مناقشة مشكل عدد الحروف المفخّمة ونوعها ونرجو القاريء مراجعة أعمال كوهين (1969) والغزالي (1977 و 1979) في هذا الموضوع ؛ على أنّنا نؤكّد أنّا نعني بالمفخّمة (Emphatique) في هذا المقال الحروف المطبّقة (C. Pharyngalisées) (الطّاء والصّاد والظّاء أو الدّال المفخمة، حسب اللهجات).

دراستنا

إنّ هدف هذه الدّراسة هو النظر في امتداد التصاحب النطقي للتفخيم في العربيّة (هل هو في حدود المقطع أم الكلمة ؟... الخ) . وسنعود الى مناقشة نتائج الأبحاث المذكورة في المقدّمة ، عند ما يكون ذلك ضروريا وسنقارنها باستنتاجاتنا ، كما سنحاول أن ندرس إن كانت أسباب التصاحب النطقي تكمن في [قانون] القصور الذاتي (Inertie) للعضلات أم أنّ علينا البحث عنها في مستوى عقلي أرقى .

الفرضيات والمناهج التجريبية

المعطيات السينمائية الاشعاعية :

تتألّف المدوّنة التي أخضعناها للتّحليل السينمائي الاشعاعي (Analyse radiocinématographique) من 76 كلمة وتركيبين جزئيين (أنظر الجدول 1) قرأها متكلم بلهجة من [لهجات] الجنوب التونسي (غُمراسن) . وتهدف دراسة هذه المدوّنة إلى التحقّق من :

أ – امتداد التصاحب النطقي للتفخيم امتدادا تقدميا (Progressif) وتراجعيا (Regressif) ؛

ب – أثر مدى الحركة وجرسها في امتداد التفخيم . فاعتمادا على أنّ حرفا مفخّما وحركة حنكية (V. Palatale) [أي أمامية] هي الكسرة [i] يقتضيان عمليتين نطقيتين متناقضتين نتوقّع أن تحدّ الكسرة [i] امتداد التفخيم أو تعطّله ، أو أنْ تسهّل الفتحةُ [a] التي تقتضي نفس حركة اللسان عند النطق بحرف مفخم تقريبا سريانَ التفخيم الى صواتم أخرى . كما نتوقّع أيضا أن يكون التفخيم متناسبا عكسيا مع مدى الحركة ومع طول الكلمة .

ج – تأثير حدود المقاطع وحدود الكلمة في امتداد التفخيم .

A.

(1) (a) *bifīd*
(b) *mæfǣdls*
(c) *mævbīdls*
(d) *mætfævvlds*
(2) (a) *bifīḍ*
(b) *mæfāḍls*
(c) *mævfīḍls*
(d) *mætfavvlḍs*
(3) (a) *biḍīʕ*
(b) *mævfavvlḍs*

B. (1) (a) *Ilmmīti*
(b) *sæmIila*
(c) *sæmītlæ*
(d) *sæmIlli*
(2) (a) *sīm*
(b) *ṣīmi*
(c) *sīm*
(d) *sīni*
(e) *simin*
(f) *ṣimtlæ*
(g) *simlla*
(h) *ṣamillæ*
(i) *samitlæ*
(j) *ṣamIlli*
(k) *ṣāma*
(l) *samǣtæ*

(3) (a) *ṣīt*
(b) *sīṭi*
(c) *ṣiṣīli*

C.

(1) (a) *tInfæss*
(b) *tInfaxx*
(c) *tInfaqq*
(d) *tInfarr*
(e) *tInfaðð*
(2) (a) *bagtēn*
(b) *dagtēn*
(c) *ṭagtēn*
(3) (a) *ballInæ*
(b) *sallInæ*
(4) (a) *qalbēn*
(b) *galbēn*
(c) *ṭablēn*
(d) *salbēn*
(5) (a) *lamēn*
(b) *malēn*
(c) *masēn*
(d) *fammēn*
(e) *fassēn*
(f) *ramlēn*
(g) *ṣaffēn*

D.

(1) (a) *nāšlṭ*
(b) *ṭāšlt*
(c) *šāṭlt*
(d) *tāšlš*
(e) *stanšlṭ*

E.

(1) (a) *brēṭ*
(b) *bṛēt*
(c) *ṛbīʕæ*
(d) *ṭbīʕæ*
(e) *tbīʕ*
(2) (a) *ẓiwān*
(b) *ʕǣli*
(c) *ħǣli*
(d) *xāli*
(e) *ɦāli*
(3) (a) *tǣb*
(b) *ṭāb*
(c) *tūb*
(d) *ṭūb*
(e) *sūfi*
(f) *ṣūfi*
(4) (a) *kælb*
(b) *qalb*
(c) *ṣalb*
(d) *hakkāk*
(e) *ṣakkāk*

F.

(1) (a) *qfaṣṣænīs*
(b) *bēt IṭṭāhIr*

الجدول الأول :

المدوّنة التي اخضعناها للتحليل السينمائي الاشعاعي والتي اخذت منها الامثلة المدروسة في هذا المقال. وألّفت هذه المدوّنة في نفس الوقت للاجابة عن اسئلة لم تثر في هذا المقال .

المعطيات الطيفيّة :

تتألّف المعطيات الطيفيّة من :

أ — المدوّنة التي حلّلناها تحليلا سينمائيّا اشعاعيا ، وقد ذكرت آنفا .

ب – مدوّنة تتألّف من 500 كلمة وتركيب بقراءة 11 شخصا مختلفين :

– خمسة تونسيين : أربعة من مدينة تونس وخامسهم من سوسة.
– ليبيان : أحدهما من طرابلس والاخر من الزّاوية .
– قاهري .
– أردني من شمال الأردن .
– عراقي من العَظَمية ببغداد .

يهدف التحليل الطيفي إلى :

أ – وضع تحويل طيفي نطقي انطلاقا من المدوّنة التي تتوفّر لنا عنها معطيات سينمائيّة اشعاعية طيفية (فقد استعمل الشريط الصوتي المسجّل خلال انجاز الدراسة السنمائية الاشعاعية لوضع الرسوم الطيفية (Sonagrammes) .

ب – مقارنة هذه المعطيات الطيفية (Spectrographiques) والمعطيات الطيفية المرسومة المحصّلة من الأشخاص الاخرين (1) .

القياسات :

أنجز الشريط في قسم « مباحث جراحة الأذن والحنجرة » بجامعة إيُـوَا (Iowa) . وكانت سرعة عرض الصور تساوي 100 صورة في الثانية . وقد أمكننا بفضل تقنية وصفها كين (Kuehn 1973) أن نحصل على صورة بالقياس الطبيعي . وعُرض الشريط وصوّر صورة صورة .

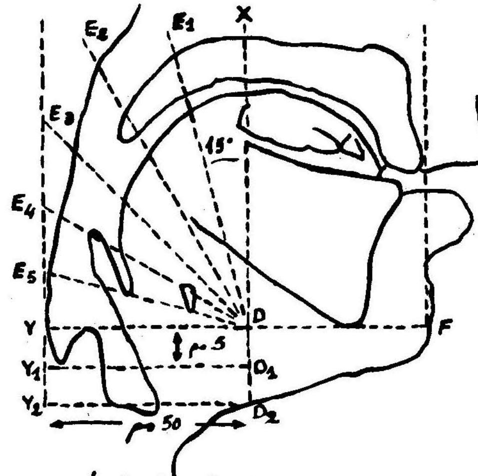
أمّا تقنيات القياس المستعملة فكانت تقريبا تلك التي استعملها علي ودانيلوف . وقد اتخذنا ، لضمان ثبات القياسات المعمولة ، مثالا لبنى

---

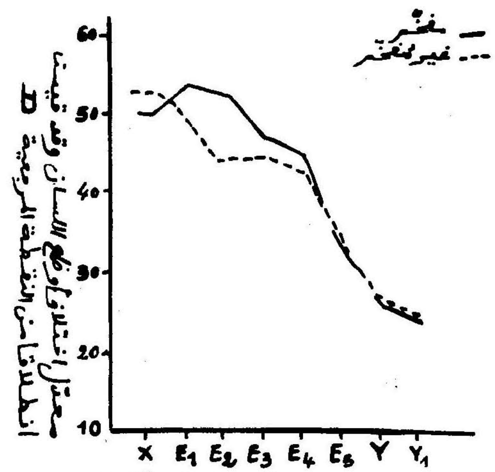
(1) نحن نعني حدود هذه التقنية التي تتمثل في تقدير العمليات النطقية انطلاقا من العلامات الطيفية نظرا الى وجود ظاهرة التعويض النطقي (Compensation articulatoire) (المؤلف).

أنظر تعريفنا بهذا المصطلح عقب المقال (المعرب)

ثابتة لجهاز التصويت استعملناه نموذجا لتثبيت محاور قياس الأوضاع النطقية (أنظر اللوحة الأولى) . وأخذنا اتّفاقا 250 صورة أعدنا قياساتها فلم يتجاوز هامش الخطإ 0،32 ملّيمتر ، في الغالب . وأنجزت التحاليل الطيفية على رسوم طيفية بالترشيح الواسع (Filtrage large) (بجهاز الراسم الطيفي Sona-Graph 6061 B) . واستعملنا حاسوبا من نوع PDP 12 للتثبّت من صحّة قياسات المدى المحصّلة من الشريط ومن الرسوم الطيفية .



اللوحة الاولى: صورة مبسطة لمحاور القياس



الشكل الأول: معدل الفوارق في أوضاع اللسان أثناء
نطق الحروف المفخمة وغير المفخمة
(بالمليمتر)

النتائـج و المنـاقشـة

تبرز تحاليلنـا أن للحروف المفخّمة تأثيرا بالغـا في الحروف والحركات المجـاورة ، إلاّ أنّ درجـة عمليّـة السّحب الى الخلف (Posterio risation) في اتجـاه تقـدمي أو تراجعي وامتداد هذه العمليـة لا يتطابقـان عند كلّ الأشخـاص الذين دُرست لهجـاتُهم . وسنناقش في المرحلـة الأولى أثـر الحروف المفخّمة في الحركات والحروف الملاصقـة ؛ ثم ننظر في امتداد التفخيم في لهجة الجنوب التونسي (غمراسن) التي تتـوفّر لدينـا عنهـا معطيـات سينمـائية اشعـاعيـة ومعطيـات طيفية ؛ ثم نصف آخرا التصاحب النطقي في اللهجـات التي لدينـا عنهـا معطيـات طيفيـة فقط .

أثر الحروف المفخّمة في الحركات :

تسحب كل الحركات الى الخلف في الغالب عندمـا تجاور حرفـا مفخّمـا ، ويتجلّى هذا التـراجع (Rétraction) في :

أ — تدنّي حاشية نقلـة (Extrémité de la transition) المكوّن الثاني لحركتي الكسرة [i] والضمّة [u] .

ب — شدّة نقلة المكـوّن الثاني في الكسـرة [i] وانعدام النقلـة في الضمّة [u] . ويختلف طول نقلة المكوّن الثاني في الكسرة باختلاف الطول الجملي للحـركة ووقت دفق الجهر (V.O.T)(2) في الحرف المفخم الملاصق . كمـا أنّ مدى الحركـة يؤثر في ارتفـاع الذبذبـة الوسطى في المكـوّن الثاني للكسـرة [i] ، فقـدْرَ ما تقْصُر الحركـة تكـون الذبذبـة منخفضة ، لكـن

(2) أنظر تعريفنا لهذا المصطلح عقب المقال (المعرب) .

المكـوّن الثـانـي للكسـرة يصـل دائمـا الى 2000 هـرتـز على الأقـل وذلك بقطـع النظـر عـن المدى . وفي بعض الأحيـان تـكـون لبعض حـركـات الـكسـرة القصيـرة جـدا بنى حـزميـة لا تتـألّـف إلا مـن نقلـة دون ذبـذبـة وسطيـة . إنّ انخفـاض الذبـذبـة الـوسطيـة فـي المـكـوّن الثـانـي ووجـود نقلـة فـي الـكسـرة [i] (أو انعـدام النقلـة فـي الضـمّـة) يعـكسـان المسـافـة التي ينبغـي أن يقطعهـا اللّسـان عنـد تحـوّلـه مـن نقطـة قطـع الغلـق (Lieu de la rupture) فـي الحرف المفخّـم (أو ارتخـاء الانقبـاض فـي الحـروف الاحتـكـاكيـة) إلى مـوضـع الحـركـة ، ويعـكسـان سـرعـة القيـام بهـذه العملـة النطقيـة .

كمـا يظهر أثر الحروف المفخّمـة في الحركـات الملاصقـة أيضـا في ارتفـاع المكـوّن الأوّل وانخفاض المكوّن الثّاني في الحركتين القصيرتين الرخيفتين [I] و [U] (3) .

وعند مجـاورة حرف مفخم تحصل في المكوّن الثاني للكسرة الرخيفة [I] نقلة قصيرة ، فالذبذبة الوسطى في المكوّن تكـون أكثر انخفـاضـا عنـد مـا تكـون الكسرة الرخيفـة [I] جـوار حـرف مفخـم (من 1400 هرتز الى 1500 هرتز) ممـا تكون عليه جوار حرف غير مفخّم (من 1800 هـرتز إلى 1900 هرتـز) . وإذا وردت الكسرة الرخيفـة [I] بين حرفين مفخمين فإنّ المكوّن الثاني يمكن أن ينخفض إلى 1150 هرتز ويمكن أن يرتفع المكوّن الأوّل إلى 500 هرتز . والنتيجة غالبا هي النطق بحركة مبهمة (v. neutre) شبيهة بحـركة « شـَـوَا » (Schwa) (4) . كمـا ينخفض المكوّن الثّـاني للضمّـة الرخيفـة [U] من 1125 هرتز إلى 930 هرتـز ويرتفع المكـوّن الأوّل من 400 إلى 550 هـرتـز .

---

(3) ان ما نسميـه حركتيـن رخيفتيـن [I] و [U] يوافـق الحركـات التي توصـف في الغالب بأنها قصيرة . وقد حاولنا ان نبين في دراسـة أخرى (الغزالي 1979) ان التفريق بين الحركات القصيرة والطويلة يصحبه فرق في الجرس . (المؤلف)

(4) انظر تعريف هذه « الحركة » عقب المقال . (المعرب)

ويبدو أنّ اللّسان عند ملاصقته حرفا مفخّما إمّا أن يقصر عن الوصول إلى الهدف (Cible) المحدّد للكسرة والضمّة الرخيفتين [I] [U] لكونهما حركتين قصيرتين جدّا ، وإمّا أنّ البنى الفونولوجيّة لا تتطلّب دقّة شديدة في النّطق في هذه الحالات .

وتصعب البرهنة على صحّة الفرضية الأولى ؛ في حين تبدو لنا الفرضية الثانية مقبولة لأسباب إدراكية حسّية . ومثل ذلك أنّ اللّسان إن لم يتوصّل إلى إدراك هدف الكسرة الموتورة [i] نجم عن ذلك نطق الكسرة الرخيفة [I] التي هي صوتم من صواتم اللّغة .

وعكس ذلك،أنّ اللّسان إنْ لم يتوصّل إلى إدراك هدف الكسرة الرخيفة [I] نجم عنه نطق حركة تكون حركة « شوا » (Schwa) التي ليس لها منزلة الصوتم في صواتم اللغة . لهذا فإنّ عدم استكمال نطق كسرة رخيفة [I] قد لا تكون له نفس التبعات الادراكية الحسّية السّيئة التي تحصل من عدم استكمال نطق الكسرة الموتورة [i] .

وإنّه لميسور أنّ نبرّر بعض الظواهر النطقية بظواهر ادراكية حسيّة ولكنّه تبرير يبدو لنا غريبا أحيانا ، خاصّة إذا نظرنا في مجموع الضواغط الميكانيكيّة على عمل أعضاء النطق . ومثل ذلك أنّ المسافة التي ينبغي أن يقطعها اللسان بين [نقطة] قطع الحرف وهدف الحركة الموالية تكون أطول في وحدة تتركّب من حرف مفخّم + كسرة موتورة مما [çi] تكون في وحدة تتركّب من حرف مفخّم + كسرة رخيفة [çI] . وبعبارة أخرى فإنّ الكسرة الموتورة [i] تقتضي موضع نطق يكون أكثر تقدما ممّا تقتضيه الكسرة الرخيفة [I] . إلا أنّه،حتّى إذا اتفقت الكسرتان الرخيفة والموتورة في المدى ، فإنّ الموتورة تدرك هدفها ولا يستكمل النطق بالرخيفة (الموتورة ليست منبرة وهي في كلمة متعددة المقاطع والرخيفة منبّرة وفي كلمة وحيدة المقطع) .

وليس تغيير عمليات النطق بفعل ظواهر مثل القصور الذاتي (Inertie) (5) في أعضاء النطق تغييرا مطّردا . ولعلّه من وظيفة الإواليات المركزية المسؤولة عن تنظيم مجمل النظام الفونولوجي في لغة من اللغات أن تقرّر هل ينبغي لعملية نطقية أن تصل إلى مداها أم أنّها قد توقف [قبل استكمالها] .

أمّا أثر الحروف المفخّمة في الحركة المنفتحة أي الفتحة [a] فقد وُصف في أبحاث عديدة (أوبرشت Obrecht 1968 وبونّو Bonnot 1977 وبدر الدين 1977 والغزالي 1977 و1979) . وينبغي في هذا الموضع أن نقتصر على الاشارة إلى أنّه مهما كان جرس الحركات المنفتحة أو عددها (فتحة [a] وسطية فقط كما في اللهجتين الأردنية والعراقيّة أو حركة [æ] أمامية وفتحة خلفية [a̱] كما في لهجات شمال افريقيا) فإنّه لا تقع بجانب حرف مفخم إلا حركة خلفية واحدة ، قصيرة أو طويلة ، ويمكن أن تتراوح بنية مكوّناتها بين 600 هرتز و800 هرتز للمكوّن الأوّل وبين 1150 هرتز و1450 هرتز للمكوّن الثاني ، وذلك حسب اللهجات .

أثر الحروف المفخمة في الحروف :

إنّ أثر السحب إلى الخلف (Postériorisation) الذي تعمله الحروف المفخمة في الحروف الأخرى لا يُكشف عنه كشفا دقيقا إلا انطلاقا من المعطيات السينمائية الاشعاعية ؛ إذ ليس من اليسير في الغالب أنّ نحدّد أثر حرف مفخّم في حرف آخر انطلاقا من طيفهما ، باستثناء ذلك في الحروف الخيشومية (Les nasales) والحروف المائعة (Les liquides) التي تشبه بنى المكوّنات فيها بنى المكوّنات في الحركات . فتفخيم حرف خيشومي أو مائع يدُلّ عليه انخفاض مكوّنه الثاني ، في

(5) انظر تعريف المصطلح عقب المقال . (المعرب)

حين لا يُكشف عن تفخيم حرف شديد (Occlusive) أو احتكاكي (Fricative) بجوار حرف مفخّم إلاّ من نقلة الحركة التي تسبقه أو تليه .

امتداد التصاحب النطقي للتفخيم :

يلخّص الشكل الأوّل الاختلافات بين أوضاع اللسان أثناء نطق الحروف المفخّمة والحروف غير المفخّمة ؛ فهذا الشكل الذي يُمثّل نتائج القياسات المنجزة من الشريط (السنمائي الاشعاعي) لكلّ الحروف المفخّمة والحروف غير المفخّمة المطابقة لها يُبدي أنّ الفارق الأقصى بين أوضاع اللسان في هذين النوعين من الحروف يوجد في مستوى المحور $\overline{DE_2}$ ، لذلك فإنّنا سنحاول تحديد درجة التصاحب النطقي للتفخيم في مستوى هذا المحور .

امتداد التفخم تراجعيا :

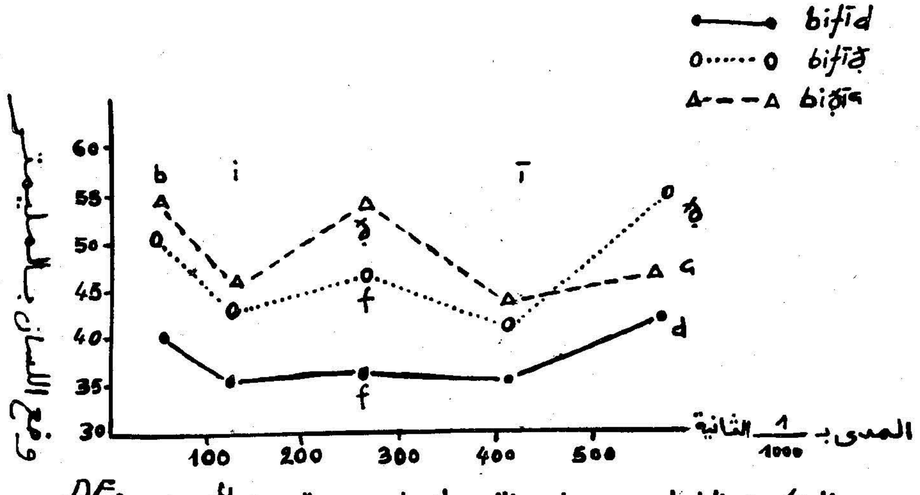
يُبرز الشكل الثاني أن أثر حرف مفخم (الظاء) يمكن أن يمتدّ إلى كلمة كلّها ، أي إلى أربعة أصوات في هذه الحال . وإذا نظرنا في انجاز أصوات الباء [b] والكسرة [i] والفاء [f] والكسرة الطويلة [ī] في كلمتي « بِفِيضْ » [bifīđ] و« بِفِيدْ » [bifīd] لاحظنا أن وضع اللسان في مستوى المحور $\overline{DE_2}$ أكثر تراجعا في « بِفِيضْ » [bifīđ] التي تنتهي بحرف مطبق هو الظاء ممّا هو في « بِفِيدْ » [bifīd] .

كذلك يبرز هذا الشكل أنّ الحروف أكثر تراجعا من الحركات . وينبغي أن نلاحظ أيضا أنّه رغم أنّ الحركات المنجزة هي حركات حنكية فإنّ نطقها الأمامي لم يمنع استباق التفخيم (anticipation) (6)

---

(6) انظر شرح هذا المفهوم عقب المقال . (المعرب)

ولا تبرز القياسات في الشكل الثاني ، ولا شكّ ، كلّ مسار الحركة لأنها قياسات لا تمثّل إلاّ قيمة الجزء الأوسط من كلّ حركة . وكما ذكرنا ذلك آنفا ، ستؤول حركات « بِفِيضْ » [bifīḍ] إلى القرب من إدراك هدف الحركات نفسه في « بِفِيدْ » [bifīd] . ولكنّ المهم هو أنّ سحب اللسان إلى الأمام (anteriorisation) أثناء انجاز الكسرة [i] لا يمنعه من التراجع ثانية ليُشير إلى التفخيم في الحرف الموالي (الفاء [f]) . فتراجع اللسان أثناء نطق الفاء يحصل رغم أن الفاء تكنفها حركتان حنكيتان . ولنلاحظ أن وضع اللسان أثناء انجاز « بِفِيدْ » [bifīd] يستقر على حاله في كل السلسلة « ـِـفِيـ » [ifī] .



الشكل الثاني : وضع اللسان في مستوى المحور DE2

كذلك يبرز الشكل الثاني أن الكسرة الأولى في « بِضِيعْ » [biḍīʿ] تنطق أكثر تخلفا من الكسرة الطويلة الثانية في « بِفِيضْ » [bifīḍ] وذلك رغم وجود حركتين مجاورتين للحرف المطبق (الظاء) . ونحن نرى أن هذا الفرق في التراجع يعود إلى فارق المدى بين الحركتين

($\frac{220}{1000}$ الثانيـة للكسرة الطويلـة في « بِفِيضْ » [bifīḍ] مقابل $\frac{95}{1000}$ الثانيـة للكسرة [الموتورة] في بِضِيعْ [biḍīʿ]) .

ويصبح أثر مدى الحركـة في امتداد التفخيم ملموسـا أكثـر إذا قارنا الكسـرة الأولى في « بِفِيضْ » [bifīḍ] والكسـرة الأولى في « بِضِيعْ » [biḍīʿ] ، فمـدى هاتين الحركتين واحـد في حين أنّ المسافـة التي تفصـل بين الحركة والحرف المطبق أطول في « بِفِيضْ » [bifīḍ] .

وقد يدلّ ما نلاحظه من أنّ التـراجع أكبر في الكسرة الأولى في « بِضِيعْ » [biḍīʿ] (7) على أنّـه إن كـان المـدى والجـرس ثابتين فإن درجة تفخيم الحركـة تكـون منـاسبـة عكسـا للمسـافـة الفـاصلـة بينهـا وبين الحرف المفخّم . كمـا نلاحظ أن الكسرة الأولى في « بِفِيضْ » [bifīḍ] أكثـر تراجعـا من الكسـرة الثانيـة [الطويلـة] [ī] في نفـس الكلمـة . وقد يدلّ هذا – مع اعتبار الفـوارق – على أنّ عمليتين نطقيتين يتعـارض انجـازهمـا مع التفخيم ويختلفـان في المدى قد لا يتأهلان بنفس القـدر لقبـول التفخيم . فالعمليـة النطقيـة الأطول هي الأكثر مقاومـة للتفخيم وذلك بقطع النظر عن وضعهـا بالنسبة إلى الحرف المفخّم . لهذا يبدو أن لمدى الحركـة ضلعـا أساسيـا في منع امتداد التفخيم .

ويمكن أن نلاحـظ أيضـا أنّ البـاء في « بِضِيعْ » [biḍīʿ] أكثر تفخيمـا من البـاء في « بِفِيضْ » [bifīḍ] ويعـود هذا الفـارق ولا شك إلى المسافـة التي ينبغي أن يقطعهـا التفخيم النّاجم عن الظّـاء ليصل الى الباء، ومن جهـة أخرى فإن حرف الباء في « بِفِيضْ » متـراجع تراجع الحرف المفخم نفسه (الظـاء) . وقد يوحي سحب الباء إلى الخلف سحبا ملحـوظـا

(7) وردت عبارة « بفيض » في هـذا الموضـع في النص الفـرنسي . وقد طلب المؤلـف تعويضها بعبارة « بضيع » عند مناقشة نص الترجمة .

بأنّها ليست مفخّمة بسبب التصاحب النطقي بل هي صوتم مفخّم في بنيته الأصلية [ḅ] ؛ لكن الأخذ بهذه الفرضية يصعب :

أوّلا ، لأنّ الباء في هذه الأمثلة ليست إلاّ سابقة (الصوتم الدّال على زمن المستقبل) ألصقت بالفعل فهي، بالتالي، ليست جزءً من جذر الكلمة ؛ والحال أنّ الباء لا يبرز فيها أي تراجع في كلمة مثل « بِفِيدْ » [bifīd] التي تخلو من حرف مفخّم .

وثانيا ، لأنّ الباء، سواء كانت زائدة أم جزء من جذر الكلمة ، لا تكون مفخّمة أبدا ، إلاّ أن تقع في جوار صوت مفخّم ؛ كما لا تفخّم الباء أبدا جوار حركة منغلقة (كسرة أو ضمّة) في كلمة تخلو من أحد حروف الاطباق (الطاء [ṭ] والصاد [ṣ] والظاء [ḏ̣] أو الدّال المطبقة [ḍ]) .

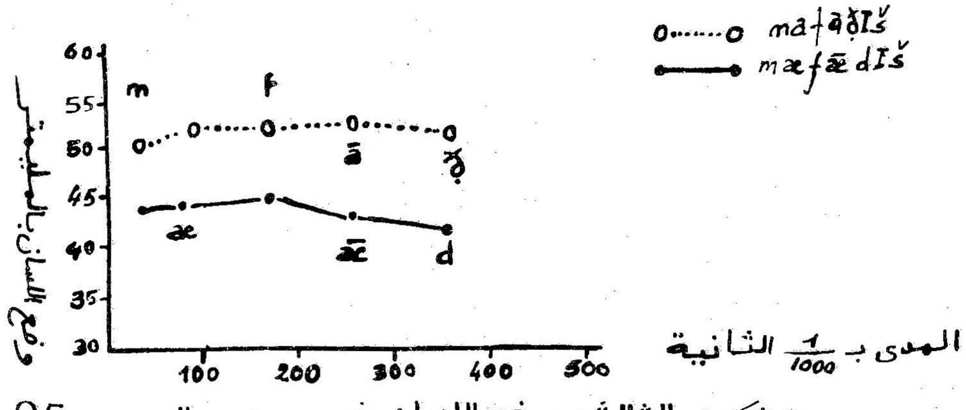
ويبدو لنا أنّ التفخيم الواضح وضوحا بيّنا في الباء يعود إلى أنّ انجازها لا يتطلّب من اللّسان تحرّكا : وبعبارة أخرى ، يمكن لكل كتلة اللسان أثناء انغلاق الشفتين أن تتراجع لاستباق التفخيم دون أن يُخَفِّفَ هذا التراجع بتقدّم طرف اللّسان ، كما يحدث ذلك في نطق الحرف المفخّم الأسلي (coronale) (الظّاء) .

ونطق الكلمات الماثلة في الشكلين الثالث والرّابع يؤكّد وجود الامتداد التراجعي للتفخيم . فالكلمتان الماثلتان في الشكل الثالث تتركّبان من صرفم النفي « مَ » /mæ/ ملحقا بالفعلين « فَادْ » [fǣd] و« فَاضْ » [fāḏ̣] .

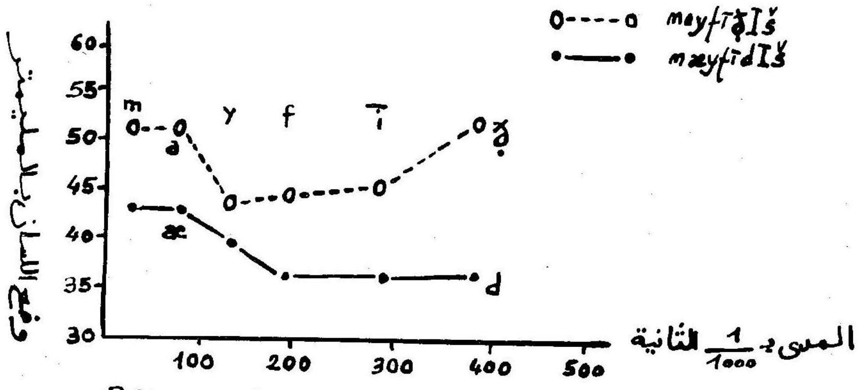
نلاحظ أنّ حركة « مَ » /mæ/ تنجز بجعل اللسان في وضع خلفي أكثر مما هو عليه عند إلصاق صرفم النفي بفعل « فاضْ » [fāḏ̣] . ويؤكّد تحليل الكلمتين تحليلا طيفيا هذه الفوارق النطقية : فقيمة المكوّن

الأوّل للحـركـة الأولى في « مـَفـَادش » [mæfǣdIš] هي 500 هرتز وقيمة الثاني 1600 هرتز . أمّـا قيمة المكوّن الأوّل للحركة الأولى في « مـَفـَاضِـشْ » [mafāđIš] فهي 650 هرتـز وقيمـة المكوّن الثاني 1200 هرتز . لذلك يتعلّق الأمر بحركـة أماميّة [نصف منغلقة] [æ] في الكلمـة الأولى وبفتحة خلفيـة في الكلمة الثانية .

أمّا الكلمتان المرسومتان في الشكل الرابع فقد ألصق فيهمـا الصرفم « مَ » /mæ/ بجذر فعل يحوي حركـة حنكية طويلة (كسرة طويلـة [ī]) وصوت ليّـن (glide) حنكي (اليـاء [y]) . ورغم وجـود هذين العمـلين النطقيين المناقضين لانجـاز التفخيم والفاصلين بين الحرف المفخّم وحركـة الصرفـم « مَ » /mæ/ ، فإن هذه الحركة (فِـي /mæ/) قد سحبت إلى الخلف .



الشكل الثالث = وضع اللسان في مستوى المحور DE2



الشكل الرابع : موضع اللسان في مستوى المحور DE2

ويبيّن التحليل الطيفي أن المكوّن الأوّل في [ay] في كلمة « مَيْفِيضِش » [mayfīḍIš] يبدأ في 700 هرتز وينزل إلى 490 هرتز وأنّ المكوّن الثاني يبدأ في 1100 هرتز ويصل إلى 2100 هرتز .

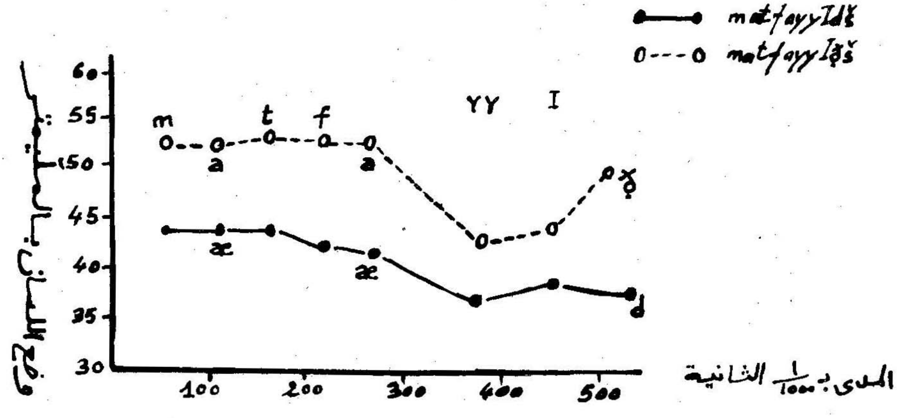
أمّا في [æy] في كلمة « مَيْفِيدِشْ » [mæyfīdIš] فيبدأ المكوّن الأوّل في 600 هرتز وينزل إلى 350 هرتز ، ويبدأ المكوّن الثّاني في 1750 هرتز ويصل إلى 2370 هرتز .

لذلك نحن إزاء [a̱y] في الكلمة الأولى وإزاء [æy] في الكلمة الثانية .

إذا قد يكون لحرف مفخّم بفعل التصاحب النطقي التراجعي أثرٌ يمكن أن يمتد على طول كلمة من الكلمات . ويبدو أنّ هذا التصاحب النطقي التراجعي يحصل بصرف النظر عن جرس الحركات في الكلمة ومداها ؛ إلاّ أنّ درجة التفخيم تبدو مناسبة عكسا لمدى الحركة إذا كانت حنكية . وإذا حافظنا على مدى ثابت وغيّرنا المسافة ، بَدَا أنّ أثر التفخيم يتضاءل بقدر البعد عن الحرف المفخّم .

ويبدو أنّ كلمة تنتهي بحرف مفخّم تكون مفخّمة كلها في هذه اللهجة ، مهما يكن عدد الأصوات التي تؤلّف الكلمة ، والشكل الخامس يبيّن أنّ أثر الظاء يمكن أن يشمل سبعة أصوات .

فمجال التصاحب النطقي للتّفخيم في هذه اللّهجة هو الكلمة إذا .



الشكل الخامس = وضع اللسان في مستوى المحور DE2

امتداد التفخيم تقدميا :

ننظر الان في امتداد التفخيم تقدميا تبعا لمدى الحروف وأجراسها وللمسافة التي ينبغي أن يقطعها التفخيم .

إنّ كلمتي « صِمِيلِ » [ṣimīli] و« لِمِّيلِ » [lImmīli] المرسومتين في الشكل السادس متماثلتان تقريبا ، ما عدا أن الأولى تبدأ بحرف مفخّم هو الصاد والثانية تبدأ بحرف غير مفخّم هو اللام ؛ وتتركّب كلّ كلمة من جذر (صِيمْ [ṣīm] ولِمّْ [lImm]) ألحقت به الصرافم التالية :

– ـيـي /ī/ ويدلّ على المخاطب المفرد المؤنّث ،

– اللاّم /l/ حرف جرّ ،

– الكسرة (الأخيرة) /i/ ضمير المتكلّم المنصوب .

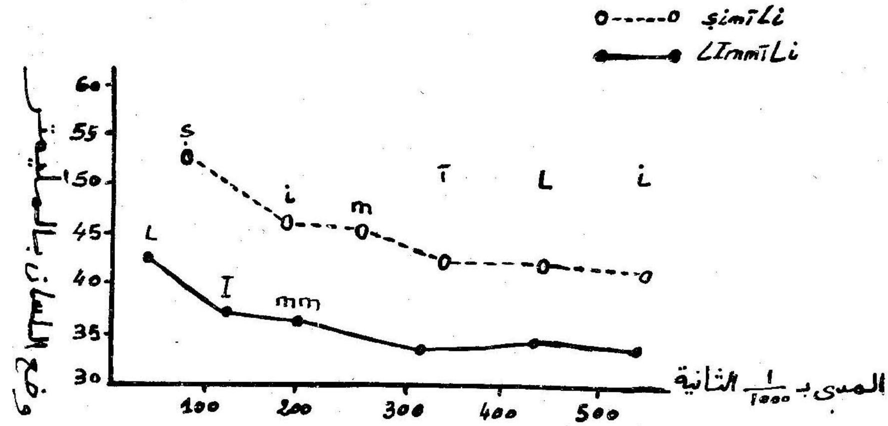
يكون اللّسان أثناء انجاز « صميل » [ṣimīli] أكثر تراجعا بكثير مِمّا هو حين انجاز « لِمِّيلِ » [lImmīli] ، كما يبرز ذلك الشكل

السادس . وبيّن هذا السحب للسان إلى الخلف أثناء انجاز [ṣimīli] أنّ أثر حرف مفخّم في أوّل الكلمة قد يصل آخرَها (5 أصوات) رغم وجود حركتين حنكيتين . ونلاحظ أنّ الميم في [ṣimīli] تنطق أكثر تخلفا من اللام ؛ ولعلّ هذا يعود من ناحية أولى إلى المسافة القصيرة التي تفصل بين الميم والصاد ، وإلى أنّ حركتين حنكيتين تفصلان اللاّم عن الصّاد من ناحية ثانية ($\frac{85}{1000}$ الثانية و $\frac{100}{1000}$ الثانية) .

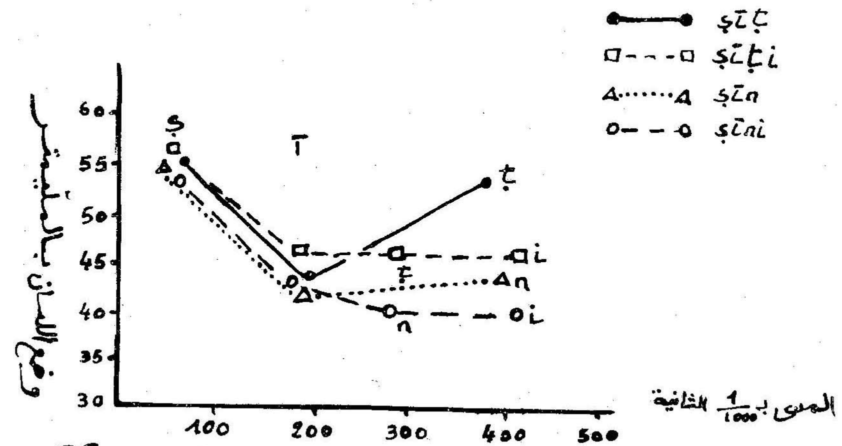
إننا لم ننظر إلى حدّ الان في غير أثر حرف مفخم في الأصوات المجاورة وأهملنا النّظر في إمكانية الاثر المعاكس .

إذا حلّلنا عن قرب الكلمات المرسومة في الشكل السابع وهي « صِيطْ » [ṣīṭ] و« صِيطِ » [ṣīṭi] و« صِينْ » [ṣīn] و« صِينِ » [ṣīni] لاحظنا أنّ الطّاء في كلمة « صِيطِ » [ṣīṭi] أقل تراجعا بكثير من الصّاد التي صدّرت بها الكلمة ولكن الحرفين في كلمة « صِيطْ » [ṣīṭ] يتراجعان نفس التراجع تقريبا ، ففي صِيطْ [ṣīṭ] يبدو أنّ لظهر اللسان — بعد أن قام بالتّحرك نحو الأمام للنطق بالكسرة الطويلة [ī] — وقتا كافيا للتراجع نحو وضع الطاء قبل أن يستعيد وضع الرّاحة . ولكن ظهر اللسان ، المتحوّل من وضع أمامي عند النطق بكلمة « صِيطِ » [ṣīṭi] لا يجد وقتا للتّراجع كلّيا لنطق الطاء ، قبل أن يتّخذ مجدّدا وضعا أماميا للنطق بالكسرة في نهاية الكلمة .

لذلك يبدو أنّ الحركات الحنكية قادرة لا على الحدّ من أثر التفخيم فحسب ، بل وحتّى على منع حرف مفخّم من إدراك هدفه المخصوص في بعض الظروف .



الشكل السادس= وضع اللسان في مستوى المحور DE₂



الشكل السابع= وضع اللسان في مستوى المحور DE₂

أثر المقطع في امتداد التفخيم :

ذكر لين [Lehn 1963] وبروسلو [Broselow 1976-79] أنّ مجال التفخيم هو المقطع في الغالب . ويمكن الاحتجاج لتوكيد هذه الفرضية بأنّ النون في « صِين » [ṣīni] مثلا ، ليست مفخّمة بمثل تفخيمها في « صِينْ » [ṣīn] (الشكل السابع) ، لأنّها ليست والصاد في مقطع واحد . لكن أثر حدّ المقطع في امتداد التفخيم ليس بديهيا ، لا في

هذه اللهجـة ولا في اللهجات التي سندرسها لاحقا ؛ فقد تعدّى التّفخيم حدود المقطع في كلّ الأمثلة التي درسنـاهـا .

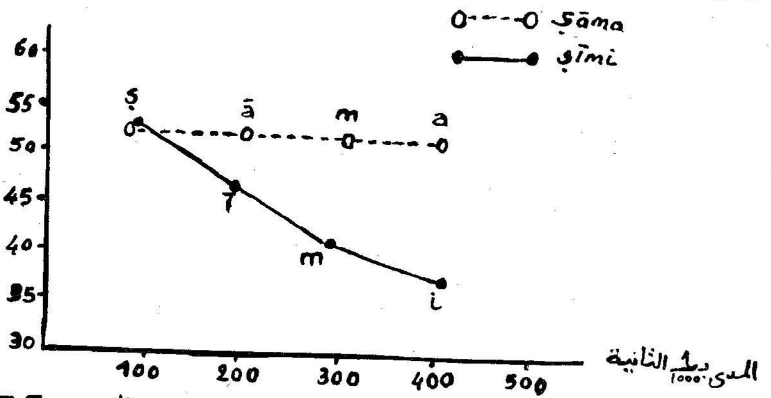
إذا نظرنـا في أمثلة الشكل الثامن لاحظنـا أنّ العـامل الذي قام بوظيفة رئيسية في كبح التفخيم هو جرس الحركة وليس حدود المقطع . فقد ألحق الصرفم /æ/ (ضمير متصل منصوب) بفعل « صَـامْ » [ṣām] وألحق الصرفم [i] (علامـة المخاطب المفرد المـؤنث) بفعل الأمر « صِيـمْ » [ṣīm] . ومكّـن إلحـاق الصرفمين كلّ فعل من الفعلين من تحصيل مقطع ثـان :

– صَامْ + فتحة أمامية   /ṣām + æ/   [صَـامَـهُ]

– صِيمْ + كسرة قصيرة   /ṣīm + i/   [صُـومِـي]

ورغم وجـود الحركـة الأمـاميّة /æ/ في مقطع لا يضمّ الحرف المفخّم (الصّاد) فإنّها تنطق حركة خلفية [ـَ a] .

فقد ظلّ اللّسان متـراجعا أثناء انجـاز مجمـوع كلمـة « صَـامَ » [ṣāma] لأنّ وضع ظهر اللّسان أثناء نطق الفتحة الخلفية مماثل لوضعه أثناء نطق الصّـاد ولأنّ وضع اللّسان عند النطق بالميم هو تقريبا الوضع الضروري للنطق بالحركـة المجاورة لها . وعلى عكس ذلك يكون ظهـر اللسـان أقلّ تراجعا بكثير أثناء نطق الميم فِـي « صِيم » [ṣīmi] لأنّ الميم محاطة بحركتين حنكيتين .



الشكل الثامن : وضع اللسان في مستوى المحور DE_2

أثر حدود الكلمة في امتداد التفخيم :

لئن يسر للتصاحب النطقي للتفخيم أن يمتدّ إلى كلمة كلّها ، فإنّه لا يبدو قادرا على تجاوز حدود الكلمة ، اذ لم نجد حالة واحدة تمكّن فيها التفخيم من تعدّي حدود الكلمة . وقد مثّلنا لكفّ التفخيم عند حدود الكلمة بمركّبين هما . « قْفَصْ آنِيسْ » [gfaṣṣ ænīs] [قَفَصُ أنيسَ] و« بِيتِ اطّاهِـرْ » [bētIṭṭāhIr] ويتألّف كلّ منهما من كلمتين . وقد قُرِيء المركّبان دون توقّف بين الكلمتين في كلّ منهما (الشكل التاسع) .

تنتهي الكلمة الأولى في المركّب الأوّل بحرف مفخّم مضاعف [c. géminée] هو الصّاد ، وتبدأ الكلمة الثانية بحركة أمامية [æ] . وقد كنّا لاحظنا آنفا (في صَامَ [ṣāma]) أنّه يُمكِن لأثر الحرف المفخّم ، وهو الصاد ، أن يصل الى الحركة الأخيرة ، حتّى عندما يفصل بينهما صوتان (أكثر من $\frac{300}{1000}$ الثانية) .

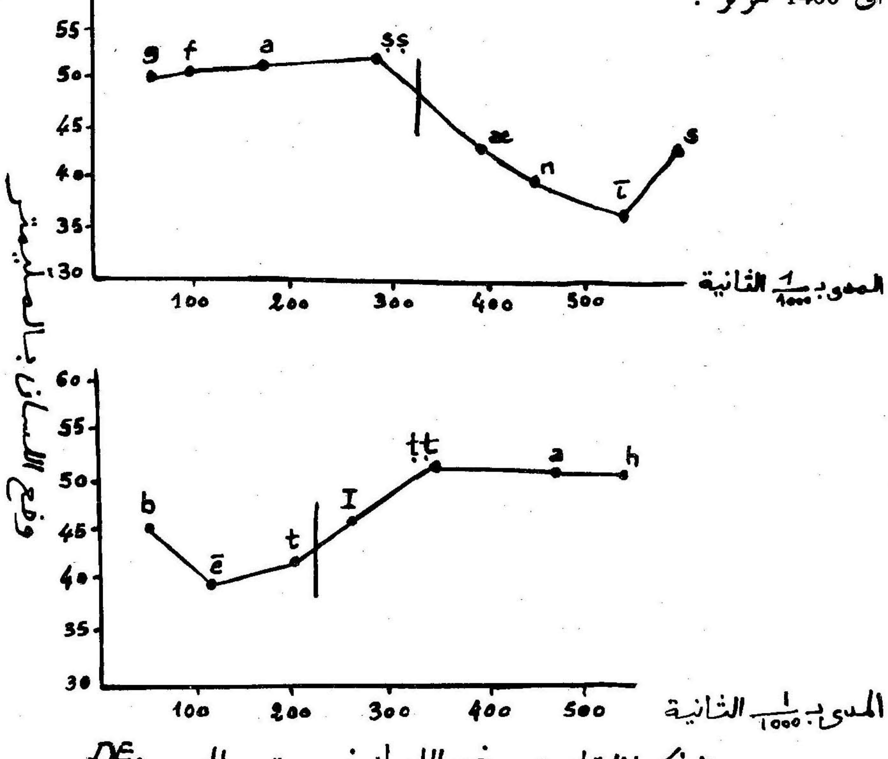
ورغم شدّة قصر المدى الفاصل بين الكلمتين في مركّب « قْفَصْ أنِيسْ » [gfaṣṣ ænīs] إذ يتراوح بين $\frac{10}{1000}$ الثانية ، و $\frac{15}{1000}$ الثانية ، فإنّ الحركة الأماميّة [æ] في « أنِيسْ » [ænīs] ظلت أمامية [æ] .

ولاحظنا أنّ ظهر اللّسان ينتقل سريعا الى الأمام عند ارتخاء الانقباض في الصاد المضاعفة فيتجلى ذلك في الطيف بنُقلة [transition] سريعة جدا في المكوّن الثاني للحركة الأمامية [æ] تبدأ بـ 1500 هرتز وترتفع سريعا إلى 1750 هرتز ؛ وهذا ما لم نلاحظه البتّة عندما تكون الحركة الأمامية [æ] جوار حرف مفخّم في نفس الكلمة ، فالحركة الأمامية [æ] بجوار حرف مفخّم تنطق آليا فتحةً خلفية .

أمّـا في « بـِيتْ طّـاهـِـرْ » [bēt Iṭṭāhir] فتبـدأ الكلمـة بحـرف مفخّـم مضاعف هو الطاء ، (يشتق بقـاعدة تمـاثل في « اللام + طاهر » /l+ṭāhir/) وتنتهي الكلمة الأولى بحرف غير مفخّـم هو التّـاء . ويظهر من عديد الكلمـات في المدوّنـة ، بما في ذلك كلمة « صـِيطْ » [ṣīṭ] التي حللنـاها آنفـا ، أنّـه مهمـا كانت المسافة بين حرف مفخّـم وآخـر غير مفخّـم مطابق للأول (السين والصـاد – التاء والطـاء ... الخ) فإنهمـا معا ينطقان مفخمين إذا كانا في نفس الكلمة .

وفي هذا المركّـب ، لا يفصل بين تاء « بـِيتْ » [bēt] والطّـاء المضاعفة « طّاهـِرْ » [ṭṭāhIr] غير قرابة $\frac{50}{1000}$ الثانية ، لكنّ تاء « بـِيتْ » ظلّـت غير مفخّـمة .

كمـا يبيّـن التحليل الطيفي أنّ المكـوّن الثاني للكسـرة المختلسة [I] [épenthétique] الفـاصلـة بين الكلمتيـن ينـزل سريعـا من 1700 هرتـز الى 1400 هرتز .



الشكل التاسع = وضع اللسان في مستوى المحور DE_2

وقد قمنا بتحاليل طيفيّة لمركّبات عديدة تضم نفس المتغيّرات التي ناقشناها في هذا البحث ، فلاحظنا دائما أنّ حدود الكلمة تعطّل امتداد التفخيم ، سواء أكان امتدادا تراجعيا أم تقدميا . وقد تشرح استحالة تجاوز التفخيم حدود الكلمة بأنّ التفخيم في هذه اللهجة مبرمج سلفا في المخّ وليس نتيجة القصور الذاتي لأعضاء النطق . ولو كان التصاحب النطقي للتفخيم تتسبّب فيه ضواغط ميكانيكيّة محض (كتلة اللسان والقصور الذاتي وسرعة العمليات النطقية) لكان وصل إلى الأصوات الملاصقة من الكلمات السابقة أو اللاحقة . ونحن نظنّ أنّه إن كانت الإواليات المركزية (الفونولوجية) تراقب امتداد التفخيم مراقبة دقيقة فذلك يعود إلى أنّ للتفخيم وظيفة تمييزية (صوتمية) في اللغة . من ذلك مثلا أنّ كلمتي « طَابْ » [ṭāb] و « تَابْ » [tæb] تتمايزان بوجود التفخيم في الأولى وانعدامه في الثانية . ولو فعل التفخيم في « تَابْ » [tæb] لأصبحت الحركة الأمامية [æ] فتحة خلفية [a] آليا ولصارت التاء طاءً وأضحت الكلمة « طَابْ » [ṭāb] ، وعندها تنطق الكلمتان نطقا واحدا . وبسبب الوظيفة التمييزية للتفخيم لا يتوقّع أبدا أن تصبح كلمة « تَابْ » مفخّمة بجوار كلمة (أخرى) مفخمة .

امتداد التفخيم في اللّهجات الأخرى :

نذكّر أنّنا اقتصرنا في تحصيل النتائج التي سنوردها لاحقا على التحاليل الطيفية ، فقد أبان لنا فحص المظاهر النطقية والطيفية فحصا متزامنا أنّه يعسر أن نكشف عن تراجع اللسان تراجعا بسيطا أثناء نطق صوت بعيد عن الحرف المفخّم ، خاصة إذا كان هذا الصوت حركة حنكية . ولذلك حاولنا ، تيسيرا للكشف الطيفي عن التفخيم ، اختيار أمثلة تحوي حركة منفتحة لقابليتها للتراجع .

وينبغي ، أوّلا ، أن ننبّه إلى أنّ التفخيم لا يتعدّى حدود الكلمة في هذه اللهجات . وقد أشير (بروسلو 1979 ، 1976 ، Broselow) إلى أنّ حدود الكلمة في لهجة القاهرة لا تؤثّر في امتداد التفخيم ؛ من ذلك مثلا أنّ تحوير البنية المقطعيّة لمركّب « بَعْدْ اِظّهْرْ » [bæʿd iḍḍohr] يكون ، حسب بروسلو ، كالاتي : « بعْ/دِ ظْ/ظُهْرْ » [bæʿ/dId/ḍohr] . فنتيجة هذه البنية المقطعية الجديدة هي ظهور مقطع جديد يتركّب من الدّال في « بَعْدْ » [bæʿd] والدّال المفخّمة [ḍ] الأولى في [Iḍḍohr] . وتحوير البنية المقطعية للمركّب موفّق حسب رأينا ؛ إلاّ أنّ فصل الدّال المفخّمة [ḍ] الأولى عن الكلمة الثانية وضمّها إلى المقطع الوسيط جعلاها غير مفخّمة حسب بروسلو .

إنّ هذا التحليل تحليل جذّاب ويدعم حجّة صاحبته في أنّ مجال التفخيم هو المقطع فحسب ، ولكنّه يتناقض ، مع الأسف ، والوقائع الطيفية الملحوظة . تحاليل بروسلو مبنية على النّقول الخطيّة التي عملها لين وعبّود (Lehn-Abboud 1965) وهي بدورها مقامة على الانطباع السمعي .

وقد قمنا بتحاليل طيفية لمركّب [bæʿd Iḍḍohr] بقراءة أحد قاهري اللهجة فبيّنت أنّ الدّال الأخيرة [d] في « بعْدْ » ليست مفخّمة ، وأنّ الدال المفخّمة الأولى في « اِظْظُهْرْ » [Iḍḍohr] ظلّت على تفخيمها ، وذلك رغم وجودهما في مقطع واحد . وأبرز التحليل أيضا نزولا [chute] سريعا في نقلة المكوّن الثاني للكسرة الرخيفة [I] أثناء النطق بمقطع [dIḍ] إذ بدأ بـ 1700 هرتز ونزل سريعا إلى 1300 هرتز . ولو لم يكن الحرفان في مقطع [dIḍ] مفخّمين لما حصل هذا النزول المهمّ في المكوّن الثاني للكسرة الرخيفة [المختلسة] [I] ($\frac{60}{1000}$ الثانية) .

نحن نلاحظ إذا أنّ التفخيم لا يبدو خاضعا لتناسق عمليات النطق الذي نشهده في المقطع غالبا . فالكلمة هي مجال التفخيم .

امتداد التفخيم تراجعيا :

إنّ استباق التصاحب النطقي للتفخيم يحصل في كلّ اللهجات التي درسناها بنفس الطريقة . وتؤكّد النتائج المحصّلة الملاحظات التي قدّمناها انطلاقا من الشريط السينمائي الاشعاعي ، وقد أقمنا أغلب استنتاجاتنا في هذا الموضوع على سحب الحركة الأمامية [æ] إلى الخلف في الصرفم « مَ » /mæ/ في ألفاظ : « مَفَادِشْ » [mæfǣdIš] ؛ « مَفَاضِشْ » [mafāḏ̣Iš] ، و« مَيْفِيدِشْ » [mæyfīdIš] ، « مَيْفِيضِشْ » [mayfīḏ̣Iš] (8).

تبيّن قيّم ذبذبات المكوّنات في الحركة التي بعد الميم في « مفَاضِشْ » [mafāḏ̣Iš] وبداية مكوّنات الحركة التي بعد الميم في « مَيْفِيضِشْ » [mayfīḏ̣Iš] أنّ الحركة هي فعلا حركة خلفية [a̠] . (م 1 = بين 600 هرتز و800 هرتز ؛ م 2 = بين 1150 هرتز و1300 هرتز) ؛ إلاّ أنّ هذا الانخفاض في المكوّن الثاني للحركة الخلفية [a̠] ليس بيّنا عند الباث الأردني : فقيمة المكوّن الثاني في نطقه بالفتحة الخلفية [a̠] نزلت إلى 1500 هرتز مرتين فقط من بين 4 مرات كرّر فيها [mayfīḍ] . ونحن نذكّر أن القيمة المثلى للمكوّن الثاني للفتحة الخلفية في نطق هذا الباث هي 1300 هرتز .

---

(8) نطق الباثان العراقي والاردني هذه الكلمات كالآتي : [mǣfǣd] و[māfāḏ̣] [mæyfīḏ̣] و [māyfīḏ̣] نلاحظ ان الحركة التي تلي الميم في هتين اللهجتين حركة طويلة وان نفي هذه الافعال يكون بدون الشين [š] في آخر الكلمة . وانعدام الصرفم [Iš] عديم القيمة هنا لان التغييرات التجريبية هي الاصوات التي تسبق الظاء [ḏ̣] والعين [ʿ] . اما الباث المصري فينطق بالمركبين [mæfædši] و [mafaḏ̣ši] فالحرف الفخم هو الدال [ḍ] في لهجة القاهرة . أما الكلمات الاخرى المستعملة فكانت :

متابش ـ مطابش [maṭābIš]–[mætǣbIš] ميتوب ـ ميطيب [mæytūb]–[mayṭīb]
منصوب ـ منسوب [mənsūb]–[mænsūb] ميسير ـ ميصير [mæysīr]–[mayṣīr]

وأن تكون الحركة الأولى في « مَيْفيض » [mayfīḍ] غير متراجعة تراجعا كافيا لا يعني ، طبعا ، أنّها لم تتأثر بالتفخيم إذ المسافة بين المكوّنيْن (الأوّل والثاني) في الحركة الأمامية [æ] في [mayfīd] « مَيْفيدْ » أطول بكثير من المسافة الفاصلة بين المكوّنيْن الأوّل والثاني في فتحة « مَيْفيضْ » . وقد يسعنا أن نشرح هذا التخفيض في التفخيم عند الباث الأردني إن نحن نظرنا في مدى [ay] ومدى الكسرة الطويلة [ī] في كلمة « مَيْفيضْ » [mayfīḍ] في مختلف اللهجات ؛ ففي حين كان معدّل المدى عند المتكلمين باللهجات التونسية والجزائرية واللّيبيّة والمصرية $\frac{120}{1000}$ الثانية في [ay] و $\frac{110}{1000}$ الثانية في الكسرة الطويلة [ī] ، كان المدى عند الباث الأردني $\frac{200}{1000}$ الثانية في [ay] و $\frac{280}{1000}$ الثانية في [ī] .

إذا ، يبدو أنّ مدى صوت اللين [y] ومدى الكسرة الطويلة [ī] قد أسهما إسهاما مهمّا في تخفيف تأثير الحرف المفخّم الأخير [في الأصوات الأخرى التي تسبقه في الكلمة] .

امتداد التفخيم تقدميا :

انّ التصاحب النطقي للتفخيم تقدميا لا يمتدّ ضرورة إلى الكلمة كلّها في هذه اللهجات ؛ وتتباين درجة هذا التصاحب النطقي ومجاله بين لهجة وأخرى ؛ إلاّ أنّا نظنّ أنّنا نستطيع كشف المظاهر القارة في هذا الامتداد الذي يعتبره الدارسون في الغالب امتدادا عشوائيا إذا أخذنا في الاعتبار جرس الحركة ومداها .

إذا استثنينا لهجتي تونس وسوسة (الجمهورية التونسية) — اللتين تتميّزان بمميّزات لا تشترك فيها واللهجات المدروسة الأخرى ،

وننظر فيها لاحقا – فإننا قد نلخّص التصاحب النطقي التّقدّمي للتفخيم كالاتي :

– إذا بُدئت كلمة (جذر) بحرف مفخّم ولم تحو غير حركات منفتحة فإنّ كلّ هذه الحركات تنطق فتحات خلفية [ɑ] . مثلا : ظلام [ḍɑlɑ̄m] أو « ظْلاَمْ » [ḍlɑ̄m] و « صَبَاحْ » [ṣabɑ̄ḥ] أو « صْبَاحْ » [ṣbɑ̄ḥ] ... الخ) .

– إذا أضفنا إلى كلمة تبدأ بحرف مفخّم صرفما يحوي حركة منفتحة [æ] فإنّ هذه الحركة تنطق فتحة خلفية [ɑ] ؛ ويحصل سحب الحركة المنفتحة إلى الخلف مهما كانت المسافة الفاصلة بينها والحرف المفخّم ، شرط أن تكون الحركات التي تسبقها حركات منفتحة . مثل ذلك : إذا أعقب الصرفم [æk] « ـَكْ » (ضمير متصل منصوب للمخاطب المفرد) كلمة مثل « أصْحَابْ » [āṣḥāb] فإنّه يُنْطق [ɑk] وتنطق الكلمة [āṣḥābɑk] ؛ وإذا أعقب « صَفّ » [ṣaff] أو « صَابْ » [ṣāb] [بمعنى أصاب] حصلنا على [ṣaffak] و [ṣābɑk] . ولنلاحظ أنّه اذا انعدم حرف مفخّم [في جذر] فإنّ [æk] لا تسحبّ إلى الخلف كما في « جَابْ » [žāeb] – « جَابَكْ » [žǣbæk] .

وحسب تحليل لهجة القاهرة كما عرضها كوهين [Cohen 1969] فإنّ السلسلة /ṣaḥib+æk/ ينبغي أن تنطق [ṣaḥbæk] أي بدون تفخيم في الصرفم /æk/ . ويعود هذا طبعا إلى الاعتقاد بأنّ /æk/ لا ينطق متراجعا [ɑk] إلا إذا كان في نفس المقطع مع الحرف المفخّم ، وعن هذا ينتج (مثال) « خيطَكْ » [xēṭak] ولكن أيضا « صَفّكْ » [ṣaffæk] و « صَابَكْ » [ṣābæk] ... الخ .

ونحن نقرّ أنّ مثل هذا التحليل جذّاب جدّا من وجهة النظر الفونولوجيّة لكنّنا نذكّر أنّه لا يكشف عن الوقائع الصوتية الملحوظة .

وتُبيّن التحاليل الطيفية لهذه الكلمات بقراءة الناطقين باللهجات المصريّة والأردنيّة والعراقيّة أنّ الحركة هي فتحة خلفية فعلا (م 1 = بين 600 هرتز و 700 هرتز — م 2 = بين 1100 هرتز و1300 هرتز) (9) .

وعلى عكس هذا ، إذا وجدت حركة حنكية بين الحرف المفخّم والحركة المنفتحة [æ] فإنّ هذه الحركة لا تسحب إلى الخلف غالبا . فالتصاحب النطقي للتفخيم يبدو أيسر كبحا بالحركات الحنكية عندما يكون تصاحبا تقدميا ، كما يبرز ذلك من الأمثلة التالية :

/iṣīb+æk/	[iṣībæk]	[بمعنى يُصيبك]
/ṣēf+æk/	[ṣēfæk]	[صَيفُكَ]
/laṭīf+æ/	[laṭīfæ]	[لطيفة]
/ḍ̣Ill+æk/	[ḍ̣Illæk]	[ظِلُّكَ]

نلاحظ من حين لاخر نُزولا في المكوّن الثاني لحركة [æ] (بين 50 هرتز و 100 هرتز) لكنّه نزولٌ لايؤبه له وتظل الحركة المنفتحة أمامية .

سنحاول الان فحص أثر حرف مفخّم في حروف مقطع يعقبه ، ويضمّ حركات حنكية . لقد أشير مثلا إلى أنّ اللام في لهجة القاهرة في « صَالحين » [ṣalḥīn] لام مفخّمة في حين أنها غير مفخّمة في « صَالِحْ » [ṣālIḥ] . وهذا ، لا شكّ ، يعود إلى إعتقاد البعض بأنّ مجال التفخيم هو المقطع . وفعلا تبيّن تحاليلنا الطيفية لهذه اللهجة أن المكوّن الثاني في لام [ṣalḥin] أشد انخفاضا من المكوّن الثاني في لام [ṣālIḥ] (10) إلا أنّ هذا الفارق لا يمكن أن يمثّل في رأينا حجّة صحيحة على وجود التفخيم أو عدمه في هذا المثال . فمن ناحية

---

(9) ينطق بقية الباقين هذا الصرفم في الغالب [Ik] عوضا عن [aek] . المؤلف

(10) انخفاض قيمة المكون الثاني علامة من علامات التفخيم (المعرب)

أولى ، ليس هذا الفارق أكثر من 100 هرتز تقريبا ، وهو بالتّالي فرق لا معنى له . ومن ناحية أخرى قد يعود هذا الفرق إلى ظاهرة أخرى في التصاحب النطقي للأصوات في مابينها (coarticulation intersegmentale) فقد أشير (ترنُسْكي Tarnoczy 1948 وليهستي Lehiste 1964) إلى أنّ المكوّن الثاني في اللاّم شديد التأثر بجرس الحركات المجاورة لها . وفي مثالينا ، تتأثر اللاّم بالفتحة والكسرة في [ṣāllī̆n] لكنّها في [ṣalhīn] تتأثر بالفتحة ولا تتأثر مباشرة بالكسرة .

ونحن نرى أنّه ينبغي على استباق المكوّن الثاني لكسرة [ṣāllī̆n] أن يساهم ضرورةً في ارتفاع المكوّن الثاني للاّم .

لذلك ، ولتكون ملاحظاتنا أكثر موضوعيّة ، نفضّل استعمال الأمثلة التّالية التي لا يُحْجبُ فيها أثرُ الحرف المفخّم بعديد التصاحب النطقي في ما بين أصوات متناقضة .

غير مفخمةْ		مفخمةْ	
[wallīli]	[وَلِّ إلَيَّ]	[ṣallīli]	[صَلِّ لي]
[sūmli]	[ساوِمْ لي]	[ṣūmli]	[صُمْ لي]
[sumīli]	[ساومي لي]	[ṣūmīli]	[صومي لي]
[lImmīli]	[اجمعي لي]	[ṣīmīli]	[«]

وقد قسنا قيمة المكوّن الثاني لحرف اللام الأخير في كلّ كلمة وقارنّا بين النتائج في كلّ زوج فلاحظنا عند أغلب الباثّين أنّ أثر الحرف المفخّم في أوّل الكلمة قد أدرك الحرف الأخير فيها (اللام) وبصورة منتظمة .

وكان المكوّن الثاني للاّم في الكلمات المصدرة بمفخّم أكثر انخفاظا في الغالب من المكوّن الثاني للاّم في الكلمات المقابلة (بين 100 هرتز و200 هرتز) .

وبقي أن نعرف : هل تُدرك هذه الفوارق البسيطة في مستوى بنية المكوّنات إدراكا حسيا ؛ إذ يبدو من خلال تجارب بدر الدين (1977) . أن التفخيم لا يُدرك في محيط يضمّ حركات منغلقة .

أمّا عن اللهجتين التونسيتيْن في سوسة وتونس ، فإنّ التصاحب النطقي التقدّمي للتفخيم محدود جدا فيهما . من ذلك ، مثلا ، أنّ الحركة لا تسحب إلى الخلف إلا إذا كانت قصيرة في سلسلة من نوع : حرف مفخّم + حرف + حركة + حرف [ccvc] حيث الحرف الأوّل مفخّم والحركة منفتحة :

أمثلة :

[ḏ̣læm]	[ظلام]	[ḏ̣lamm]	[ظلّم]
[ṣlæħ]	[صلاح ـ اسم علم]	[ṣlaħħ]	[أصبح صالحا]
[ṭabbæl]	[طبّال]	[ṭball]	[طبْل]
[ṣbæħ]	[الصّباح]	[ṣbaħħ]	[أصْبَحَ]

ويبدو أنّ مدى الحركة هو الذي يشترط تقبُّل الحركة للتفخيم . مثل ذلك أنّ الحركة الثانية في « صابَ » [ṣāḅa] [غلّة جيّدة] ليست ملاصقة للحرف المفخّم ولكنّها تنطق خلفية .

وانعدام التفخيم في الحركة الثانية في « صَبَاح » [ṣabæħ] [اسم علم مؤنث] ووجوده في [ṣāḅa] يعودان ولا شك إلى أنّ الحركة الثانية في [ṣabæħ] حركة طويلة والحركة الثانية في [ṣāḅa] حركة قصيرة . فكأنّ المدى الطويل عند النطق بحركة أمامية منفتحة انطلاقا من وضع متراجع يُسمح للسان بالتحوّل نحو مقدّم المجري الفموي وبإدراك هدفه .

وعلى العكس من ذلك ، إذا لم يكن للسان غير وقت قصير ، فإنه « يفضل » أن يظلّ متراجعا ويُخرج فتحة خلفية .

ونلاحظ أيضا أنا إذا قارنّا بين كلمتي « طـْبـّلْ » [ṭball] و « تـْبـّلْ » [tbæll] [ابتـلّ] فقـد نميـل الى الاعتقـاد بـأنّ مـا يفـرّق بينهمـا هـو الحركتـان دون الحرفين الأوّلين ؛ وبعبـارة أخرى فإنّ هاتين اللهجتين فقـدتـا التفخيم وعوّضتـاه بتمييز صوتمي في مستوى الحركـة المنفتحـة (a—æ) مثل اللغة المالطية . ورغم أنّ ما ذكرنـاه عن وجود حركتيـن (صوتميـن) /a/—/æ/ يبـدو لنـا ثابتـا في لهجـات افريقيـا الشمـاليـة (أنظر الغزالي 1979) ، فإنّه لا يعني في أي حـال من الأحوال أن التفخيم فقد قيمته التمييزيـة . مثـل ذلك أن كلمتي « صْـلاحْ » [ṣlæħ] [اسم علم مذكر] و « سْـلاحْ » [slæħ] لا تتمـايزان بغيـر الحرف الأوّل أي الصـاد والسين . ووجـود التفخيم في صـاد [ṣlæħ] ملحـوظ ويـتـبـّـانُ بانخفـاض شديد في المكـوّن الثاني في اللام وبنقلـة متصاعدة في المكـوّن الثاني في الحركـة [æ] .

وننهي بحثنـا في لهجتي تونس وسوسـة بملاحظة تخصّ السلاسل من نـوع حرف مفخّـم + حرف + حركـة + حـرف (ççvc) وحيث الحرف الأوّل مفخّم والثاني من أدنى الحلق (pharyngale) ، حـاءً أو عـيـْنا والحركـة حركـة منفتحـة .

أمثلة :

[ṣħann]	[صحن]
[ṣħāb]	[أصدقاء]
[ṭˁamm]	[أطعم]
[ṭˁām]	[طعام]
[ḍˁāf]	[ضِعاف]
[ṣˁāb]	[صِعاب]

ففي كلّ هذه الكلمات تنطق الحركة نطقا خلفيا [ɑ] بقطع النظر عن مداها . ومن جهة أخرى نحن نعلم (الغزالي 1977) أنّ الحركة المنفتحة [æ] لا تسحب إلى الخلف عند مجاورة حرف أدنى حلقي (الحاء أو العين) في هاتين اللهجتين : (حَالِ [ħæli] وعَالِ [ʿæli] ...الخ) . ولعلّ تراجع ظهر اللسان عند النطق بمفخّم تراجعا يتبعه مباشرة تراجعُ جذر اللسان عند النطق بحرف أدنى حلقي « يجبر » اللسان على أن يظل متراجعا أثناء النطق بالكلمة كلّها ، لاسيما أنّ الحرف الأخير في كلّ هذه الأمثلة لا يستدعي إسهام اللسان في نطقه .

خاتمة

التفخيم وديناميكية التصاحب النطقي :

إنّ معرفتنا بالمباديء التي تحكم امتداد التصاحب النطقي تقدميا وتراجعيا – ان كانت مثل هذه المباديء موجودة – معرفة محدودة جدّا . وتوحي الدّراسات الحديثة بأنّ نماذج التصاحب النطقي تشرح بتبعاته الادراكية الحسّية أفضل مما تشرح بالمتطلّبات الميكانيكيّة لعمليات النطق .

وقد أشارت تشيستوفيتش وآخرون (Chistovich et al 1965) إلى أنّه يسوغ أن تتصاحب عملية نطقية وأخرى ما لم تتنافيا ؛ لذلك لا يتوقّع أن يؤثّر امتداد الخيشومية (nasalisation) من اليمين إلى اليسار [أي امتدادا تراجعيا] في الحروف الشديدة والاحتكاكيّة ، لأنّ « التسرّب » الخيشومي الناجم عن ذلك قد يمنع تحقيق الظروف الهوائيّة الديناميكيّة (ærodynamiques) الضرورية للانفجار أو الاحتكاك (Mac Neilage 1972) إلاّ أنّ نتائج دراسات سوسمان وماك نيلاج وهنسن (Sussman, Mac Neilage, Hanson 1972) ونتائج دراستنا هذه لا تبدو مؤكّدة لفرضية تشيستوفيتش وشركائها .

لاحظ سوسمان وشركاؤه أنّ الفكّ ينغلق – أثناء النطق بحرف شديد شفوي بين حركتين – انغلاقا يقلّ عندما يزداد الانفتاح الذي تقتضيه الحركة اللاحقة ؛ ولكون وضع الشفة السفلى يتبع وضع الفكّ، ونظرا إلى أنّ نطق حرف شفوي يتطلّب انطباق الشفتين ، فإنّ تضييق انفتاح الفكّ مناف للنطق بحرف شديد شفوي .

أمّا في بحثنا هذا فقد لاحظنا أنّ الحركات الحنكية قد عمل فيها التفخيم رغم أنّ نطقها يتطلب من اللسان تحركا يقابل تحرّكه الذي يقتضيه نطق الحروف المفخّمة مقابلة تامة . أضف إلى هذا أنّ هذه الحركات الحنكية لم تمنع امتداد التفخيم إلى أصوات أخرى منعا تاما ؛ على أنّ التفخيم الممتدّ أهمّ في الاتجاه التراجعي منه في الاتجاه التقدمي . ويسلمنا هذا الى واقع آخر غالبا ما نلاحظه وهو أنّ التصاحب النطقي يبدو أكثر أهمية في الاتجاه التراجعي .

وتبيّن النتائج المحصلة من الشريط السينمائي الاشعاعي أنّ التصاحب النطقي للتفخيم في لهجة غمراسن مهمّ تقدميا أو تراجعيا على قدر سواء ؛ ولكن التفخيم يبدو أكثر عُسْرًا في انتشاره من خلال الحركات الحنكية في حال التصاحب النطقي تقدميا . أمّا في اللهجات الأخرى فإن التصاحب التراجعي للتفخيم أهمّ من التصاحب التقدّمي .

وقد أشير (Moll-Daniloff 1971 - Mac Neilage 1972) إلى أنّ الفارق بين امتداد التصاحب النطقي تقدميا وامتداده تراجعيا هو نتيجة دوافع إدراكية حسّية أي أنّه يُمكن أن يكون الاستباق « المبكّر » لعملية النطق بصوت من الأصوات مفيدا في تعيينه ؛ وعلى عكس ذلك ، فمن العقم أن يتواصل تقديم المعلومات عن صوت كانت آثاره الطيفية قدأنفِذَتْ .

وهناك استنتاج آخر وهو أن التصاحب النطقي للتفخيم في العربية لا يمكن أن يكون نتيجة الضواغط الميكانيكية على حركات اللسان فحسب .

فقد لاحظنا أنّ التفخيم يمكنه أن يمتدّ على كلمة كلّها (بين $\frac{400}{1000}$ الثانية و $\frac{600}{1000}$ الثانية) ولكنّه لا يعبُر أبدا من كلمة إلى أخرى، حتّى في غياب فاصل بينهما (بين $\frac{10}{1000}$ الثانية و $\frac{15}{1000}$ الثانية) لذلك يبدو أنّ التفخيم مبرمج سلفا بالنسبة إلى مجموع الكلمة.

وكما لاحظنا آنفا، فإنّ التصاحب التقدمي للتفخيم لا يمتدّ على كلّ الكلمة في بعض اللهجات، كما تحتوي المقاطع التي تلحق الحرف المفخّم على حركات حنكية في هذه الحالات. وإنّ عدم بلوغ التفخيم نهاية الكلمة، في هذه الحالات، قد يعود إلى تفاعل عوامل إدراكية حسّية وميكانيكيّة.

أوّلا، إنّ نطق حركة حنكية يقتضي عملية نطقية مناقضة لتلك التي يتطلّبها النطق بحرف مفخّم. ثمّ إنّ المؤشرات الطيفية الصالحة في كلمة تبدأ بحرف مفخّم، تُنْفَذُ منذ النطق بهذا الحرف. لكلّ هذا لا يبقى أيّ مبرّر إدراكي حسّي لعرقلة السحب إلى الأمام الذي يميّز الحركات الحنكية، بعد أن حصُل الإشعار بوجود التفخيم.

وعلى عكس ذلك، إذا وقع الحرف المفخّم في آخر الكلمة فمن المهمّ أن ننبّه إلى التفخيم منذ بداية الكلمة لتُتَعرّف كلمةً مفخمةً. فلِضَمان إدراك التفخيم منذ بدء الكلمة، تُتجاوز العمليات النطقية المناقضة [للتفخيم] في الحركات الحنكية.

كذلك لاحظنا مرارا أنّ العمليّة النطقية الضرورية لاجراء تمييز إدراكي حسّي هام تصل أقصاها في الغالب رغم وجود ضواغط ميكانيكيّة؛ إذ يبدو أنّ عمليّة نطقيّة ما يُمنع تحقّقها كاملة في ظرف من الظروف، قد تحقّقُ كاملة في ظرف مماثل. إن كان ذلك ضروريا للمحافظة على فوارق صوتية. فالمسافة والقصور الذّاتي وسرعة الانجاز ... وغير ذلك تستطيع أن توقف عملية نطقية، ولكنّ هذا الايقاف ليس إيقافا آليا.

وفي الجملة يمكن أن نختم بأنّ عمليّة نطقيّة ما تتحقّق كاملة في الغالب إن كان إيقافها يمكن أن يخفي فوارق فونولوجية . ولقد أكّدنا آنفا أنّ اللسان لم يدرك هدفه المحدّد في الكسرة [الرخيفة] [I] عندما سبقت هذه الحركة بحرف مفخّم ؛ وعلى عكس ذلك فإنّ وجود الكسرة الموتورة [i] بعد حرف مفخّم لم يؤدّ إلى عدم تحقيقها كاملة ؛ وأرجعنا هذا الفارق في المسلك إلى ضواغط « عليا » يفرضها نظام اللهجة الفونولوجي .

تعريفات

1 - Anticipation :

الاستباق : هو أحد نوعي التصاحب النطقي ويتمثّل في التبكير ببدء عملية نطقية أثناء انجاز صوت لا يقتضي ذلك هو بذاته ولكن العملية النطقية من مقتضيات صوت لاحق له . فالاستباق « انذار مبكّر » ببثّ بعض الخصائص الناجمة عن اتخاذ أوضاع نطقية قبل أوانها في السلسلة الكلامية . وتعود هذه الظاهرة إلى مبدء عام هو اتصاف عمل أعضاء النطق وعمل الجهاز العصبي بالشمول (la globalité) .

أمّا النوع الثاني فهو **الامتداد** (The carryover-la propagation) وهو أن تسري صفة أو أكثر من الصفات النطقية في صوت من الأصوات إلى صوت – أو أكثر – يلحقه . ويفسّر الامتداد أيضا بأنّ عمل أعضاء النطق لا يتوقّف عند الانتهاء من صوت لتنطق بعد ذلك بخصائص الصوت اللاحق . فالتحوّل عن صوت إلى آخر يحصل بضرب من التدرج و« التداخل » بين الأصوات والتفاعل بينها .

2 - Compensation articulatoire :

التعويض النطقي : هو أن تضطر أعضاء النطق إلى اتخاذ أوضاع غير أوضاعها المألوفة العادية لانجاز الأصوات ؛ ويحصل هذا

في حالات قاهرة أو شاذّة (كأن يكلمك أحدهم والغليون في فيه) في اللغات البشرية كما يحصل في حالة الالات الناطقة ؛ ذلك أن الصوتم لا ينجر بنمط فريد ، في النطق .

3 - Inertie :

القصور الذاتي : قانون فيزيائي يقوم على أنّ كل جسم ثابت يظلّ ثابتا حتى يوجد ما يُحدث فيه الحركة وأنّ كل جسم متحرك يظل متحركا حتى يوجد ما يعطّل حركته .

4 - Schwa :

حركة « شوا » : حركة « نظرية » مبهمة ينطق بها اللسان عند ما يكون في حالة خمول قريبة من وضع الراحة عنده فكأنّ اللسان لا يبذل مجهودا ليعيّن خصائص سماعية (طيفية) لحركة بيّنة . وتوافق مكوّناتها ذبذبات الدّوّيّ في أنبوب قطره قارّ وطوله 17 صتم (م 1 = 500 هرتز م 2 = 1500 هرتز م 3 = 2500 هرتز م 4 = 3500 هرتز) ويشار إليها برمز Ə . وقد آثرنا تعريب لفظ المصطلح الأجنبي لأنّه متداول في عديد اللغات بنفس الصيغة .

- (V.O.T. voicing once at time)

وقت دفق الجهر : هو اللحظة التي يبدأ فيها الجهر بالنسبة إلى إنتهاء الغلق . فإذا حلّلنا مقطعا يتركّب من حرف شديد وحركة (كالتّاء والفتحة مثلا) لاحظنا أنّ جهر الفتحة لا يبدأ بعد وقْف الغلق مباشرة بل إنه ينطلق بعد انقضاء جزء من مدى الفتحة .

المـــرجـــع

ALI, L et R, DANILOFF : *A Constrative Cinefluorografic Investigation of the Articulation of Emphatic - Non Emphatic Cognate Consonants.* in, *Studia Lingua*. Vol 26 (1972).

BADREDDINE, Belhassen : *Le Parler de Kairouan-ville. Etude phononologique et phontéique.* Thèse de 3e cycle, Université de Paris X (1977).

BONNOT, Jean-François : *Recherche expérimentale sur la nature des consonnes emphatiques de l'Arabe classique; in. Travaux de l'Institut* de Phonétique de Strasbourg, n° 9. 1977 pp. 47-88.

BROSELOW, Ellen : *The Phonology of Egyptian Arabic. Thèse de Ph. D,* Université du Massachusetts, 1976.

BROSELOW, Ellen : *Cairence Arabic Syllabic Structure.* in Linguistic Analysis. Vol (5) N.Y. 1979.

CHISTOVICH, L.A., KOZHEVNIKOV, V.A., ALYAKRINSKIY, V.A. BONDARKOV, L.V., LUYBLINSKYA, V.V., FEDOROVA, N.A., SHUPLAYKV, V.S. GOLUZINA, A.G., KLASS, YU. A., KUZIMIN, YU. I., LISENKO, D.M. et SHUPLAYKOVA, R.M. Rech : *Speech Articulateur and Perception. Washington : Clearinghouse of Federal Scientific and Technical Information* - in *JPRS,* vol 30.

COHEN, David : *Sur le statut phonologique de l'emphase en arabe.* in *Word,* vol 25 (1969) pp. 59-69.

GHAZELI, Salem : *Back consonants and Backin Coarticulation in Arabic.* Thèse de Ph. D. Université du Texas, 1977.

GHAZELI, Salem : *Du statut des voyelles en arabe;* dans *Analyses, théorie* 1979, 2/3.

HARREL, Richard : *The Phonology of Colloquial Egyptian Arabic.* New York; American Council of Learned Societies, 1957.

HARRIS, Z.S : *The Phoneme of Marrocan Arabic, in Journal of the American Oriental Society,* vol 2 (1942) pp. 108-111.

KENT, R.D. et F. MINIFIE : *Coarticulation in Recent Speech Production* Models, in *Journal of Phonetics,* 5, 1977 pp. 115-134.

KOULOUGHLI, J.E. : *Contribution à la phonologie génératique de l'arabe : Le système verbal du parler arabe du Sra Nord-Constantine, Algérie.* Thèse de 3è cycle. Université de Paris VIII 1978.

KUEH, David : *A Cinefluorographic Investigation of Articulatory Velocites.* Thèse de Ph. D. Université de Iowa, 1973.

LEHISTE, Ipse : *Acoustical Characteristics of Selected English Consonants.* Publication of the Indiana Research Center ou Anthropology; Folklore and Linguistics. Bloomington. Indiana University, 1964.

LEHN, Walter : *Emphasis in Cairo Arabic,* in Language vol 39 (1963) pp. 29-29.

MAC NEILAGE, Peter : *Speech Physiology : Speech and Cortical Functioning.* New York Academie Presse, 1972.

MAC NEILAGE, Peter : *Speech Production.* Status Repart fort the Ninth International Congress of Phonetic Sciences, Copenhagen, 1979.

MOLL, K et DANILOFF : *Investigation of the Timing of Velar Movement during speech,* in *Journal of the Acoustical Society of America* vol 50 (1971) pp. 678-684.

SUSSMAN, H., MAC NELLAGE, P. and R. HANSON : *Labial and Mandibular Dynamics during the Production of Bilabial stop consonants : Preliminary observations,* in *Journal of speech and Hearing* Research, vol 16 (1973) pp. 397-420.

TARNOCZY, T : *Resonance Data Concerning Nasals, Laterals and Trills,* in *Word,* vol 4 (1948) pp. 71-77.

التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر

تأليف : عبد المنعم محمد الحسن الكاروري

تقديم : محمد رشاد الحمزاوي

زود الدكتور الكاروري المكتبة العربية بمولود جديد عنوانه **التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر** . وهو من منشورات دار جامعة الخرطوم للنشر صدر سنة 1986 في 443 صفحة . والمؤلف هام جدا من حيث الموضوع المطروق وباعتبار ما يعالجه من قضايا لغوية متعددة ومختلفة لها صلة وثيقة بالمعجم والمعجمية العربية . ولقد قسم ، زيادة على المقدمة (ص 1 ـ 5) الى ثلاثة أبواب حوى الباب الأول منها فصلين (ص 7 ـ 65) والباب الثاني أربعة فصول (ص 67 ـ 290) والباب الثالث ثلاثة فصول (ص 295 ـ 407) ثم الخاتمة (ص 408 ـ 412) .

في الباب الأول تعرض المؤلف الى ظاهرة ما يسميه العربية والتبادل اللغوي وذكر فيه مواقف القدماء العرب من تلك الظاهرة مستعرضا الجدل القائم في هذا الشأن مما أدّى بالمتعصبين منهم الى نفي المعرب في لغتهم التي اعتبروها أم اللغات وأقدمها . وذلك لم يمنع المؤلف من أن يقر شيوع تلك الظاهرة بين كل لغات الدنيا .

ولقد تفضل المؤلف بمعالجة قضية هامة من هذه المسألة تتعلق بعوامل انتقال الدخيل الى العربية نذكر منها ما هو رئيسي مثل الهجرة والجوار ، والحروب والدين ، والعلاقات التجارية والثقافية ومنها الشعوبية والمباهاة بالثقافة الأجنبية ، وإقامة الوزن والقافية ، والتملح والاضحاك .

في الباب الثاني تعلقت ہمة المؤلف بالتأكيد على عسر التمييز بين الدخيل والمعرب لا سيما عند القدامى لذين لم ينتبهوا الى تلك الهانة خاصة وان المعرب يستوجب مقاربات عدة تتصل بشرعية قياسيته ، والاشتقاق منه وتصريفه ، ومتابعة تطوراته الصوتية والدلالية ، والنظر في تعريب الاعلام قديما وحاضرا حتى في رحاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة . وفي هذا الباب بالذات يتطرق المؤلف الى مواضيع شائكة من حيث مناهج دراساتها وتاويلاتها وتخريجاتها لانها متصلة بالمعربات في الشعر العربي ، وفي القرآن الكريم ، والحديث الشريف . ولا شك أن المعركة حامية الوطيس في هذا الميدان لما يحيط بها من مسائل عقائدية لا تستند دائما الى حجج لغوية . فلقد أفادنا المؤلف بمواقف مدارس فقهية ثلاث ، مستعرضا حجج رفضها أو قبولها او حلولها الوسطى ، دون ان يبخل علينا بآراء المحدثين من الدارسين العرب ، ودون أن يفصل مصطلح المعرب عن مصطلح المولد وما لهما من صلة ، ذاكرا أسباب التسميتين وعللهما . ولقد ركز المؤلف دراسته بالخصوص في آخر هذا الباب على جهود مجمع اللغة العربية ، مؤيدا ذلك بقرارات المجمع المذكور وناقدا لأهم مظاهرها .

في الباب الثالث ، وهو أطول الأبواب ، يعالج المؤلف قضية لغوية أساسية كثر فيها الجدل والخلاف وتدور بالخصوص حول مقاييس المعرب في اللغات عموما وفي العربية بالخصوص . وهي عنده تحوم حول المقاييس التالية : المقاييس التاريخية ، والصوتية ، والاشتقاقية ، والبنائية ، والدلالية ،

والمنهجية ، والمقطعية ، والشذوذ وكثرة الحروف . ويردف هذه المسائل بالحديث عن طريقة الإبدال في المعربات موعزا إياها الى عوامل منها ظاهرة التماثل والتغاير ، وانتقال النبر وابدال الأصوات الساكنة واللينة . وينتهي عمله بوضع ما يسميه بالقاعدة العامة لتعريب الدخيل .

أما الخاتمة فهي استعراض لاسهامات المؤلف في معالجة القضية منها تحديد مفهوم جديد للدخيل ، ووضع مفهوم المحدث من الدخيل واقتراح قاعدة لتعريب الدخيل .

ويبدو لنا أن هذه الدراسة هي أول محاولة تطّمع في الإلمام بالموضوع وبما أحاط به من مسائل وعقائديات لم يتحرج المؤلف من ذكرها وعرض حججها ومن مناقشتها . ولقد امتاز مؤلفه بالايجابيات التالية :

1 ـ السعي الى معالجة القضية المطروحة وذلك في نطاق آدابنا القديمة والحديثة ، وتلك مقاربة تأليفية تاريخية تفيدنا بآراء نافعة عن تطورات القضية ومسائلها وكيفية معالجتها .

2 ـ اعتماد مصادر ومراجع قديمة وحديثة من الأمهات لاستقراء جميع وجوه القضية . ولقد تميز هذا العمل بما أعتمد عليه من مخطوطات مهمة في المعرب يبلغ عددها 25 مخطوطا تقريبا تستحق العناية بها وتحقيقها ونشرها حتى تتوفر لنا جميع المصادر الاساسية لتصور الموضوع عبر مختلف مراحله ومناهجه .

3 ـ متابعة مختلف المصطلحات المخصصة لهذه القضية من دخيل ومعرب ومولد ومحدث وما وراءها من تصورات لغوية وعقائدية وثقافية .

4 ـ الاستشهاد بنصوص شعرية وقرآنية ونثرية مختلفة للتدليل على وجود المعرب ومشاكله .

5 ـ السعي الى استخلاص قواعد ومقاييس تساعد الدارسين والباحثين على مقاربة هذه القضية على مستوى التربية والمعجم .

6 ـ السعي الى التخلص نسبيا من ربقة النظرة التقليدية التي طالما استبدت بالموضوع وبالدراسات المخصصة له . ويعسر علينا في هذا الاستعراض أن نفيد القارىء بكل ما ورد من ايجابي مفيد في هذا المؤلف المهم ؛ على أن تلك الايجابيات لا تمنعنا من الاشارة الى بعض السلبيات المنهجية والمعرفية التي لاحظناها والتي نورد البعض منها على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

1 ـ زعم المؤلف أنه درس قضية التعريب (المعرب) في ضوء علم اللغة الحديث أو ما يسميه غيره باللسانيات المعاصرة . الا أن دراسته لا تفيد من قريب ولا من بعيد بأنه قد أحاط بما أتت به اللسانيات الحديثة وأطروحاتها ومصطلحاتها الجديدة من تصور في شأن قضية الاقتراض اللغوي . ومجرد ما في الأمر أنه اعتمد الدراسات العربية المعاصرة المتأثرة بطرق متفاوتة باللسانيات الحديثة في مراحلها الأولى .

2 ـ التركيز على مصادر التعريب والمعرب ومراجعهما في القديم على حساب الدراسات والمقاربات الحديثة التي برزت منذ القرن التاسع عشر في الآداب والدراسات اللغوية العربية والاستشراقية وغيرها . فإن كان شيوخ الأزهر من أمثال أحمد الاسكندري وحسين والي وابراهيم حمروش قد استبدوا بدراسات المجمع في الموضوع ، فإن أعمالا عربية واستشراقية كثيرة قد وفرت لنا دراسات نظرية وميدانية وإحصائية قد تجاوزت بكثير مظاهر القضية القديمة . ونذكر منها المقالات الصادرة بمجلات مجامع القاهرة وبغداد ودمشق ومكتب تنسيق التعريب . ومنها أعمال رضا كحالة والشيخ المغربي من سوريا ، وأعمال إبراهيم بن مراد ومحمد رشاد الحمزاوي من تونس ، والمعاجم المختصة الثنائية اللغة ، ودراسات أحمد سعيد سليمان من مصر و Vincent Monteil من فرنسا الخ . دون أن ننسى مواقف مصطفى الشهابي التي

اكتفى المؤلف بتلخيصها دون العناية بتفاصيلها وبالتجديد الذي أدخلته على تصورنا للقضية .

3 ـ تقديم الموضوع حسب منهج مضطرب تداخلت فيه الأقسام . وكان على المؤلف أن يطرحه طرحا تاريخيا وأن يؤالف بين مواقفه النظرية والتطبيقية ، اعتمادا على النصوص العربية الاساسية المنظمة تنظيما تاريخيا . فكان عليه بعد المقدمة أن يعرض علينا وصفا تاريـخيا تطوريا للقضية ابتداء بالشعر الجاهلي ثم بالقرآن والحديث ثم بالنثر والمؤلفات المتخصصة حسب تسلسلها التاريخي مما كان يوفر لنا أمثلة تطبيقية حية تشهد بعوامل انتقال الدخيل الى العربية ، وقد جاءت عامة في أول الكتاب . ولقد استفدنا كثيرا من هذا المنهج التاريخي في مؤلفينا : **مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ تاريخه وأعماله ـ والعربية والحداثه أو الفصاحة فصاحات** ، حيث تعرضنا الى مظاهر عدة مما سميناه بالاستعارة اللغوية ونقصد بها التعريب .

4 ـ خلو الدراسة من النظرة التاريخية فرط على المؤلف التاريخ تاريخا صحيحا لمصطلحات التعريب أو المعرب . فالقرآن قد استعمل مصطلح **الأعجمي** ، والخليل بن أحمد ـ وقد تجاهله الكاتب تماما ـ قد استعمل في كتاب العين اربعة مصطلحات وهي **دخيل** ، **ومبتدع** ، **ومحدث** ، **ومولد** وللخليل يعود الفضل في وضع مقاييس معرفة المعرب ، وقد نقلها عنه جميع اللاحقين ، على ما فيها من صحة وأخطاء . وتفيدنا دراسة النصوص التاريخية أن القضية قد اتخذت اسماء أخرى منها **الغريب** عند ابن عباس ، و **الفارسي** عند الشافعي و **الاقتراض اللغوي** و **الاستعارة اللغوية** عند المحدثين . وتفيدنا احصاءاتنا أن أكثرها تواترا هي مصطلحات معرب (6 مرات) والغريب (6 مرات) والدخيل (4 مرات) .

5 ـ غياب كل دراسة ميدانية إحصائية مطبقة على نص من النصوص المشهورة (الجواليقي مثلا) لاستقراء قضايا تتعلق بمقاييس المعرب . وليت المؤلف أطلع على ما ألفه الدكتور ابراهيم بن مراد من تونس في شأن نقل الأصوات او دراسة المصطلح الأعجمي من خلال النصوص الطبية العربية التي تكثفت فيها المعربات واستعمالاتها .

6 ـ معالجة بعض القضايا الفنية معالجة سطحية أو بطريقة تجهل ماجد فيها من مقاربات أجنبية أو عربية . فمن ذلك أن دراسة مقاييس معرفة المعرب تتطلب اعتماد علوم لسانية كثيرة منها علم أصول الألفاظ ، وعلم الدلالة ، وعلم الأصوات ، وعلم وظائف الأصوات التي لا نجد لها أثرا يدرك في هذا المؤلف . ومن ذلك أن المؤلف قد تجاهل ما جد من نظريات في شأن نقل الأصوات من لغة الى أخرى حسب طرق منهجية مفيدة . فهو لا يشير بتاتا الى التمييز بين منهجية النقحرة (نقل الحروف) والنقصوة (نقل الأصوات) . ولقد اهتمت بهما ندوة كوبنهاغن سنة 1925 ، واهتمت بالاولى المنظمة العربية للتربية الثقافة والعلوم وما أعمال مجمع القاهرة في هذا الشأن الاصدى لندوة كوبنهاغن ولمقترحات المستشرق الايطالي نلينو عضوه العامل الذي جعل المجمع يقدم ما يفوق أكثر من 30 قاعدة في القديم والحديث ، اقتصر المؤلف على ذكر نزر قليل منها .

7 ـ غبن ما تميزت به مدارس التعريب العربية المختلفة ، وما قدمته من اسهامات واكتشافات عند معالجة القضية . فالخليل بن احمد قد درس منها المظهر الصوتي ، وسيبويه وابن جني قد اعتنينا بمظهرها الصرفي بالخصوص . اما الجوالقي فإنه قد أبرز مظهرها النحوي ، والخفاجي والمغربي قد نظرا الى المولد منها ، ولا سيما الى مظهرها الاسلوبي وما سماه المغربي بتعريب الاساليب الذي لا يوجد له ذكر بعمل الدكتور الكاروري .

ولنا اشارات عابرة تتعلق بمبادىء عامة دون الدخول في التفاصيل التي لا داعي لها هنا . فمن ذلك قضية الارتجال التي نرى أنها تستحق عناية أكثر ، ورسم اسم ابن سيده الذي جاء خاطئا (ابن سيدة) ، والمهذب في ما وقع في القرآن من المعرب للسيوطي الذي نشر منذ سنة 1972 بمجلته المورد العراقية وأصدرته ثانية مطبعة فضالة بالمغرب سنة 1985 ، وتعرضنا للطبعتين بالتحليل والنقد في مجلة حوليات الجامعة التونسية وبجريدة العلم المغربية وبكتابنا من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا .

هذه بعض الاشارات الى ما جاء في هذا الكتاب الذي اختلط فيه أحيانا الحابل بالنابل على ما فيه من معلومات ثرية . فهو عمل جاد ومفيد ويكفيه أن يكون سببا في الجدل والنظر في القضية التي فتح لها بايجابياته آفاقا جديدة ، يرجي من غيره أن يطرقها بما يجب من المناهج والمقاربات والمعارف المتنوعة العربية وغيرها لتتأصل في علوم العربية ، وتسلم من المهاترات والعاطفيات والتداخلات المنهجية ، باعتبار أن المعرب او الاقتراض اللغوي ظاهرة كونية تعتمدها كل اللغات لإثراء رصيدها وتجديد أساليبها ، ومواكبة عصورها ، وسد ثغراتها حسب تعبير اللسانيين المحدثين .

الشابي ومدرسة أپولو

تأليف : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ـ الدكتور عبد العزيز شرف ـ الاستاذ رشيد الذوادي

نشر : مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله
الطبعة الأولى 1986 ـ 287 صفحة

تقديم : محمد البحري

كان لإبداع أبي القاسم الشابي في عالم الشعر صدى عميق في جمهور القرّاء بصفة عامة والنقاد بصفة خاصة منذ ميلاد أشعاره الى اليوم . وقد استثارت شاعريته أقلام النقاد في تونس وفي المشرق العربي . فتحركت تسبر أغوار هذا الكيان الشعري الفذّ وتستشف أبعاده وتبحث في مدى امتداد فضائه وفي مساهمته في إثراء التراث الشعري الحديث ، على امتداد الوطن العربي وربّما خارج حدوده . . . وتدرس بالاضافة الى هذا كلّه جذوره ومؤثراته ، وقد ساهم الدكتوران محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف من مصر والاستاذ رشيد الذوادي من تونس بمجهود في هذا الميدان فأخرجوا للناس هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء .

ويحتوي الكتاب على تقديم وتصدير وثلاثة أبواب وفهرس ، وسنعرض للأبواب واحدا واحدا مبدين بعض الملاحظات الخاصة بكل باب . ثم بعض الملاحظات العامة بخصوص الكتاب ككل .

ونودّ بادىء ذي بدء أن نقف عند التصدير (ص 9) فقد أورد فيه المؤلفون هذا السؤال : « لولا صلة الشابي بأبولّو ، هل كان يمكن لمختلف أنحاء الدنيا أن تردّد شعر الشابي . . .؟ » (؟) واعتبارا لهذا السؤال - بقطع النظر عما تضمّنه من مبالغة - يكون الكتاب - في جزء وافر منه على الأقلّ - جوابًا عنه . وهذا ما سنعرض اليه من خلال عرض محتوى الكتاب .

ورد الباب الأول من الكتاب (ص ص 11 - 99) تحت عنوان : « مدرسة أبولّو الشعرية » وفيه فصلان : تناول الفصل الأول (ص ص 13 - 23) مدرسة أبولّو وقد تطرّق فيه المؤلفون مباشرة وبدون تقديم الى ذكر تاريخ تأسيسها (سبتمبر 1932) والى ذكر أهدافها كما رسمها مؤسّسها أحمد زكي أبو شادى وأهمها السموّ بالشعر العربي وتجديده (ص 14) . وتحدّثوا عن نشاطها المتمثل خاصة في طبع دواوين بعض الشعراء من أعضائها ، واعتزامها طبع ديوان الشابيّ لولا وفاته ، وفي إصدارها مجلة « أبولّو » التي توقّفت سنة 1935 وعوّضتها مجلّتا « الإمام » و « أدبي » . ثم تناولوا بعد ذلك بالحديث الحركة الأدبية آنئذ وركزوا بالخصوص على حركة التّجديد في الشعر .

وما نلاحظه في هذا الفصل أن المؤلفين أغفلوا الحديث عن الظروف السياسية والاجتماعية زمن تأسيس الجمعية في مصر وفي الوطن العربي ، وهذا عمل أساسي لكل بحث . وكان من المنهجي أن يقدموا للفصل بالحديث عن البيئة الادبية والفكرية حتى تتنزّل مدرسة أبولّو في إطارها ، لا أن يتداركوا ذلك بعد الحديث عن تأسيس جمعية أبولّو . فهم تناولوا ابتداء من ص 17 الحياة الادبية بشيء من التحليل لا بد من التوقّف عنده : إذ ورد في ص 17

هذا القول : (... ومن العجب أن تظهر مدرسة « أبولو » الشعرية في جو كان يسوده الظلام والحزن وفي فترة ليس لها مثيل في تاريخنا القومي ، وفي خلال أزمة عالمية عاتية ...) . وهو قول لا يخلو من غموض . فالحالة الموصوفة فيه : هل الحالة السياسية أم الفكرية ؟ والأزمة العالمية العاتية أهي أزمة 1929 الاقتصادية أم أزمة فكرية ؟ والظلام أهو الظلام السياسي (الاستعمار) أم الفكري ؟ الا أن المؤلّفين يعودون بعد هذا القول مباشرة الى الحديث عن صراع التيارات الأدبية : المحافظ منها والمعتدل والمجدّد ، في مصر وخارجها ، وهو صراع لا يدلّ على « ظلام » بقدر ما يدلّ على نهضة فكرية (1) . والمؤلفون أنفسهم يختمون هذا الفصل بقولهم : « ... وجاءت مدرسة أبولو الشعرية إثر هذه الطبقات جميعا ، فأكدت دعوة التجديد في الشعر ... » (ص : 23) .

وقد اضطرب المؤلفون في تصنيف التيارات الادبية التي شهدتها مصر آنذاك : اذ جمعوا ضمن التيار المحافظ : عبد المطلب والجارم ... وعبد الرحمان شكري والعقاد وطه حسين والمازني وهيكل ... ويبدو أن خطأ مطبعيا طرأ على الفقرة فالتيار الثاني (المعتدل) لم يذكر . إذ كيف يُحشر طه حسين والعقاد والمازني مثلا ضمن التيار المحافظ في الأدب ؟

أما الفصل الثاني (وفيه خمسة عناوين) (ص ص 24 ـ 99) فيتناول أوّلا التعريف بشخصية أبي شادي رائد مدرسة أبولو الشعرية . وفي العنوان الثاني تعرض المؤلفون الى الحديث عن أسرته وعن نشأته الادبية في أسرة لها حظ من الادب ثم عن مراحل دراسته معتمدين في ذلك على نصوص مطوّلة من تصريح أبي شادى نفسه . ثم ذكروا سفره الى انكلترا سنة 1912 وبقاءه

(1) يقول المؤلفون في ص 124 في حديثهم عن الشاعر علي محمود طه : « ... فاز بإعجاب كل الذين قرأوا أشعاره عندما كانت دولة الشعر في ذروتها في القاهرة عاصمة الشرق الثقافية ... » . وهذا القول يناقض ما ذكروهُ في ص 17 .

فيها حتى سنة 1922 ، وعرّفوا بأشغاله العلميّة هناك ومنها بالخصوص تخصّصه في تربية النّحل . وابتداء من ص 39 تعرضوا بالدرس الى العوامل التي كونت شاعريته : معتمدين في ذلك كلّيا على ما أورده أبو شادي نفسه في كتابه « مسرح الادب » دون أن يجاوزوه بحرف واحد . ثم ذكروا الشيوخ وغيرهم ممن تأثر بهم أبو شادى كالشيخ عبد الوهاب النجار وخليل مطران وعبد الله الأنصاري دون أن يعرفوا بهم تعريفا كافيا .

وفي آخر هذا الحديث ذكروا هجرة أبي شادى الى الولايات المتحدة سنة 1946 وسردوا نشاطه الادبي والعلمي والسياسي والديبلوماسي ومحاضراته في اذاعة « صوت أمريكا » ، الى أن توفي سنة 1955 ، ورغم أن هذه المرحلة هامة في حياة أبي شادى فانها لم تنل حظا كافيا من الدراسة . ورغم أن أبا شادى نفسه صرّح بأنه هرب من الاضطهاد في مصر فإن المؤلفين اقتصروا على ذلك ولم يدرسوا الظروف التي اشتكى منها أبو شادى . فتبقى الصورة غامضة في ذهن القارىء .

تناول العنوان الثالث (ص ص 62 ـ 72) « الدراسات حول أبي شادى ومؤلفاته » . فذكر المؤلفون حوالي 35 دارسا من مختلف أقطار الوطن العربي ، تناولوا بالدراسة أدب أبي شادى . غير أننا لا نجد أي تعريف بدراساتهم هذه ولا بموضوعاتها ، ولو بمجرد إشارة . ومن الطريف في هذا الباب أن يذكر المؤلفون دراستين عن أبي شادى لم تصدرا بعد (ص 64) .

مرّ المؤلفون بعد هذا الى ذكر مؤلفات أبي شادى وهي :

ـ 23 ديوانا (صدر بعضها بين سنة 1910 وسنة 1952 وبعضها مخطوط) وقد حاولوا ترتيبها حسب تواريخ صدورها الا أن كثيرا منها لم يثبت تاريخ صدوره . كما أن تعريفها غير متواز : فبينما عرّفوا بعض الدواوين بموضوعاتها

وأحجامها وتاريخ صدورها وحتى عدد أبياتها ، اقتصروا على مجرد ذكر أسماء الدواوين الاخرى .

ـ 12 كتابا بين مطبوع ومخطوط في الادب والنقد والاجتماع ، ولم يعرّف المؤلفون بمحتوياتها . وكان من الاحسن دراستها . وخاصة منها كتب النقد . وهي كتب متنوعة المواضيع ، كان يمكن للمؤلفين ان يستغلوا محتواها للتعرّف على وجهة نظر أبي شادى ـ ومن خلاله مدرسة « أبولو » ـ في الشعر والأدب بصفة عامّة .

7 كتب علمية في تربية النحل خاصّة .

10 قصص ومسرحيات ومنها ترجمة رباعيات الخيام .

يضاف الى هذا كلّه مقالاته الكثيرة ، ومؤلفاته بالانكليزية ، وستّ مجلّات أصدرها (2) ومقدماته لكتب ودواوين كثيرة إذ « . . . لا يكاد يخلو كتاب أو ديوان حديث ظهر في مصر في الفترة ما بين 1930 و 1940 من مقدمة للدكتور أبي شادى . . . » (ص 72) . فنشاط أبي شادى متنوع وإنتاجه غزير ، وقد أفادنا المؤلفون بعرضه (3) . ويتعرّض العنوان الرابع (ص ص 73 ـ 81) إلى شاعرية أبي شادى وشعره . فذكر فيه المؤلفون العوامل التي أثّرت فيه ومنها اتّصاله بمدرسة شوقي وحافظ وتأثير خليل مطران ، والادب الانكليزي والادب العربي القديم ، وليس في هذا الكلام شيء جديد ، فكل القراء يعرفون أن أيّ أديب يتأثر ببيئته وتراثه الثقافيين ، وبالثقافة الاجنبية إن كان له عليها اطّلاع .

(2) هذه المجلات هي (حسبما ورد في ص 70) : ـ مجلّة الإمام (أدبيّة) ـ مجلّة مملكة النحل (علميّة) ـ مجلّة أبولّو (أدبيّة ـ شعريّة) ـ مجلّة أدبي ـ مجلّة الدجاج ـ مجلّة حدائق الظاهر .

(3) حشر المؤلّفون (ص 69 سطر 23) ـ ضمن قائمة مؤلفات أبي شادي ـ قولهم : « 7 وأصدر الدكتور خفاجي عنه كتابا بعنوان « أبو شادي في المهجر » . ولا ندري ما هو مبرّر ذلك .

وبخصوص مذهبه في الشعر ، اعتمدوا على رأيه هو نفسه وعلى رأي الدكتور مختار الوكيل دون ان يجتهدوا في تحليل هذا المذهب والتعريف به .

أما العنوان الخامس (ص ص 82 ـ 99) فأوردوا فيه ستة عشر نصّا من شعر أبي شادي دون أن يذكروا مصادرها إلا في نصين فقط .

يتناول الباب الثاني (ص ص 101 ـ 167) الحديث عن مجموعة من شعراء أبولو وهم : إبراهيم ناجي (ص ص 103 ـ 122) وعلى محمود طه (ص ص 123 ـ 126) وصالح جودت (ص ص 127 ـ 130) وحسن كامل الصيرفي (ص ص 131 ـ 150) ومصطفى عبد اللطيف السحرتي (ص ص 151 ـ 167) وفيه عرّف المؤلفون بكل واحد من هؤلاء الشعراء وبآثاره وبخصائص شعره ، وأوردوا نماذج من الشعر حللوا بعضها .

وقد أحسن المؤلفون في هذا الباب عندما حاولوا استخلاص أهم خصائص شعر مدرسة أبولو ، الفنية ، وميزاتها من بين التراث الشعري المعاصر لها (4) وهذا في حد ذاته خطوة إيجابية ومجهود مشكور تمنّينا لو سار سائر الكتاب على منواله . اذ من خلال تحليل الخصائص المميزة لهذا التيار الشعري يمكننا أن نكتشف فنيات شعر الشابي وميزته وخصائصه ، دون حاجة الى الدراسات الاستعراضيّة المطوّلة . الا أننا لاحظنا في الآن نفسه ، في هذا الباب ، اعتمادا يكاد يكون كلّيا على آراء الشعراء المدروسين أنفسهم أو على آراء غيرهم فيهم كأبي شادى . ففي الحديث عن حسن كامل الصيرفي مثلا (ص ص 136 ـ 140) نجد اتّكالا شبهَ كلّيّ على ما كتبه عنه أبو شادى ومجلة الحديث الحلبيّة والشاعر القروي وعبد الفتاح إبراهيم واسماعيل أدهم أيكون هذا العمل مجرّد عرض للآراء المختلفة ، وهي ترجع الى ما قبل أربعين سنة ؟ وأين مجهود المؤلفين الخاصّ ؟

---

(4) انظر الهامش (5) .

نصل الى أبي القاسم الشابي في الباب الثالث من الكتاب (1/169 ـ 286) وفي هذا الباب ـ بفصوله السبعة عرف المؤلفون بالشابي ودرسوا خصائص شعره وعلاقاته بمدرسة أبولو كما سنبينه .

فقدموا للحديث عنه في الفصل الأول بنماذج من شعره مشفوعة بتعاليق موجزة تخصّ بالذات الطابع التجديدي فيها . ولم يذكروا مصادر هذه النصوص ما عدا مصدر قصيدة « نشيد الجبار » . ثم عرّفوا باقتضاب بحياته وتعلمه ومطالعاته واتصاله بمدرسة أبولو (دون أن يذكروا تاريخ هذا الاتصال) . وفي صفحتي 178 ـ 179 عرضوا أهم الدراسات التي تناولت أدب الشابي بدون أن يعرفوها بما فيه الكفاية ، وانما أوردوها لبيان قيمة الشابي واحتفاء الناس بأدبه .

واصل المؤلفون في الفصل الثاني (ص ص 187 ـ 195) وصف خصائص شعر الشابي وتأثره إلى حد بعيد بمنهج أبي شادى وقد لاحظ أبو شادى أن قصائد الشابي تتجاوب وروح جماعة أبولو رغم أنها كتبت قبل سنة 1932 . وقد اكتفى المؤلفون بهذا القول العابر ولم يحلّلوا مظاهر هذا التجاوب اعتمادا على الشعر المدروس ، رغم أن هذا القول يحتّم دراسة اتجاه الشعر قبل ظهور مدرسة أبولو ، (وكنا قد أشرنا الى هذا اثناء عرض الفصل الأول من الباب الأول) . وأشار المؤلفون بعد هذا الى العلاقة بين الشابي وأبي شادى اعتمادا على رسائل الشابي .

وورد الفصل الثالث (ص ص 196 ـ 199) بعنوان « الشابي والنزعة الرومانسية عند أبولو » وفيه تحدث المؤلفون بإيجاز شديد عن ظهور التيار الرومانسي في الآداب الأروبية وازدهاره في القرن التاسع عشر ، وذكروا أهم خصائصه ، ثم أردفوا ذلك بوصف مذهب مدرسة « أبولو » الأدبي ملاحظين

الشبه الواضح بين المذهبين ، وتأثر ثانيهما بالأول . والملاحظ أنهم لم يذكروا شيئا عن الشابي في هذا الفصل ، رغم أنه مذكور في العنوان .

يعرض الفصل الرابع (ص ص 200 ـ 231) « خصائص القصيدة » عند مدرسة أبولو (5) . وقد حددها المؤلفون في الجوانب التالية :

1 ـ التجربة الشعرية : وتعني أن الشاعر ينطلق من تجربته الذاتية ، وفي هذا ردّ على التيار القديم المتميز بشعر المناسبات .

2 ـ الوحدة العضوية للقصيدة .

3 ـ التعبير بالصورة : « . . . وهذا أهم ما تطورت اليه القصيدة الجديدة . . . » (ص : 212) .

4 ـ استعمال اللفظ الموحي .

5 ـ الطبيعة عند شعراء أبولو : ولا يعني هذا وصف الطبيعة وانما الاندماج في روحها .

6 ـ صوفية الحب العذرى : وقد تحدثوا بإيجاز عن الحب العذرى الاموى فانتقاله الى الاندلس فالى فارس وتركيا فالى جماعة أبولو .

7 ـ نزعة الحرمان عند شعراء أبولو .

وقد اعتمدوا في هذه النقاط على نماذج قصيرة من شعر جماعة أبولو ومن شعر الشابي بالخصوص ، ولكن بدون تحليل يذكر .

يعرض الفصل الخامس (ص ص 232 ـ 262) مقارنة بين الشابي ومحمد عبد المعطي الهمشري (1908 ـ 1938) بخصوص نزعة الحزن والغربة في شعرهما . وفي هذا الفصل ، استعراض لكثير من قصائد الشابي وبيان

---

(5) نلاحظ أن الموضوع هو تقريبا في الباب الثاني وفي الفصل الرابع من الباب الثالث . وهذا تكرار لا مبرّر له .

للطابع الرومانسي فيها ، ومقارنة بينها وبين قصائد الهمشري . وقد تطرّقوا في هذه المقارنة الى الحديث عن المذهب الرومانسي . وهنا نتساءل : ما هي فائدة هذه المقارنة ؟ الا يمكن الحديث عن الشابّي الشاعر الرومانسي دون لجوء الى هذه المقارنة ؟ هذا ، والشاعر الهمشري غير مذكور في مجموعة الشعراء الذين عرف بهم الباب الثاني من الكتاب . وإنما ذكر عرضا في ص 15 من بين الذين كانت مجلة أبولو تنشر لهم .

ويعرض الفصل السادس (ص ص 263 ـ 286) موضوع « الشابي وثورة التجديد عند شعراء مدرسة أبولو » وقد بين المؤلفون أن هذه الثورة تجسمت في المذهب الشعري الجديد : الشعر الحرّ ـ تنويع القافية ـ تجديد المضمون ـ الفن للفن الخ . . . كما بيّنوا « أثر هذه الثورة على الشعر المعاصر » من حيث الآثار التي أحدثها شعراء أبولو في الشعر المعاصر وهي آثار كبيرة ممتدة شاملة (ص 269) ولا بدّ من ملاحظة بعض النقاط الهامة : فهذا الفصل يكاد يكون إعادة لما سبق في الكتاب من دراسة لمذهب جماعة أبولو . كما أن المؤلفين استشهدوا بآراء الشابي في الشعر ، وهذا الاستشهاد بحاجة الى المراجعة ، فالشابي لم يكن ناقدا بل كان شاعرا ، هذا ، ولا ندري هل أورد المؤلفون آراءه كمثال على مذهب مدرسة « أبولو » أم كمثال من النقد والصراع بين القديم والحديث (ص 264) . وانّ إشارتهم الى الجدل الذي قام بين أنصار مدرسة أبولو وانصار القديم إشارة خاطفة لا تمكّن من تبينّ أثر هذه المدرسة في الشعر . وإن عرضهم في آخر هذا الفصل لآراء النقاد في مسألة اللفظ والمعنى ليس له علاقة متينة بالموضوع الذي يدرسونه .

ورد الفصل السابع (ص ص 275 ـ 286) بعنوان « الشابي وأصداء من أبولو » .

وقد حوى رأي أبي شادى في شعر الشابي . فأين الاصداء إذن ؟ وما هو رأي المؤلفين ؟

يقدم هذا الكتاب ، كما بينا أعلاه مادة غزيرة ومعلومات كثيرة عن ظهور مدرسة أبولو ، واتجاهها الأدبي وعن أعضائها ونشاطهم وعن أبي القاسم الشابي وشعره ، والظاهر ان المؤلفين بذلوا في توفير كل ذلك مجهودا كبيرًا . ومن هذا الجانب يعتبر الكتاب مساهمة قيّمة في التعريف بالشابي ، لولا بعض المآخذ التي نوجزها فيها يلي : ونبدؤها بالتذكير بالسؤال المطروح في التصدير وهل أجاب عنه الكتاب ؟ من الواضِح أن الاجابة لم تقع لأن الكتاب تناول قضايا كثيرة ومعلومات غزيرة ابتعدت به عن منهج الجواب الواضح ويبقى القارىء متسائلا بعد قراءة الكتاب : ما هو دور « أبولو » في التعريف بالشابي ؟

ونلاحظ كذلك نزعة الاطراء الطاغية على تحليل آثار الشابي وجماعة أبولو وهي متأتية ـ على الأغلب ـ من تأثر المؤلفين بما زخرت به مقدّمات الدواوين من فنون الاطراء وضروب الامتداح . كما نلاحظ الاعتماد الكبير على آراء النقاد ، وهي آراء ترجع الى الثلاثينات والاربعينات بينما أُلِّفَ الكتاب في الثّمانينات حيث كان من المفروض أن يطلعنا على آراء جديدة ، تتجاوز ما سبقها من نظريات ومذاهب .

والكتاب تأليف جماعي ، ألّفه ثلاثة ، غير أننا نقرأ في ثناياه الحديث بصيغة المتكلم المفرد كما في ص 107 في الهامش (1) . « راجع 298 ـ 311 الادب العربي الحديث ومدارسه ـ الطبعة الأولى للمؤلف » . فأيًّا من المؤلفين الثلاثة يعني هذا القول ؟

وفي ص 136 س 19 : « وأحسبني عاجزا عن أن أرسم صورة موجزة جدًا لما أثير حول الديوان من دراسات أدبيّة ومشكلات في النقد : .

وفي ص 153 « ولقد اتصلت بالسحرتي وتوثقت علاقتي به منذ عام 1946 . . . » ثم يعود ضمير الجميع في ص 163 س 6 في الحديث عن السحرتي نفسه : « وقد وقعنا له على قصيدة لم تنشر. . . »

إن هذا الخلط بين الضميرين يخلق اشتباها في ذهن القارىء وكان يحسن أن يوضّح ذلك إمّا بذكر صاحب الفصل أو باستعمال ضمير الجمع فحسب.

ولم تسلم بعض فقرات الكتاب من الغموض، بسبب بعض التعابير غير الواضحة، كما في هذه الفقرة من ص 19 «... ونظم شوقي» الملحمة التاريخية... اذ نظم في التاريخ الاسلامي ملحمته «دول العرب وعظماء الاسلام» وكذلك فعل «محرم» في «الإلياذة الإسلامية». ومسرحيات كليوباترا، ومجنون ليلى وقمبيز وعلى بك الكبير وعنتر وكلها لشوقي...». والقارىء يلاحظ ما فيها من عدم تماسك. وكما في هذين التعبيرين من ص 63 : «ومما كتب عن الدكتور (أبي شادى) أيضا، كتاب رائد الشعر الحديث للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي» ومما كتب عنه كذلك، كتاب بعنوان «أبو شادى في الميزان...» بقلم محمد عبد الغفور.. ان استعمال «أيضا» و«كذلك» يفيد ان ما ذُكِر بعدهما غير موجود في ما سبق في الكلام، والحال أن الدكتور خفاجي (وهو أحد المؤلفين) وعبد الغفور موجودان ضمن قائمة الذين كتبوا عن أبي شادى في ص 62.

ومن أوجه الغموض إغفالُ المؤلفين مصادر بعض النصوص التي أوردوها كما في ص 32 ـ 33 حيث لم يذكروا مصدر أقوال أبي شادى وفي ص 124 حيث أغفلوا ذكر مصدر قول طه حسين في شعر علي محمود طه، وإغفالُهم التعريف بكثير من أعلام الأدب والنقد المذكورين في الكتاب كمحمود غنيم وبشر فارس وايليا أبي ماضي، والجواهرى، وغيرهم. وكذلك اعتمد المؤلفون مرة على التاريخ الهجري وأخرى على التاريخ الميلادي في تحديد تواريخ الولادة والوفاة والأحداث كما في ص 27 اذ ذكروا أن والد أحمد زكي أبي شادى ولد عام 1271 هـ والتحق بالأزهر عام 1298 واشتغل بالمحاماة عام 1885 م ثم فتح له مكتبا بطنطا عام 1886 م الخ...

ويبقى تحليلهم للنماذج الشعرية التي أوردوها ، بعيدا عن التعمق والنظرة الثاقبة ، مقتصرا في بعض الأحيان على الملاحظات المقتضبة ، فقد علّقوا مثلا في ص 240 على قصيد للشابي طويل بهذا القول : « وفي هذه القصيدة تبرز خصائص الطبيعة في شعر الشابي » وهو قول لا يعني شيئا .

وقد تسربت في الكتاب طائفة من الأخطاء ، يحسن بنا أن ننبه اليها القراء والمؤلفين بالخصوص ، كي يقع تداركها في الآبّان :

الخطا	الصواب
* ص 27 س 14 : « 1764 م » (تاريخ ولادة محمد بك أبو شادى	حوالي سنة 1855
ص 19 س 16 : عنتر (مسرحية لشوقي)	عنترة
* ص 29 س 10 : وتوفيت عن أربع وأربعين عاما	عن أربعة وأربعين عاما
* ص 38 س 16 : ... أشاد فيها بفضل الدكتور ومواهبة ونبوغه المتعددة النواحي	لعل الصواب : ... ونبوغه ومواهبه المتعددة (اذ النبوغ مصدر مفرد مذكر لا يجمع)
* ص 45 س 18 : وأشار الى شعر المعري والى **رباعياته** المترجمة بقلم أمين الرياحي	لم يؤلف المعرى رباعيات بل لزوميات . ولعلهم يقصدون عمر الخيّام
* ص 55 س 9 : فاشترك (أبو شادى) في تأبين نسيب عريضه عام 1936 ... وفي حفلة تأبين عبد المنعم رياض عام 1937	الصّواب أن نسيب عريضة توفي سنة 1946 وعبد المنعم رياض سنة 1947 (6)
* ص 105 س 5 : بيت إبراهيم ناجي : « لم أبقه وما أبقى عليّ »	لِمَ أبقيه ؟ ...
* ص 119 س 14 ... **العقاد والمازني اللذين دَعيا** الى الرومانسية	اللذين دعـوَا

(6) الأعلام لخير الدين الزّركلي

الخطا	الصواب
* ص 124 س 6 قول طه حسين عن علي محمود طه : إنه شاعر مجيد . . . في شعره موسيقى قلما تظفر بها في كثير من شعرائنا المحدثين	الصواب كما في حديث الاربعاء ج III : . . . وأن في شعره موسيقى قلما نظفر بها في شعر كثير من شعرائنا المحدثين . . (حديث الاربعاء ـ ج 3 ص 147) .
* ص 125 س 13 وقرأ أدب الرومانسيون	. . . أدب **الرومانسيين**
* ص 125 س 20 وتابع شاعرنا كل أعمال وآثار الرمزيين في فرنسا مثل رامبو وفريني وبودلير	. . . **بول فرلين** **(Paul Verlaine)**
* ص 157 س 4 : وأنفق باقي وقته في المكتبة الأهلية (بباريس)	لعل الصواب : المكتبة الوطنية
* ص 170 : 1924 (تاريخ وفاة الشابي)	1934
* ص 176 س 22 . . . ثم التحق بجامع الزيتونة بالعاصمة تونس . . . يدرس فيها العلوم الدينية ونال منها شهادة التطويع	الصواب : يدرس فيه . . . ونال منه ، لأن الزيتونة جامع لا جامعة
* وهناك عَلَمَان هما « أبولو » و « وأبو شادي » ، تواترا في الكتاب ، وقد أثبت المؤلفون « أبولو » مرة بلام واحد مشددة ، وأخرى بلامين « أبوللو » .	الصواب اثبات رسم واحد والأحسن أن يكون « أبولّو » بلام واحدة مشدّدة
أما أبو شادي فيثبت مرة معربا ومرة لازما صيغة الرفع مهما كانت وظيفته كما في ص 193 س 7 مما لَفَتَ أبو شادي اليه . . .	والصواب إثبات إحدى الصيغتين فحسب : إما اعتبار « أَبُو » ملحقا بالعلم وعندئذ لا يتغير وإما اعتباره اسما معربا ، يتغير حسب وظيفته .

محمد البحري

الجملة العربيّة

دراسة لغويّة نحويّة

د. محمّد إبراهيم عبادة

كلّية الآداب - جامعة بنها

نشر منشأة المعارف بالاسكندريّة

1984 - 222 صفحة

تقديم : خالد ميلاد

تحتلّ دراسة الجملة مكانة هامة في الأبحاث اللّغويّة المعاصرة ، ذلك أنّها تعدّ الوحدة الأساسيّة في الدّرس النّحويّ الحديث ، ولا شكّ أنّ هذا المبدأ قد انبنت عليه أبرز النّظريّات اللّسانيّة لعهدنا في الغرب ، ممّا أغرى نحاتنا المحدثين بمراجعة الكثير من أسس النّظريّات اللّغويّة والمشاغل النّحويّة العربيّة . فظهرت في العقدين الأخيرين محاولات عديدة أعادت النظر في نظام العربيّة وأصولها المبدئيّة ، واقترحت تصوّرات جديدة لتقسيم الكلام ومناهج

متنوّعة لتصنيف الجمل وتحليلها (1) . . . على أنّ هذه المحاولات نزعت منزعا شموليا يطمح الى احتواء قضايا اللغة العربيّة ودراسة نظامها في المستوى الصّوتي والصّرفي والنّحوي والدّلالي . . .

و « الجملة العربيّة » ، عنوان نادر في حقل الدّراسات اللّغويّة العربيّة ، والكتاب الموسوم بهذا العنوان دراسة « نحويّة » تنقسم الى أربعة أبواب :

1 ـ الكلام والجملة (2) .

2 ـ مكوّنات الجملة (3) .

3 ـ أنواع الجمل (4) .

4 ـ الاعراب أو تحليل الجملة (5) .

وقد مهّد المؤلّف لدراسته بمقدّمة مقتضبة أشار فيها إلى أنّ عمله هذا مشاركة منه في الجهود اللّغويّة السّاعية إلى مسايرة ركب الدّرس المعاصر ، مع استلهام للتّراث العربي . وكأنّه بذلك يحدّد الأسس المنهجيّة لدراسته .

وبيّن أنّه قد خصّ الجملة بهذا البحث لأنّها « مبنى يحمل معنى تامّا ـ يخضع للتّصنيف والتّحليل » (6) فوجّه عنايته « إلى المبنى تركيبا وتحليلا » (7) .

---

(1) نذكر منها على سبيل المثال : مهدي المخزومي : في النحو العربي : نقد وتوجيه ، المكتبة العصرية صيدا بيروت 1964 .
ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط 3 . 1966 .
تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة الدّار البيضاء 1979 . واللغة العربية معناها ومبناها دار الثقافة الدّار البيضاء . ـ محمد حماسة عبد اللطيف : العلامة الاعرابية في الجملة بين القديم والحديث . جامعة الكويت 1984 . . .

(2) ص ص 9 ـ 45 .

(3) ص ص 47 ـ 145 .

(4) ص ص 147 ـ 164 .

(5) ص ص 165 ـ 208 .

(6) ص 5 .

(7) نفس المرجع .

وقد انطلق في الباب الأوّل من دراسته ، من تحديد مفهوم الجملة وذلك بمقارنتها بالكلام فتوزّع هذا الباب أربعة مباحث هي :

الكــلام .

صلة الكلام بالجملة .

أبعاد الجملة .

أركان الجملة .

أمّا المبحث الأوّل فقد أشار المؤلّف فيه إلى جهود النّحاة القدامى في دراسة الكلام وتحليله وبيان وحداته الصّغرى وما يكون بينها من علاقات إسناديّة أو توضيحيّة أو تأكيديّة . فبيّنوا أنّ علاقة الإسناد هي المحور الذي يقوم عليه الكلام ، وحاولوا ضبط الصّور التّركيبيّة التي يتمّ بها الإسناد ، وهي صور لا يصلح تركيبها إلاّ إذا روعي فيه « التّعليق بين معاني الكلمات لا بين ذواتها » (8) .

وقد عرض المؤلّف في هذا السّياق رأي الجرجاني في التّعليق وطرقه ، وبيّن موقف تمام حسّان منها ، إذ سمّى طرق التّعليق « القرائنَ المعنويّة » وحصرها في الإسناد والتّخصيص والنّسبة والتّبعيّة والمخالفة » (9) . وقد مهّد المؤلّف بذلك لتقديم تصوّره الخاص للعلاقات بين الكلمات فهي تتفرّع في رأيه إلى علاقات إسناديّة وتقييديّة وإيضاحيّة وإبداليّة وتأكيديّة وظرفيّة وسببيّة ومفعوليّة (10) . كما بيّن أنّ العلاقات قد تكون بين كلمة ومركب إسنادي أو إضافي ، فتُفَرَّعُ إلى علاقات إسنادية وإيضاحيّة وتخصيصيّة لازمة وظرفيّة عامة ومفعوليّة (11) .

---

(8) ص 13 .

(9) ص 16 .

(10) ص ص 16 ـ 19 .

(11) ص 20 .

ولعلّ هذا التّقسيم في نظرنا لا يخلو من تشعّب وتداخل وتكرار إذ يمكننا أن نلاحِظ على سبيل المثال :

1) أنه لا فرق بين علاقة التّقييد وعلاقة الإيضاح ، لأنّ التّقييد وجه من وجوه الإيضاح والإيضاح يفيد معنى التّقييد .

2) أنّه من التّعسّف ـ الذي قد يؤدي إلى الخلط بين الوظائف ـ أن نجعل العلاقة في مركّب الحال علاقة ظرفيّة بالرّغم من أنّ سيبويه قد ذهب ذلك المذهب .

3) أنّه لا يمكن اعتبار علاقة المفعوليّة أو السّببيّة والعليّة أو الظّرفيّة . . . علاقة بين فعل واسم (12) . ذلك أنّ المفعول به أو المفعول لأجله أو المفعول فيه . . . لا تتعلّق بالفعل وحده ، وإنّما بالنّواة الإسناديّة المكوّنة من فعل وفاعل سواء أكان الفاعل ظاهرا أم مستترا مقدّرا . ونحن نورد هذه الملاحظة لأهمّيتها في تحليل الجملة . ولعلّ المؤلف قد تأثّر فيما ذهب إليه بنظريّة القدامى القائمة على اعتبار الفعل عاملا في مثل هذه المتمّمات .

ومهما يكن فقد تبينّ للمؤلف في ختام هذا المبحث أنّ مكّونات الكلام تكون ألفاظا مفردة و « جزئيّات مركّبة وهي هيئات تركيبيّة تمثل جزءا في التكوين أو الشّكل العام » (13) كالجار والمجرور والمضاف إليه والنّعت والمنعوت ، كما تكون مكوّنات الكلام جملة . . . ولاحظ أنّ النّحاة العرب قد أدركوا ذلك إلاّ أنهم قصروا الوظائف على المفردات وعلى الجمل التي لها محلّ من الإعراب (14) لذلك سيخصّص المؤلّف الباب الثّاني من دراسته لمعالجة مكوّنات الجملة . . .

---

(12) ص 19 .
(13) ص 27 .
(14) نفس المرجع ص 27 .

أمّا المبحث الثّاني من هذا الباب الأوّل فقد بيّن فيه المؤلّف الفرق بين الكلام والجملة عند العرب ولخّص مواقفهم في اتّجاهين :

يتمثّل الأوّل في مماثلة الكلام للجملة لاستقلال كلّ منهما بنفسه في إفادة معنى تامّ ، وهما مقابلان للقول إذ هو كما يقول ابن جنّي « كلّ لفظ مَذل به لسان تامّا كان أو ناقصا » (15) . إلاّ أنّ هذا التّحديد للجملة لا يتطابق مع ما سمّوه جملا من مثل الواقعة خبرا أو صلة للموصول أو نعتا أو جوابا للشّرط لأنّها مركّبات لا تستقلّ بنفسها في إفادة معنى تامّ . وقد وجد السّيوطي مخرجا لهذا التّناقض بين المصطلحات والمفاهيم فذهب الى أن تسمية مثل هذه المركّبات جملا إنّما هي تسمية مجازيّة « لأنّ كلاّ منها كان جملة قبل فأطلقت الجملة عليه باعتبار ما كان » (16) .

ويتمثّل الاتّجاه الثّاني في التّفريق بين الكلام والجملة ، إذ الكلام هو ما أفاد إسنادا مقصودا لذاته ، أمّا الجملة فهي إسناد قد لا يقصد لذاته فيكون خبرا أو نعتا . . .

وبذلك انتهى المؤلّف إلى أنّ القدامى قد اختلفوا في تحديد بداية الجملة ونهايتها ونقل لنا أمثلة عن ذلك الاختلاف (17) محاولا تعليله باختلاف النّحاة في الاعتداد بالمعنى في مستوى التّحليل .

وقد حاول المؤلّف ربط حدود الجملة بالأركان التي تسهم في تمام معناها (18) . فبيّن أنّ الجملة تبدأ من مسند ومسند إليه كما قال النّحويّون ولكنّها لا تنتهي إلاّ عندما يستوفي هذان الرّكنان متعلّقاتها . غير أنّ المؤلّف سرعان ما

---

(15) ص 28 .

(16) ص 30 .

(17) ص ص 33 ـ 36 .

(18) ص ص 37 ـ 45 .

عاد ليعتبر الفعل وما يقوم مقامه « محور الجملة أو نواتها من النّاحية التّركيبيّة وحول الفعل تدور متعلّقات أو تسبح في مجاله ، لدلالته على الحدث ، وهذه المتعلّقات هي من صدر عنه ومن وقع عليه وزمانه ومكانه ودرجته ونوعه والحال التي تمّ فيها وعلّته وعدده » (19) . ووضّح ذلك باعتماد مثالين لجملتين فعليّتين وهذا ما يجعلنا نتساءل عمّا عساه يكون المحور في الجملة الاسميّة حسب رأيه أهو المبتدأ المسند إليه أم الخبر المسند أم كلاهما أي النّواة الاسنادية الحاصلة من تعلّق أحدهما بالآخر ؟

وحسب رأينا لا يمكن اعتبار الفعل محور الجملة الفعليّة ونواتها ذلك أنّ تركيب الاسناد هو المحور الذي تقوم عليه الجملة سواء أكانت فعليّة أم اسميّة . و « تركيب الاسناد أن تركّب كلمة مع كلمة . . . إذا كان لاحداهما تعلّق بالأخرى على السّبيل الذي به يحسن موقع الخبر وتمام الفائدة (20) . وبذلك يتّضح لنا أنّ محور الجملة الفعليّة هو تركيب الفعل مع الفاعل ومحور الجملة الاسميّة هو تركيب المبتدأ مع الخبر . ولعلّ اعتبار الفعل محورا للجملة الفعليّة قد تسرّب إلى ذهن المؤلّف من منهج الغربيّين في تحليل الجملة وتعليقهم الاسم وسائر المتمّمات بالمسند أو المحمول (21) . كما يمكن أن يكون المؤلّف متأثرا كما ذكرنا سابقا بنظريّة العامل عند القدامى إذ جعلوا الفعل أصلا في العمل خاصّة وقد لمّح إلى ذلك (22) ضمن حديثه عن قرينة الاعراب .

وبقي أن نعرض في هذا الباب الأوّل من الدّراسة التّعريف الذي ارتآه المؤلّف للجملة . فقد ذكر « أنّها أكبر وحدة نحويّة تقبل التّحليل اللّغوي »

---

(19) ص 42 .

(20) انظر شرح المفصل لابن يعيشI . 20 ط عالم الكتب بيروت .

(21) Prédicat .

(22) ص 23 .

(23) . وهو تعريف شبيه بما ذهب إليه جون ليونز (24) . ولعلّ المؤلّف قد شعر بأنّ هذا التّعريف عام فأضاف ما يفسّره بقوله : « فالفعل ومتعلّقاته والاسم وتوابعه المذكورة في النّصّ تمثّل الجملة وليس الفعل والفاعل أو نائبه أو المبتدأ والخبر وحدهما » (25) . ولا شك أنّ مثل هذا الكلام محتاج إلى مراجعة وتدقيق إذ ينبغي ـ في رأينا ـ أنّ نبينّ ـ كما بينّ القدماء من قبلنا ـ أنّ تركيب الجملة لا يصلح إلّا إذا أفاد معنى يحسن السّكوت عليه وتتمّ الفائدة به ، وبالتّالي فالجملة هي تركيب إسناديّ مفيد ـ سواء اتّصل بمتعلّقات أو لم يتّصل ـ ومستقلّ استقلالا تركيبيّا عمّا قبله وعمّا بعده .

واعتبار الجملة أكبر وحدة نحويّة تقبل التّحليل اللّغوي مبدأ أساسيّ في تصنيف الوحدات الكلاميّة وهو لا يتعارض مع ما نذهب إليه .

ولعلّه كان يحسن بالمؤلف أن يعتمد تصنيف الوحدات الكلاميّة في الباب الثاني من دراسته وهو المتعلّق بمكوّنات الجملة (26). فقد صنّف أنواع المكوّنات في الجملة وذكر في بداية بحثه أنّ القدامى قسّموا المركّبات إلى مركّب إسنادي يشمل ما يُعْرَفُ بالجملة الاسميّة والجملة الفعليّة ، ومركّب تقييديّ يشمل مركّبي الإضافة والنّعت ، ومركّب غير تقييديّ وغير إسناديّ يشمل مركّب الجرّ والمركّب التضمّنيّ والمركّب المزجيّ والمركّب الصّوتيّ (27) . ثم أشار إلى أنّ هذا التّقسيم غير شامل ويختلط فيه المستوى النّحويّ بالمستوى الصّرفيّ . لذا قدّم تصوّرا جديدا للمركّبات يعتمد المستوى النّحويّ و « الواقع

---

(23) ص 41 .

(24) John lyons : Linguistique générale. Intr[n] à la Ling théorique parag 5.2.4. p 136 col Larousse 1970.

(25) ص 41 .

(26) ص ص 47 ـ 145 .

(27) ص ص 49 ـ 50 .

اللّغويّ الذي تمليه عناصر المركّبات » مع التّمييز « بينها بنوع الكلمة التي يبدأ بها المركّب » (28) .

وقد قسّم المركّبات إلى ثمانية أنواع هي : المركّب الفعلي ، والاسمي والوصفيّ ، والمصدريّ ، ومركّبا الخالفة والموصول ، والمركّب الظّرفيّ ومركّب الجرّ وخصّ كلّ مركّب بمبْحث جمع فيه « خصائص المركّب والمواضع التي يحتلّها في بناء الجملة » (29) .

وبدأ بدراسة المركّب الفعليّ فلاحظ أنّه « يتركّب من الفعل ومتطلّباته الإجباريّة والاختياريّة » (30) . كما لاحظ أنّه لا يسمّى جملة إلاّ « اذا استقلّ بنفسه ولم يكن عنصرا في تركيب لغويّ أطول » (31) .

وقد عدّ الجملة النّدائية مركّبا فعليّا (32) على أساس وجود فعل مضمر بدلا من حرف النّداء فيها وهو يساير في ذلك نحاتنا القدامى . إلاّ أنّنا سنجده يخصّص القسم الرّابع من المركّبات فيما بعد ، لمركّب الخالفة وهو المبدوء باسم فعل ، فقد عدّه المؤلف « نمطا خاصّا من المركّبات يختلف عن المركّبات الفعليّة والمركّبات الاسميّة والمركّبات الوصفيّة (33) إذ أنّه لا يسبق بما تسبق به المركّبات المذكورة من أدوات نفي أو طلب أو شرط أو استفهام أو أفعال ناسخة . ولكن هل تسبق جملة النّداء بمثل هذه الأدوات لكي نعتبرها مركّبا فعليا ؟ يبدو أن المؤلّف اقتصر على تطبيق هذه القاعدة على مركّب الخالفة فجعله نمطا خاصّا رغم ما ذكر له من سمات قد تؤكد انتماءه إلى المركّب الفعليّ من ذلك قوله ـ « قد يكون فاعل اسم الفعل اسما ظاهرا أو ضميرا

---

(28) ص 50 .
(29) نفس المرجع .
(30) ص 51 .
(31) نفس المرجع .
(32) ص 64 .
(33) ص 104 .

للغائب » . . . أو قوله « أسماء الأفعال تأخذ حكم الأفعال التي بمعناها من حيث التّعدّي واللزوم . . » (34) وهي سمات جعلت القدامى يعتبرون هذا المركّب جملة فعليّة (35) ، غيرأنّ المؤلّف يتردّد بين آراء القدامى وآراء المحدثين في تصنيف هذا النوع من المركّبات ، فقد اعتمد رأي القدماء في مركّب النّداء ، وأخذ برأي المحدثين (36) فيما يتعلق بالجملة المصدّرة باسم فعل .

ولعلّ النّظر في مركبي النّداء واسم الفعل ينتهي بنا الى عكس النتائج التي انتهى إليها المؤلّف . ذلك أنّ جملة النّداء إذا ما أوّلت بجملة فعليّة فقدت خصائصها الإنشائيّة ووظيفتها الإبلاغيّة لذا يمكن اعتبارها نمطا خاصّا ، على عكس الجملة المصدّرة باسم فعل التي يحسن إلحاقها بالجمل الفعليّة لما لها جميعا من سمات متقاربة .

أمّا المركّب الاسميّ فقد قسّمه المؤلّف إلى مركّب اسميّ إسناديّ ، ومركّبات اسميّة غير إسناديّة . وذكر ضمن النّوع الأوّل المركّب الفعليّ الصّوري وهو ـ عنده ـ المركّب الاسميّ الذي تتصدّره كان وأخواتها وكاد وأخواتها (37) . وكأنه بذلك أراد التّوفيق بين من اعتبر هذا المركّب فعليّا (38) ومن اعتبره اسميّا إلاّ أنّ مثل هذا التّفريع لا يخدم في نظرنا نظام العربيّة ، إذ يضيف نوعا جديدا من الجمل ومصطلحا جديدا . ولعلّ تردّد

(34) ص 105 .
(35) سيبويه الكتاب I . 123 المطبعة الأميرية ببولاق . 1317 هـ .
(36) تمام حسّان اللغة العربية معناها ومبناهاص 113 . ومحمد حماسة عبد اللطيف العلامة الاعرابية في الجملة ص ص 98 ـ 99 .
(37) ص ص 73 ـ 77 .
(38) انظر ابن هشام : مغني اللبيب II . 376 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار احياء التّراث العربي ومهدي المخزومي في النحو العربي نقد وتوجيه ص ص 180 ـ 189 .

المؤلّف فيما ذهب إليه ، جعله يورد هذا « المركّب الفعليّ الصّوري » في قسم المركّب الاسميّ .

وقد قصر المؤلّف المركّبات الاسميّة غير الإسناديّة على مركّب التّمييز ومركّب النّعت والمركّب الإضافيّ ولنا في ذلك ثلاث ملاحظات :

أولاها أنّه غفل عن مركبات غير إسناديّة أخرى تكون اسميّة وهي مركّب المبدل منه والبدل ومركّب المؤكد والتّوكيد ومركّب المعطوف عليه والمعطوف ومركّب صاحب الحال والحال .

وثانيتها أن مركّب التّمييز الذي ذكره لا يتميز دائما « بنوع الكلمة التي يبدأ بها المركّب » (39) - وهو المبدأ الأساسي لنظام التّصنيف الذي اعتمده المؤلف - وذلك أنّ التّمييز قد يتعلّق بالنّواة الإسناديّة في مثل جملة « اشتعل رأسه شيبا » .

وثالثتها أنّ المؤلّف ذكر في هذا القسم المركّب الإضافيّ ، ولكنّه عاد في القسم السّابع من أقسام المركّبات ليقرّ مركّبا آخر متميّزا سمّاه المركّب الظّرفي (40) . ولعلّه قد عوّل في ذلك على المعنى إلاّ أنه قال « والمركّب الظّرفيّ إضافيّ » (41) وهو بذلك يقع في خلط إذ من المفروض - إذا اعتمد المستوى النّحوي والواقع اللّغوي الذي تمليه عناصر المركّبات - أن نقرّ بإدراج المركّب الظّرفيّ ضمن باب المركّب الاسميّ الإضافيّ خاصّة وأن الظّروف أسماء .

وقد خصّص المؤلّف القسم الثّالث من المركّبات للمركّب الوصفيّ ، وهو « المبدوء بمشتق محض » (42) وقسّمه إلى مركّب وصفيّ إضافيّ ومركّب

(39) ص 50 .
(40) ص 132 .
(41) نفس المرجع .
(42) ص 92 .

وصفي إسنادي ـ فأمّا النّوع الأوّل فهو يلحق في رأينا بالمركّب الاسميّ الإضافي إذ المشتقّات إذا لم تكن عاملة عمل الفعل انتظمت في التّركيب انتظام سائر الأسماء . وأمّا النّوع الثاني فقد نقل لنا المؤلّف اضطراب النّحاة في تصنيفه « أهو من قبيل الجمل أم من قبيل شبه الجملة أم من قبيل المفرد (43) واختار الافتراض الأوّل لكون المشتقّ عاملا عمل فعله إلاّ أننا نلاحظ كما لاحظ جلّ النحاة أنّ الإسناد في هذا النوع من المركّبات إسناد خفيّ لا يمكن أن يستقلّ بنفسه ليفيد معنى بذاته ـ لذلك فنحن نميل الى الافتراض الثاني الذي يعتبره شبه جملة مع تعديل يتّصل بمصطلح « جملة » الدّال على الاستقلال المعنويّ والتركيبيّ وتعويضه بمصطلح « الإسناد » . فتُسَمّى المركّبات المبدوءة بمشتقّ عامل عمل الفعل مركّبات شبه إسناديّة أو شبيهة بالإسناد وبذلك نتخلّص من الاضطراب الذي أشار إليه المؤلّف ، كما نتخلّص من مصطلح « الوصفي » الذي يختلط في دلالته بمصطلح « النّعتي . . . » .

كما نلاحظ أنّه يمكننا أن نلحق بهذا النّوع من المركّبات ما سمّاه المؤلّف « مركّبا مصدريًا » (44) ، وقد أراد به « ما كان مكوّنا من مصدر ومعمُوله (45) .

وممّا يؤكّد وقوع المؤلّف في التّكرار والاضطراب اعتباره المركّب المبدوء بمنذ ومذ مركّبا إضافيًا حينا ومركّب جرّ حينا آخر . فذكرهما في القسم الخاصّ بالنوع الأوّل وفي القسم المخصّص للنّوع الثّاني وقد شعر بذلك فقال « سبق ذكرهما في المركب الظّرفيّ ويجوز أن يعدّا من حروف الجرّ إذا وليهما اسم أو

(43) ص 93 .
(44) ص 107 .
(45) نفس المرجع .

مركّب إضافيّ » (46) . وقد أشرنا إلى أنّ مثل هذه الظّروف تكوّن مع ما تضاف إليه - أيّا كان نوعه - مركّبا إضافيّا جزئيّا أي غير إسناديّ .

ومهما يكن ، فإنّ المؤلّف قد حاول الالتزام بالنّظام الذي حدّده لمنهج بحثه في تقسيم مكوّنات الجملة إلى مركّبات ، إلاّ أنّه وقع - في نَظَرِنَا - في خطإ منهجيّ أدّى إلى ما تبيّنّاه من تشعّب المركّبات أو تداخل بينها أو تكرار لبعضها أو غفلة عن بعضها الآخر . ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ المؤلّف قد اعتمد في التّمييز بين المركّبات على نوع الكلمة التي يبدأ بها كل مركّب، غير أنّه لم يوضح قبل ذلك أقسام الكلام لديه ، ولا شك أنه يخالف مخالفة كلّية النحاة القدامى الذين اتّفقوا على تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ويخالف بصفة جزئيّة المحدثين ممّن ذهب إلى تقسيم رباعيّ (47) أو سباعيّ (48) أو ثمانيّ (49) . ويبدو من خلال ما استخرجه من أنواع للمركّبات أنّ الكلام ينقسم عنده إلى ثمانية أقسام : فعل واسم وصفة وخالفة هي اسم الفعل ومصدر واسم موصول وظرف وحرف جرّ . وهو أمر يتطلّب كثيرا من التّعليل والتّدليل والشّرح لم تسعفنا الدّراسة بشيء منها وكأنّها من البديهيّات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية خلط المؤلّف تصنيفه بتصنيف مِنْ مستوى ثان يقوم على التّمييز بين المركّبات الإسناديّة وغير الإسناديّة وكان يمكن في رأينا أن يكون هذا النّوع من التّمييز منطلقا ومستوى أوّل في تصنيف المركّبات التي تشتمل عليها الجملة وذلك بتقسيمها الى :

1) - مركّبات إسناديّة يمكن أن تفيد معنى بنفسها إذا انفصلت عن سائر المكوّنات في الجملة .

---

(46) ص 141 .

(47) ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص 265 .

(48) تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص 90 .

(49) حسن عون : قضيّة النّحو والنحاة : مجلة المجلّة عدد 158 فيفري 1970 .

2) ـ مركّبات جزئيّة محتاجة إلى مكوّنات أخرى تكمّل معناها ، فهي لا تفيد معنى بنفسها البتّة . وهي تنقسم بدورها إلى مركّب شبيه بالاسناد ، ومركّبات بيانيّة وهي البدليّ والتّوكيدي والنّعتي والتّمييزي ، ومركّبات العطف والإضافة والجرّ والموصول والحال والاستثناء ؛ وهي مركّبات شبيهة بالاسم المفرد في أغلب صورها ، وقد لاحظ ذلك القدامى وعرض المؤلّف بعض مواقفهم بشأن المركّب الموصولي الذي عدّه سيبويه وابن مالك والسّيرافي شبيها باسم واحد (50) . . . كما ذكر موقف المبرّد من المركّب الاضافي وقد اعتبره اسما وَاحِدًا (51) . . .

وبذلك تكون الجملة أكبر وحدة نحويّة تقبل التّحليل اللّغوي (52) وتكون الكلمة أصغر وحدة في الدرس اللّغوي وإنْ اعتُبِرَتْ بدورها مركّبا لفظميّا يُمْكِنُ تحليلُه إلى مكوّنات أصغرَ ـ تتميّز بتوزيع خاص ـ تسمّى لفاظم . على أنّ اللغويّين المحدثين يلاحظون وجود وحدتين نحويّتين بين الكلمة والجملة ، وهما المركّب الاسناديّ والمركّب الجزئيّ وأنّ النوع الأوّل أقرب إلى الجملة منه إلى الكلمة على عكس النّوع الثّاني الذي يقترب كثيرا من الاسم الواحد (53) .

وقد انتقل المؤلّف في الباب الثّالث من دراسته (54) إلى بيان أنواع الجمل وبدأ بعرض رأي القدماء إذ تناولوا في رأيه « أنواع الجمل من ثلاثة منطلقات » (55) :

(50) ص 113 .
(51) ص 79 .
(52) ليونزص 136 .
(53) نفس المرجع ص ص 131 ـ 139 .
(54) ص ص 147 ـ 164 .
(55) ص 149 .

الأوّل « وظيفيّ عام » ويتمثّل في انقسام الجمل إلى خبريّة وإنشائيّة . والثّاني تركيبيّ استند فيه النّحاة إلى « ما تبدأ به الجملة من مفردات » (56) ، فقسّموا الجمل إلى فعليّة واسميّة ، وزاد بعضهم الظّرفية واعتبر آخرون الشّرطية قسما رابعا . إلاّ أنّ هذا التّقسيم « لم يكن وافيا للدّرس النّحويّ » (57) في نظر المؤلّف ، ودليله على ذلك أنّ بعض النّحويين « امتدّ نظره إلى نِطَاقٍ أوسعَ ، فقسّم الجملة مع التّقسيم السّابق إلى الجملة الصغرى والجملة الكبرى » (58) واستنتج من ذلك أنّ الجملة عندهم تتوزّع على ستّة أنماط : الاسميّة ، والفعليّة ، والظّرفيّة ، والشرطيّة ، والكبرى ذات الوجهيْن ، والكبرى ذات الوجه الواحد (59) وقد لا نوافق المؤلّف فيما ذهب إليه من تأويل لرأي النّحاة القدامى ، ذلك أنّه جمع بين مستويين من التّصنيف للجمل : يتّصل الأوّل بنوع الكلمة التّي تبدأ بها الجمل ، ويستند الثّاني الى درجة تركيب الجملة ونوع المكوّنات فيها .

أمّا المنطلق الثّالث للنحاة القدامى ، فقد اعتمد حسب المؤلّف على « احتمالات موقعيّة » ، فقسّموا الجمل إلى أنواع ذات محلّ من الاعراب وأخرى لا محلّ لها من الإعراب (60) .

وقد قدّم المؤلّف ـ بعد هذا العرض ـ تصوّره لأنواع الجمل فقسّمها إلى ستّة أنواع هي : الجملة البسيطة ، والجملة الممتدّة ، والجملة المزدوجة أو لمتعدّد ، والجملة المركّبة ، والجملة المتداخلة ، والجملة المتشابكة .

---

(56) نفس المرجع .
(57) ص 150 .
(58) نفس المرجع .
(59) ص 152 .
(60) نفس المرجع .

أمّا البسيطة فهيَ عنده ما تكوّنت من مركّب شبه إسناديّ واحد لا يرتبط بأيّ نوعٍ من المتعلّقات .

وأمّا الممتدّة فهي « المكوّنة من مركّب إسنادي واحد وما يتعلّق بعنصريه أو بأحدهما من مفردات أو مركّبات غير إسناديّة » (61) .

والجملة المزدوجة أو المتعدّدة هي المكوّنة من مركّبين إسناديّين أو أكثر ، وكل مركّب قائم بنفسه وليس أحدهما معتمدا على الآخر (62) . ومن أمثلة ذلك : « وصلنا الى المطار ثم هبطت الطّائرة فاستقبلْنا القادمين (63) .

والنّوع الرّابع من الجمل هو الجملة المركّبة وهي « المكوّنة من مركّبين إسناديّين أحدهما مرتبط بالآخر ومتوقّف عليه » (64) .

أمّا النّوع الخامس فهو الجملة المتداخلة « المكوّنة من مركّبين إسناديّين أو متضمّنين لعمليّتين إسناديّتين بينهما تداخل تركيبيّ » (65) .

والجملة المتشابكة هي القسم السّادس من أقسام الجمل لدى المؤلّف وقد عرّفها بأنّها « الجملة المكوّنة من مركّبات إسناديّة أو مركّبات مشتملة على إسناد وتتميّز عن القسم السّابق بأنّه « قد تلتقي فيها الجملة المركّبة بالجملة المتداخلة بالجملة المزدوجة . . . » (66) .

ومما يمكن مُلاَحَظَتُهُ في هذا التّصوّر الجديد لأنواع الجمل ، أنّ صاحبه تخلّى فيه تماما عن المنطلق الذي يعتمد على نوع الكلمة المتصدّرة ـ في الأصل ـ للجملة . وهو منطلق لم يختلف النّحاة القدامى والمحدثون في الاستناد إليه .

---

(61) ص ص 153 ـ 154 .
(62) ص 154 .
(63) ص 155 .
(64) نفس المرجع .
(65) ص ص 160 ـ 163 .
(66) ص 163 .

لأنّه تقسيم شكلي وعقليّ أيضا إذ يعتبر أداء المعنى مع الشكل المنطوق (67) . وقد صنّف النّحاة الجمل حسب درجات التّركيب فيها ، ولكنّ ذلك في مستوى ثان متّصل بتحليل الجمل ودراسة مكوّناتها وخصائصها التّركيبية . غير أنّ المؤلّف اقتصر في تصنيفه للجمل على مبدإ درجة تركيبها دون أن يفصح عن الأسس التي بنى عليها توجّهه . ولعلّنا لا نرى من موجب لذلك غير تأثّره بتقسيم الغربيّين للجمل في اللّغات الهنديّة الأوروبيّة (68) ، وتصنيف المستشرقين للجمل العربيّة (69) . وقد أخذ المؤلّف كلّ مصطلحاته وتعاريفه عن هؤلاء أو أولئك دون أن يحيلنا عليهم أو يشير إليهم .

وإذا ما تأمّلنا التّقسيم في حدّ ذاته يمكننا أن نلاحظ أنّ الأنواع السّتّة المذكورة تعود في الحقيقة إلى نوعين هما الجملة البسيطة والجملة المركّبة . ذلك أنّ الجملة البسيطة يلحق بها ما سمّاه المؤلّف الجملة الممتدّة إذ أنّها لا تتكوّن إلاّ من مركّب إسنادي واحد . كما يلحق بهذا الصّنف ما سماه جملة مزدوجة أو متعدّدة لأنّ المركّبات الإسناديّة الواردة فيها مستقلّة بعضها عن الآخر و « كلّ مركّب قائم بنفسه وليس أحدهما معتمدا على الآخر (70) فيكون المثال الذي ذكره (71) ـ مشتملا على ثلاث جمل بسيطة : الاولى ابتدائيّة بسيطة والثّانية والثّالثة استئنافيّتان بسيطتان .

وبذلك يكون المؤلّف قد ولّد ـ بطريقة غريبة ـ من الجملة البسيطة نوعين مفتعلين .

---

(67) انظر : مقال عبد القادر المهيري : مساهمة في تحديد الجملة الاسمية في حوليات الجامعة التونسية ـ العدد 5 ـ 1968 ص 7 وما بعدها .

(68) ليونز 133 ـ 139 .

(69) R. Blachère et M.G. Demombynes : Grammaire de l'arabe classique G.P. Maisonneuve et Larose pp. 385-483.

(70) ص 154 ونجد هذا التعريف عند ليونز ص ص 137 ـ 138 كما نجد ما يماثله عند بلاشير في المرجع المذكور ص 417 و473 .

(71) وصلنا الى المطار ثم هبطت الطّائرة فاستقبلنا القادمين .

أمّا الاقسام الرّابع والخامس والسادس من الجمل ، فترجع أيضا في نظرنا إلى نوع واحد هو الجملة المركّبة ، وما التّشابك فيها أو التّداخل إلاّ درجات في التّركيب .

وبذلك يتّضح أن المؤلّف عمد إلى تطبيق المفاهيم النّحويّة الغربيّة التّقليديّة الخاصّة باللّغات الهنديّة الاوربيّة دون مراعاة لخصائص الجملة العربيّة ودون مراعاة أيضا للمبدإ المنهجيّ الذي يقوم عليه كلّ تصنيف والمتمثّل في السّيطرة على الصّور التركيبيّة الكثيرة بتجاوز الجزئيّات فيها ووضعها في عدد محدود يعتمد الاشتراك أو الافتراق في أبرز الخصائص والسّمات . ولعل نحاتنا القدامى لم يَغِبْ عنهم هذا المبدأ المنهجي في تصنيفهم للجملة العربيّة .

أمّا الإعراب أو تحليل الجملة ، وهو عنوان الباب الرّابع من هذه الدّراسة ، فقد بيّن الكاتب بشأنه تعويل القدامى في تحليل الجملة على المعنى المعجمي والمقامي (72) ، وربطَهم بين صحّة المعنى واستقامة التركيب (73) ، ومراعاتَهم شروط النّظم (74) ودرسَهم الأصولَ المقدّرة للتّركيب وما تتيحه من فهم للمعنى (75) . وانتقل بعد ذلك إلى عرض طريقتهم في تحليل الجملة، فلاحظ أنّهم « لم يعرضوا تحليل الجملة في خطوط بيانيّة تكشِف عن مكوّناتها وعلاقات عناصرها على نحو ما نرى في اللّغات الأخرى » (76) .

ثم قدّم المؤلّف بعض الطّرق التّقليدية والحديثة البديلة في تحليل الجملة ، منتهيا إلى طريقة تشومسكي التي تعتمد المكوّنات المباشرة . فبيّن جوانب النّقص فيها ، وما ظهر من محاولات لتغطيتها وتعديلها (77) .

---

(72) ص ص 167 - 170 .
(73) ص ص 170 - 173 .
(74) ص ص 174 - 175 .
(75) ص ص 175 - 179 .
(76) ص 183 .
(77) ص ص 190 - 201 .

وانتهى به البحث إلى اختيار « طريقة تقترب من طريقة المكوّنات المباشرة مع وضع عنوانات وظيفيّة للعقد والفروع في البيان الشّجري » محاولا تطبيق منهجه الجديد على جمل مختلفة (78) .

ولعلّ ما يمكن ملاحظته في الأنماط التّحليلية المقترحة :

1) اعتبار جملة أقائم أخواك متكوّنة من صفة مبتدأ ، ومركّب إضافيّ فاعل (79) وهو منهج تختلط فيه الجملة الاسميّة بالجملة الفعليّة .

2) التّمييز في مستوى التّحليل بين ما يمكن وما لا يمكن الاستغناء عنه من المتمّمات في الجملة الفعليّة ، وذلك بإخراج النّوع الأوّل من المستوى الأوّل في التّحليل ، ممّا أفضى به إلى تقاطع الخطوط ، وهو أمر سبق أن اعترض به المؤلّف عن طريقة المكوّنات المباشرة واعتبره جانبا من النّقص فيها (80) . ونحن لا نرى موجبا لهذا التّمييز إذ المتمّمات في الجملة متساوية في أداء المعنى .

3) عدم الانتباه إلى بعض المركّبات الجزئيّة مما أدّى به إلى الاقتصار على بيان وظائف المفردات أي المركّبات اللّفظميّة . ففي جملة « قرأ محمّد قراءة صحيحة » (81) يقرّ بأنّ قراءة صحيحة « مركّب نعت مفعول مطلق . ولكنّه في جملة « حضر الوزير نفسه » (82) يعتبر « الوزير » فاعلا « ونفسه » توكيدا . فَيَنْخَرِمُ بذلك النّظام المتّبع في التّحليل ذلك أن « الوزير نفسه » : مركّب توكيد فاعل . ولا شكّ أن الأمر راجع إلى أنّه لم يدرج مركّب التّوكيد ضمن مكوّنات الجملة في القسم الثّالث من دراسته .

(78) ص ص 202 - 208 .
(79) ص 203 .
(80) ص 193 .
(81) ص 205 .
(82) نفس المرجع .

4) ولم يلتزم المؤلّف ببيان الوظيفة النّحويّة للمركّبات فاقتصر - أحيانا - على ذكر أنواعها ، ومن ذلك المركّب الفعلي الاسناديّ في الجملة التّاسعة (83) والجملة العاشرة (84) وما سمّاه مركّبا ظرفيّا في الجملة الحادية عشرة (85) ومركّبا فعليّا إسناديّا في الجملة الثّانية عشرة (86) .

ومهما يكن ، فإنّ هذه الدّراسة قد تضمّنت في طيّاتها أبرز المسائل المتعلّقة بالجملة العربيّة ، فسعت إلى تقديم تصوّر جديد لحدّها ومكوّناتها وأنواعها وطريقة تحليلها ، بعد أن عرضت مختلف المواقف القديمة والحديثة منها .

إلاّ أنّ المؤلّف لم يراع ما وجده في تراثنا النّحوي من مبادىء ومناهج لا تخلو في نظرنا من سداد وعمق ، فاقتصر على عرضها غاضا عنها الطّرف أثناء تصوّراته الجديدة .

خالد ميلاد

---

(83) ص 206 .
(84) ص 207 .
(85) نفس المرجع .
(86) ص 208 .

دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفي

تأليف : د. أحمد المتوكّل

دار الثقافة للنشر والتوزيع - الدار البيضاء

ط 1 - 1986 - 240 ص

تقديم : الأزهر الزّنّاد

. مَثّل البحث اللّغويّ عند العرب حلقة مفقودة في الأبحاث التاريخيّة أو النظريّة في اللّسانيّات عند علماء الغرب . ولعلّ ذلك راجع إلى جهل بالتُّراث العربيّ من ناحية وتأخّرٍ في الإسهام العربيّ الحديث من ناحية أخرى ، وكان أن عوّض ذلك الفراغَ جيلُ المنشغلين بالقراءة والحداثَة فنهلوا من المعارف اللّسانيّة المعاصرة وكان فضلهم أن نفضوا الغبار المتراكم على مباحث تبيّنَ أنّها « معاصرة » في بعض جوانبها و « قَديمَة » في بعضها الآخر . ومثّل هذا النّهج منفذًا لكلّ نظريّة غربيّة تسعى إلى إدراك الخصائص الكونيّة للكَلام البشريّ منفذًا يمكّنها من روز مدى صحّة مبادئها . وشمل ذلك مجالات عديدة مَثَّل النّحو أهمَّهَا . والنحّو العربيّ مجال خصب لمختلف التّطبيقات وهو في حاجَة إلى أن يوصفَ وصفا ينبع من بنية اللّغة العربيّة فيصدر عنها متولّدًا منها دون أن

يكون المنهج في ذلك تلقيًا قد ترفضه الحصانة الذّاتيّة فيها . والدراسات * كثيرة مختلفة في مناهجها ومواضيعها وتواريخها .

ومن جملة هذه الدراسات سلسلة نشرها أحمد المتوكّل وتتعلّق بالنّحو الوظيفي بغضها مجموع في كتُب وبعضها مقالات متفرّقة . وقد جمع المتوكّل في كتابه « دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوَظيفيّ » عددًا من الأبحاث تختلف في موضوعاتها ولكن « القضايا التي تعرض لها معالجَة في إطار نظريّ وَاحد ، إطار النّحو الوطيفيّ » (1) .

وقد جعله قسمين :

- المدخل : بسط فيه مبادىء النحو الوظيفي (13 ص) .
- الدراسات : ونتوزّعها ثلاثة أجزاء .

1) بحث في الرتبة في اللّغة العربيّة ومركزها « الفاعل » (70 ص) .
2) معالجة لقضيّة القوّة الإنجازيّة في اللّغة وكيفيّة التّمثيل لها في النَّحْو (32 ص) .
3) دراسة لظاهرة الاستفهام والعطف (100 ص) .

وقد احتوى المدخل على المبادىء الأساسيّة التي يقوم عليها النّحو الوظيفيّ . وهو اتّجاه في الدراسة التّركيبيّة تتّصل جذوره باللّسانيّات الوظيفية ، ويعتبر أنّ اللّغة « أداة في التّفاعل الاجتماعيّ عن طريق وسائل يتمكّن بها البشر من التّواصل ، وتبعًا لذلك يتمكّن بعضهم من التأثير في نشاط بعضهم

* نذكر على سبيل المثال : ميشال زكريا : الألسنيّة التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربيّة . الفاسي الفهري : اللسانيات واللغة العربيّة .

(1) دراسات . . . ص 5

الآخر ، فكريًا ومادّيًا » (2) ومن أعلام هذا الاتجاه البارزين سيمون دِكْ وهو صاحب دراسات كثيرة في وضع أُسُسِ هذا النّحو وبلورتها .

وقد شغل هذا المدخل قِسمًا خاصّا به في ظاهرِ الأمر ولكنّه امتدّ على قسمٍ كبير من الجزء الأوّل : « من قضايا الرّتبة . . . » هو « معالِم الإطار النّظريّ » (ص ص 26 ـ 44) حيث لخَّص صاحب البحث مبادىء النحو الوَظِيفِيّ وشغل ذلك عددًا من الصَّفحات يقارب عدد صفحاتِ المَدْخَل . وهذا المَدْخَل بنَصِّه وصفحاتِهِ مثْبَتٌ كذلك في كتابٍ آخر للمؤلّف نفسه يحيل عليه من حين لآخر (3) .

وقبل أن نعرض إلى مضمون هذه المداخل فإن ورودها بهذه الطَّريقة يستدعي عددًا من الملاحظات . أوّلها أنّ النّصّ نفسه على ما فيه من عُسر الفَهم وهو عسر لا يعود في حقيقة الأمر إلى تعقيد في مقولات النّحو الوظيفيّ ولكن إلى طبيعة الأسلوب أو الكلام الذي عُرِضَت فيه .

ولعلها أسهَل مَنالاً في لغتها الأصليّة . ذلك أن القارىء يجد نفسَه في هذا المدخَل أمام كلماتٍ تجري في اصطلاح غريب يعسر إدراكه وتراكيب يصعب فهمها . **فإذا غربته غربتان والثّانية لغويّة اصطلاحيّة تجعل دخوله هذا العالم صعبًا .**

وهذا أمر كان يمكن اجتنابه في رأينا بطريقتين على الأقلّ :

الأولى وتتّصل بالفارق الزّمني بين نشر الكتابين وهي سنة كافية لصياغة أوضح ، لأنّ الوضُوح والبساطة لا ينفيان الثّراء النّظريَّ من ناحية ومن ناحية

---

(2) Functional Grammar-Dik ص 1 .
1980 — 245 p.

(3) الوظائف التداولية في اللغة العربيّة .
المتوكّل ـ در الثقافة ـ 1985 . 192 ص .

أخرى يفتحان الباب واسِعًا أمام القرّاء . أمّا الثانية فمنهجيّة تتّصل بالكتاب ـ موضوع هذا التقديم ـ ذلك أنّ صاحبه يملك إمكانيّة التبسّط أو التّوسّع في عرض الأسس النّظريّة بحكم عدد الصّفحات التي شَغلتها نفس المبادىء معادة بنصِّها وبنفس الأمثلة غالبا ونفس الأشكال أو الرّسوم البيَانيّة . وكان يمكن استغلال ذلك لجعل المدخل أوضح ممّا هو عليه وضمان قدر أكبر من التأليف والانسجام بين أطراف الكتاب ولعلّه من المقرّر أنّ كلّ باحث يملك رصيدًا قارًّا وثابتا في فكره ، لا مناص من تواتره عنده في بحوثه المختلفة ولكنّه تواتر يقتضيه دور ذلك الرَّصيد في توضيح نقطةٍ مّا من بحثِهِ . ولكن إعادته بنصّه في موضِعَين متتابعين من الكتاب الواحدِ فغير مستحَبّ في بحثٍ طرافَتُه في أنَّهُ يعِدُ بالإِثْرَاءِ وفتح النّوافذ الجديدَة .

ومثل هذا المقام لا يتّسع لتقديم جميع ما يتعلّق بالنّحو الوَظيفيّ ، فالعودة ممكنة إلى مظَانّ ذلك ، ولكن هذا الأمر لا يمنعنا من إعطاء تصوّر هذا النّحو لبناء الكلامِ بصورة مقتضبة وإن كان كل تلخيص إخلالاً .

يمرّ الكلام حسب النحو الوظيفي بثلاثة أطوار كُبْرَى هي : « الخَزينة » Fund (ونقترح « خزينة » عوض « الأساس » الواردة عند المتوكّل) وهي عبارة عن رصيد اللّغة من الألفاظِ الدّالّة على الذّواتِ أو الصّفَاتِ أو العلاقاتِ .

والطّور الثاني هو « التّأليف » بين بعض العناصر في ذلك الرّصيد ، وهو طور تجريديّ تتهيَّأ فيه تلك الوحدات الى أخذ « شكل لُغَوِيّ » في الطّور الثّالث وهو « طور التّعبير » . وبين « الخزينة » و « التّأليف » تتوسّط قواعد التّأليف ، وبين « التّأليف » و « التّعبير » تتوسّط قواعد التّعبير .

فالطور الأوّل يقوم على بنية حمليّةٍ ، عناصرها حاضرة في ذهنِ المتكلّم بالقُوّةِ وهو يستعملها عند الحاجَة من قبيل أسماءِ الموجوداتِ أو الذّواتِ ، وما يتعلّق بها من صفاتٍ . وكل عنصر منها يُمكنه نظريًا أن يقومَ بِدور مّا كأن يكونَ

محدِثًا لفعلٍ مًا متَحّملاً له ، أو مستفيدًا منهُ أو إطارًا لهُ ، وتشترط فيه صفات حسب طبيعة الدّور الذي يَقُوم به :

فمثلا : ج (1) قرأ محمّد النَّصّ .

تحتمل « محمَّد » حيٌّ ، عاقِل ، مُحْدِثٌ لفعل القراءة .

وتحتمل « النّصّ » سِماتٍ أخرى هو موضوع القراءة وهو مُتَحمّلُهَا .

فكان دور كل واحد منهما وفق خصائصهِ ويتم التّأليف على ضوء تلك السّماتِ فتسند إلى كل مكوِّنٍ وظيفَةٌ تركيبية « الفاعل » و « المفعول » وهي ما تؤدّيه وسائل التّعبير التي يحملها المكوّن مثل علامات الإعراب أو الرتبة أو غيرهما . وقد سمّي هذا النّحو بالوظيفيّ لاتّصاله بالنّظرة الوظيفيّة إلى اللّغة عُموما وخاصّة لما يوليه من أهميّة بالغة لمفهوم الوظائف أو العلاقات في الكلام البشريّ (4) .

وهذه الوظائف ثلاثة مستويات :

1 ـ الوظائف الدّلاليّة : حيث يكون المكوّن محدثا أو مستهدفا أو مستفيدا .

2 ـ الوظائف التّركيبيّة : الفاعل والمفعول .

3 ـ الوظائف التّداوليّة : وتتّصل بالمقام وهي قسمان : أ ـ يتّصل بما هو خارج الملفوظ حيث يحمل المكوّن الذي يحيل على مجال الملفوظ وعالمه وظيفة « المبتدإ » [Theme] . ويحمل المكوّن الذي يرِد للتّحوير أو الزّيادة في الإيضاح أو اكتمال الإخبار وظيفة « الذّيْلِ » [Tail] (5) .

(4) Functional Gr. — Dik ص 3 .

(5) Dikص 16 ودراسات ... ص 16 .

ويجعل دِك المبتدَأ أوّلا يليه الملفوظ حامل الحكم ثم بعدَه الذّيْل . فمَثَلاً :

ج (2) : أما التّجارَةُ ، ففاشل فيها ، يا له من مسكين ،

ج (3) فَهْمُهُ صَعْبٌ ، الدَّرسُ .

فَلَفظ « التّجارة » يمثّل المجال الذي يتعلّق به الحكم فهو « مبتدَأ » . ولفظ « الدّرس » يمثّل توضيحا فهو « ذيل » وكذلك « يالَهُ من مسْكِين » لبيانها مَوْقِفًا . وقد توسّع المتوكّل في دراسة هذه الوظائف في كتابه « الوظائف التّداولية . . . » .

ب ـ أما القسم الثاني فيتّصل بمكوّنات الحكم نَفْسِه : فالمكوّن الذي يُخْبِر عنه المتكلّم يحمل وظيفَة « المحور » [Topic] ، أمّا المكوّن الذي يحظى بالعناية أكثر من غيره وهو محطّ الاهتمام فيحمل وظيفة البُؤرَة [Focus] .

والوظائف التّداوليّة أساسها التّفاعُل بين طرفي الخطاب في المقام ، ولكلّ لغة طرُقُها في بيان كل وظيفة منْهَا وتسْطِيرهَا مثل التّنغيم والمْوقع في فَضاء الخِطاب . وقد اقترح المتوكّل إضافة وظيفة المنَادَى إلى « المبتدأ » و « الذّيل » (خصّص لها فَصْلاً كاملا مع الوظيفتين الأخرين في كتابه « الوظائف التّداوليّة » ص ص 160 ـ 177) .

وبعد مرور المكوّنات بالأطوار الثلاثة تكتمل خطابا قائما تتطابق فيه تلك السّمات والوظائف في بناءٍ كلّيّ واحدٍ .

ج (5) : شرب زيد شايا اليومَ في المَقْهى (6) .

تحليلها :

شرب : فعل ماض ـ زَيْدٌ : منفذ فاعل محور (رفع) ـ شاي : متقبل

---

(6) دراسات ـ ص 18 .

مفعول بؤرة (نصب) ـ اليوم : زمان (نصب) ـ في المقهى : مكان (نصب) .

وهذا العرض يبيّن الوظائف المتّصلة بالدلالة والتركيب والتّداول وما يقابلها من علامات الإعراب أو حالاته . وهو عرض استغنينا فيه عن تفاصيل أخرى رأينا أنّ شرحَهَا يَطُولُ . وقد فصّل فيها سيمون دِك القول في أكثر من كتاب وأوردها المتوكّل في كتابيه المذكورين .

وخصّص أحمد المتوكّل الفصل الأوّل من الجزء الأوّل لدراسة قضيّة الفاعل من وجهة النحو الوظيفيّ ، في اللّغة العربيّة . ويتمّ توزيع وظيفتي « الفاعل » و « المفعول » حسب زاوية النّظر التي تغلب على الملفوظ فما كان بارزا من عناصره مثل المنظور الرّئيسيّ وحاز وظيفة الفاعل ، وما مَثَّلَ المنظور الثّانويّ حاز وظيفَة المفعُول .

ففي ج (7) : ضرب زيدٌ هندًا .

يمثّل زيد منظورا رئيسيا لأن الحدث نُقِل من زاويته هو فكان فاعلاً ، ومثلت « هند » منظورًا ثانويًّا فكانت مفعولاً . وهي نفسها تحمل وظيفة الفاعل عندما تمثل منظورًا رئيسيًا في ج (8) : « ضُرِبَتْ هِنْدُ » ، لأن الحدث نقل من زاويتها هي .

وبحث المتوكّل في وجود وظيفة الفاعل بمفهومها في النّحو الوظيفيّ ، في العربيّة وتوصّل الى تقريرها في نوعين من الإسناد : الى المعلوم حيث يتوفّر الفاعل المنَفِّذُ ، وإلى المجهول عند غياب الفاعل حيث يحلّ محلّه أحد المفاعيل فيأخذ موقعَه وعلامَتَه ويشكّل بذلك منظورًا رئيسيًّا . وأجرى سُلّمًا أو ترتيبا بين المكوّنات الحامِلَة للوظائف الدّلاليّة (منفّذ ـ متقبّل ـ مستفيد ـ الخ) في حمل الوظيفة التّركيبية الفاعِل وجمع في ذلك بين النّحو الوَظيفيّ وآراء النّحاة العرب في مبحث نائب الفاعل خاصّة .

ولعلّ إسناد وظيفة الفاعل التي يحملها المكوّن المنفّذُ الى ما ينوب عنه من المتمِّمَات في الجملة ، وهي متمِّمات دورها الدَّلاليّ : مستفيد ، متقبّل أو مكان . أو حدث الخ . ممّا يستوجب مراجَعة الرّبط بين البنية الدّلاليَّة وقواعد التّعبير . فالرّفع يحمله المكوّن صاحب وظائف المنَفّذ والفاعِل والمحور والنّصب يحمله المكوّن صاحب وظائف المتقبّل والمفعول أو المكان والزّمان . وربط المتوكّل في هذا السّياق إسناد الحالات الإعرابيَّة المجرّدة (الرفع والنّصب) بمُقتضى الوظائف الدّلاليّة أو التّركيبيّة أو التّداوليَّة (ص 31) . وهذا الرَّبط مقترن بتوفّر جميع العناصر التي يقوم عليها الحدَثُ وتَكتَمل بها الجملة . فالجملة بناء أساسه توفّر ما يشغل حيّزيْن أساسيّين هما الفعل (المسند) والفاعل (المسند إليه) فإذا غاب الفاعل عوَّضهُ أقرب العناصر إليه . ولذلك لا تَستقيم :

ج (9) : أشْتُري لمحمّدٍ حَقِيبَةً ، (بالنّصب) . لأن حقيبَة هي « المتَقَبّل » المباشر لفعلِ الشّراء لذلك وجب أن تحمل الرَّفْعَ أي وظيفة الفاعل في حال غيَابِ المنَفّذِ إذ تمثّل بغيابه منظورًا رئيسيًا ، فيصحّ :

ج (9 ـ أ) : أشْتُرِيَتْ حَقِيبَةٌ لمحمَّدٍ .

كلّ ذلك يجري حسب « سلّميّة إسناد الوظيفة : الفاعل » (ص 38) .

وتوصّل المؤلّف إلى أنّ مرتبَةَ الفاعل بعد الفعل ، وهو إقرار لحقيقة معروفةٍ يقوم على أساسِها التّمييز بين نوعين من الجمل : الاسميّة والفعليَّة . وههنا تُثَار قضيّة تتّصل بوجهين من هذا البحث :

ـ الأوّل وهو اصطلاحيٌّ حيث يستعمل المتوكّل « المبتدأ » و « الفاعل » وهما لفظان يحملان وراءهُما بناءً نظريًا كامِلًا له فلسفَته ومنْهَجه ، يستعملها للدَّلالَة على ما وفعاله حينا وعلى غيره حينا آخَرَ .

ـ الثاني ويقام على الأوّل ، ولعله يبقى سؤالا مطروحًا : ما مصير تقسيم الجمل إلى اسميّة وفعليّة ، في النحو الوظيفيّ .

ذلك أنَّ المتوكِّل يتحدّث عن « المبتدإ » في جملة من قبيل : « **زيد أبوه مريض** » وهو في ذلك موافق للتّحليل المعهُود ، وعن « **الفاعل** » في جملة من قبيل : « **عمرو قَائم** » (ص 56) . وعن « **الفاعل** » في الجمل التي أسماها بالرّابطية وهي المقترنَة بالنّواسخ . والحاصل من ذلك أنَّ القارىء قد تتَداخل عنده الأُمور لا من حيث المعلومات أو المبادىء ، بل من حيث المصْطلَحاتُ التي تمثل أهمّ الركائز التي تدعّم نهجًا أو تهدمُه . ومن وراءِ ذلك ننتظر تصوّرًا شاملا للنّحو الوظيفيّ في اللّغة العربيّة وهو عمل ذو نفس طويلٍ تتحقّق به غايتان سعى إليهما المتوكّل في كتابه هما إثراء اللّغة العربيّة و « تطعيم النّحو الوظيفيّ » .

ثم يعرض المتوكّل في الفصل الثّاني من الجزء الأوّل إلى قضيّة التّرتيب في عناصر الجملة وخاصّة ظَاهرة الفصل بين الفعل وفاعلِهِ بالمفعولِ : وعرض خلال ذلك ثلاثة وجوه في تحليل الظّاهرةِ .

الأوّل ما أسماه بفرضيّة « الذّيل » وينبع من تحليل سيمون دِك في النّحو الوظيفيّ ، وأساس ترتيب العناصر فيه هو إسناد وظيفة الفاعل لما شكّل منظورا رئيسيا في الكلام ووظيفة المفعول لما شكّل منظورا ثانويًا . ولذلك يسبق الفاعل المفعُول في جميع اللّغات مهما اختلفت أنماط التّرتيب فيها : (فعل فاعل مفعول ـ فاعل فعل مفعول ـ فاعل مفعول فعل) ويعتبر دِكْ في حال :

ج (10) : شرب الشّايَ خالِد . أنَّ شَرِبَ تحمل علامةً أو ضميرًا هو فاعل وبعدها يرد المفعول « الشايَ » و « خَالِدٌ » مكَوِّنٌ يحيل على ما يحيل عليه الضَّمير المتّصل بالفعل « شربَ » . وهو لذلك يحمِل وظيفةَ « الذّيْل » .

ويصل المتوكّل بعد تحليل جُمَلٍ صحيحةٍ وأخرى لاحنة إلى أنّ نظريّة دِك هذه لا تنطبق على الجمل التي من قبيل ج (10) لأنها من قبيل : فعل مفعول ـ فاعل ، وانّما تنطبق على جمل من نمط :

ج (11) : قابلا عمرًا ، صديقَاهُ . حيث تمثّل « صديقاه » مظهرا من مظاهر اللَّحن ويمكن حذفها دون إخلال بالتّركيب وهي لذلك تمثّل ذيْلًا ولكن هل يفترض تطبيق منهج في الوصف على لغةٍ ما وضع جُمَل لاحِنَةٍ حتّى يطابقَها ذاك المنْهَجُ . وإن أشار المتوكّل إلى لحن الجمل التي صاغَها (ص 66 ـ 67 ـ 68 ـ 69) فإنّه ـ في رأينا ـ غير مطالب بذلك ، فالمعتمد هو الموجود في الاستعمال . وإن كان اللّسانيّون يعمدون إلى صُنعِ جُمَل لاحنَةٍ فلكي يُبيِّنُوا عن طريقها استقامة ما يدافعون عنه ، ولكنّهم لم يَصْنَعُوها لكي يجعلوا منها نموذجا يطابق نمطًا في الوصْفِ والتّحليل مستعارًا من منهَجٍ آخر أو غير ذلك . ولذلك يحسن الاكتفاء بالإشارة إلى أنّ فرضيّة الذّيْل لا تطابق بناء الجملة العربيّة القائمة على تقديم متمّم على الفاعل عوض أن نقول إنّها تطابق تركيبا لاحِنا من قبيل « بعثوا ملفّاتِهم الطّلَبَة » ، إذ لا يجوز الإضمار قبل الإظهار (وذاك ما توصّل إليه المتوكّل في ص 70) .

ثمّ يورد المتوكّل « فرضيّة الخفْقِ » [Scrambling] وينسبها إلى عبد القادر الفاسي الفهري ، ويعتبر صاحبها أنّ تَقديم المفعُول على الفاعِل متولّد عن تطبيق قاعدَةٍ أسْلُوبيَّة ولا يبدِّل من بناء الجُملَةِ المنطقيّ .

أمّا « فَرضيَّة المحوَر » ، والتسمية للمتوكّل فالمبدأ فيها للجرجاني وهو من القلائل الذّين درسوا ظاهرة التقديم دراسة شافيَة ، وهو يرى أنّ التّقديم بيان الأهَمِّ وهذه الفكرة تترجم في النحو الوظيفيّ بوظيفة « المحور » التي يحملها المُكون محطّ العنايَة والاهتمام . وذاك هو شرط وروده بين الفعل والفَاعل . (ج 10) .

والحاصل من كلّ ذلك أنّ في فرضيّة « المحور » ينسجم عدد من الوظائف الدّلالية والتّركيبيّة والتّداوليّة وذاك مَا جعَلَهَا أصلحَ من غيرهَا لتفسير ظاهرة التّقديم . وفيها برزت فائدة الرّبط بين الموروث اللّسانيّ العربيّ وواحد من مبادىء النّحو الوظيفيّ فلا نحسّ نشازًا أو تَلْقيمًا .

وفي هذا الفصل تظافرَت عناصر عديدة تجعل من دراسة ظاهرة التّقديم مفيدَة تقوم على أُسُسٍ موطنها خارج الملفوظ هي التّفاعل بين طرفي الخِطابِ فزاوية النّظر ومحطّ الاهتمام الخ ، وكلّها معادلات تقوم على ذلك التّفَاعُلِ .

ويعرض المؤلّف في الجزء الثّاني من الكتابِ الى القوّة الإنجازيّة (illocutionary force) في صلتها بالنَّحْو ، وجعله فصلين تضمّن الأوّل منها « اقتراحات من الفكر اللّغويّ العربيّ القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواريّ (Conversational implicature) وهي ظاهرة تَتّصل بمنهج كامِل في البحث اللّساني المعاصر نشأ متّصلا بالفلسفة ثم استقلّ عنها ويدرس الدّلالة التّداوليّة أو التّعامليّة (البراجماتيّة) في الكَلَام . وحاول المتوكّل النّظر في قَضِيّتين من خلال اقتراحات حديثة غربيَّة (جرايس - سورل - جوردن ولاكوف) وأخرى من التّراث العربيّ (السّكّاكي في مفتاحِهِ) حيث يرتبط المعنى التَّداوُليّ بالإنشاء عمُومًا والطّلب خصوصًا . وتَانك القضيتان هما : كيفيّة الانتقال من المعنى اللَّفظِي الى المعنى التّداوُليّ ، ثمّ كيفيّة ضبط المعنى المنتقل إليه في جمل من قبيل : ج (12) . هل تستطيع أن تناوِلني الملْحَ ؟ » .

حيث ينتقل المعنى من الاستفهام إلى إنجاز الفعل موضُوع الطَّلب .

ونظر صاحب البحث في كلّ تلك الاقتراحَاتِ وتوصّل إلى أنَّ اقتراحات السّكّاكِي أدقّ وتتميّز بما أسماه « القدرة التّنبُّؤيّة » . وهي دقيقة لأنّها اقتصرت على الجمل الطَّلبيَّة دون غيْرِهَا . وهي إذ تضْبط الخروج في الكَلام عن المعْنى

الأَصليّ إلى معنى تداوليّ تحتَوي على ما يُنبِيء بالانتقال القَطْعِيّ من الأوَّلِ إلى الثّانِي .

أمَّا ضبط المعنَى التّداوليّ المتَولّد فَمعلمه غير واضح عند سورل وجرايس حسب المتَوكّل ، ولذلك اعتمد ما رأى فيه إرهاصات لهذا العمل عند السّكّاكِي . وأقام عليها تَعْميما نصُّه : « تنتقل الجملة من الدَّلالَة على معناها الأصليّ (س) إلى معنى آخر (ص) بالانتقال خرقًا ، من أحد شروط إجراء (س) إلى مَا يقَابِله من شروط إجرَاء (ص) » . وهذا التّعميم يمثّل نواةً تُصاغ على ضَوئها تعميمَاتٌ أخرى تتّصل بِنوعِ كلّ جملَة .

وأورد المتَوكِّلُ مبدأ هامًا في نظرِنا على ضوئه يتّضح جانب هامّ في هذه القَضيّة . أورده في الهَامِشِ فلم يوله العناية الكافِيَة هو « مبدأُ العرف » (ص 103) . حيث يتولَّد المعنى التّداوُلِيّ آنيًّا في السّيَاقِ ولكنّه يتّصل زمانيًّا بالمدلول القَارّ أو الأصليّ في الجُملَة . وهذا العرف يقتضي من طرفي التّواصُل الانتماءَ إلى المجال الثّقافِيّ الاجتماعيّ انتِماءً لغويًّا أو مَعرفيًّا على الأقلّ . فالمفهوم من ج (12) طلب إنجاز الفعل أي إجابة كلامٍ بحركَةٍ وحدَثٍ ولَيْس إجابة كلام بكلامٍ . فهذا هو سِرّ التّحوّلِ من الاستفهام الظّاهِرومقتضاه جواب بنعم أولا ، إلى التماس في الباطن وجواب بإنجاز الحركة (نعم) أو بعدم إنجازها (لا) .

ويمثّل الفصل الثّانِي من هذا الجزء بحثا في كيفيّة التّمثيل للقوّة الإنجازيّة داخل النّحو ، وفي العلاقة بين المفهوم الحرفيّ للكَلام والمفهوم التّداوليّ الصّادر عنه (ص 106) . ثم عَرَضَ لبعض الحلول المقترَحةِ في نظريّات مختلفة كالنّحو التّوليدي التّحويليّ ونظريّة الدلالة التّحويليّة والنّحو الوَظيفِي . وتبيّن له نقصها أو قصورها فاقترح خلال دراسة الطلب (الاستفهام الصّريح والدّال على

الالتمَاسِ خاصَّة) طريقة التّمثيل لهذه القوّة الإنجازيّة باعتماد قَواعد إدماج « هل » و« الهمزَة » . (ص 122 ـ 123) .

وخصّص المتوكّل الجزء الثّالث من الكتاب لدراسة قَضِيّتَي الاستفهام والعطف . وأجمل في خاتمة الفصل الأوّل منه خصائص الجمل الاستفهاميَّة من منظور النّحو الوَظيفِيّ حيث ربط أساليب الاستفهام وأدواته بنوع البؤرَة التي تسند الى المكوّن موضوع الاستفهَام . والبؤرة كما سبق ، عمادها المقَام ومجالها العُنْصر الذي يَحظى بالعنايَة ضمن عناصر التَّركيبِ . وقد فرّع المتوكِّلُ البؤرة الى نوْعين اقترح إضافتهما الى النحو الوَظِيفِي :

ـ بؤرة الجديد : ويحملها العنصرُ الذي يُضيف قِسطا جديدًا في الإخبار أو المعْلُومَات وهي موضوع الاستفهام : س : من قابَلْتَ ؟ ج : قابَلْتُ محمَّدًا .

واللّغة العربيّةُ تسْتَعمل في ذلك أسماء الاستفهَام .

ـ بؤرة المقَابلَة : يحملها عنصر هو موضوع شَكٍّ أوْ تردُّدٍ ، ووَرَد الكلام لإثْبَاتِهِ :

س : أعاد صالح البارحَة ؟

ج : اليومَ عَاد صالح (ص 30) .

ومواقع بؤرة الجديد تتوزّعها جميع المواقع التي يمكن أن يشغلها المكوِّن في فضاء الجملة : فاعل مفعول الخ . وقد نظر المتوكّل في هذه القضيّة في العربيّة عاميّها وفصيحها (اللهجة المغربية مثلا وإن استعمل هو « اللغة المغربيّة » (ص 141) . وقد وصل إلى إقرار جملة من المبادىء جلُّها مألوفُ ولكن طرافة عمل المتوكّل تتمثّل في الربط بين محطّ الاهتمام (البؤرة) وموقع حر في الاستفهام أو أسمائه وكذلك بمدلول الجملة كلها . ويمثل هذا الفصل في هذه النقطة امتداد لقضيّة طرحها المتوكل في الفصل الأخير من الجزء السابق تتعلق بمبدإ الاستلزام

الحواريّ حيث درس دلالة الاستفهام الظاهر على الالتماس بحكم عناصر المقام ، وضرورة التمثيل لذلك في التحليل النحويّ (انظر على سبيل المثال ص 171) .

أمّا العطف فقد انطلق صاحب البحث في دراسته من تساؤلين الأوّل في طبيعة المكوّنات التي بعطف بعضها على بعض والثاني في القوانين والقيود الحاكمة للعطف ثم كيفية التمثيل لها في النحو . وتمكن الإشارة ها هنا إلى أنّ المتوكل جعل من جملة هموميه خلال دراساته ضبط صيغ ما أسماه بالتّمثيل . وهي غاية تمثّل في ذاتها طورا عاليا من التجريد يفارق فيه الدَّارس بمنهجه الشتات النَّوعِيَّ المنتَشر إلى الشّكل المجرَّدِ الجامِع في ذاتِ الوَقْت ، ولذلك حاول المتَوكّل أن يَصُوغَ مجموعة من القواعِدِ في كلّ فصل ضبط لها رسُومًا وأشكالا تمثّل تأسيسا أو إضافَة لما لم يستكمل في النّحو الوَظيفيّ . وهذا باب ذو اتّجاهَين ، الأوّل يدخل منه النحو الوَظيفيّ مجال اللّغة العربيّة بالوصف والتَّحليل ، والثّاني إضافة إلى ذلك النحو نَفْسه خصوصًا والبحث اللّغويّ عمومًا إضافة رافدٍ يمكن أن يطعّمَه بخصائص الكلام العربيّ بمفاهيمه القديمة والحديثة . وهذا التّطعيم المزدوج إن صحّ التّعبير جسرهُ الألفاظ الحامِلَة لتلك المفاهيم ذهابا وإيّابا ، هي المصطلحاتُ .

وقضيّة الاصطلاح دون شَكّ قضيّة شائكة مضْنِيَة في عصر تضيق فيه الاختصاصَاتُ أكثَر وتتعدّد المفَاهِيم وتتداخَل والألفاظ تبَع لها في ذلك . وما نلاحظه عند المتوكّل من « تحرُّر » في مستوى التّركيب والاصطلاح أمر ذو وجهين : الأوّل وهو إيجابيٌّ إذ يمثل هذا التّحرُّر ينعتق البَاحِث ومن ورائه اللّغة من قيود المعاني أو المفاهيم الأوّليّة القَديمة التي ركبت وحدات اللّغة ، وهيَ وحدات يطغَى عليها الجانب الاستعمَاليّ العاديُّ أو الاصطلاحيُّ القَديمُ . وهذا الوجه يمكّن من توسيع رصيد اللّغة الاصطلاحي .

أما الثّاني فيتعلّق بنظام الاصطلاح ، فاذا كانت هذه القضيّة غير محكومَةٍ بضوابط ، كانت مدخَلًا للاضطراب والخَلْط لا عِند صاحبها بل عند القُرَّاء ، إذ من المعروف أنّ المتكَلّم أو الكَاتِب يعرف كل شيءعن موضوع كَلاَمِهِ أما السّامع فيجهل كلّ شيْء عَنه ، وأنَّ الاشتراك الدّلالي يكون من زاوية هذا دون ذاك .

والحلّ يكمن في التّوازن بين النّزعَتَين . و « دراسات . . . » المتوكّل طافحة بالأمْثِلة تذكر منها :

1 ـ وظيفة المبتدإ والفاعل وقد سبقت الاشارة إليهما .

2 ـ « الأفعال المعرفيّة » (ص 165) وهي ترجمة لمصطلح [Epistemic verbs] وتشمل : علم ، وجد ، رأي . . . والحال أن التّسمية القديمة صَالحَة في هذه الحالة : « أَفعال القُلُوبِ ، أو الظّن واليَقين » . ولئن مَثّل المصطلح المعرّبُ إضافَةً لا ضَير فِيهَا فإنّه يرادف مصطلحًا آخَرَ ، وفي ذلك مسَاس بمردود الرَّصيد الاصطلاحيّ .

3 ـ « التَّحَاوُل [Coreference] : يصعب في بادىء الأمر فصل هذه الكلمة عن معنَاها المستفاد من صيغة « حَاوَل » بمعنى جَرَّبَ أو سَعَى الى تحقيق شيء مّا . ثمّ إنّ أحَالَ « أحالةً » تقابل جزءًا من المصطلح الأعجمي [reference] أما صيغة المشاركةَ « تَفَاعل » [co] فتحيل القارىء مباشرة على معنى المحاولَة ولا يقفز إلى ذهنه المعنى المراد والمفهُوم من مقابِلها .

4 ـ في سلسلة الوظائف الدّلاليَّة نجد : « مَتَقبّل » وهي مقابل (Goal) عند دِك . ولعله يحسن تعويضها بمستهدف لأن متقبّل مَحْضها الاستعمال لمن يقوِم بالتّلَقّي في نظرية التّواصل .

5 ـ بعض الاستعمالات طريف ومقبول يمكن أن يجد حظّه في الاستعْمَال وهو يُمَثّل أغْلبَ المصطلحاتِ الواردة في الكتاب . لكن البعض الآخر يُثير تَسَاؤلاً ، من قبيل :

ـ المحاقَلَة (ص 40) حيث وردت في سياق لِتُفيد توارد عنصرين أو أكثر في مجال أو حقل وَاحِدٍ .

ـ ورد في ص 96 لفظ « مُصَوّرة » نعتًا لقواعِد ، ولعلّها « مُصَوّرة » والنّور خطأ مطبَعيٌّ ، حيث يَتواتر هذا النوع من الأخطاء خاصّة في أشكال التّمثيل للجُمَل ويزيد في خطرها أنّها تتسربّ إلى رموز هي جزء من كلمة : (ص 16 : (س 2 : شاي (س 12) . متف. مف (عول) .

والصّواب متق اذ يعني بها المؤلّف مُتَقبِّل وهي وظيفة دلاليَّة يحملها المكوّن شاي الوارد في موقع (س 2) .

ـ الحَائِل (ص 39) : زيد فَرِحٌ ، زيد حائل أي تتعلّق به الحالة أو هو حاملها . فهو لفظ معناه المتغيّر من حالة إلى أُخْرى أو يطلق على الأنثى التّي لا تحمِل .

ومثل هذه الأمثلة تجعل فهم الكتاب عسيرًا ويزيد في ذلك غياب ثبتٍ للمصطلحاتِ وهي عادة درجت عليها مثل هذه الدّراسات .

على أنّ هذا لا يمثّل طعنا في قيمة الكِتَابِ ولعلّ فضله يكمن في ما سبق ذكره من فتح النّوافذ وإعادة النّظر في المألوف بوسائل جديدَة تُبرز ما لا تبلغه الوسائل المألوفة .

الأزهـر الزّنّـاد